

ماريو بارغاس يوسا

قصة مابتا

رواية

علي فولا

ترجمة: صالح علما



٤٠ -
١٤٢٤هـ

قصة مایتا



Author : Mario Vargas Llosa
Title : Historia de Mayta
Translator : Saleh Almani
Al- Mada : P.C.
First Edition : 2009
Copyright © Al- Mada

اسم المؤلف : ماريو بارغاس يوسا
عنوان الكتاب : قصة مايتا
ترجمة : صالح علمني
الناشر : المدى
الطبعة الأولى : ٢٠٠٩
الحقوق محفوظة

دار المدى للثقافة والنشر

سوريا - دمشق ص.ب. : ٨٢٧٢ او ٧٣٦٦ - تلفون: ٢٣٢٢٢٧٥ - فاكس: ٢٣٢٢٢٧٦ - ٢٣٢٢٢٨٩

Al Mada Publishing Company F.K.A. - Damascus - Syria
P.O.Box . : 8272 or 7366 .-Tel: 2322275 - 2322276 , Fax: 2322289
www.almadahouse.com E-mail:al-madahouse@net.sy

بيروت-الحمرا-شارع ليون-بنية منصور-الطابق الأول - تلفاكس: ٧٥٢٦١٦ - ٧٥٢٦١٧
E-mail:al-madahouse@idm.net.lb

بغداد- أبو نواس- محلة ١٠٢- زقاق ١٣- بناء ١٤١
مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون
E-mail:almada112@yahoo.com

لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب أو تخزين أي مادة بطريقة الاسترجاع ، أو
نقله ، على أي نحو ، أو بأي طريقة سواء كانت الكترونية أو ميكانيكية ، أو
بالتصوير ، أو بالتسجيل أو خلاف ذلك ، إلا بموافقة كتابية من الناشر ومقدماً .

All rights reserved. Not part of this publication may be reproduced
stored in a retrieval system , or transmitted in any form or by any
means ; electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise,
without the prior permission in writing of the publisher.

ماريو بارغاس يوسا

قصة حايتها

رواية

ترجمة صالح علما



الفصل الأول

الجري في الصباح على كورنيش بارانكو، حين تكون رطوبة الليل لا تزال تضمخ الهواء، وتكون الdroob زلقة وبراقة، هو طريقة جيدة لبدء النهار. السماء رمادية حتى في الصيف، فالشمس لا تظهر أبداً فوق الحي قبل الساعة العاشرة، ويشوش الضباب حدود الأشياء وهيئة النوارس والبعجعات التي تحلق مجتازة خط وهدة الساحل المتكسر. البحر يبدو رصاصياً، أخضر قاتماً، مدخناً، جامحاً، فيه لطخات من الزيد وأمواج تتقدم نحو الشاطئ تفصل بينها مسافات متساوية، قد يتراجع أحياناً زورق صيادين بين التموجات؛ وتزيح ضربة ريح الغيوم في أحياناً أخرى فتظهر من بعيد لابونت وجزر سان لورينثو الترابية والفرونتون. إنه منظر جميل، شريطة تركيز البصر على عناصر الطبيعة والطيور. لأن ما صنعه البشر بالمقابل، قبيح.

قبحة هذه البيوت.. إنها تقليد لتقليد آخر، الخوف يخنقها بشباك حديدية، بجدران، بصفارات إنذار وأنوار كاشفة. وهوائيات التلفزيون تشكل غابة شبحية. قبحة هذه القمامنة التي تترافق وراء حافة الكورنيش وتتبادر في الوهدة. ما الذي جعل المزابل تتباشق في هذا المكان من المدينة، المكان الأفضل منظراً؟ إنه الإهمال. لماذا لا يمنع السادة خدمهم من إلقاء الفضلات تحت أنوفهم عملياً؟ لأنهم

يعلمون عندئذ أن خادمات الجيران سيفعلن ذلك، أو سيفعله بستانيو حديقة بارانكو، أو حتى رجال شاحنة القمامات الذين يُفرغون دلاء الفضلات عند حافة الودة بدلاً من نقلها إلى المزبلة البلدية. ولهذا تازلوا للنسور والصراصير والجرذان والعنفونة عن هذه المزابل التي رأيتها تولد، وتتمو، بينما أنا أجري في الأصبح، إنها رؤية دقيقة لكلاب متشردة تتبع المزابل وسط سحابة من الذباب. وقد اعتدت كذلك، في هذه السنوات الأخيرة، أن أرى إلى جانب الكلاب المتشردة، أطفالاً متشردين، وشيوخاً متشردين، ونساء متشردات، جميعهم ينشون الفضلات بحماسة بحثاً عن شيء يؤكل أو يباع أو يُليس. مشهد المؤس الذي كان يقتصر فيما مضى على الضواحي، ثم بعد ذلك على مركز المدينة، صار الآن يغطي المدينة بأسرها، بما في ذلك هذه الأحياء – ميرافلوريس، وبارانكو، وسان إيسيدرو – السكنية والراقية. إذا كان المرء يعيش في ليما فعليه أن يعتاد على المؤس والقدارة وأن يصاب بالجنون أو ينتحر.

ولكنني واثق من أن مايتا لم يعتد على ذلك قطّ. فلدى الخروج من مدرسة ساليسيانو، وقبل الصعود إلى الحافلة التي تقلنا إلى مجديينا، حيث كنا نعيش كلانا، كان يركض نحو دون ميداردو، ذلك الشيخ الضرير ذي الأسمال الذي كان يرابط مع كمانه النشارز عند باب كنيسة ماريا اوكسيليلادورا، ليقدم إليه قطعة الخبز والجبن التي يوزعها علينا الرهبان في الفسحة الأخيرة لوجبة العصر. وكان يقدم له في أيام الاثنين ريالاً، يدخله من مصروفه ليوم الأحد. وفي مجادلة جرت عندما كنا نعد العدة لحفل مناولتنا الأولى، جعل مايتا الأب لويس يرتعش حين سأله وهو

يضع راحتيه حول فمه: «لماذا يوجد فقراء وأغنياء يا أبتاباه؟ ألسنا جميينا أبناء الرب؟» كان دائم الحديث عن الفقراء، عن العميان، عن المعددين، عن الأيتام، عن مجانين الأرقة. وفي المرة الأخيرة التي رأيته فيها، بعد سنوات طويلة من زمالتي له في مدرسة ساليسيانو، عاد إلى موضوعه القديم، بينما نحن نتناول فنجان قهوة في ساحة سان مارتين: «رأيت أعداد المسؤولين في ليما؟ إنهم ألف مؤلفة». وحتى قبل إضرابه الشهير عن الطعام، كنا نحن معظم تلاميذ الصيف نعتقد أنه سيصبح راهباً. فالاهتمام بالرؤساء في ذلك الحين كان يبدو لنا من شؤون المتعلمين إلى أن يقبلوا في صفوف الإكليلوس، وليس من شؤون الثوريين. فقد كنا نعرف آنذاك الكثير عن الدين، والقليل عن السياسة، ولا نعرف شيئاً على الإطلاق عن الثورة. كان مايتا صبياً بديناً أجدد الشعر، له قدمان مسطحان، وأستانان متفرقة، وطريقة في المشي كأنها تشير إلى الثانية إلا عشر دقائق. وكان يرتدي على الدوام سروالاً قصيراً، وكحلاً ذات بقع حضراء ولفاعاً للوقاية من البرد يبقيه حول رقبته خلال الدروس. وكنا نضايقه كثيراً لاهتمامه بالفقراء، ومساعدته في القدس، وأنه يصلّي ويصلّب بورع شديد، وأنه كان لاعب كرة قدم سيئاً، وكنا نضايقه خصوصاً بسبب اسمه مايتا. فكان يقول لنا: «كلوا مخاطكم».

ومهما كان تواضع أسرته، فإنه لم يكن أفقر تلاميذ المدرسة. لقد كنا نحن تلاميذ ساليسيانو أقرب إلى تلاميذ المدارس العامة، لأن مدرستنا لم تكن مدرسة بيسنٌ صغار مثلما هي مدرسة سانتا مارتا أو مدرسة إنماكولا دا، وإنما مدرسة صبيان الشرائح

الفقيرة من الطبقة الوسطى، أبناء موظفين، ومستخدمين، وعسكريين، ومهنيين لا يتمتعون بحظ كبير من النجاح، وحرفيين، وحتى أبناء عمال مؤهلين. وكان الهجينون بيننا أكثر من البيض: خلاسيون، زامبيتو، وصينيون، ونيسيس وساكالاغواس وأكمام الهنود¹. ومع أن كثيرين من التلاميذ كانوا من ذوي الجلود النحاسية، وجناتهم بارزة، وأنوفهم فطساء، وشعرهم شوكى، إلا أن الوحيد الذى كان له اسم هندي على ما ذكر، هو مایتا. وباستثناء الاسم، لم يكن في عروقه من الدماء الهندية أكثر مما في عروق أي واحد منا، أما بشرته الشاحبة المائلة إلى الخضراء، وشعره المجدد، وتقطيعه فكانت كلها مثلاً هي في البيروي العادي: الميستيثو². كان يعيش عند منعطف كنيسة مجدىنا، في بيت ضيق، كالح طلاء دون حديقة، وهو بيت عرفته جيداً، لأنني واظبت على الذهاب إليه كل مساء طوال شهر بكماله لنقرأ معاً، بصوت عالٍ، الكونت دي مونت كريستو، الرواية التي أهديت إلى في عيد ميلادى وكانت تفتنا نحن الاثنين. كانت أمه تعمل ممرضة في مستشفى التوليد، وتحقن إبراً في البيوت. وكنا نراها من نافذة الحافلة، عندما تفتح الباب لمايتا. لقد كانت سيدة مربوعة، ذات شعر رمادي، ثقب ابنها قبلة سريعة، وكأنها لا تملك متسعًا من الوقت. أما أبوه فلم نره

¹- بعض التسميات للتشكيلة العرقية الواسعة في بلدان أميركا اللاتينية. فالزمبیتو zambito هو من يولد لأبوين أحدهما زنجي والآخر هندي. والساكالاغواس هو الخلاسي ذو البشرة الأقرب إلى البياض.
²الميستيثو mestizo هو الذي يولد لأبوين من عرقين مختلفين عموماً.

قطّ. وقد كنتُ متأكداً من أنه لا وجود له، لكن مايتا كان يقسم إن أباه دائم السفر، بسبب عمله، لأنّه يعمل مهندساً (وهي المهنة الموقرة في تلك الأزمنة).

انتهيتُ من الجري. عشرون دقيقة في الذهاب والإياب، بين حديقة سالازار وبيتي، هي مسافة مناسبة. أضف إلى ذلك أنني بينما كنت أركض، توصلت إلى نسيان أنني أركض وإلى استعادة ذكري الدروس في مدرسة ساليسيانو وجه مايتا الجدي، ومشيته التماثيلية، وصوته الصافر. إنه هناك، أراه، أسمعه وسألل أراه وأسمعه إلى أن يننظم تفسي، وأتصفج الجريدة، وأتناول فطوري، وأستحم وأبدأ العمل.

عندما توفيت أمه - كنا في السنة الثالثة المتوسطة - انتقل مايتا للعيش مع خالة له هي في الوقت نفسه عرابته. كان يتكلم عنها بمحبة ويقول لنا إنها تقدم إليه الهدايا في أعياد الميلاد وفي عيد قدسه وتأخذه أحياناً إلى السينما. ولا بد أنها كانت طيبة بالفعل، لأن العلاقة بينه وبين دونيا خوسيفا استمرت إلى ما بعد استقلال مايتا بحياته. وبالرغم من ظروف حياته الصعبة، فقد ثابر على زيارتها بانتظام على امتداد السنين، وفي بيته بالذات جرى ذلك اللقاء بينه وبين بايغخوس.

كيف هي الآن دونيا خوسيفا اريسوينيو بعد انقضاء ربع قرن على تلك الحفلة؟ إنني أسأل نفسي هذا السؤال مذ كلمتها هاتفيأ، واستطعت التغلب على ارتياها وإقناعها بأن توافق على زيارتي لها. وسألت نفسي السؤال نفسه حين نزلت من الحافلة التي أوصلتني إلى تقاطع شارع ريبوبليكا وجادة انقاموس، عند بوابات سوركينيو. هذا

حي أعرفه جيداً. ففي صباي كنت أجيء مع أصدقائي، في ليالي الأعياد، لشرب البيرة في مقهى التريونفو، ونأتي بأحدية لتصليحها وبدلات لقلبها وتحويلها على مقاسنا، ولرؤية أفلام كاوبوي في صالات السينما غير المريحة ذات الروائح الكريهة: صالات سينما الربيع، ولوينشيو برادو، وماكسيم. إنه واحد من أحياط ليما القليلة التي لم تتغير تقريراً. فهو مازال يغوص بالخياطين، والإسكافيين، والأزقة، ومطابع فيها صناديق تضم الحروف التي تُصنف يدوياً، وكراجات بلدية، وحانات كهفية، وبارات الثلاثة بنصف الصغيرة، ومستودعات، ودكاكين مشبوهة، وعصابات كسالي عند النواصي وصبية يتقاتلون كرة في وسط الشارع، بين السيارات والشاحنات ودراجات باعة المثلجات ثلاثة العجلات. فالحشود في الشوارع، والبيوت حائلة الألوان ذات الطابق الواحد أو الطابقين، وبرك الماء المزبطة، والكلاب الأليفة تبدو كلها كأنها من ذلك الزمن. ولكن هذه الشوارع التي كانت في ما مضى ملاداً للأوغاد والدعارة وحسب، أضيف إليها اليوم الماريجوانا والكوكايين. فهنا توجد تجارة مخدرات أكثر نشاطاً مما هي في لافيكوريا، أو ريماك، أو بوريبيير، أو الضواحي. وهذه النواصي الجريء، هذه البيوت السكنية القدرة المكتظة، هذه الحانات المؤثرة، تحول في الليل إلى «غرز»، إلى أماكن تباع وتشتري فيها «باكونات» من الماريجوانا والكوكايين، وتحتشف باستمرار في هذه الأكواخ مختبرات بدائية لتصنيع العجينة الأولية. لكن هذه الأشياء لم يكن لها وجود في زمن الحفلة التي غيرت حياة مايتا. فقلة هم الذين كانوا يعرفون كيف يدخنون الماريجوانا في ليما

آنذاك، أما الكوكيين فكان من شؤون البوهيميين والصالونات الفاخرة، شيء يستخدمه من يقضون الليل هائمين على وجوهم لكي يفiqueوا من سكرهم ويوافقوا القصف. كانت المخدرات لا تزال آنذاك بعيدة جداً عن تحولها إلى التجارة الأكثر ازدهاراً في هذه البلاد، وعن انتشارها إلى كل أنحاء المدينة. لم يكن يظهر أي شيء من هذا كله بينما كنت أمشي عبر شارع دانتي باتجاه التقائه مع شارع غونثالث برادا، مثماً مشي مايتا في تلك الليلة ليصل إلى بيت خالته - عرابته، إذا كان قد جاء في الحافلة أو في الترام، ففي عام 1958 كانت عربات الترام لا تزال ترقع على الدروب التي تجوبها الآن بسرعة فائقة سيارات زانجون. كان متعباً، ذاهلاً، مع طنين خفيف في صدغيه ورغبة كبيرة في وضع قدميه في المفسلة المملوءة بماء بارد. لم يكن هناك علاج أفضل من ذلك للإرهاق الجسدي أو المعنوي: ذلك الإحساس البارد والسائل في باطن القدمين يزيح التعب والقنوط والضجر، ويرفع المعنويات. كان قد مشى منذ الفجر، محاولاً أن يبيع جريدة صوت العمال، في ساحة أونيون، للشغيلة الذين ينزلون من الحافلات وعربات الترام ويدخلون إلى المصانع في جادة الأرجنتين، بعد ذلك ذهب مرتين من غرفته في جادة ثبيتا حتى ساحة بوينس آيرس، في كوتشاراكاس، حاملاً في المرة الأولى بعض أوراق ستانسل وبعد ذلك مقالاً لدانييل غيريه مترجمًا من مجلة فرنسية، حول الاستعمار الفرنسي في الهند الصينية. وكان قد أمضى ساعات وهو يقف على قدميه، يساعد منضد الحروف في ترتيب النصوص وتصحيح البروفات، في مطبعة كوتشاراكاس الضيقية التي مازالت تطبع

الجريدة (بوضع اسم مطبعة مزيف، وقبض أجور الطباعة سلفاً) ثم ذهب بعد ذلك مستخدماً حافلة واحدة بدلاً من الاثنين اللتين يجب استخدامهما ليصل إلى ريماك، حيث عليه أن يقود كل يوم أربعاء، في غرفة ضيقة في جادة فرانسيسكو بيتارو، حلقة دراسية لجامعة من طلاب جامعة سان ماركوس وطلاب الهندسة. وبعدئذ، ودون أن يلقط أنفاسه، وبمعدة تحتاج لأنه لم يُلق إليها طوال النهار سوى طبق من الرز مع البقول المجففة في المطعم الجامعي (حيث مازال بإمكانه الدخول ببطاقة من سنة القرد، يزورها بين حين وآخر، لجعلها صالحة للاستعمال)، وكان قد حضر اجتماع اللجنة المركزية لحزب العمال الثوري (التروتسكي) في كراج جادة ثوريتوس، وقد استمر الاجتماع أكثر من ساعتين من التدخين والجدال. من الذي تبقى لديه رغبة في حضور حفلة بعد كل هذه المهمات؟ فضلاً عن أنه كان يكره الحفلات على الدوام. لقد كانت ركبته ترتجفان وقدماه كأنهما تدوسان جمراً. ولكن، كيف يمكنه عدم الذهاب؟ لا يمكن أن يمنعه من ذلك إلا السفر أو السجن، فهو لم يتخلف قط. وفي المستقبل، سواء أكان متعباً أم لا، وسواء أكانت قدماه متورمتين أم لا، لن يتخلف كذلك، حتى ولو كانت زيارة سريعة، ما يكفي من الوقت ليقول لحالي إنه يحبها. كان البيت يضج بالصخب. وفتح الباب فوراً: أهلاً يا بني.

- مرحباً يا عرابتي - قال مايتا - عيد ميلاد سعيد.

- السيدة خوسيفا اريسويني؟

- أجل، تفضل، ادخل.

إنها امرأة تحفظ بمظهر جيد، ولا بد أنها قد تجاوزت

السبعين. ولكن مظهرها لا يكشف عن ذلك مطلقاً: فبشرتها لا تبدو مجعدة ولا وجود في شعرها الحنطي إلا لقليل من الشيب. إنها بدينة، لكنها حسنة التناسق، لها عجيبة وافرة وترتدي فستاناً ليكياً يزنره حزام أحمر. الغرفة واسعة، قاتمة، فيها كراس مختلف الأنواع، ومراة كبيرة، وماكينة خياطة، وتلفاز، وطاولة، وتمثال لسيد المعجزات، وأخر للقديس مارتين دي بوريس، وصور ضئيلة على الجدار وزهرية فيها أزهار من الشمع. هل جرت هنا الحفلة التي تعرف فيها مايتا على باييخوس؟

- هنا بالذات - تؤكد لي السيدة اريسوينيو ذلك وهي تلقي نظرة دائرة. وتشير إلى كرسي هزار ممتئ بجرائد - إنني أراهما هناك، يتهدثان ويتحددان.

لم يكن ثمة أناس كثيرون، ولكن هناك كثير من الدخان والأصوات وقرع الكؤوس، وفالس ايدولو بأعلى صوت من الغراموفون. وزوج راقصين وعدة أزواج آخرين يتبعون اللحن بضرب أكفهم أو بالدندنة. أحس مايتا، كالعادة، بأنه فائض عن الحاجة، وأنه قد يرتكب خطأ في أي لحظة. فهو لا يجد سهولة في المعاشرة الاجتماعية. وكانت الطاولة والكراسي قد أزيحت إلى الأركان لفسح المجال للرقص، وكان هناك من يحمل جيتاراً بين يديه. الموجودون هم الناس الذين يتوقع وجودهم وغيرهم: ابنتا خالته، وخطيباهما، وجيران من الحي، وأقارب وأصدقاء يتذكّرهم من حفلات عيد ميلاد سابقة. ولكنها أول مرة يرى فيها ذلك النحيل الشرثار.

وتقول لي السيدة اريسوينيو:

- لم يكن صديقاً للأسرة، وإنما عشيق أو قريب أو شيء من هذا القبيل لصديقة ابنتي الكبرى ثوبيليتا. هي أحضرته ولم يكن هناك من يعرف أي شيء عنه.

ولكنهم سرعان ما عرفوا أنه شخص لطيف، وراقص جيد، ومحب للشرب، وراوي طرائف ونكات ومحدث بارع. وبعد أن حيا مaita ابنتي خالته وهو يحمل ساندوتش جامبون في يده وكأس بيرة في اليد الأخرى، بحث عن كرسي ليهوي عليه بارهاقه. كان الكرسي الوحيد الفارغ بجانب النحيل الذي يقف، موئلاً، ويشد انتباه جماعة من ثلاثة أشخاص: ابنتا خالته ثوبيليتا وأليسيما ورجل عجوز ينتعل خفاً بيتيأ. حاول مaita المرور دون أن يلفت الانتباه، وجلس بجانبهم، بانتظار أن ينقضي الوقت المناسب ليتمكن من الانصراف كي ينام.

وتقول السيدة اريسوينيyo وهي تقلب جيوبها بحثاً عن منديل:

- لم يكن يطيل البقاء مطلقاً. فهو لا يحب الحفلات. لم يكن مثل جميع الناس الآخرين. لم يكن كذلك قطّ، حتى ولا في طفولته. إنه جديّ دائماً، وصارم دائماً. كانت أمّه تقول عنه: «القد ولد عجوزاً». وأمه هي شقيقتي، هل تعرف ذلك؟ وقد كان مولد مaita نكبة حياتها، لأنها ما إن علمت بأنها حامل حتى اختفى خطيبها وكأنه سحابة دخان. ولم تره بعدها قطّ. أتظن حضرتك أن مaita صار إلى هذه الحال لأنه بلا أب؟ إنه يأتي فقط في عيد قديسى ليؤدي الواجب نحوى. أنا جئت به إلى هنا عندما توفيت أختي. لقد كان الذكر الذي لم يمنعني الرب إياه. فأنا لم أنجب إلا بنتين. ثوبيليتا وأليسيما. كلتا هما الآن في فنزويلا، متزوجتان

ولهمَا أَبْنَاءُ، أَحْوَالَهُمَا تَجْرِي عَلَى مَا يَرَامُ هُنَاكَ، لَقَدْ كَانَ بِإِمْكَانِي
أَنْ أَتَزُوْجَ ثَانِيَةً، وَلَكِنْ ابْنَتِي عَارِضَتَا بِشَدَّةٍ، فَظَلَّلَتُ أَرْمَلَةً وَحَسْبَ
لَقَدْ كَانَ خَطْأً كَبِيرًا، أَقُولُ لَكَ ذَلِكَ بِصَرَاحَةٍ، لَأَنِّي الْآنَ - انْظُرْ
كَيْفَ هِيَ حَيَاتِي - وَحِيدَةٌ مُثْلِّبَةٌ فَطَرْ وَمَعْرِضَةٌ لَأَنْ يَدْخُلَ
اللَّصُوصُ هُنَا يَوْمًا، ابْنَتِي تَرْسَلَانَ لِي شَيْئًا كُلَّ شَهْرٍ، وَلَوْلَاهُمَا لَمْ
وَجَدْتُ مَا آكَلَهُ، أَتَعْرِفُ ذَلِكَ؟

وَبِينَمَا هِيَ تَتَكَلَّمُ كَانَتْ تَتَفَحَّصُنِي وَهِيَ لَا تَكَادْ تَوَارِي
فَضْوِلَهَا، لَهَا صَوْتٌ فِيهِ بَحَةٌ دِيكٌ، مُثْلِّبٌ صَوْتٌ مَايَا، وَيَدَانِ مُثْلِّبٌ
الْتَّامَالٌ، وَمَعَ أَنَّهَا كَانَتْ تَبَتَّسِمُ أَحْيَانًا، إِلَّا أَنْ عَيْنِيهَا حَزِيفَتَانٌ
وَمَائِيَّاتَانٌ، كَانَتْ تَشَكُّو مِنَ الْحَيَاةِ الَّتِي تَزَادُ غَلَاءً، وَمِنْ عَمَلِيَّاتِ
السُّطُوْرِ فِي الشَّوَّارِعِ - «لَا تَوْجَدْ جَارَةٌ وَاحِدَةٌ فِي هَذَا الشَّارِعِ إِلَّا
وَتَعْرَضُتْ لِلسُّطُوْرِ مَرَةً وَاحِدَةٌ عَلَى الْأَقْلِ» - وَمِنْ السُّطُوْرِ عَلَى فَرْعَنْبَنْكِ
الْاعْتِمَادِ وَمَا رَافِقَهُ مِنْ تَبَادُلِ إِطْلَاقِ نَارٍ سَبَبَ عَدْدًا مِنَ النَّكَباتِ،
وَمَنْ أَنَّهَا لَمْ تَسْتَطِعْ الدَّهَابَ إِلَى فَنْزُويَّلا، حِيثُ يَوْجَدُ فَائِضُ مِنَ
الْمَالِ كَمَا يَبِدوُ.

- فِي مَدْرَسَةِ سَالِيسِيَّانُو كَنَا نَظَنُ أَنَّ مَايَا سَيَتَحُولُ إِلَى
كَاهِنٍ، قَلْتُ لَهَا.

- وَأَخْتِي كَانَتْ تَظَنُّ ذَلِكَ أَيْضًا - وَافْقَتْ مُبْتَسِمَةً - وَأَنَا
كَذَلِكَ، لَقَدْ كَانَ يَرْسِمُ إِشَارَةَ الصَّلَبِ كَلِمًا مِنْ قَبَالَةِ كَنِيَّسَةٍ،
وَيُشارِكُ فِي الْقَرْبَانِ الْمَقْدُسِ كُلَّ يَوْمٍ أَحَدٌ، لَقَدْ كَانَ قَدِيسًا
صَغِيرًا، مِنْ كَانَ يَتَصَوَّرُ مَا حَدَثَ، أَلِيَّسْ كَذَلِكَ؟ أَعْنِي أَنْ يَنْتَهِي
شَيْوِعِيًّا، فِي ذَلِكَ الْحِينَ كَانَ يَبِدوُ مِنَ الْمُسْتَحِيلِ أَنْ يَتَحُولَ التَّقِيُّ
إِلَى شَيْوِعِيٍّ، وَلَكِنْ هَذَا الْأَمْرُ تَغْيِيرٌ أَيْضًا، فَهُنَاكَ الْآنَ كَثِيرٌ مِنْ

الرهبان الشيعيين، أليس كذلك؟ إنني أتذكر بوضوح ذلك اليوم الذي دخل فيه من هذا الباب.

لقد تقدم نحوها يومذاك حاملاً كتبه المدرسية تحت إبطه، وكان يطبق قبضتيه وكأنه يستعد للضرب، ورتل على مسمعيها دفعة واحدة كل ما جاء ليقوله لها.. ذلك القرار الذي أبقياه مسهدأ طوال الليل:

- إننا نأكل كثيراً يا خالي، ونحن لا نفكّر في الفقراء..
أتدرى ما الذي يأكلونه هم؟ إنني أنبهك إلى أنني، منذ اليوم، لن أتناول سوى طبق من الحساء عند الظهر، وقطعة خبز في الليل.
مثل دون ميداردو الأعمى.

وتتذكرة دونيا خوسيفا:

- بسبب تلك النزوة انتهى به الأمر إلى المستشفى.
استمر في تلك النزوة شهوراً، وراح ينحل، دون أن نتبه نحن زملاءه في المدرسة إلى السبب، إلى أن كشفه لنا الأب جيوفاني وهو ممتئ بالتقدير، في اليوم الذي أدخلوا فيه مايتا إلى مستشفى لوبيزا. «طوال هذا الوقت كان يحرم نفسه من الطعام لكي يتماثل مع الفقراء، بداعي التضامن الإنساني والمسيحي»، كان الأب يدمدم وهو ما يزال مذهولاً مما جاءت ترويه حالة مايتا في المدرسة. وقد سببت لنا تلك القصة الكثير من البلبلة، حتى إننا لم نتجرأ على السخرية منه حين رجع، وقد استعاد عافيته بفضل الحقن والقويات. وكان الأب جيوفاني يقول: «هذا الفتى سيكون له شأن». أجل، لقد صار له شأن، ولكن ليس في الاتجاه الذي كنت تظنه يا أباً.

تنتهى السيدة اريسوينيyo:

- كانت لحظة شؤم تلك التي فكر فيها بالمجيء تلك الليلة.
فلو أنه لم يأت لما تعرف على بایيغوس ولما حدث أي شيء مما
جرى. لأن بایيغوس هو مبتدع الفكرة، وهذا ما يعرفه الجميع. لقد
كان مايتا يأتي، فيقبلني مهنتاً ثم يمضي بعد لحظة. ولكنه ظلَّ
في تلك الليلة حتى النهاية، ظلَّ يتكلم ويتكلم مع بایيغوس في
ذلك الركن. لقد انقضت خمس وعشرون سنة ومازالتُ أذكر ذلك
وكأنه حدث بالأمس. الثورة من هنا، الثورة من هناك. ظلا
يتحدثان طوال تلك الليلة.

الثورة؟ عاد مايتا ينظر إليه. هل الذي تحدث هو الفتى أم
العجز ذو الخف؟

وكرر النحيل وهو يرفع الكأس التي يحملها في يده اليمنى:
- أجل يا سيدي، غداً بالذات... يمكن للثورة الاشتراكية أن
تبداً غداً بالذات إذا أردنا ذلك. كيف أوضح لك يا سيدي.
شاء مايتا ثانية وتمطى شاعراً بدغدغة في جسده. وكان
النحيل يتكلم عن الثورة الاشتراكية بالطلاقنة نفسها التي كان
يروي بها قبل لحظات قليلة الطرائف عن أوتو وفريتز أو يتحدث عن
مباراة الملاكم الأختيرة «لثروتنا الوطنية، الملاكم فرونتادو».
وبالرغم من الإرهاق الذي يشعر به، بدأ مايتا يستمع: هذا الذي
يحدث في كوبا ليس شيئاً يذكر بالمقارنة مع ما يمكن أن
يحدث في بيرو، إذا أردنا ذلك. ففي اليوم الذي سيعمل فيه
أهل الأنديز، ستتهاز البلاد بأسرها. أیكون أبریستا؟ أم تراه

¹ - أبریستا : APRISTA : عضو في منظمة أبرا APRA (التحالف الشعبي الثوري الأميركي)، منظمة سياسية ثورية أسسها عام 1924 البيروي هايا دي لا توري

يكون فجلاً؟! هذا غير ممكّن، من المستحيل أن يوجد شخص شيوعي في حفلة خالته. فما ياتا لا يذكر أنه سمع أحداً على الإطلاق يتكلّم في السياسة في هذا البيت.

سألت ابنة خالته ثوبيليتا :

- وما الذي يجري في كوبا؟

فضحّك النحيل :

- ذلك المدعو فيدل كاسترو أقسم لا يحلق ذقنه إلى أن يهزم باتيستا. أولم ترى ما الذي يفعله عبر العالم أنصارُ حركة 26 تموز الكوبية؟ لقد علقوا رأية على تمثال الحرية في نيويورك. إن باتيستا يهوي، لقد صار مصفاة.

- ومن هو باتيستا؟ - سألت ابنة الخالة أليسيما.

- إنه طاغية - أوضح النحيل باندفاع - دكتاتور كوبا. وما يجري هناك هو شيء لا يمكن مقارنته مطلقاً بما يمكن أن يحدث هنا. والفضل في ذلك يعود إلى جغرافية بلادنا. إنها هدية حقيقة من الله للثورة. فحين ينتقض الهنود، ستتحول البيرو إلى بركان.

- حسن، ولكن إلى الرقص الآن - قالت ابنة الخالة ثوبيليتا - .

الجميع جاؤوا هنا ليرقصوا. سأضع موسيقى راقصة.

على أن تكون منظمة أمريكية لاتينية، ولكنها اقتصرت في النهاية على تنظيمها في البيرو، وقد كانت حركة شعبية واسعة، نجحت في الانتخابات أكثر من مرة، ولكن العسكريين كانوا يقطعون عليها الطريق بانقلابات عسكرية وملاحقات دامية.

^١ الفجل rabanito هي التسمية التي يطلقها المؤلف على الشيوعيين التقليديين.

وسمع مايتا العجوز ذا الخف يقول بصوت متغير:

- الثورات مسألة جدية، وأنا على الأقل لست مناصراً لها. فعند انتفاضة الأبرистا في تروхиyo، سنة ثلاثة، جرت مجزرة الله ربى ومولاي. الأبرистا دخلوا إلى الثكنة وأجهزوا على عدد لا أدرى قدره من الضباط. وأرسل سانتشيث ثيرو طائرات ودبابات، فقضى عليهم وأعدموا ألفاً من الأبرистا في خرائب تشان تشان.
- هل كنت حضرتك هناك؟ سأله النحيل وهو يفتح عينيه بحماسة. وفكرا مايتا: «الثورات ومبارات كرة القدم هي الشيء نفسه بالنسبة إليه».

فقال العجوز ذو الخف:

- أنا كنت في هوانوكو، في صالون حلاقتي. وقد وصلت إلينا هناك، فوق، أصداء المذبح. الأبرистا القليلون الذين كانوا في هوانوكو جمعهم الحاكم وأعدمهم. لقد كان عسكرياً سيئ المزاج، وزير نساء. يدعى الكولونيل بادولاكي. بعد هنีهة انصرفت كذلك ابنة الحالة أليسيما لترقص، وبدا الخمود على النحيل حين رأى أنه ظل مع محدث واحد هو العجوز. ولكنه عندما اكتشف وجود مايتا، رفع كأسه باتجاهه: بصحتك يا صاحبي.

- بصحتك. قال مايتا ذلك وهو يقرع كأسه.
- اسمي باييخوس - قال النحيل مصافحاً.
- وأنا مايتا.

- لقد فقدت صديقتي لكثرة ما تكلمت - قال باييخوس ضاحكاً وهو يشير إلى فتاة متبرجة، يراقصها ابن عم لأليسيما

وثوبيلита يدعى بيبوتي، وكان يحاول الالتصاق بها وهمما يرقصان على موسيقى معاً في البعد، وأضاف بايغوس: - إذا ما شدها أكثر، فسوف توجه إليه أليسyi صفعته التي يستحقها.

كان يبدو في الثامنة عشرة أو التاسعة عشرة من عمره بسبب رفته، ولأنه أمرد وشعر رأسه حليق كله تقريباً. ولكن ما ياتا فكر في أنه يجب ألا يكون فتياً إلى هذا الحد. فحركات يديه، ونبرة صوته، وثقته بنفسه تستدعي التفكير في أنه أكثر نضجاً.

وكانت له أسنان كبيرة وببيضاء تبعث البهجة في وجهه الأسمر. وكان واحداً من قلة في الحفلة يرتدون سترة وربطة عنق، وكان يبرز فوق ذلك منديل صغير من جيبه. وكان يبتسم طوال الوقت وفيه شيء من المباشرة والنداع العواطف. أخرج علبة سجائر ماركة إنكا وقدم سيجارة لمايتا. فقبلها.

هتف وهو يطلق الدخان من فمه:

- لو أن ثورة أبريستا في الثلاثينيات انتصرت، لكان ديك آخر قد غنى لنا. ولما كان هناك كل هذا الظلم والتفاوت. ولكن قُطعت الرؤوس التي يتوجب قطعها، وكانت البيرو قد أصبحت شيئاً آخر. لا تحسبني أبريستا، ولكن لا بد من إعطاء قيسراً ما هو لقصير. أنا اشتراكـي يا صاحبـي، مهما قيل عن أنه لا يمكن أن يلتقي عسكـري واشتراكـي في الشخص نفسه.

- عسكـري؟ - ارتعش مايتا.

- إنـي مـلازم - أـكـدـ باـيـغـوس -. لقد تـخرـجـتـ السـنةـ المـاضـيةـ، من تـشـورـبيـوسـ.

الـلـعـنةـ. الآـنـ فـهـمـتـ منـ أـيـنـ جاءـتـ قـصـةـ شـعـرـ باـيـغـوسـ وـطـرـيقـتـهـ

المندفعه. أهذا هو ما يسمونه موهبة القيادة؟ أمر لا يصدق أن يقول عسكري هذه الأشياء التي قالها.
وأكدت السيدة خوسيفا:

- لقد كانت حفلة تاريخية. لأن مايتا وباباخوس تعارفا، ولأن ابن أخي بيبيوتى تعرف كذلك على أليسي. لقد وقع في حبها ولم يعد ذلك الكسول والمهمل الذي كانه من قبل... بحث عن عمل، وتزوج من أليسي وذهبا إلى فنزويلا أيضاً، من مثهما. ولكن يبدو أن كلاً منهما يمضي الآن في طريقه. عسى ألا يكون ذلك إلا أقاويل... آه، يبدو أنك قد تعرفت على صورته، أليس كذلك؟
أجل، إنه مايتا. منذ كومة من السنين.

في الصورة باهتة الحواف، والمصفرة، يبدو في الأربعين أو أكثر. إنها صورة التقطها له مصور جوال، في ساحة يصعب التعرف عليها، بإضاءة ضعيفة. إنه يقف على قدميه، وهناك لفاع منفلت على كتفيه، وتبعد عليه ملامح ضيق، وكأن الوميض يزعج عينيه أو أنه يشعر بالخجل من الوقوف لالتقاط صورة أمام المارة في الطريق العام. إنه يحمل في يده اليمنى حقيبة أو علبة أو حافظة أوراق، وعلى الرغم من امحاء معالم الصورة، إلا أنه يمكن ملاحظة بؤس لباسه: فالبنطال منتفخ، والسترة مائلة، والقميص واسع الياقة كثيراً، أما ربطه العنق فمعقودة عقدة مضحكه وغير مقننة. لقد كان الثوريون يضعون ربطة عنق في ذلك الحين. وكان شعره مشععاً وناماً، ووجهه يختلف بعض الشيء عن ذاك الذي أحفظه في ذاكرتي، فهو أكثر امتلاء وتقطيباً، فيه جدية ساخطة. هذا هو الانطباع الذي تنقله الصورة الفوتوغرافية: رجل

يحمل إرهاقاً عظيماً على كاهله. لأنه لم ينم كفایته، أو لأنه مشى كثيراً، أو لسبب أقدم من ذلك، إرهاق حياة وصلت إلى حد، ليس هذا الحد هو الشيخوخة ولكنه يمكن أن يكون كذلك إذا لم يكن وراءها - كما هو حال مايتا - سوى أوهام محطمة، واحباطات، وأخطاء، وعداوات، ومكائد سياسية، وتقشف، ووجبات سيئة، وسجن، ومخافر، وحياة سرية، واحفاقت من كل نوع دون أن يكون هناك ما يشبه أي فوز ولو من بعيد. ومع ذلك، فقد كان هذا الوجه المستند والمتور يعكس كذلك بطريقة ما تلك السمة السرية القاسية أمام الخصوم والتي كان يذهلي على الدوام أن أجدها فيه على مر السنين، هذا النقاء الشبابي القادر على الاستجابة بالسخط ذاته ضد أي جور، سواء أكان في البيرو أو في أقصى أطراف الأرض، وهذه القناعة التبريرية بأن المهمة الوحيدة المستعجلة التي لا تقبل التأجيل هي تغيير العالم. إنها صورة استثنائية، أجل، فقد التقطت الصورة كامل قامة مايتا الذي تعرف عليه باييغوس في تلك الليلة.

وقالت دونيا خوسيفا وهي تعيد وضع الصورة على الرف:
ـ أنا طلبتُ منه أن يلتقط هذه الصورة. لكي يكون لدى تذكار منه. أترى هذه الصور؟ جميعهم أقارب، وبعضهم أقارب بعيدون جداً. لقد مات معظمهم... هل كنتما صديقين حميمين؟
ـ انقطعت لقاءاتنا سنوات طويلة - قلت لها - ثم عدنا نلتقي أحياناً، ولكن في فترات متباudeة.

كانت دونيا خوسيفا اريسوينيو تتأملني، وكانت أعرف ما الذي تفكر فيه. رغبت فيطمأنتها، وفي تبديد شكوكها،

ولكن ذلك كان مستحِيلاً لأنني كنت عندئذ مثلاً، لا أعرف عن
مشاريعي حول مايتا إلا القليل.

دمدمت وهي تمر بلسانها على شفتيها الممتلئتين:

- وماذا ستكتب عنه؟ سيرة حياته؟

- لا، ليس حياته - أجبتها وأنا أبحث عن صيغة لا تسبب لها
مزيداً من البلبلة - أريد أن أكتب شيئاً مس拓وحى من حياته. ليس
سيرة وإنما رواية. قصة حرة، حول الحقبة، والوسط الذي عاش
فيه مايتا والأشياء التي جرت في تلك السنوات.

وتشجعت السيدة اريسوينيو:

- ولماذا عنه بالذات؟ هناك آخرون أوسع منه شهرة. الشاعر
خابير هيراود مثلاً، أو جماعة المير^١، جماعة بوينتي، أو لوباتون،
أولئك الذين يجري الحديث عنهم دائمًا. لماذا اخترت مايتا؟ ليس
هناك من يتذكره.

فعلاً، لماذا اخترته هو؟ لأن حالته كانت الأولى في سلسلة
حالات ستترك أثراً على المرحلة؟ أم لأنها الحالة الأكثر عبيدة؟
الأنها الأكثر تراجيدية؟ لأنها في عبئيتها وتراجيديتها، كان
السباق؟ أم ببساطة لأن في شخصيتها وقصتها شيئاً مؤثراً بالنسبة
إلي، شيئاً أبعد من التزاماته السياسية والأخلاقية، يشبه صورة
شعاعية للتعاسة البيروية؟

- إما أنك لا تؤمن بالثورة - قال باباخوس متكلماً الاستكار -
وإما أن تكون من أولئك الذين يعتقدون أن البيرو ستبقى على حالها
حتى نهاية الأزمنة.

^١ - المير MIR اختصار لاسم : حركة اليسار الثوري.

ابتسم له مايتا نافياً:

- البيرو ستتغير. الثورة ستأتي - وأوضح له بكل ما في الدنيا من صبر . ولكن الثورة ستأخذ وقتها. فالامر ليس سهلاً مثلاً تتصور.

كان وجه باليخوس يلمع من العرق وعيناه متقدتين مثل كلماته:

- إنها سهلة في الواقع، وأنا أقول لك هذا لأنني أعرف. إنها سهلة إذا كنت تعرف طبغرافية سلسلة الجبال، وإذا كنت تعرف كيف تطلق النار من بندقية ماوزر، وإذا انتقض الهنود .
- إذا انتقض الهنود - تنهد مايتا . - قول ذلك سهل مثل سهولة كسب جائزة اليانصيب.

الحقيقة أنه لم يخطر بباله قط أنه يمكن لعيد ميلاد الخالة أن يكون مسليناً إلى هذا الحد. لقد فكر في البدء: «إنه شخص استفزازي، واشِ. يعرف من أنا ، ويريد أن يستدرجي في الكلام». ولكنه بعد بعض دقائق من الحديث معه، تأكد من أنه ليس كذلك؛ بل هو ملاك بأجنحة ، لا يعرف نفسه أين قد حط. ومع ذلك، لم يشعر بأي رغبة في السخرية منه. لقد أمعته سماع من يتحدث عن الثورة كمن يتحدث عن لعبة أو مأثرة رياضية، كأنها شيء يمكن الحصول عليه ببذل قليل من الجهد والذكاء. لقد كان الفتى على درجة من الثقة بالنفس والسداجة تفري بمواصلة الاستماع طوال الليل إلى تلك المديانات. لقد أبعد عنه الناس وكان قد وصل إلى كأس البيرة الثالثة. وكان بيبيوتي يواصل الرقص طوال الوقت مع أليسي - رقصة تشوتسي المدرידية مع

موسيقى لأغوستين لارا - ولكن الملازم لم يكن يبدي أدنى اهتمام. فقد سحب كرسياً إلى جوار مايتا، وجلس عليه كأنه يمتنع حصاناً، وراح يشرح له بأن خمسين رجلاً مصممين ومسلحين جيداً، يستخدمون تكتيك رجال حرب العصابات الذين قادهم كاثيريس¹، يمكنهم أن يشعروا بقتل البارود الذي هو جبال الأنديز. وفكر مايتا: «إنه شاب فتى إلى حد يمكن معه أن يكون ابنى. لابد أنه ينال كل الفتيات اللواتي يشاء».

وسأله باليخوس:

- وأنت، ماذا تعمل؟

كان سؤالاً يسبب له الضيق على الدوام، بالرغم من أنه كان مستعداً للإجابة عنه. وجوابه الذي هو نصف صحيح ونصف كاذب بدا له أكثر زيفاً من مرات أخرى:

- أعمل في الصحافة - قال ذلك، وهو يسأل نفسه كيف سيتحول وجه الملازم لو سمعه يقول له: «إنني أعمل في هذا الذي تتحدث عنه كثيراً، متولاً خارج المboleة. إنني أعمل في الثورة، فما رأيك».

- وفي أي صحفة تعمل؟

- في وكالة فرنس برس. أقوم بالترجمة.

فناور باليخوس:

- أي أنك تتكلّم فرنساوي. أين تعلمتها؟

¹ - كاثيريس Andres Avelino Caceres جنرال وسياسي بيروي (1833-1923) تولى رئاسة الجمهورية من 1886 إلى 1890، ثم تولى المنصب ثانية في عامي 1894-1895.

- بمفرده، بمساعدة معجم وكتاب لغة كسبه من يانصيب خيري - تقول لي دونيا خوسيفا - أنت لا تصدقني، ولكنني رأيته يفعل ذلك بعيني هاتين. كان يحبس نفسه في غرفته ويردد الكلمات لساعات وساعات. كان كاهن سوركيبو يعيره مجلات. وكان يقول لي: «لقد بدأت أفهم بعض الشيء يا خالة، إنني أنتعلم». إلى أن تعلم، لأنه كان يمضى الأيام في قراءة كتب بالفرنسية، صدقني.

- إنني أصدقك بالطبع - أقول لها -. لست أستغرب أن يتعلّمها بمفرده. لأنه حين يصمم على شيء يفعله. لقد عرفتُ قلة من الأشخاص الذين لهم عناد مaita .
وتحسرت دونيا خوسيفا :

- كان يمكن له أن يصير محامياً، مهنياً. هل تعرف أنه التحق بجامعة سان ماركوس من المحاولة الأولى؟ وكان في موقع جيد. وكان لا يزال صبياً في السابعة عشرة أو الثامنة عشرة على أكثر تقدير. لقد كان بإمكانه أن يحصل على الشهادة وهو في الرابعة والعشرين أو الخامسة والعشرين. يا للخسارة، رباء! ومن أجل أي شيء؟ من أجل السياسة، من أجلها فقط. لن يسامحه الله.

- لم يبق إلا وقتاً قصيراً في الجامعة، أليس كذلك؟

وتقول دونيا خوسيفا :

- بعد شهور قليلة، أو بعد سنة على الأكثر، زجوا به في السجن. ومنذ ذلك الحين بدأت مصائبها. لم يرجع بعدئذ إلى هذا البيت، بل ذهب ليعيش وحيداً. ومنذ ذلك الحين بدأ يمضي من سيئ إلى أسوأ. أين هو ابن أختك؟ إنه متخفٍ. أين صار مايتا؟ إنه

سجين. هل أطلقوا سراحه؟ أجل، ولكنهم يبحثون عنه من جديد.
لو قلت لك إن الشرطة كانت تأتي هنا في كل مرة لتقلب لي
كل شيء رأساً على عقب، وتهينني، وترعبني، فسوف تظن أنني
أبالغ. وإذا قلت لك إن ذلك حدث خمسين مرة أكون مقصراً. وكل
ذلك بدل أن يترافع في المحاكم ويكتسب قضياباً بهذا العقل الذي
منحه إياه الرب. هل هذه حياة؟

- بلى، إنها كذلك - عارضتها برفق - إنها حياة قاسية إذا
شتت. ولكنها زخمة ومتماستة أيضاً. إنها أفضل من حيوانات
آخر كثيرة يا سيدتي. وأنا لا أستطيع أن أتصور ما ياتا يشيخ وراء
منضدة محام، ويقوم كل يوم بالعمل نفسه.
ووافقت دونيا خوسيفاً، تهدباً وليس عن قناعة:

- حسن، ربما كان هذا صحيحاً. منذ طفولته كان بالإمكان
إدراك أنه لن يعيش كالآخرين. هل رأيت في حياتك صبياً مخاطياً
يمتنع عن تناول الطعام يوماً لأن هناك أناساً يجوعون في العالم؟
أنا لم أصدق ذلك، أتعرف؟ كان يتناول حساءه ويترك بقية الطعام.
وفي الليل يكتفي بقطعة خبز. وكنت أنا وثوبيلينا وأليسيانا نسخر
منه: «لا بد أنك تقيم مأدبة خفية أيها المخادع». ولكن تبين أن
الأمر كان صحيحاً، لم يكن يأكل أي شيء آخر. فإذا كان في
صغره هكذا، فلماذا لا يصبح في كبره إلى ما صار إليه.

- هل رأيت نزع بتلات الأقحوان، لبريجيت باردو؟ - قال
باليخوس مغيراً موضوع الحديث - أنا رأيته بالأمس. ساقان
طويلتان، طويلتان، تخرجان من الشاشة. أحب أن أذهب إلى باريس
يوماً لأرى بريجيت باردو بلحمها وعظمها.

- دعك من الكلام الكثير وهم لنرقص - قالت ذلك خطيبته أليسية التي كانت قد تملصت من بببتو وأرادت أن تتزع باييغوس بالقوة عن الكرسي - لن أقضى الليلة كلها في الرقص مع هذا السمع الذي يلتصق بي. هيا، تعال لنرقص لحن المامبو هذا.

ورتل الملازم:

- مامبو! يا للمامبو الذيذا!

بعد لحظة من ذلك كان يلف مثل خدروف. لقد كان يرقص بإيقاع، محركاً بيده، متخدناً هيئات متعددة، ومغنياً، وقد تحمس لأدائه أزواج من الراقصين الآخرين فبدؤوا يشكلون حلقاتٍ أو قطاراتٍ أو يتبادلون رفاقهم في الرقص. وسرعان ما تحولت الصالة إلى إعصار مذهل. نهض مايتا وألصق كرسيه بالجدار، لكي يتبع مزيداً من المجال للراقصين. هل سيرقص يوماً مثل باييغوس؟ أبداً. حتى بببتو يبدو بطلًا بالمقارنة معه في هذا المجال. تذكر مايتا مبتسماً الإحساس الكريه بتحوله إلى إنسان كرومانيون¹، هذا الإحساس الذي يداهمه كلما وجد نفسه مضطراً إلى مراقصة آديلايدا، حتى في أكثر الرقصات بساطة. لم يكن جسده هو العائق، وإنما ذلك الحياة، الخجل، التهيب الأحشائي من اقترابه الشديد من امرأة هو الذي يحوله إلى ما يشبه الدمية. ولهذا اختار لا يرقص إلا إذا أجبر على ذلك، مثلاً يحدث عندما تضطره إلى الرقص ابنة الحالة أليسية أو ابنة الحالة ثوبيليتا، وهو ما يمكن أن

¹ كرومانيون Cromagnon: موقع في فرنسا (دوردونيا) اكتشفت فيه عام 1868 بقايا بشرية، وقد أطلق اسمها على أحد الأعراق التي كانت تقطن أوروبا الغربية في عصور ما قبل التاريخ.

يحدث في أي لحظة الآن. هل تعلم ليون دافيدوفيتش الرقص؟ لا شك في ذلك. ألم تقل زوجته تاتاليا سيدوفا إنه، باستثناء انشغاله بالثورة، كان أكثر الرجال طبيعية؟ أب حنون، زوج عاشق، بستانى جيد، وكان يفتته إطعام الأرانب. الأمر الأكثر طبيعية لدى الرجال الطبيعيين هو أن يحبوا الرقص. فالرقص بالنسبة إليهم ليس، مثلاً بيدو له، مجرد شيء مضحك، وطيش وإضاعة وقت، ونسبيان الأهم. وفكّر: «لست رجلاً طبيعياً يا مaita، تذكر هذا». انتهت رقصة المامبو، وكان هناك تصفيق. وقد فتحت النافذة المطلة على الشارع لتهوية الصالة، وكان بإمكان مايتا أن يرى من خلال الراقصين، الوجوه الملتصقة بدفتي النافذة، وملامح الفضوليين، عيون رجولية تلتهم نساء الحفلة. وعندي أعلنت الحالة: يوجد حسأ دجاج، فليأتوا لمساعدتها. هرعت أليسيما إلى المطبخ. وجاء بابيغوس ليجلس مجدداً إلى جوار مايتا وهو يتعرق. قدم له سيجارة، وغمز له بإحدى عينيه ساخراً:

- الواقع إنني موجود وغير موجود هنا. لأنه علىّ أن أكون في خاوشا. فأنا أعيش هناك، إنني قائد السجن. ويتجوب علىّ عدم المغادرة، ولكنني أسمح لنفسي بالهرب عندما تسنح الفرصة. هل تعرف خاوشا؟

فقال مايتا:

- أعرف أماكن أخرى من سلسلة الجبال. أما خاوشا فلا أعرفها.
وقال بابيغوس مقلداً المهرج:
- العاصمة الأولى للبيرو! خاوشا! خاوشا! من المخجل ألا تعرفها!
يتوّجب على جميع البيروفيين أن يذهبوا إلى خاوشا.

ودون أن يتوقف تقريراً، سمعه مايتا يستفرق في خطبة عن السكان الأصليين: البيرو الحقيقة موجودة في سلسلة الجبال وليس على الشاطئ، ما بين الهنود ونسور الكندور وذرى الأنديز، وليس هنا في ليما، هذه المدينة المتأجنة والمملة واللامبالية، لأنها مذ أنها إسبان تعيش وعيتها على أوروبا وعلى الولايات المتحدة، مديرة ظهرها للبيرو. إنها أشياء سمعها مايتا وقرأها مرات كثيرة، ولكنها كانت تخرج ببررة مختلفة من فم الملائم. الجديد كان في الطريقة المستخفة والباسمة التي يقولها بها، مطلقاً حلقات من الدخان الرمادي. كانت طريقته في التكلم تتلوي على شيء عفوي وحيوي يحسن ما يقوله. لماذا يحمل إليه الفتى هذا الحنين، وهذا الشيء الميت نهائياً فيه؟ وفكر مايتا: «لأنه معافي. غير ملوث. لم تقتل السياسة متعة الحياة فيه. لا بد أنه لم يمارس قطّ أي نوع من السياسة. ولهذا يتكلّم دون مسؤولية، ولوهذا يقول كل ما يخطر له». لم تكن لدى الملائم أية حسابات، أو أية نوايا مستترة، أو خطابية معدّة مسبقاً. إنه لا يزال في تلك المراهقة التي تتلاخص السياسة فيها بأنها مشاعر وحسب، نزق أخلاقي، تمرد، مثالية، أحلام، سخاء، صوفية. أجل، هذه الأشياء مازالت موجودة يا مايتا. ها هي ذي أمامك، مجسدة – ومن يصدق ذلك – في ضابط صغير. وسمع ما يقوله الآخر: الظلم مرير، فأي مليونير يملك من المال أكثر مما يملكه مليون من الفقراء، وكلاب الأغنياء تأكل أفضل من هنود سلسلة الجبال، ولا بد من القضاء على هذا الظلم، لا بد من استهلاض الشعب. الاستيلاء على الإقطاعيات، احتلال الثكنات، تثوير القوات المسلحة التي هي جزء من الشعب، شن الإضرابات،

إعادة تشكيل المجتمع من أعلاه إلى أسفله، إقرار العدالة. يا للحسد.
ها هو ذا شاب نحيل، فتى طيب، حالم، ثرثار، بجناحي ملاك غير
مرئيين، يظن أن الثورة هي مسألة نزاهة، مسألة شجاعة، مسألة
سخاء، جرأة. إنه لا يشك، وربما لن يعرف أبداً أن الثورة هي صبر
طويل، وروتين لانهائي، وبُخل رهيب، وإنها ألف تقشف وتقشف،
وألف دناءة ودناءة، وألف وألف... ولكن هاهو ذا حساد الدجاج أيضاً
وها هو فم مايتا قد امتلاً باللعاب لدى إحساسه برائحة البخار
المتصاعد من الطبق الذي وضعته أليسبي بين يديه.

وتتذكر دونيا خوسيفاً:

- كم كنت أتكلف من الجهد، وكم من النفقات كذلك.
بعد كل عيد ميلاد كنت أبقى مثقلة بالديون لزمن طويل. كانوا
يكسرون أكواباً وكراسي و زهريات، ويطلع الصباح على البيت
كأنه خارج من حرب أو زلزال. ولكنني كنت أتولى ذلك العمل
كل سنة لأنه كان نظاماً في الحي. وكثير من الأقارب
والاصدقاء لا يأتونني كل سنة إلا في هذا اليوم. لقد كنت أقيم
الحفلة من أجلهم أيضاً، لكي لا أغبنهم. فقد كان عيد ميلادي
 هنا في سوريا مثل العيد الوطني أو مثل أعياد الميلاد. كل
 شيء تبدل، فالحياة الآن لم تعد تصلح للحفلات. الحفلة الأخيرة
 كانت في السنة التي سافرت فيها أليسبي وزوجها إلى فنزويلا.
 أما الآن، فإنني أشاهد التلفزيون قليلاً في أيام ميلادي ثم أنام.
 تلقي نظرة حزينة على الحجرة الخالية من الناس، وكأنها
 تعيد إلى هذه الكراسي والأركان والنواخذ أقرباءها وأصدقاءها
 الذين كانوا يأتون ليغنو لها *Happy Birthday*، ويمتدحوا براعتها

في إعداد الطعام، وتتهدى. إنها تبدو الآن في السبعين فعلاً. هل تعرف إذا كان هناك أحد، من الأقارب، يحتفظ بدقائق ملاحظات مایتا ومقالاته؟ فيعود ارتياها من جديد، وتهمس وهي تكشر:
- أي أقارب؟ القريب الوحيد لمایتا هو أنا، وهو لم يحضر إلى هنا ولو علبة ثقاب، لأنهم كلما لاحقوه، يكون هذا هو أول مكان تأتي الشرطة لتفتشه. ثم إنني لم أعرف قط أنه كاتب أو أي شيء من هذا القبيل.

بلى، كان يكتب، وأنا نفسي قرأت أحياناً بعض مقالاته في تلك الجرائد - أو النشرات بكلمة أدق - التي كان يساهم فيها، وهي الجرائد التي كان هو نفسه يُصدرها بالطبع، والتي لم يبق لها أي أثر لا في المكتبة الوطنية ولا في أي مجموعة خاصة. ولكن من الطبيعي ألا يكون لدى دونيا خوسيفاً أي علم بوجود صوت العمال أو أي نشرات أخرى، مثلما هي حال معظم الناس في هذه البلاد، وخاصة أولئك الذين كانت تُكتب تلك النشرات وتُطبع من أجلهم. ومن جهة أخرى، لدى دونيا خوسيفاً محققـة: فهو لم يكن كاتباً ولا أي شيء من هذا القبيل. ولكنها مهما تضائقت، فإنه لا يمكن القول إنه لم يكن مثقفاً. وما زالت تذكر القسوة التي حدثـي بها عن المثقفين، في محادثتنا الأخيرة، في ساحة سان مارتين. فهم لا ينفعون في أي شيء مهم حسب رأيه، وقد حددـ كلامـه قائلاً:

- أعني مثقـفي هذهـ الـبلاد علىـ الأقلـ. فـهـمـ سـرـعـانـ ماـ يـنـبـطـحـونـ، وـلـيـسـتـ لـدـيـهـمـ قـنـاعـاتـ رـاسـخـةـ. أـخـلـاقـهـمـ تـكـادـ لـاـ تـسـاوـيـ إـلـاـ قـيـمـةـ تـذـكـرـةـ سـفـرـ بـالـطـائـرـةـ إـلـىـ مـؤـتمـرـ لـلـشـبـابـ، أوـ لـلـسـلـامـ، الخـ.

ولهذا فإن من لا يبيعون أنفسهم إلى المنح اليانكية وإلى المؤتمر من أجل حرية الثقافة، يقبلون الرشوة من جانب الستالينية ويتحولون إلى فجل.

لاحظ مايتا أن باييغوس قد فوجئ بما قاله، وباللهجة التي قاله بها، فكان ينظر إليه بثبات ولملعقة متوقفة في منتصف الطريق إلى فمه. لقد شوشه، بل وأثار ذعره بطريقة ما. سيئ ما فعلته يا مايتا، سيئ جداً. لماذا يستسلم دائماً للنزرق والتهاور كلما دار الحديث عن المثقفين؟ وما الذي كانه ليون دافيدوفيتش؟ وهو ما كانه أيضاً، وبعقرية، فلاديمير إيلتش. ولكنهما كانوا ثوريين أولاً وقبل أي شيء. ألسنت تتعامل على المثقفين بحقد، لأنهم جمивهم في البيرو رجعيون أو ستالينيون وليس بينهم تروتسكي واحد؟

- الشيء الوحيد الذي أردت قوله هو أنه يجب عدم الاعتماد كثيراً على المثقفين في الثورة - حاول مايتا أن يصلح الأمور، رافعاً صوته كي يكون مسموعاً وسط صخب أغنية الزنجية توماسا - يجب ألا يكونوا في الموقع الأول على أي حال. فالعمال في المكان الأول، وليهم الفلاحون. أما المثقفون ففي النهاية.

فرد باييغوس:

- وماذا عن فيديل كاسترو وأعضاء حركة 26 تموز الذين في الجبال في كوبا، أليسوا مثقفين؟
- ربما كانوا كذلك - وافق مايتا - ولكن هذه الثورة مازالت فجة. وهي ليست ثورة اشتراكية، وإنما برجموازية صغيرة. وهما أمران مختلفان.

ظل الملازم ينظر إليه مذهبًا :

- أنت تفكّر على الأقل في هذه الأمور - ثم استعاد تماستكه
وابتسامته ما بين ملائق الحسأء، وأضاف: - أنت لا تمل على الأقل
من الحديث عن الثورة.

- لا، لا أمل. بل على العكس - ابتسم مايتا.

هو لم "ينبطح" على الإطلاق... زميلي مايتا. من الانطباعات
الغامضة التي خلفتها لدى عنه تلك اللقاءات السريعة التي جرت
بيننا على امتداد سنوات، هناك انطباع من أكثرها بروزاً أحافظ
به، هو الزهد الذي يفوح من شخصه، من ملابسه، من إيماءاته.
لقد كان هناك شيء من الزهد حتى في طريقته في الجلوس في
مقهى، وفي تفحص قائمة الطعام، وفي طلب شيء من الجرسون،
وحتى في تقبّله سيجارة تقدم إليه. وكان هذا هو ما يضفي
القوة، وهالة من الاحترام على تأكيداته السياسية، مهما بدت لي
هذيانية، ومهما بدا يتيمًا من الأتباع. في المرة الأخيرة التيرأيته
فيها، قبل أسبوع من الحفلة التي تعرف فيها على بايغوس،
كان قد تجاوز الأربعين من العمر، أمضى عشرين سنة منها على
الأقل في النضال. ومهما جرى البحث والتقليل في حياته، فإنه لا
يمكن حتى لأشد أعدائه قسوة أن يتهموه بأنه قد استفاد، ولو مرة
واحدة، من السياسة. بل على العكس، فالغالب في مسيرته هو
أنه كان يوفر على الدوام، ببداهة منزهة، كل الخطوات اللازمة
ليمضي نحو الأسوأ، وليجلب لنفسه المشاكل والتعقيدات. لقد قال
لي عنه يوماً أحد أصدقائنا المشتركين : « إنه انتحاري. ليس
منتحرًا، وإنما انتحاري. إنه شخص يحب أن يقتل نفسه ببطء ».«

الكلمة تطلق شرراً في رأسي، إنها غير متوقعة، طريفة، مثل ذلك الفعل الانعكاسي الذي لا ريب لدى في أنني سمعته في تلك المرة، أثناء هجومه التشهيري ضد المثقفين.

- لماذا تضحك؟

- من الفعل "انبطح". من أين جئت به.

فابتسم مايتا:

- ربما أكون قد ابتدعته للتو. حسن، ربما كان هناك فعل أفضل منه. استسلم، تنازل، خضع. ولكنك تدرك ما أعنيه. امتيازات صغيرة تتصرف الأخلاق. رحلة صغيرة، منحة دراسية، أو أي شيء يستميل الغرور. الإمبريالية معلم في نصب مثل هذه الشراك. والستالينية كذلك. لا يمكن لعامل أو فلاح أن يسقطوا بسهولة في هذا الفخ. أما المثقفون فيتعلقون بالرضاungan ما إن يرونها أمام أفواههم. وبعد ذلك يبتعدون عن نظريات لتبرير سقوطهم.

قلت له إن ما يقوله يكاد يكون اقتباساً من آرثر كوستлер الذي قال إن «هؤلاء المعتوهين البارعين» قادرون على التبشير بحيادية الطاعون الدبلي، ذلك أنهم أتقنوا الفن الشيطاني المتمثل في القدرة على إثبات كل ما يؤمنون به والإيمان بكل ما يمكنهم إثباته. وكنت أنتظر منه أن يرد بأنه من العيب الاستشهاد بعميل معروف لك CIA مثل السيد كوستлер، ولكنني فوجئت به يقول:

- كوستلر؟ آه، أجل. ليس هناك من قدم وصفاً أفضل منه للإلهاب النفسي الستاليني.

قلت له مستفزاً:

- حذار، فهذا الطريق يوصلك إلى واشنطن وإلى المنافسة الاقتصادية الحرة.

- أنت مخطئ - قال - هذا الطريق يؤدي إلى الثورة المستمرة وإلى ليون دافيدوفيتش، أو تروتسكي كما يدعوه الأصدقاء.

- ومن يكون تروتسكي؟ - قال باييغوس.

- ثوري - أوضح له مايتا - لقد مات. إنه مفكر عظيم.

فألح الملازم بخجل:

- أهو بيروي؟

- بل روسي - قال مايتا - مات في مكسيكو.

وقالت ثوبيليتا:

- يكفي حديثاً في السياسة وإلا سأطركما. تعال يا ابن خالتي، فأنت لم ترقص رقصة واحدة. تعال، تعال وارقص معى هذا الفالس.

وصرخت أليسى طالبة النجدة من بين ذراعي بيبوتي:

- ارقصوا، ارقصوا.

فقال باييغوس:

- ومع من سأرقص؟ لقد فقدت رفيقتي.

- معى - قالت له أليسيا وهي تسحبه للرقص.

وجد مايتا نفسه في منتصف الصالة محاولاً أن يتبع إيقاعات لحن Lucy Smith، الذي كانت ثوبيليتا تترنم بكلماته بظرف شديد. وحاول كذلك أن يغنى، وأن يبتسם، بينما كان يشعر بتشنج عضلاته وبخجل شديد من أن يرى الملازم رقصه السيئ. لا بد أن الصالة لم تتغير كثيراً منذ ذلك الحين؛ وباستثناء التلف

ال الطبيعي بفعل التقادم، فإن هذه المفروشات لا بد أن تكون هي نفسها التي كانت موجودة في تلك الليلة. ليس من الصعب تصور الحجرة ممتلئة بالناس، وبالدخان، وبرائحة البيرة، والعرق على الوجوه، والموسيقى الصاحبة، بل واكتشافهما مبعدين جانباً في هذا الركن، بجانب الزهرية ذات الأزهار الشمعية، مستفرقين في تلك المحادثة حول الموضوع المهم بالنسبة لمايتا - الثورة - وهي محادثة استمرت حتى الفجر. المشهد الخارجي - الوجه، الحركات، الملابس، الأدوات - ماثل هنا، ومرئي تماماً. ولكنَّ غير المرئي بالمقابل هو ما جرى في أعماق مايتا والملازم الشاب خلال تلك الساعات. هل انبعث من ذلة اللحظة الأولى تيار من التعاطف المتبادل بينهما: تآلف، حدس متبادل للقاسم المشترك الذي يجمع بينهما؟ ربما هناك صداقات من النظرة الأولى أكثر من الغراميات من النظرة الأولى. أم أن العلاقة بينهما كانت، منذ البداية، سياسية وحسب، تحالف رجلين مشغولين بقضية مشتركة؟ ولكنَّهما تعارفاً هنا على أي حال، وهنا بالذات بدأ بينهما الحدث الأكبر أهمية في حياتيهما - دون أن يكون بمقدورهما، في فوضى الحفلة، أن يدركا ذلك.

ترجموني دونيا خوسيفا اريسوينيو:

- إذا كتبت شيئاً، فلا تذكر اسمي بأي حال. أو بدل الاسم على الأقل، وخاصة عنوان البيت. صحيح أن سنوات كثيرة قد انقضت، ولكن لا أحد يعرف ما الذي يمكن أن يحدث في هذه البلاد. إلى اللقاء.

وقال له باييغوس:

– آمل أن نلتقي. سنواصل الحديث في يوم ما. ويجب أن أشكرك، لأنني تعلمت منك أشياء كثيرة.

– إلى اللقاء يا سيدتي – مدحت يدي إليها وشكرتها على صبرها.

إنني عائد إلى بارانكو مشياً على الأقدام، وبينما أنا أجتاز ميرافلوريس تتلاشى الحفلة من ذهني، دون أنأشعر، وأكتشف أنني أستعيد ذكرى ذلك الإضراب عن الطعام الذي أقدم عليه مايتا، حين كان في الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة من عمره، لكي يتماثل مع الفقراء، فمن كل الحديث الذي أجريته مع خالته – عرابته، كان طبق حساء الظهيرة ذاك، وكسرة الخبز الليلية اللذان كانا غذاءه طوال ثلاثة أشهر، هما الصورة الغالبة: إنها صور نقية، طفولية، نبوئية، تمحو كل ما عدتها.

– إلى اللقاء – قال له مايتا موافقاً – أجل، بالطبع، سنواصل أحديثنا.

الفصل الثاني

يقوم مقر مركز العمل من أجل التطوير في شارع باردو، في حي ميرافلوريس، وهو أحد بيوت قليلة مازالت صامدة أمام تقدم العمارات التي راحت تحل، واحدة بعد أخرى، محل منازل الآجر والخشب المحاطة بحدائق تمنح فيها روؤس أشجار الفيكو ظلاً وخفيف أوراق ولغط عصافير دوري، هذه الأشجار التي كانت سيدة الشارع تحولت الآن إلى أقزام ضئيلة أمام ناطحات السحاب. حُسنْ ذوقِ موسيس - أو "الدكتور" موسيس باري لييفا، كما ذكرتني سكريتيرة المدخل - ملأ البيت بقطع أثاث من الطراز الاستعماري، تتوافق مع هندسة البناء، وهو واحد من تلك المباني التي كانت تحاكى في الأربعينيات الطراز العماري لعصر نواب الملك - شرفات بمشريبيات، أفنااء ا شبيلية، أقواس موريسكية، نوافير من القيشاني - والتي لا تخلو من فتنة. البيت يلمع، وتلاحظ حركة نشطة في الحجرات المطلة على الحديقة المشذبة والمروية جيداً. هناك حارسان مسلحان بالبنادق يتمشيان في بهو المدخل، وقد فتشاني عند الدخول ليتأكدوا من أنني لا أحمل سلاحاً. وبينما أنا أنتظر موسيس، رحت أتفحص مطبوعات المركز الأخيرة المعروضة في خزانة زجاجية مضاءة بمصابيح نيون. دراسات اقتصادية، وإحصائية، واجتماعية، وسياسية، وتاريخية، كتب

جيدة الطباعة ذات أغلفة متينة مزينة بشعار يمثل طائراً بحرياً خرافياً. مؤسس باري لييفا هو العمود الفقري لمركز العمل من أجل التطوير الذي يعتبر أحد أنشط المؤسسات الثقافية في البلاد، وذلك بفضل مهارة مؤسس التوفيقية، وظرافته الشخصية وقدرته العجيبة على العمل. ولكن ما هو أكثر استثنائية في مؤسس، أكثر من إرادته الإعصارية ومن تفاؤله المُجرب بالرصاص، هو مهارته التوفيقية، وهذا علم ضد هيغلي يتلخص في مصالحة الأصدقاء، وفي جعل الكلب والفار والقط يأكلان من طبق واحد مثلاً فعل قديس ليما، سان مارتين دي بوريس، وبفضل عبقرية مؤسس في الجمع بين النمائين، يتلقى المركز مساعدات، ومنحاً دراسية، وقوضاً، من الرأسمالية ومن الشيوعية، من أشد الحكومات والهيئات محافظة ومن أكثرها ثورية، فواشنطن أو موسكو، بون أو هافانا، باريس أو بكين، جميعها على السواء تعتبر المركز مؤسسة لها، وهي مخطئة في ذلك بالطبع. فمركز العمل من أجل التطوير هو لمؤسس باري لييفا ولن يكون لأحد سواه إلى أن يتحقق من الوجود، ومن المؤكد أنه سيتحقق من الوجود معه، لأنه ليس هناك في هذه البلاد من هو قادر على الحلول محله فيما يعمله.

لقد كان مؤسس في أزمنة مايتا ثوريًا يعمل في السرية؛ أما الآن فهو مثقف تقدمي. الملهم المركزي في حكمته هو أنه حافظ على نقاء صورته كرجل يسارى، بل ورسخها بقدر ما كان المركز يزدهر، ويزدهر هو أيضاً مع المركز. وهكذا كان بمقدوره الحفاظ على علاقات ممتازة مع أشد الخصوم

الأيديولوجيين تباعياً، فقد استطاع إقامة علاقة جيدة مع كل الحكومات التي سيطرت على هذه البلاد خلال العشرين سنة الماضية دون أن يستسلم لأي منها. فبحاسة شم محكمة للجرائم والنسب والأبعاد، كان يعرف كيف يُبطل أي التزام مبالغ فيه لإحدى الإدارات بتعويضات خطابية استعراضية للجهة المضادة. فحين أسمعه يتكلم في حفلة كوكتيل باندفاع عن نهب مواردنا على يد الشركات متعددة الجنسيات أو ضد التغلغل الثقافي للإمبريالية التي تفسد ثقافتنا العالمية ثلاثة، أعرف أن مساهمات الأميركيين في تمويل برامج المركز كانت أكبر من مساهمات خصومهم، وإذا ما لاحظته في معرضٍ أو حفلة موسيقية يتتبه فجأة إلى التدخل السوفييتي في أفغانستان، أو يتأمل لقمع منظمة تضامن في بولونيا، فإنه يكون في هذه المرة قد حصل على مساعدة ما من البلدان الشرقية. بهذه المراوغات والحيل يستطيع أن يؤكّد استقلاليته الأيديولوجية واستقلالية المؤسسة التي يديرها. جميع السياسيين البيروفيين القادرين على قراءة كتاب - وهم غير كثيرين - يظنونه مستشارهم الفكري، وهم واثقون من أن المركز يعمل من أجلهم مباشرة، وهو أمر ، بمعنى غامض، لا يخلو من الصحة. فقد كانت لدى موسيس الحكمة لجعلهم جميعاً يشعرون بأنه من المناسب لهم إقامة علاقات جيدة مع المؤسسة التي يديرها، ورغم كل شيء، فقد كان هذا الإحساس يتاسب والحقيقة، فاليمينيون يشعرون من خلال علاقتهم بالمركز بأنهم أصلاحيون، أواشتراكيون ديمقراطيون، بل واشتراكيون تقريباً؛ أما اليساريون، فإن العلاقة بالمركز تهذبهم وتهدهم، وتضفي عليهم

شيئاً من المظهر التقني، أو البريق الثقافي؛ وال العسكريون يقيمون علاقة بالمركز لكي يشعروا بأنهم مدنيون، ورجال الدين لكي يشعروا بأنهم علمانيون، والبرجوازيون يشعرون بأنهم بروليتاريون وأرضيون.

ولأن موسيس يحقق النجاح، فإنه يوقد في النفوس حسداً قوياً، وهناك كثيرون يتكلمون عنه بالسوء ويسخرون من الكاديلاك التي بلون شالة النبيذ، والتي يتجلو بها في الشوارع وأسوأ الألسنة هي بالطبع ألسنة التقدميين الذين هم بفضل المركز - أي بفضلـه هو - يأكلون ويلبسون ويكتبون وينشرون ويسافرون إلى مؤتمرات، ويحصلون على منح، وينظمون ندوات ومحاضرات ويضخمون ملفهم كتقدميين. وهو يعرف الأشياء التي تقال عنه ولا يهتم بها، أو أنه يخفى اهتمامه إذا كان يهتم بها. نجاحه في الحياة وفي الحفاظ على صورته يعتمد على فلسفة لا تتبدل مطلقاً قيد أنملة: من الممكن أن يكون موسيس باربي لييفا أعداء، ولكن موسيس باربي لييفا ليس عدواً لأحد من لحم وعظم، اللهم إلا تلك المسوخ المجردة - الإمبريالية، الإقطاع، العسكرية، الأوليغارشية، الـ CIA، إلى آخره - والتي تفيده في أهدافه تماماً مثلما يفيده أصدقاؤه (وهؤلاء الأصدقاء هم بقية الإنسانية الحية). إن المتطرف الذي كانه مايتا قبل ثلاثين سنة، سيقول عنه دون شك، إنه الحالة التقليدية للمثقف الثوري الذي "أنبطح" ، وربما يكون قوله صحيحاً ودقيقاً. ولكن، هل يعترف مايتا بأنه على الرغم من كل الصفقات وكل التخلف الذي يمارسه موسيس باربي لييفا في هذا البلد الشيطاني الذي يعيش فيه، فإنه قد

توصل إلى تمكين عشرات المثقفين من العيش والعمل بدل أن يتکاسلوا في عالم جامعي محدود وفاسد بسبب الإحباط والملائئ، وإنه أتاح لعشرات غيرهم أن يسافروا، ويلتحقوا بدورات تخصص، ويبقوا على اتصال مثمر مع زملائهم في بقية أنحاء العالم؟ هل سيعترف مايتا بأن موسيس باربي لييفا، ورغم كونه "منبطحاً"، قد حقق، هو وحده، ما كان يجب أن تتحققه وزارة التربية، أو معهد الثقافة أو أي جامعة من جامعات البيرو، ولم يفعله أي شخص أو هيئة أخرى؟ لا، لن يعترف بشيء من هذا. لأن هذه الأمور بالنسبة إلى مايتا هي ابتعاد عن المهمة الرئيسية، عن الواجب الوحيد لكل من له عين ترى وكرامة للعمل: النضال الثوري.

- مرحباً - ويمد لي موسيس يده.

- مرحباً يا رفيق - رد مايتا.

كان مايتا هو الشخص الثاني في المجيء، وهو أمر استثنائي، لأنه في كل اجتماع للجنة المركزية كان هو نفسه من يفتح كراج ثوريتوس الذي يستخدم مقراً لحزب العمال الثوري (ت). كل واحد من أعضاء اللجنة السبعة يملك مفتاحاً، وكل منهم يستخدم الكراج أحياناً لينام فيه، إذا لم يكن لديه سقف آخر، أو لإنجاز عمل ما. والجامعيان اللذان في اللجنة، أي الرفيق أنطوليتو والرفيق ميداردو، يحضران هنا لامتحاناتهم.

فوجئ الرفيق ميداردو:

- لقد سبقتك في المجيء اليوم. يا للمعجزة.

- الليلة الماضية كنت في حفلة ونمت متأخراً جداً.

- أنت، في حفلة؟ - ضحك الرفيق ميداردو - هذه معجزة أخرى.

- أمر مشوق - أوضح مايتا - ولكن ليس ما تفكر فيه.
سأطلع الآن بالذات اللجنة المركزية على كل شيء.

لم يكن هناك خارج الكراج ما يشير إلى نوعية النشاطات التي تجري في الداخل، أما في المكان فكان هناك ملصق معلق على الجدار عليه الوجوه الثلاثة الملتحية: ماركس ولينين وتروتسكي، أحضره الرفيق خاثينتو من اجتماع للمنظمات التروتسكية في مونتيفيديو. وإلى جانب الجدار توجد رزم ملقة بإهمال من صوت العمال ونشرات وبيانات ودعوات للإضراب أو استrikارات لم يتمكنوا من توزيعها. وكان هناك كرسيان منزوعا السطح ومقاعد بثلاث قوائم تبدو وكأنها مقاعد حلبة أو روحانيين. وعدة فرشات مكونة فوق بعضها البعض ومغطاة بملاءة، تستخدم كمقعد للجلوس أيضاً عند الحاجة. وعلى رف من آجر وألواح خشبية تطبع بعض الكتب المغطاة بغبار كلاسي، وفي أحد الأركان يوجد هيكل دراجة ثلاثة العجلات بلا عجلات. وقد كان مقر حزب العمال الثوري (ت) ضيقاً إلى حد أن حضور ثلث أعضاء اللجنة المركزية يعطي الانطباع باكتمال النصاب.

- أتقول مايتا؟ - تراجع موسيس إلى الوراء في كرسيه الهزار وتفحصني غير مصدق.

فقلت له:

- أجل، مايتا. هل تتذكره؟
استعاد رصانته وابتسامته.

- طبعاً، وكيف لا أتذكره. ولكن الأمر يثير اهتمامي. فمن في بيرو يتذكر اليوم مايتا.

- أنس قليلون. ولهذا، فإنني أحاول أن أعتصر ذاكرة القلة الذين يتذكرون.

أعرف أنه سيساعدني، لأن موسيس رجل خدوم، وهو مستعد على الدوام لم يد العون إلى الجميع، ولكننيلاحظ كذلك أنه لا بد له قبل ذلك من كسر حاجز الحذر النفسي، وإظهار بعض العنف، لأنه هو ومايتأنا قريبين جداً أحدهما من الآخر، وكانا دون شك صديقين حميمين. هل يزعجه تذكر الرفيق مايتأنا في هذا المكتب الممتلىء بكتب مجلدة، وبخريطة للبيرو القديمة على رق من الجلد وخزانة زجاجية فيها قطع خزفية أثرية بأوضاع فاحشة؟ أ يجعله ذلك يشعر بأنه في وضع زائف بعض الشيء وهو يضطر إلى العودة للحديث عن تلك الأعمال والأوهام التي تقاسماها هو ومايتأنا ربما. فأنا نفسي الذي لم أكن رفيقاً سياسياً لمايتأنا، يسبب لي تذكرة بعض الكدر، فكيف الأمر بالنسبة إلى مدير مركز العمل من أجل التطوير...

- إنه شخص طيب - يقول ذلك بحذر، وهو ينظر إلى في الوقت نفسه راغباً في أن يكتشف، بأكثر الطرق سرية،رأيي الشخصي بمايتأنا - مثالي، طيب النوايا. ولكنه ساذج، حالم. أنا أشعر على الأقل بأن ضميري نظيف فيما يتعلق بكارثة خاوحا تلك. لقد حضرته من التهور الجنوني الذي سيورط نفسه فيه، وحاولت أن أجعله يتربوي. ولكنني كنت أضيع وقتى بالطبع، فقد كان بغلأً عنيداً.

- إنني أحاول أن أعيد بناء بداياته السياسية - قلت له موضحاً - لست أعرف الكثير، اللهم إلا أنه وهو فتي جداً، عند الانتهاء من

المدرسة أو في السنة التي أمضتها في جامعة سان ماركوس،
صار أبريستا. وبعد ذلك...

فيقول موسيس:

- بعد ذلك صار كل شيء، هذه هي الحقيقة. أبريستا، شيوعي، انصاري، تروتسكي. كل الطوائف والمذاهب. وهو لم يتقل إلى غيرها لأنه لم يكن هناك المزيد حينذاك. لديه الآن احتمالات أكثر. إننا نقوم هنا في المركز الآن بإعداد جدول بكل الأحزاب، والجماعات، والتحالفات، والفصائل، والجبهات اليسارية الموجودة في بيرو. كم تقدر عددها؟ إنها أكثر من ثلاثين. يخطب على المنصة ويتحذّل مظهر المتأمل. ثم يضيف فجأة بجدية كبيرة:

- ولكن يجب الاعتراف بشيء. ففي كل تلك التبدلات التي مرّ بها مايتا، لم يكن هناك أدنى ذرة من الانتهازية. ربما كان متقلباً، طائشاً، وكل ما تشاء، ولكنه كان أيضاً أكثر الناس نزاهة في العالم. سأقول لك شيئاً آخر. لقد كان لديه ميل إلى التدمير الذاتي.. إلى الهرطقة، شيء من شخصية المتمرد العضوي. ما إن يدخل في أمر حتى يبدأ بخلاف وينتهي إلى النشاط الانشقاقي. لقد كانت النزعة التي تفوق فيه كل النزعات الأخرى هي الخلاف. يا للرفيق مايتا المسكين! أي مصير تعس انتهى إليه، أليس كذلك؟

- فُتحت الجلسة - قال ذلك الرفيق خاثينتو. وهو أمين عام جمع ث (ت) والأكبر سنًا بين الخمسة الحاضرين. كان هناك عضوان غائبان: الرفيق باياردي والرفيق كارلوس. وبعد أن انتظروهما

نصف ساعة، قرروا بدء الاجتماع من دونهما. قدم الرفيق خاثينتو، بصوت مبحوح، ملخصاً للجتماع الأخير الذي عُقد قبل ثلاثة أسابيع. لم يكن لديهم سجل لمحاضر الجلسات، على سبيل الحি�طة، ولكن الأمين العام كان يسجل في دفتر صغير الموضوعات الرئيسية لكل مناظرة وها هو الآن يراجع دفتره - إنه يجدد عينيه كثيراً - بينما هو يتكلم. كم يبلغ عمر الرفيق خاثينتو؟ ستون سنة، وربما أكثر. إنه تشولو¹، قوي ومنتصب القامة، له غرة من الشعر فوق الجبهة ومظهر رياضي بيده أكثر شباباً، لقد كان لقية أثرية في المنظمة، ذلك أنه عاش تاريخها منذ تلك المجتمعات، في بداية الأربعينات، في بيت الشاعر رافائيل مينديث دوريتش، حين وصلت الأفكار التروتسكية إلى البيرو على يد بعض السورياليين العائدين من باريس من أمثال ويستقالين، وابريل دي بيبيرو، ومورو. وقد كان الرفيق خاثينتو أحد أول المؤسسين لأول منظمة تروتسكية، الجماعة العمالية الماركسية، في عام 1946، وهي بذرة حـ ث؛ وفي شركة الأسمدة المغفلة (فيرتيسا)، حيث كان يعمل قبل عشرين سنة، كان عضواً على الدوام - بأغلبية ضئيلة - في القيادة النقابية، على الرغم من عداء الأبرистا وجامعة الفجل. لماذا بقي معهم بدل أن يذهب مع جماعات أخرى؟ لقد كان مايتا سعيداً جداً بذلك، ولكنه لم يكن يفهم السبب. فكل الحرس التروتسكي القديم، جميع معاصري الرفيق خاثينتو بقوا في حـ ث. فلماذا جاء هو بالمقابل إلى حـ ث (ت)؟

¹- تشولو Cholo : هجين من أب أبيض وأم هندية.

الكى لا يبتعد عن الشباب؟ لا بد أن هذا هو السبب، فمايتأتى لا يبدو مرتاباً بأن الرفيق خائينتو مهمـم كثيراً بالمناظرة التروتسكية الدولية ما بين «البابلوبين» و«المناهضين للبابلوبية».

قال الأمين العام:

- مسألة صوت العمال هي المسألة الأشد إلحاحاً.

ويقول لي موسيس:

- طفولة يسارية، افتتان بالخلاف، لست أدرى ما أسمى ذلك. مرض التطرف اليساري. المضي أبعد في الثورية، أبعد في اليسارية، أبعد في الجذرية... كان هذا هو موقف مايتأتى طوال حياته. فحين كنا في الشبيبة الأبرистا، وكنا صبيين صغيرين، وكان حزب الأبرا في السرية، قدم لنا مانويل سيوناس بعض المحاضرات حول نظرية المكان - الزمان التاريخي لهاياً دي لا توري وحول دحضاها للماركسية وتفوقها الجدلية عليها. وافتتح مايتأتى بالطبع بأنه لا بد لنا من دراسة الماركسية، لنعرف ما هو هذا الشيء الذي دحضناه وتجاوزناه. شـكـل حلقة لذلك، وبعد بضعة شهور فرضت علينا قيادة الأبريستا عقوبة انضباطية. وهكذا انتهينا، دون أن ندري كيف، إلى التعاون مع الفجلين. وكانت النتيجة هي تعميدنا شيوعيين.

يضحك وأضحك أنا أيضاً. ولكننا لا نضحك للأسباب نفسها. فموسيس يضحك لأنـعـابـ الأـطـفالـ المـسيـسـينـ باـكـراًـ، مـثـلـماـ كانـ حالـهـ هوـ وـماـيـتأـ آـنـذـاكـ، ويـحاـوـلـ بـضـحـكـتـهـ أـنـ يـقـنـعـنـيـ بـأـنـهـ لمـ تـكـنـ لـكـ ذـلـكـ أـدـنـىـ أـهـمـيـةـ، وـأـنـهـ كـانـتـ مـجـرـدـ حـصـبـةـ أـطـفـالـ، وـأـحـدـاثـ طـرـيـفـةـ ذـهـبـتـ مـعـ الـرـيـحـ. وـأـنـاـ أـضـحـكـ لـصـورـتـيـنـ فـوـتـوـغـرـافـيـتـيـنـ

اكتشفت وجودهما لحظةً على مكتبه. صورتان تقابلان وتعادلان بتوازن، وكل منها في إطار فضي: موسيس يصافح السناتور روبرت كندي، أثناء زيارته للبيرو من أجل تشجيع التحالف من أجل التقدم، وموسيس إلى جانب الرئيس ماو تسي تونغ في بكين، مع وفد أمريكي لاتيني. وهو في الصورتين كاتيهما بيتسم بحيادية.

- فليقدم المسؤول تقريره - أضاف الرفيق خاثينتو.

وكان المسؤول عن صوت العمال هو مايتا نفسه. فهز رأسه ليبعد عنه صورة الملائم باليخوس الذي كان يلاحقه مع نعاس شديد منذ استيقظ صباح هذا اليوم دون أن ينال جسده سوى ثلاثة ساعات من النوم. نهض واقفاً. وأخرج القصاصة الصغيرة التي تتضمن مخطط ما سيقوله.

- أجل أيها الرفاق، صوت العمال هي المسألة الأكثر إلحاحاً ويجب علينا حلها اليوم بالذات. - قال ذلك وهو يكبح ثاؤباً الواقع أنهما مشكلتان، ويجب علينا أن نعالجهما منفصلتين. المشكلة الأولى هي التسمية، وقد نشأت هذه المشكلة من خروج الانقساميين. والثانية هي المشكلة الدائمة، التمويل.

جميعهم كانوا يعرفون ما الذي يعنيه، ولكن مايتا ذكر كل شيء بكثير من التفصيل. فقد علمته التجربة بأن هذا الإسهاب في عرض الموضوع يوفر الوقت فيما بعد، أثناء المناقشة. المسألة الأولى: هل عليهم أن يواصلوا إطلاق اسم صوت العمال مع إضافة (ت) إلى لسان حال الحزب؟ لأن الانقساميين قد أصدروا صحيفتهم باسم صوت العمال، مستخدمين الشكل نفسه، لكي يجعلوا الطبقة

العاملة تعتقد بأنهم هم من يمثلون استمرارية حـث وبيان حـث (ت) هو المنشق. إنها مناورة قدرة بالطبع. ولكن، لابد من مواجهة الأمر الواقع. فوجود حزبين باسم حزب العمال الثوري سيؤدي إلى ببلة الشغيلة. ووجود صحيفتين باسم صوت العمال، حتى ولو حملت إحداهما حرف (ت) من تروتسكي، فإن ذلك سيزيد في الببلة. ومن جهة أخرى، فإن كل مواد العدد الجديد كانت منضدة في مطبعة كوتشاراكاس، ولهذا لا بد من اتخاذ قرار الآن. هل نطبع الصحيفة باسم صوت العمال (ت) أم نغير الاسم؟ توقف لحظة، ريثما يشعل سيجارة، ليرى إذا ما كان الرفاق خائينتو أو ميداردو أو أناتولييو أو خواكين سيقولون شيئاً. وبما أنهم بقوا صامتين، فقد واصل كلامه مطلقاً نفثة من الدخان:

- المشكلة الثانية هي عجز بمبلغ خمسين سول من أجل دفع تكاليف هذا العدد. لقد حذرني المشرف على المطبعة من أن التكاليف ستزداد مقدار عشرين بالمئة اعتباراً من العدد القادم لأن سعر الورق قد ارتفع.

كانت مطبعة كوتشاراس تتناقض منهم بمبلغ ألفي سول مقابل طباعة ألف نسخة، من ملزمتين، وكانوا يبيعون النسخة بثلاثة سولات. فإذا ما نفذت الطبعة، سيحصلون - نظرياً - على ألف سول أرباحاً. أما عملياً، فإن الأكشاك تتناقض عمولة تبلغ خمسين بالمئة من سعر كل نسخة تباع، ولهذا - ولأنه لم تكن هناك إعلانات - فإنهم يخسرون خمسين سنتاً في كل نسخة. ولا تتحقق ربحاً إلا تلك النسخ التي يبيعونها بأنفسهم عند أبواب المصانع والجامعات والنقابات. ولكن، مثلما تشهد هذه الرزم من الأعداد

المُصفرة التي تحيط بصورة محبطة للهمم بأعضاء اللجنة المركزية لـ حـ عـ ثـ (تـ) في كراج جادة ثوريتوس، لم تتفـدـ الأـ لـ فـ نـ سـ خـةـ كلـهاـ،ـ اللـهـمـ إـ لـاـ فـيـ مـرـاتـ قـلـيلـةـ،ـ وـقـدـ كـانـ بـيـنـ تـلـكـ النـسـخـ المـوـزـعـةـ جـزـءـ لـاـ بـأـسـ بـهـ غـيرـ مـبـيـعـ،ـ إـنـماـ مـهـدـىـ.ـ لـقـدـ كـانـ صـوتـ العـمـالـ خـاسـرـةـ دـائـمـاـ.ـ وـلـاـ بـدـ أـنـ الـوـضـعـ سـيـسـوـهـ الـآنـ،ـ بـعـدـ الـانـشـاقـاقـ.

حاول مايتا أن يبتسم ابتسامة مشجعة:

— ليست نهاية العالم أيها الرفاق. لا تُظهروا هذه الوجوه الكئيبة. فمن الأفضل أن نجد حلّاً ما.

— لقد طردوه من الحزب الشيوعي عندما كان في السجن، هذا إذا لم تخني الذاكرة. يقول موسيس متذكراً — ولكنها ربما تخونني، إنني أضيع مع كل تلك الانقسامات والمصالحات.

وأسأله:

— هل بقي طويلاً في الحزب الشيوعي؟ أعني هل بقيتما؟
— بقينا ولم نبق، فهذا يعتمد على النقطة التي تنظر منها. فنحن لم ننضم إلى عضوية الحزب مطلقاً ولم نحصل على بطاقة العضوية. ولكن أحداً لم يكن يملك بطاقة عضوية في ذلك الحين. فقد كان الحزب غير شرعي وكان صغيراً جداً. كنا نصيرين أكثر منا عضوين عاملين. وفي السجن، بدأ مايتا بروحه الخصامية، يشعر بتعاطفات هرطوبية. وأخذنا نقرأ تروتسكي، وكانت منقاداً له. وكان التروتسكيون يقدمون في باحة السجن محاضرات للسجناء عن السلطة المزدوجة، والثورة الدائمة، وعن جمود الستالينية. وفي أحد الأيام جاءه خبر بأن الفجلين قد فصلوه، متهمينه بالتطرف اليساري، والتحريفية، والاستفزاز،

والتروتسكية، إلى آخره. وبعد وقت قصير من ذلك خرجت منفيًا إلى الأرجنتين. وحين رجعت، كان ما ياتا قد صار عضواً في حـثـ. ولكن، ألا تشعر بالجوع؟ هـلـمـ بـنـاـ إذـنـ لـتـاـوـلـ الـغـدـاءـ.

كـانـ ظـهـيرـةـ صـيفـيـةـ رـائـعـةـ، بـشـمـسـ بـيـضـاءـ وـعـمـودـيـةـ تـبـهـجـ الـبـيـوـتـ وـالـنـاسـ وـالـأـشـجـارـ، حـينـ خـرـجـناـ فـيـ سـيـارـةـ مـوـسـيـسـ الـكـادـيـلـاكـ الـلـامـعـةـ الـتـيـ بـلـوـنـ ثـمـالـةـ النـبـيـذـ إـلـىـ شـوـارـعـ مـيـرـاـفـلـورـيـسـ الـمـزـحـمـةـ أـكـثـرـ مـنـ الـأـيـامـ الـأـخـرـىـ بـالـدـورـيـاتـ الـشـرـطـيـةـ وـسـيـارـاتـ الـجـيـبـ الـعـسـكـرـيـةـ الـمـحـمـلـةـ بـجـنـوـدـ يـعـتـمـرـونـ الـخـوـذـ.ـ هـنـالـكـ مـدـفعـ رـشاـشـ عـنـدـ مـدـخـلـ الـطـرـيقـ الـمحـوريـ، مـحـمـيـ بـأـكـيـاسـ رـملـ، تـحـتـ إـشـرـافـ مـشـاهـةـ الـبـحـرـيةـ.ـ لـدـىـ مـرـورـنـاـ أـمـامـ الـمـوـقـعـ كـانـ الضـابـطـ الـذـيـ يـقـوـدـ يـتـكـلـمـ فـيـ جـهـازـ لـاسـلـكـيـ نـقـالـ.ـ وـيـقـولـ مـوـسـيـسـ:ـ فـيـ يـوـمـ كـهـذاـ مـنـ الـمـنـاسـبـ تـتـاـوـلـ الـطـعـامـ قـرـبـ الـبـحـرـ.ـ أـنـذـهـبـ إـلـىـ الشـاطـئـ الـأـخـضـرـ أـمـ إـلـىـ السـوـيـسـيـ ذـيـ النـعـلـ؟ـ مـطـعـمـ الشـاطـئـ الـأـخـضـرـ أـقـرـبـ وـمـحـمـيـ أـكـثـرـ مـنـ الـهـجـمـاتـ الـمـحـتمـلـةـ.ـ وـفـيـ الـطـرـيقـ، تـحـدـشـاـ عـنـ حـثـ ثـخـلـالـ السـنـوـاتـ الـأـخـيـرـةـ مـنـ دـكـتـاتـورـيـةـ أـوـدـرـيـاـ، 1955ـ وـ1956ـ،ـ حـينـ كـانـ الـمـعـتـقـلـوـنـ السـيـاسـيـوـنـ يـخـرـجـوـنـ مـنـ السـجـنـ وـالـمـنـفـيـوـنـ يـرـجـعـوـنـ إـلـىـ الـبـلـادـ.

قال موسيس:

- بيـنيـ وـبـيـنـكـ، لـقـدـ كـانـ مـسـأـلـةـ حـثـ تـلـكـ مـجـرـدـ مـزـحةـ.ـ إنـهـاـ مـزـحةـ جـديـةـ بـالـطـبـعـ بـالـنـسـبـةـ لـمـنـ كـرـسـواـ لـهـاـ حـيـاتـهـمـ وـانتـهـواـ إـلـىـ الـدـمـارـ.ـ وـمـزـحةـ مـأـسـاوـيـةـ لـمـنـ أـجـبـرـواـ عـلـىـ الـقـتـلـ.ـ وـمـزـحةـ سـمـجـةـ لـمـنـ نـشـفـوـ رـؤـوسـهـمـ بـمـنـشـورـاتـ اـسـتـمنـائـيـةـ وـمـجـادـلـاتـ قـاحـلةـ.ـ وـلـكـنـهاـ،ـ مـنـ أـيـ جـانـبـ نـظـرـتـ إـلـيـهـاـ،ـ تـبـقـىـ مـزـحةـ لـأـرـسـ لـهـاـ وـلـأـسـاسـ.

لقد تحقق ما كنا نخشأه. فالشاطئ الأخضر يغص بالزيائن.
فتشتّنا موظفو أمن المطعم قبل أن ندخل وترك موسيس مسدسه مع
الحراس. وقد أعطوه إشعاراً أصفر اللون. وبينما كنا ننتظر أن
تخلو إحدى الطاولات، أجلسونا تحت مظلة من القش، ملاصقة
لكاسر الأمواج. ورحنَا نشرب كأساً من البيرة الباردة، ونرى
اصطدام الأمواج ونشعر برذاذ البحر على وجوهنا.

- كم كان عدكم في حـث في زمن مايتا؟ - سألهـ.
غرق موسيس في التفكير وشرب رشفة كبيرة خلفت له
كمامة من الرغوة. مسح فمه بمنديل ورقي. هز رأسه، مع ابتسامة
ساخـرة كانت تطفـو على وجهـه، ودمـدم:

- لم يتجاوز العدد العـشرين شخصـاً على الإطلاقـ. إنه يتـكلـم
بصوت منخفض جداً إلى حد أنه يتـوجب علىـ أن أـدنـي رـأـسي منهـ
كي لا أـضـيع ما يـقولـهـ:ـ كانـ هذاـ العـددـ هوـ الذـروـةـ. وقدـ احتـفلـناـ
بـذـلـكـ فيـ حـانـةـ صـفـيرـةـ. فقدـ صـرـنـاـ عـشـرـينـ. بعدـ ذـلـكـ بـقـلـيلـ جاءـ
الـانـشـاقـ. «ـبـابـلـوـيـونـ» وـ«ـمـناـهـضـونـ لـبـابـلـوـيـةـ». أـلـاـ تـذـكـرـ الرـفـيقـ
مـيكـائـيلـ بـابـلـوـ؟ـ صـارـ هـنـاكـ حـثـ منـ جـهـةـ وـحـثـ (ـتـ)ـ منـ جـهـةـ
أـخـرىـ. هلـ كـنـاـ نـحـنـ «ـبـابـلـوـيـونـ»ـ أمـ مـنـاهـضـينـ؟ـ أـقـسـمـ لـكـ بـأـنـنيـ لـمـ
أـعـدـ أـتـذـكـرـ.ـ كـانـ مـاـيـتاـ هوـ الـذـيـ يـورـطـنـاـ فـيـ هـذـهـ الـحـيـلـ
الـأـيـديـولـوـجـيـةـ.ـ أـجـلـ،ـ لـقـدـ تـذـكـرـتـ،ـ لـقـدـ كـنـاـ «ـبـابـلـوـيـونـ»ـ وـهـمـ كـانـواـ
مـنـاهـضـينـ.ـ نـحـنـ سـبـعـةـ وـهـمـ ثـلـاثـةـ عـشـرـ.ـ وـقـدـ اـحـفـظـوـاـ بـالـاسمـ وـكـانـ
عـلـيـنـاـ أـنـ نـضـيفـ (ـتـ)ـ إـلـىـ اـسـمـ حـزـبـ الـعـمـالـ الثـوـرـيـ.ـ وـلـمـ يـزـدـدـ عـدـدـ
أـعـضـاءـ أـيـ منـ الـفـرـيقـيـنـ بـعـدـ الـانـقـسـامـ،ـ وـهـذـاـ أـمـرـ أـنـاـ مـتـأـكـدـ مـنـهـ
تـامـاـ.ـ وـبـقـيـ الـوـضـعـ عـلـىـ هـذـهـ الـحـالـ إـلـىـ أـنـ وـقـعـتـ قـضـيـةـ خـاـوـخـاـ.

عندئذ اختفى جماعة ح ع ث وبدأت قصة أخرى. لقد كان أمراً طيباً بالنسبة لي. فقد انتهيت منفياً في باريس، واستطعت أن أقدم أطروحتي وأن أهتم بأمور جدية.

- المواقف واضحة وسبل الجدال مستفيدة. - قال ذلك الرفيق اناتولي.

- معك حق - ز مجر الأمين العام - فلنصوت برفع الأيدي. من يؤيد؟ اقتراح مايتا - تعديل الاسم من صوت العمال (ت) إلى صوت البروليتاريا - رُفض بثلاثة أصوات مقابل صوتين. وكان صوت الرفيق خاثينتو هو الحاسم. وعلى حجة مايتا وخواكين - البلبلة التي يعنيها وجود صحيفتين بالاسم نفسه تهاجم كل منهما الأخرى رد كل من ميداردو وأناتولي بأن التبديل سيبدو كما لو أنه مصادقة على ادعاءات الخصوم، والموافقة على أنهم هم، جماعة ح ع ث، وليس نحن في ح ع ث (ت) من يحافظ على خط الحزب، ألا يكاد هذا أن يعادل مكافأة الخيانة؟ وحسب رأي ميداردو واناتولي فإن تماثل الأسمين - وهي مشكلة عابرة - سيتضح في وعي الطبقة العاملة حين تتميز الفروق من خلال المقالات والافتتاحيات والأخبار والعقيدة المتماسكة التي ستثبت من هي الصحيفة الماركسية والمناهضة للبيروقراطية حقاً ومن هي المدعية. كانت المناقشة حامية، طويلة، وكان مايتا يفكر في كم كان الحديث أكثر متعة في اليوم السابق مع ذلك الشاب المثالي الأبله. وفكّر: «لقد فقدت هذا الصوت بسبب الذهول، بسبب قلة النوم». ليس مهماً، إذا كان الإبقاء على الاسم سيسبب مزيداً من الصعوبات في توزيع صوت العمال (ت)، فسيكون بالإمكان طلب

إعادة النظر بالاتفاق، حين يكون أعضاء اللجنة المركزية السبعة حاضرين.

- هل أنت متأكد من أنكم كنتم سبعة فقط حين تعرف مايتا على الملازم باييخوس؟

- أنت تتذكر باييخوس أيضاً - ابتسم موسيس. وكان يتفحص قائمة الطعام ويطلب حساء قريديس ورزاً مع المحار. فقد تركتُ أمر اختيار ما سنأكله قائلاً له إن اقتصاديًّا منبطحاً مثله يستطيع عمل ذلك خيراً مني... أجل سبعة. لست أذكِر أسماء الجميع، ولكنني أذكر أسمائهم المستعارة. الرفيق خاثينتو، الرفيق أناطولي، الرفيق خواكين... وأنا كنتُ آنذاك الرفيق مداردو. ألا ترى كم هزَّلت قائمة مأكولات الشاطئ الأخضر منذ بدأ التقنيين؟ إذ اضطرت الأمور على هذا المنوال فستغلق جميع مطاعم ليما أبوابها عما قريب. لقد أجلسونا على طاولة في عمق المحل، لا يكاد يمكن لنا أن نلمح منها البحر الذي تخفيه رؤوس الزبائن: إنهم سائرون ورجال أعمال وعشاق وموظفو شركة يحتفلون بعيد ميلاد أحدهم. ولا بد أن هناك سياسياً أو رجل أعمال مهماً بين الزبائن، ذلك أنني كنت أرى، على طاولة قريبة، أربعة حراس شخصين يرتدون ملابس مدنية، ويضعون مسدسات رشاشة على ركبهم. إنهم يشربون البيرة بصمت، ويمسحون المكان بعيونهم من جانب إلى آخر. وقد كانت ضجة الأحاديث، والضحكـات، وقعقة أدوات الطعام تطفئ صوت الأمواج وارتداها.

- لقد وصل عدكم على أي حال إلى ثمانية أشخاص مع باييخوس - أقول له... لقد خانتك ذاكرتك.

- بابيغوس لم ينضم قط إلى الحزب - يرد عليّ فوراً . لكلمة حزب هذه رنة سخرية حين يكون عدد أعضائه سبعة فقط ، أليس كذلك؟ هو لم يكن عضواً . ومن أجل تحديد أكثر دقة ، أقول لك إنني لم أر وجه بابيغوس على الإطلاق . والمرة الأولى التي رأيته فيها كانت عند ظهور صوره في الصحف .

إنه يتكلم بثقة مطلقة وعليّ أن أصدقه . ولماذا سيكذب عليّ؟ ولكنني كنت قد فوجئت أكثر على أي حال بعدد أعضاء حـثـ (ت) . كنت أتخيله حزيناً صغيراً ، ولكن ليس إلى هذا الحد المتدني . كنت قد أنشأت مشهداً من فرضيات تهاوت الآن متلاشية : مايتا يأتي ببابيغوس إلى الكراج في جادة ثوريتوس ليقدمه إلى رفقاء ، ويضموه إلى الحزب كأمين للدفاع ... ولكنَّ هذا كله مجرد دخان .

بعد لحظة أوضح موسيس :

- ولكن ، حين أقول سبعة أشخاص فإنني أعني سبعة محترفين . فقد كان هناك أيضاً المؤيدون . طلاب وعمال ، كما ننظم لهم حلقات دراسية . وكان لنا بعض التأثير كذلك على بعض النقابات . نقابة (فيرتيسا) مثلاً . وكذلك في مجال البناء المدني . لقد أحضروا الحساء وبدا القرىديس طازجاً وساخناً ويمكن الإحساس بلذعة الفلفل الحار فيه من رائحة الطبق . شربنا ، أكلنا ، وما كدنا ننتهي حتى عدت إلى الهجوم :

- أنت متأكد من أنك لم ترَ بابيغوس مطلقاً؟

- الوحيد الذي كان يراه هو مايتا . خلال وقت لا يأس به على الأقل . وفيما بعد ، تشكلت لجنة خاصة . فريق العمل . أظن أنه تشكل من أناستولي و مايتا وخواكين . وهؤلاء رأوه ، بضع مرات . أما

الآخرون فلم يروه مطلقاً. لقد كان عسكرياً، ألا تلاحظ ذلك؟
وما الذي كاناه نحن؟ مجرد ثوريين سريين. وهو؟ ضابطاً ملازم؟
- ملازم؟ - وتب الرفيق أناتولي في مقعده - أقلت ضابطاً؟

وقال الرفيق خواكين:

- لقد كلفوه باختراقتنا. الأمر واضح جداً.

- كان هذا هو أول ما فكرت فيه بالطبع - وافقه مايتا -
فلنترو أيها الرفاق. هل هم مجانيون؟ أتراهם يبعثون لاختراقتنا ملزماً
يتحدث عن الثورة الاشتراكية في حفلة؟ لقد استطعتُ استدراجه
ليقول شيئاً ولم يكن يعرف أين هو واقف. لديه مشاعر طيبة،
مواقف ساذج، وهو شخص عاطفي، يتكلم عن الثورة دون أن
يعرف ما الذي تعنيه الثورة. إنه بكرٌ أيديولوجيًا. الثورة بالنسبة له
هي فيدل كاسترو ورفاقه الملتحين الذين يطلقون الرصاص في
سييرا مايسترا. إنه يشم في الأمر رائحة العدالة، ولكنه لا يعرف
كيف يؤكل ذلك. إلى أي حد استطعت أن أجس نبضه.. ليس
هناك ما هو أكثر من هذا الذي قلتة.

كان قد جلس وصار يتكلم بشيء من الجزء، لأن السجائر
كانت قد نفتت خلال الساعات الثلاث التي دامتها الجلسة،
وكان يشعر بلهفة إلى التدخين. ولماذا يستبعد أن يكون الملازم
ضابطاً في المخابرات مكلفاً بجمع معلومات عن حـث (ت)؟
وماذا إذا كان كذلك؟ وما الغريب في لجوئهم إلى حيلة فجة؟ ألا
ينضح رجال الشرطة والعسكريون والبرجوازيون في بيرو
بالفجاجة؟ ولكن صورة الشاب النحيل المرحة والمتدفقه بخرت من
جديد شوكوـه. وسمع الرفيق خاينـتو يؤيدـه:

- من الممكن أن يكونوا قد كلفوه باختراقنا. ولكننا في وضع أفضل منه لأننا نعرف على الأقل من يكون. يمكنناأخذ الاحتياطات اللازمة. وإذا سُنحت لنا الفرصة لنخترقهم أيها الرفاق، فلن يكون من الثورية في شيء ترك الفرصة تفلت منا.

وهكذا عاد للظهور فجأة موضوع كان قد أثار مناقشات لا حصر لها في ح ٤ ث (ت). هل هناك قوة ثورية كامنة ضمن القوات المسلحة؟ وهل عليهم أن يضعوا ضمن أهدافهم التغلغل في الجيش، في البحرية، في الطيران، وتشكيل خلايا من الجنود والبحارة والطيارين؟ وهل عليهم توعية الجنود حول توافق مصالحهم مع صالح البروليتاريا والفالحين؟ أم أن توسيع الصراع الطبقي إلى عالم الجيش هو خدعة مضللة، لأنه على الرغم من اختلاف منابت العسكريين الطبقية، فإن روابط المؤسسة، وروح السلك العسكري، توحد الضباط والجنود في تواطؤ لا ينفصّم؟ ندم مايتا لأنه أخبرهم بأمر الملائم. فهذا الأمر سيستمر ساعات. حلم بوضع قدميه المتورمتين في المغسلة المعلوّة بالماء، لقد فعل ذلك هذا الصباح، لدى عودته من الحفلة في سوركيبو، وهو سعيد لأنه ذهب لتقبيل خالته - عرابته. وقد غفا وقدماه مبللتان، وحلم بأنه يتنافس مع بابيغوس في سباق، على شاطئ يمكن له أن يكون شاطئ أغوا دولشي، دون سباحين، عند الفجر. وكان هو قد تخلف في السباق، فراح الفتى يلتفت إليه مشجعاً وضاحكاً: «هيا، هيا، أم أنه أصبحت عجوزاً ولم يبق لديك نفس يا مايتا؟»

ويقول موسيس وهو يهجم على طبق الرز:

- كانت الاجتماعات تستمر لساعات وساعات. فمثلاً: هل

يتوجب على مايتا أن يواصل اللقاء مع بابيغوس أم عليه قطع العلاقة معه بسلام؟ هذا أمر لا يقرر هكذا ببساطة، وإنما من خلال تحليل للظروف، والأسباب، والمؤثرات. كان علينا أن نستعرض عدة مقدمات للبرهنة: ثورة أكتوبر، علاقات القوى الاشتراكية والبيروقراطية - إمبريالية في العالم، وتطور النضال الظبيقي في القارات الخمس، وإفقار البلدان الخاضعة للاستعمار الجديد، والمركزية الاحتكارية...

بدأ باسماً، ثم راحت ملامحة تتخلل. أعاد إلى الطبق الشوكة التي كان يحملها إلى فمه. قبل لحظة كان يأكل بشهية، ممتدحاً طاهي الشاطئ الأخضر. «إلى كم من الوقت سيكون بالإمكان تناول وجبات مثل هذه الوجبة في ظل هذه الأمور التي تحدث؟» - وفجأة، فقد شهيته. هل أثقلت عليه الذكريات التي يسترجعها ليقدم بذلك خدمة لي؟

وددم للمرة الثالثة في هذا الصباح:

- لقد قدم لي مايتا وبابيغوس خدمة عظيمة. فلولاهما لكنت ما أزال ضمن جماعة حزبية صغيرة، أحارب أن أبيع خمسين نسخة كل نصف شهر من نشرة، أعرف أن العمال لن يقرؤوها، وإذا ما قرءوها فلن يفهموها.

يمسح فمه ويشير بيده إلى الجرسون ليرفع طبقه. ثم يضيف بمزاج مأتمي:

- عندما ظهرت مسألة بابيغوس كنت قد فقدت الإيمان بما كنا نفعله. إذ بدأتُ أدرك تماماً أن ذلك لن يؤدي إلى أي شيء، اللهم إلا عودتا إلى السجن بين وقت وآخر، وإلى المنفى بين حين وآخر،

وإلى الإحباط السياسي والشخصي. ومع ذلك... فإن العطالة، القصور، أو أي شيء يمكن تسميته هكذا أو لا أدرى كيف. خوف مرعب من الإحساس بأنك غيروفي، خائن في حق الرفاق، في حق الحزب، في حق نفسك بالذات. رعب من أن تُشطب دفعة واحدة ما كان يمثل - بكل سوئه - سنوات نضال وتضحية. لا بد أن الرهبان الذين يخلعون مسوحهم يعانون الشعور نفسه. ينظر إلى كما لو أنه انتبه في هذه اللحظة بالذات إلى أنني مازلت معه.

- هل شعر مaita يوماً بانهيار المعنويات؟ - أسأله.

- لست أدرى، ربما كان غرانيتياً. - ويظل ساهماً للحظة ثم يهز كتفيه ويضيف: - أو ربما أحس بذلك، ولكن سراً. أفترض أننا جميعنا كنا نمر بنوبات صحو نرى فيها أننا في قاع البئر وليس لدينا سلماً للصعود. ولكننا لم نكن نعترف بذلك ولو أدى الأمر إلى موتنا. أجل، لقد قدم لي مايتا وبابيغوس خدمة كبيرة. إنك تكرر هذا كثيراً وكأنك لاتصدقه. أو كأن الأمر لم يفكك كثيراً. -

ثم يؤكّد بإيماءة نفور:

- لم يفدني كثيراً.

وبما أنني كنت أضحك وأسخر منه قائلاً له إنه واحد من قلة من المثقفين البيروبيين الذين تمكّنا من الاستقلال، ومنْ يمكن أن يقال عنه كذلك بأنه يحقق بعض الأشياء ويساعد زملاءه على تحقيق بعض الأشياء، فقد أوقفني بإيماءة ساخرة من يده. هل أعني مركز العمل من أجل التطوير؟ أجل، إنه يخدم البيرو، وهو دون

شك مساهمة أكبر من تلك التي قدمها إلى البلاد خلال عشرين سنة من نضاله الحزبي. أجل، وهو يفيد كذلك من يساعدهم المركز في نشر كتبهم، وفي الحصول على منح وبحررهم من مأمور الجامعة. أما هو فيشعر بالمقابل بأن المركز يحبشه، ولكن بطريقة أخرى مختلفة عن إحباط عـ(ت) بالطبع. لقد كان ي يريد - وينظر إلى - وهو يتكلم وكأنه يتساءل إذا ما كنتَ جديراً بهذا البحـ. أن يكون واحداً منهم. أن يبحث، ويكتب، وينشر. إنه مشروع قديم طموح جداً، صار يعرف الآن أنه لن يستطيع تتفيدـه. فهو يرغب في تأليف تاريخ اقتصادي للبيرو، يكون شاملـاً ومفصلاً، منذ الثقافات ما قبل الإنكية وحتى أيامنا هذه. ولكن المشروع استبعدـ، مثل كل المشاريع الأكاديمية الأخرى! إن الإبقاء على المركز حـياً يعني أنه عليه أن يكون إدارـياً، دبلوماسيـاً، دعائـياً، وفوق كل ذلك بيروقراطـياً طوال أربع وعشرين ساعة في اليوم. لا، بل طوال ثمان وعشرين ساعة، ثلاثين ساعة، لأن الأيام عنده تدوم ثلاثين ساعة.

- القضية لا تحتمـل المزيد - اعترض الرفيـق خواكـين -. لا تحـتمـل المزيد. لا تلاحظـون ذلك؟

وفـكر ماـيتـا: فـعلاً، لا تحـتمـل، ثم.. ما هي القضية المقصودـة؟ فـمنذ بعض الوقت، وبـسبب الرـفيـق مـيدارـدو الذي أدخلـ في النقاش مـشارـكة سـوفـيـات الجنـود في الثـورـة الروـسـية، راحـوا يتـناقشـون حول تـمرـد بـحـارة كـرونـستـاد وـسـحـقةـ. وحسبـ رـأـي مـيدارـدو، فقد كانـ ذلك التـمرـد المناـهـض لـلاـشتـراكـية في شـباطـ 1921، دليـلاً جـيدـاً على تـذـبذـب الـوعـي الـطـبـقي لـدىـ القـوـات الـعـسـكـرـية وـعلـى

خطورة المجازفة بالثقة بالقوة الثورية الكامنة لدى الجنود. ولكن الرفيق خاينتو أحس بلسانه يلدغه، فرد بأنه بدل التكلم عن سلوكيهم في 1921، كان يتوجب على ميداردو أن يتذكر ما فعله بحارة كرونستاد في 1905. أولم يكونوا أول من انتقض ضد القصرين؟ وفي عام 1917، ألم يسبقوا معظم المصانع في تشكيل سوفييتهم؟ وقد انحرف النقاش بعد ذلك حول موقف تروتسكي بشأن كرونستاد. وتذكر ميداردو وأناتولييو بأن تروتسكي في كتابه تاريخ الثورة وافق على قمع التمرد، باعتباره أهون الشرور، لأنّه كان تمرداً معادياً للثورة موضوعياً، ويخدم الروس البيض والقوى الإمبريالية. ولكن مايتا كان متأكداً من أن تروتسكي قد صبح فيما بعد أطروحته هذه وأعلن أنه لم يتدخل في قمع البحارة، لأن قمع الانقاضة كان عملاً اقتصر على لجنة بتروغراد التي يرأسها زينوفيف. بل انه كتب كذلك بأنه في إبادة البحارة المتمردين، خلال حكم لينين، تبدت السوابق الأولى للجرائم ضد البروليتارية التي اقترفتها البيروقراطية الستالينية. وأخيراً، بانقلاب مفاجئ، توّقت المناقشة حول إذا ما كانت مؤلفات تروتسكي قد تُرجمت بصورة دقيقة إلى الإسبانية.

قال مايتا مبدياً رأيه:

— لا أجد معنى لتصويتنا حول هذه المسألة. فلنتوصل إلى تراضٍ، ويمكننا مصالحة طروحات الجميع. إنني أعترف، بالرغم من ضعف هذا الاحتمال، بأنه يمكن لباييХوس أن يكون مكافأً باختراقنا أو باقراف عمل استفزازي. ومن جهة أخرى، مثلما قال الرفيق خاينتو، يتوجب علينا ألا نبدد الفرصة المتاحة لنا بكسب

عسكري شاب إلى جانبنا. واليكم اقتراحي: سأواصل الاتصال به، وأحسن نبضه، وأرى إذا ما كانت ثمة طريقة لاجتذابه. دون أن أقدم إليه بالطبع أي معلومات حول الحزب. فإذا ما شممت شيئاً مربياً، أضع نقطة وأنهي العلاقة. وإذا لم أجد شيئاً من هذا، فسأرى ما الذي نفعله، حسب الوضع.

لقد وافقوا. إما لأنهم كانوا متبعين وإما لأنه كان أكثر إقناعاً. وحين رأى الرؤوس الأربع تهتز موافقة، ابتهج: سأتمكن الآن من شراء السجائر والتدخين.

ويقول موسيس:

- إذا كانت لديه أزمات فإنه كان يتقن إخفاءها جيداً. وهذا أمر كنت أحسده عليه على الدوام: الثقة بما يفعله. ليس في حديث (ت) فقط. وإنما قبل ذلك أيضاً، حين كان موسكوفي أو أبرستا.
- كيف توضح إذن كل تلك التقلبات. أكانت نتيجة قناعات أيديولوجية؟ أم لأسباب نفسية؟

فيصحيح موسيس ما قلته:

- بل لأسباب أخلاقية. مع أن التحدث عن الأخلاق في قضية مايتا قد يبدو لك غير ملائم، أليس كذلك؟
يلمع في عينيه بريق خبيث. هل ينتظر تلميحاً صغيراً لكي يتحول إلى ناحية الأقاويل والنميمة؟

- ليس هناك ما يبدو لي غير ملائم على الإطلاق - أقول له مؤكداً - فقد كنت أرتتاب على الدوام بأنه لابد لكل تحولات مايتا تلك من سبب عاطفي أو أخلاقي أكبر من الدافع الأيديولوجي.
- إنه البحث عن الكمال، عن النقاء - يبتسم موسيس - لقد

كان كاثوليكياً متدينًا جداً في صغره. حتى إنه أضرب عن الطعام ليتعلم كيف يعيش الفقراء. هل تعرف هذا الأمر؟ ربما كان هناك أصل كل شيء. فعندما يسعى المرء إلى النقاء في السياسة، يصل إلى اللاواقعة.

ظل يراقبني لحظة وهو صامت، بينما الجرسون يقدم لنا القهوة. أناس كثيرون كانوا قد غادروا الشاطئ الأخضر، ومنهم الرجل المهم مع حراسه الشخصيين المسلحين بمسدسات رشاشة، وإضافة إلى أننا أخذنا نسمع من جديد صوت البحر، فقد بدأنا نرى، إلى جهة اليسار، بين حائل الأمواج في بارانكيتو، بعض المتزلجين على الماء ينتظرون الأمواج وهم جالسون على ألواح التزلج مثل فرسان. «عملية اغتيال من البحر هي أسهل ما يمكن تحقيقه هنا. فالشاطئ غير محروس. يجب تبييه الإدارة إلى ذلك».

سألني موسيس بينما هو يقيس درجة حرارة القهوة بلسانه:
- ما الذي يهمك في مaita إلى هذا الحد. إنه المطموس والمنسي أكثر من سواه بين جميع ثوري تلك السنوات.

- لست أدري، هناك شيء في حالي يشدني إليه أكثر مما يشدني الآخرون. شيء من الرمزية لما جاء فيما بعد، إنذار بشيء لم يراود الشك أحد حينذاك بأنه سيأتي يوماً.

لست أدري كيف أواصل، ولو استطعت لأوضحت ذلك، ولكن بعد الوصول إلى هذا الحد، فإن ما أعرفه فقط هو أن قصة مايتا هي ما أريد معرفته واحتلاقه، بأكبر قدر ممكن من الحيوية. يمكنني إعطاءه مبررات أخلاقية، اجتماعية، أيديولوجية، وأن أثبت له أنها أكثر القصص أهمية والحاهاً. كل

شيء سيكون كذباً. والحقيقة أنني لا أعرف لماذا تتملكني قصة مايتا وتُقلقني.

يقول موسسيس:

- ربما أعرف أنا السبب. لأن قضيته كانت الأولى قبل انتصار الثورة الكوبية.. قبل هذا الحدث الذي شق اليسار إلى قسمين. ربما كان محقاً، ربما كان السبب هو الطابع الريادي لتلك المغامرة. هذا صحيح، فقد افتتحت تلك المغامرة حقبة جديدة في البيرو، شيئاً لم يكن بإمكان مايتا ولا بايزخوس أن يتباينا به في ذلك الحين. ولكن من الممكن أيضاً أنه ليس لكل هذا السياق التاريخي من أهمية سوى التزيين وأن العنصر الإيحائي الغامض فيها، بالنسبة لي، هو عناصر القسوة، الهم الشيء، التمرد، الهذيان، المغالاة التي تؤثر في تلك الحادثة التي كان بطلها زميلاً في مدرسة ساليسيانو.

- عسكري تقدمي؟ - قال الرفيق ميداردو ساخراً. - هل أنت متأكد من وجود شيء كهذا؟ لقد أمضى الأبرистا حياتهم في البحث عنه، لينجز لهم الثورة ويفتح لهم أبواب القصر. وقد هرموا دون أن يتمكنوا من العثور عليه. أتريد أن يحدث لنا الشيء نفسه؟

- لن يحدث لنا ذلك. - ابتسما مايتا. - لأننا لن نقوم بانقلاب وإنما سنصنع ثورة. لا تقلق يا رفيق.

فقال الرفيق خاثينتو:

- أما أنا فإنني قلق. ولكن قلقي بسبب أكثر دنيوية. هل دفع الرفيق كارلوس الإيجار؟ لا أريد أن تداهمنا العجوز مرة أخرى. كانت الجلسة قد انتهت، وبما أنهم لا يخرجون مطلقاً دفعة

واحدة، فقد انصرف أولاً أناتولي و خواكين. وبقي الآخرون ينتظرون لبعض الوقت قبل أن يغادروا الكراج. ابتسما مائتا وهو يتذكر. كانت العجوز قد ظهرت فجأة في أثناء مناقشة حامية حول الإصلاح الزراعي الذي حققته في بوليفيا الحركة القومية الثورية بقيادة باث استسستوريو. لقد جمدتهم من الذهول، كما لو أن الشخص الذي فتح الباب هو واش وليس العجوز المهزلة ذات الشعر الأبيض والظهر المحدود التوكة على عكاز من المعدن.

وجاء رد فعل الرفيق كارلوس:

- سيدة بلومبرغ، مساء الخير، يا للمفاجأة.
- لماذا لا تطرقين الباب؟ - اعترض الرفيق خاينتو.

فردت السيدة بلومبرغ غاضبة:

- لست مضطرة إلى طرق باب كراج بيتي. لقد اتفقنا على أن تدفعوا لي في اليوم الأول من الشهر. ماذا جرى؟
- تقدم الرفيق كارلوس منها محاولاً أن يخفى بجسده ملصق الملتحين الثلاثة ورزم صوت العمال:
- مجرد تأخير بسيط بسبب إضراب المصارف. ولكن هاهو شيك الإيجار معى.

هدأت السيدة بلومبرغ حين رأت كارلوس يخرج مغلقاً من جيبيه. تفحصت الشيك بتمعن، وهزت رأسها موافقة، وودعتهم وهي تتمتم بآلا يتأنثروا في المستقبل، لأنها لم تعد في سن تسمح لها بالتنقل من بيت إلى بيت لتقبض الإيجارات. داهمتهم نوبة من الضحك، ثم نسوا المناقشة وراحوا يتخيّلون: هل رأت السيدة بلومبرغ وجوه ماركس ولينين وتروتسكي؟ أتكون في طريقها

إلى الشرطة؟ هل سيدأهم المقر هذه الليلة؟ لقد قالوا لها إنهم يستأجرون الكراج ليقيموا فيه نادياً للشطرنج، والشيء الوحيد الذي لم يكن بإمكانها أن تراه هو أي رقعة شطرنج أو أي بيدق. ولكن الشرطة لم تأتِ، أي أن السيدة بلومبرغ لم تتبه إلى أي شيء مثير للريبة.

وقال ميداردو:

– اللهم إلا إذا كان هذا الملائم الذي يريد صنع الثورة هو استمرار لزيارة العجوز تلك. وأنهم قرروا اختراقنا بدلاً من مداهمتنا. فائلح مايتا، خائفاً من تجدد فتح النقاش الذي سيبعده عن السيجارة:

– بعد مضي كل هذه الشهور؟ وأخيراً، سنعرف من يكون.
لقد انقضت عشر دقائق. هل نصرف؟

وقال خاثينتو:

– يجب السؤال عن سبب عدم مجيء باياردي وكارلوس.
ويقول لي موسيس:

– كان كارلوس هو الوحيد الذي يعيش حياة طبيعية بين السبعة. فقد كان متعهد أعمال بناء، وصاحب معمل لصنع الطوب. هو من كان يمول إيجار المقر، وتكليف المطبعة، والنشرات. الجميع كانوا يساهمون، ولكن مساهماتاً كانت بائسة. وقد كانت زوجته تكرهنا إلى حد الموت.

– وماذا عن مايتا؟ لا بد أنه كان يكسب قليلاً جداً في فرانس برس.

وافق موسيس:

- ومع ذلك، كان ينفق نصف راتبه أو أكثر على الحزب.
وكانت زوجته أيضاً تكرهنا بالطبع.

- زوجة مايتا؟

- كان متزوجاً وكل شيء - ضحك موسيس -. ولكن لوقت
قصير. فتاة تدعى آديلايدا، موظفة مصرف جميلة جداً. وهو أمر لم
نفهمه قطّ. ألم تكن تعرف؟

لم أكن أعرف. خرجوا معاً. أغلقوا المفتاح بباب الكراج
وتوقفوا في الحانة عند الناصية ليشتري مايتا علبة سجائر إنكا.
قدم سجائر إلى خاثينتو وميداردو ثم أشعل سيجارته بتسريع شديد
أحرق معه أصابعه. وفي الطريق إلى جادة ألفونسو أغوارتي، سحب
عدة أنفاس، وكان يغمض عينيه قليلاً ليستفرغ في متعة سحب
ونفث تلك السحب من الدخان التي تتلاشى في ظلمة الليل.

وفكر بصوت عال:

- لقد عرفت الآن لماذا تسلل وجه الملازم إلى هنا.
- هذا العسكري جعلنا نضيع وقتاً طويلاً - تذمر ميداردو - .

ثلاث ساعات من أجل ملازم!

وواصل مايتا وكأنه لم يسمع:

- ... بسبب الجهل، أو انعدام الخبرة، أو أي سبب آخر، كان
الملازم يتحدث عن الثورة بطريقة لم نتحدث بها نحن قط.
فقال خاثينتو ساخراً:

- دعك من التقولات الصعبة، فأنا عامل ولست مثقفاً يا رفيق.
وكانت هذه مزحة يرددتها بكثرة إلى حد دفع مايتا إلى
التساؤل عما إذا كان الرفيق خاثينتو لا يشعر بالحسد تجاه هذه

الصفة التي يدعى أنه يزدريها كثيراً. وفي أشاء ذلك، كان على الثلاثة أن يلتصقوا بالجدار لكي لا تصدمهم حافلة تقدم وحشد من الركاب يتعلقون على بابها.

- إنه يتكلم بمرح، بسعادة - أضاف مايتا - وكأنه يتكلم عن شيء صحي وجميل. أما نحن فقد فقدنا الحماسة.

- هل تعني أننا قد هرمنا؟ هذا شأنك - قال خاثينتو مازحاً -

أما أنا فلي خمسون سنة غير مكتملة.
لكن مايتا لم يكن راغباً في المزاح، بل كان يتكلم بجزع،
متوجلاً:

- لقد تحولنا إلى نظريين بمبالغة، وجديين بمبالغة، نشبه إلى حد ما السياسيين المدعين. لست أدرى... إن سماع ذلك الملائم الفتى وهو يهدر عن الثورة الاشتراكية أثار في نفسي الحسد. صحيح أن النضال يصلب المرء. ولكن من السيئ التخلص تماماً عن الأحلام. من السيئ أن تتسينا المنهجية الأهداف يا رفاق.

هل يفهمون ما الذي يريد أن يقوله لهم؟ أحس بأنه يتکدر وغير الموضوع. ولكن الفكرة بقيت تجول في رأسه عندما ودעם في شارع ألفونسو أوغارتي لكي يذهب إلى غرفته في شارع ثيبيتا. وبينما كان يقف قبالة مستشفى لوايزا متظراً توقف نهر السيارات والشاحنات والحافلات التي تماماً مسارات الشارع الأربع، اتضح له تداعي الخواطر الذي يمر بذهنه بصورة شبحية منذ الليلة الفائتة. أجل، إنها الجامعة، هذا هو الأمر. تلك السنة المخبية للأمال، وتلك الدورات الدراسية في التاريخ، والأدب، والفلسفة التي انضم إليها في جامعة سان ماركوس. وسرعان ما

توصل إلى نتيجة بأن أولئك الأساتذة الجامعيين قد أصيبوا بضمور الميلول المهنية، هذا إذا كانوا قد أحسوا في يوم من الأيام بحب تجاه الروائع الأدبية، أو تجاه الأفكار العظيمة. فمن خلال الحكم على ما يعلمونه وما يطلبوه من تلاميذهم من أعمال، يتبيّن أنه كان هناك انقلاب في رؤوس أولئك المنومين متوضط الذكاء. فأستاذ الأدب الإسباني يبدو مقتناً بأن قراءة ما كتبه السيد ليوبوليتزن عن لوركا هو أهم من قراءة قصائد لوركا، أو أن كتاب السيد آمادو ألونسو حول شعر نيرودا هو أهم من شعر نيرودا، ويبعدو أستاذ التاريخ مهتماً بمصادر دراسة تاريخ البيرو أكثر من اهتمامه بتاريخ البيرو نفسه، وأستاذ الفلسفة تهمه الكلمات أكثر مما يهمه مضمون الأفكار وانعكاسها في الواقع... الثقافة لديهم محطة، تحولت إلى معارف للتباكي، وإلى تبخر قاحل منفصل عن الحياة. وقد قال عندئذ إن هذا هو ما يمكن انتظاره من الثقافة البرجوازية، من المثالية البرجوازية، الابتعاد عن الحياة. وترك الجامعة مسؤلاً: فالثقافة الحقيقة مختلفة عما يعلموه هناك. هل تأسّتد هو وخاثينتو وميداردو والرفاق في حـث (ت) وفي حـث الآخر؟ هل نسوا المرتبة ما بين الأساسي والثانوي؟ هل تحول عملهم الثوري إلى شيء سري ومتخذلـق مثل ذلك الشيء الذي حول إليه أساتذة جامعة سان ماركوس الأدب والتاريخ والفلسفة؟ لقد كان سماع باييخوس دعوة إلى التبهـه: «يجب عدم نسيان ما هو جوهري يا مaita. يجب عدم التورط في الأباطيل يا رفيق». فباييخوس لا يعرف شيئاً، لم يقرأ شيئاً، إنه بـكر، أـجل، ولكنه يتـفـوق عليه بـمعنى ما: فالثورة بالنسبة إليه هي العمل، إنـها شيء

ملموس، إنها إقامة الفردوس على الأرض، مملكة العدالة، المساواة، الحرية، الإخاء. أدرك الصور التي تتبدى بها الثورة لباليغوس: فلا حون يحطمون قيود الإقطاع، عمال يتتحولون من خدم إلى سادة للآلات والورش، مجتمع يتوقف فيه فائض القيمة عن تسمين حفنة ضئيلة لكي يرجع بالفائدة على كل الشفيلة... وأحس بقصيرة. أليس هذا تقاطع شارعي كانيني وثبيتا؟ لقد خرج من تأملاته وفرك ذراعيه. يا للعنة! كم كان ساهياً لتقوده قدماه حتى هنا. أهو مغناطيس الخطر؟ أهي مازوشية سرية؟ لقد كان يتفادى المرور من هذا التقاطع بين شارعي كانيني وثبيتا، بسبب المرأة التي يحس بها في فمه كلما اجتازه. فهناك بالتحديد، قبلة كشك الصحف، فرممت في ذلك الصباح السيارة الرمادية المائلة إلى الخضراء بصرير ما زال يتردد في مسمعه. وقبل أن يتبه إلى ما كان يحدث، نزل أربعة أشخاص ورأى المسدسات مصوبة نحوه، ثم فتشوه، وجروه، وأدخلوه بالدش إلى السيارة. لقد أدخل من قبل إلى مفهوميات الشرطة، وإلى سجون مختلفة، ولكن تلك المرة كانت الأسوأ والأطول، والمرة الأولى التي تعرض فيها للاغتصاب بوحشية. اعتقد أنه سيصاب بالجنون، فكر في الانتحار. ومنذ ذلك الحين صار يتفادى هذا التقاطع بسبب نوع من التطير كان يخجل من الاعتراف به. انعطاف عبر شارع ثبيتا ومشي ببطء الكوادرتين المتبقيتين للوصول إلى بيته. كان إلهراق يتركز في قدميه كالعادة. اللعنة على الأقدام المسطحة. وفكرا: «إنني فقير هندي، وهذا أنا أضع قدمي على آلاف الإبر الصغيرة...» ثم فكر: «الثورة هي حلم الملائم غير الناضج».

كانت غرفته هي الثانية في أعلى بناء من طابقين. إنها فسحة من ثلاثة أمتار عرضاً وخمسة أمتار طولاً مترعة بالكتب والمجلات والصحف المنورة على الأرض، وفيها سرير دون مسند لا يوجد عليه سوى فرشة ودثار. وهناك بضعة قمصان وبناطيل معلقة على مسامير في الجدار، ووراء الباب توجد مراة صغيرة ورف عليه أدوات الحلاقة. وهناك مصباح معلق بحبل يضيء بنور وسخ الفوضى غير المعقولة التي تجعل الغرفة أشد ضيقاً. وما كاد يدخل حتى انحنى على أربع - جعله الغبار يعطس - ليُخرج من تحت السرير الطست المشقق، والذي ربما كان الشيء المفضل لديه في ذلك المكان. لم يكن في الغرف حمامات؛ وقد كان هناك في فهو مرحاضان للاستخدام المشترك لساكني البناء وصنبور يأخذ منه الجيران الماء للطبخ والاغتسال. خلال النهار يكون هناك طابور انتظار على الماء دوماً، ولكن ليس في الليل، وهكذا نزل مايتا، وملا طست الغسل ورجع إلى غرفته - بتؤدة، حتى لا يهدى قطرة واحدة - خلال دقائق قليلة. تعرى، واستلقى على السرير وغمس قدميه في الطست. آه، يا للراحة. خطر له أن يغفو وقدماه في هذا المغطس؛ ولكنه سيستيقظ عندئذ في الفجر وهو يعطس ويقاد يموت من البرد. لم يغفُ. وبينما الإحساس البارد والبلسمي يصعد من قدميه إلى كاحليه وإلى ساقيه والإرهاق يتقلص، فكر - مع أنه لم تكن لديه نتيجة أخرى - بأنه كان من الجيد أن يأتي من يُذكره: يجب ألا يحدث للثوري ما يحدث لمؤلأء الأدباء والمؤرخين وال فلاسفة في جامعة سان ماركوس، فعلـي الثوري ألا ينسى أنه يعيش ويناضل ويموت من أجل تحقيق الثورة وليس من أجل، من أجل...

- ... دفع الحساب - يقول موسيس - يكفي نقاشاً. أنا سأدفع.
أو بكلمة أدق، المركز سيدفع. وأعدُ هذه المحفظة إلى حيث لا
تصيبها الشمس.

ولكن لم تكن هناك شمس. فقد غامت السماء، وحين
خرجنا من الشاطئ الأخضر كان الجو يبدو شتايفاً: إنه مساء من
هذه المساءات التقليدية في ليما، مساءات مبللة، بسماء منخفضة،
مشحونة ومخدعة، تهدد بعاصفة لا تأتي أبداً. لدى استرداد
موسيس سلاحه - يقول لي «إنه براونينغ 765 مم» - يتتأكد من أن
ممسمار الأمان في موضعه. ويضع المسدس في تابلوه السيارة.
- أخبرني على الأقل عما توفر لديك من معلومات عن مايتا حتى
الآن - يسألني بينما نحن نصعد عبر فرج ارمينداريث في سيارته
القاديلاك التي بلون ثماالة النبيذ.
وألخص له:

- أربعيني مسطح القدمين أمضى حياته في سراديب الثورة
النظرية، حتى لا نقول المكائد الثورية. أبريستا، ثم أبريستا منشق،
موسكوفي، وموسكوفي منشق، وأخيراً تروتسكي. كل
أشكال الذهاب والإياب، كل تناقضات اليسار في الخمسينات.
عرف حياة السرية، وسُجن، وعاش دائماً في عوز، ولكن...

- ولكن؟

- ولكن الإحباط لم يسبب له المرارة أو الفساد. بقي نزيهاً،
مثاليًا، على الرغم من شظف هذه الحياة. أبيدوا لك ما أقوله دقيقًا.
- بصورة أساسية، نعم - يؤكّد موسيس وهو يوقف السيارة
لكي أنزل - ولكن، هل فكرت في أنه حتى الفساد ليس سهلاً

في بلادنا؟ إذ لا بد من توفر الفرصة. الأغلبية شرفاء لأنه ليس لديهم بديل، ألا ترى ذلك؟ هل خطر لك ما الذي كان سيحدث لو توفرت ملائتنا فرصة الفساد؟

- لقد فكرت في أنه كان يتصرف على الدوام بطريقة لا تتيح المجال لتوفر فرصة للفساد.

وانتهى موسيس إلى القول:

- ليس لديك شيء كثير حتى الآن.
وفي البعيد كان يسمع تبادل إطلاق نار.

الفصل الثالث

من أجل الوصول إلى هناك، للقادم من بارانكو، لا بد من الذهاب إلى مركز ليما، واجتياز ريماك - وهو نهر مياه قذرة في هذه الفترة من السنة - عبر جسر ريكاردو بالما، ومتابعة التقدم من خلال بيدرا ليسا والالتفاف حول رايةة سان كريستوبال. الطريق طويل وينطوي على مجازفة، وهو في ساعات معينة بطيء جداً بسبب احتقان حركة المرور. وهو أيضاً طريق الفقر التدريجي لليما. فازدهار ميرافلوريس وسان ايسيدرو يأخذ بالانحدار والتلشهو في لينشي ولافيكتوريا، ثم ينبعث بصورة مخادعة في مركز المدينة من خلال الكتل الثقيلة لأبنية المصارف والشركات المتضامنة وشركات التأمين - حيث تتكاثر فيما بينها مع ذلك أبنية سكنية مختلطة وبيوت قديمة جداً ما زالت تقف على أقدامها بأعجوبة - ولكن فيما بعد، عند اجتياز النهر، في ما يسمى قطاع تحت الجسر، تتهاوى المدينة إلى أراضٍ خلاء نتائج فيها أكواخ من حُصر وأنقاض، أحياه مختلطة بالمزابل تتواilli لكيلومترات. وفي ليما الهاشمية هذه كان يوجد فقرًّا أولاًً وقبل كل شيء. أما الآن ففيها أيضاً دم ورعب.

عند مستوى جادة تشاسكيس، يفقد الاوتستراد الإسفلت ويمتلئ بالحفر، ولكن السيارة ما زالت تستطيع التقدم لبضعة

أمتار، مهترء وسط زرائب كبيرة وزوابع، ما بين أعمدة نور فقدت مصابيحها التي حطمتهما مقاليع صبية الشوارع. بما أنها المرة الثانية التي أجيء فيها، فإنني لم أتهور بالتقدم إلى ما بعد الحانة التي علقت قبالتها في المرة الأولى. لقد خطر لي يومئذ شيء مضحك. فحين أدركت أن السيارة لن تخرج من التراب، طلبت من بعض الفتية الذين كانوا يتداولون الحديث عند الناصية أن يدفعوها. وقد ساعدوني، ولكنهم قبل أن يفعلوا ذلك وضعوا سكيناً على حنجرتي وهددوا بقتلي إذا لم أعطهم كل ما أملكه. وقد انتزعوا ساعتي، ومحفظتي، وحزائبي، وقميصي. ووافقو على أن يتركوا لي البنطال. وبينما كنا ندفع السيارة لخارجها، تحدثا. هل هناك اغتيالات كثيرة في الحي؟ كفاية. أهي سياسية؟ أجل، هناك اغتيالات سياسية أيضاً. أمس بالذات ظهرت عند المنعطف جثة مقطوعة الرأس وعليها لوحة تقول: «كلب واش».

أوقف السيارة وأمشي بين مزابل هي في الوقت نفسه حظائر خنازير. وأرى الخنازير تتقلب في أعلى أكواخ القمامنة وأضطر إلى التلويع بكلتا يدي لأبعد عني الذباب. فوق القمامنة وما بينها تزاحم مساكن من صفيح، من طوب، من خشب، بدئ ببنائها للتو أو أنها نصف مبنية، ولكنها غير منتهية جمیعها، وهي كلها قديمة، مستندة ببعضها إلى بعض، متداعية أو في طريقها إلى التداعي، مزدحمة بأناس ينظرون إلى بالنظرية المتأففة نفسها التي كانوا ينظرون بها إلى في المرة السابقة. إلى ما قبل شهور قليلة لم يكن العنف السياسي يؤثر على تلك الأحياء المحيطة بالمدينة مثلما هو الحال في أحياط المركز السكنية. أما الآن، فمعظم الاغتيالات

و عمليات الاختطاف التي تقوم بها الجماعات الثورية، أو القوات المسلحة، أو الكتائب المناهضة للثورة، تحدث في هذه القطاعات. هناك شيخ أكثر من الشباب، ونساء أكثر من الرجال، ويراودني لدقائق الإحساس بأنني لست في ليما ولا على الساحل وإنما في قرية من قرى الأنديز: صنادل ألوخوتا، تانير مزركشة، عباءات بونتشو، صدريات مطرزة بأشكال حيوانات لاما صغيرة، وحوارات بلغة الكيتشوا. أعيشون حقاً في هذه الننانة وهذه القذارة أفضل من حياتهم في الدساكير الجبلية التي هجروها ليأتوا إلى ليما؟ أجل، وهناك علماء اجتماع واقتصاديون وانثروبولوجيون يؤكّدن ذلك، مهما بدا الأمر مستهجناً. فاحتمالات التحسن والعيش هي أفضل على ما يبدو في هذه المزابل النتنة مما هي عليه في جبال آنكاش، أو بونو، أو كاخamarكا حيث الجفاف والأوبئة وجدب الأرض وانعدام العمل يُهلك السكان الهنود. يجب أن يكون ذلك صحيحاً. وإلا ما هو التفسير الذي يمكنه أن يوضح إقدام أحد هم على العيش في هذا الازدحام والقذارة؟

- هذا في نظرهم هو أهون الشرور، وهو المفضل لديهم - قال مaita -. ولكن إذا كنت تعتقد بأن الأحياء الهماسية تشكل، بسبب بؤسها، قوة ثورية كامنة، فأنت مخطئ. هؤلاء ليسوا بروليتاريا وإنما بروليتاريا رثة. ليس لديهم وعي طبقي لأنهم لا يشكلون طبقة. بل إنهم لا يفهمون ما هو الصراع الطبقي.

فابتسم بابيغوس:

- إنهم يشبهونني في هذا الأمر إذن. أي براز هو هذا الصراع الطبقي؟

وأوضح له مايتا بجدية وباقتاع بدوره كأستاذ:

ـ إنه محرك التاريخ. الصراع الناجم عن تناقض المصالح القائمة لكل طبقة في المجتمع. وهي مصالح تتولد من الدور الذي يؤديه كل قطاع في عملية إنتاج الثروة. هناك مالكو رأس المال، وهناك مالكو الأرض، وهناك مالكو المعرفة. وهناك من لا يملك ون شيئاً سوى قوة عملهم: أي العمال. وهناك أيضاً الهاشميون، وهم هؤلاء الفقراء في الضواحي، البروليتاريا الرثة.

هل تشعر بأن الأمر عويض؟

قال باييغوس متبايناً:

ـ ما أشعر به هو الجوع. هذه الأحاديث تفتح شهيتي. فلننس اليوم الصراع الطبقي ولنتناول بيرة متلاجة. ثم سأدعوك بعد ذلك لتناول الغداء في بيت أبيي. اليوم ستحضر أختي. وهذا حدث مهم. فالمسكينة تعيش في ظروف أسوأ من ظروف العيش في الثكنة. سأعرفك عليها. وعندما نلتقي في المرة القادمة س أحضر لك «المفاجأة» التي حدثتك عنها.

كانا في غرفة مايتا الذي كان يجلس على الأرض بينما الملازم يجلس على السرير. وكانت تصل من الخارج أصوات ضحكات، وهدير سيارات، وتطفو في الجو ذرات من الغبار. كأنها حيوانات حبل.

وانتهى الأمر بمايتا إلى الاستسلام:

ـ إذا بقىت على هذا المنوال فلن تتعلم حرفاً واحداً من الماركسية. الحقيقة أنه ليس لديك أستاذ جيد، أنا نفسي أجد ما أعلمك إياه معقداً.

فشجعه بابيغوس ضاحكاً:

- أنت أفضل من أساتذة كثرين علموني في الكلية العسكرية. أتعرف ما الذي يحدث لي؟ الماركسية لا تهمني كثيراً. إنني أتكلف مشقة في فهم الموضوعات المجردة. ولكنني أكثر نفعاً في الممارسة العملية، في ما هو محسوس. بالنسبة، هل أطلعك على خطتي الثورية قبل أن نتناول البيرة؟
- لن أسمع شيئاً عن خطتك المباركة إلا بعد أن تجتاز الامتحان
- وقلده مايتا قائلاً: - أي براز إذن هو الصراع الطبقي؟
- هو أن السمك الكبير يأكل السمك الصغير. أطلق بابيغوس قهقهة صاحبة .. ومادا يمكن أن يكون سوى ذلك يا أخي. فنحن لا نحتاج إلى كثير من الدراسة لكي نعرف أن الإقطاعي الذي يملك ألف هكتار يتداول الكراهية إلى حد الموت مع هنوده المزارعين. هل نجحتُ وحصلتُ على عشرين درجة؟ سيسبيك الحول من خطتي يا مايتا. وسيسيبيك ما هو أكثر من ذلك حين ترى مفاجأتي. هل ستأتي لتتناول الغداء معي؟ أريدك أن تعرف على أخي.
- أدعوك الأم؟ الأخ؟ الآنسة؟
- نادني خوانيتا - تحسم هي الأمر.. من الأفضل رفع الكلفة، فنحن في السن نفسها تقريباً. أليس كذلك؟ أُعْرِفُك على ماريا. كلتاهمما تتعلان صنادل من الجلد، ومن المبعد الذي أجلس عليه أرى أصابع أقدامهما: أصابع قدمي خوانيتا ساكنة، وأصابع قدمي ماريا تتحرك بقلق. تلك سمراء، حيوية، متينة الدrazعين والساقيين، وهنالك ظلال زغب عند حافتي شفتيها؛ وهذه ضئيلة، بيضاء، لها عينان فاتحتان وتعبير ساء.

تسألني خوانيتا :

– أنتقاول باستوريه □ أم كأس ماء. من الخير أن تختار المياه الغازية. فالماء كالذهب هنا. يجب الذهاب حتى جادة تشاسكيس لإحضاره في كل مرة.

المكان يذكرني ببيت في رابية سان كريستوبال كانت تشغله منذ سنوات طويلة راهبة راهبتان فرنسيستان من أخوية الأب دو فوكو. فالجدران هنا أيضاً مطلية بالكلس وعارية، والأرضية مغطاة بحصر من القش وبطانيات، مما يحمل على التفكير ببيت في الصحراء.

وتقول ماريا :

– الشيء الوحيد الذي ينقطنا هو الشمس. الأب شارل دو فوكو. لقد قرأت كتابه في قلب الجماهير. كان مشهوراً جداً في زمانه.

وتقول خوانيتا :

– وأنا أيضاً قرأتها. ولست أتذكر شيئاً يذكر منه. فأنا لم أتمتع بذاكرة جيدة في يوم من الأيام، حتى في شبابي.
– هذا مؤسف. – في الحجرة كلها لا يوجد أي مصلوب، أو أي عذراء، أو أي صورة، أو أي كتاب صلوات، أو أي شيء يشير إلى تدين قاطنتي البيت. وأتابع قائلاً : – أعني ضعف الذاكرة، لأنني ...
فتعاتبني خوانيتا بعينيها وهي تقدم لي الباستوريه، وتبدل نبرة صوتها :

□ - باستوريه pasteurina شراب معقم وفق طريقة باسترور

- آه، حسن، هو ما زلت أتذكرة، فأنا لم أنس أخي بالطبع.
- وكذلك مایتا؟ - أسألها وأنا أشرب من فم الزجاجة جرعة من الشراب الدافئ والحلو.
وتتفاوض خوانيتا :

- وهو أيضاً مازلت أتذكرة. لقد رأيته مرة واحدة. في بيت أبيه.
ولست أذكر الكثير لأنها كانت المرة قبل الأخيرة التي التقيتُ فيها بأخي. أما المرة الأخيرة، فكانت بعد أسبوعين من ذلك، ولم يفعل يومئذ شيئاً سوى التحدث لي عن صديقه مایتا. كان يحبه، ويقدره.
لقد كان ذلك التأثير... حسن، من الأفضل أن أصمت.

- آه، هذا هو الأمر إذن - تقول ماريا وهي تنش النباب عن وجهها بقطعة كرتون. لا هي ولا خوانيتا ترتدان مسوح الراهبات، بل تتورتين من قماش صوفي وكنزتين رماديتين، ولكن المرء يدرك أنهما راهبتان من طريقتهما في ارتداء هذه الملابس، ومن شعرهما المثبت بشبكتين، ومن أسلوبهما في التكلم والتحرك..
وتضيف ماريا: - لحسن الحظ أن الأمر مرتبط بهما وليس بنا. كنا قلقتين، والآن أستطيع أن أصارحك بذلك. لأن الدعاية سيئة جداً في عالمنا الذي نقوم به.

- وما الذي سنقوم به؟ - قال مایتا ذلك باستهزاء وهو يبتسم ابتسامة ساخرة: - نحتل القرية، ومراسلم الشرطة، والسجن، ونستولي على الأسلحة التي في خواخا. ثم ماذا بعد ذلك؟ هل نهرع راكضين إلى الغابة مثل معز بري؟
فرد الملازم دون أن يغضب:

- ليس مثل معز برية. يمكننا أن نذهب على الخيول، أو

الحمير، أو البغال، أو في شاحنة، أو على الأقدام. ولكن الوسيلة الأكثر أمناً هي الأقدام، ليست هناك وسيلة أفضل منها للتغلب في الغابة. من الواضح أنك لا تعرف سلسلة الجبال يا أخي.

- هذا صحيح - وافق مايتا - ، فأنا أعرفها بصورة سيئة جداً.

وهذه هي نقطة خجلي الكبير.
فلكرزه باييغوس بمرافقه:

- لكي تتخلص من هذا الخجل، تعال معي غداً إلى خاوشا. ستحصل على مكان للنوم وعلى الطعام مجاناً. أو فلتذهب إذا شئت في نهاية الأسبوع يا أخي. سأريك الميدان، وسنذهب إلى قرى الهنود، سترى البيبرو الحقيقة. اسمع، لا تفتح «المفاجأة». أنت وعدتني بـلا تفتحها. وإلا سأنزعها منك.

كانا يجلسان على رمال أغوا دولشي، ينظران إلى الشاطئ المفتر. وفيما حولهما كانت تحوم طيور النورس وهواء خفيف رطب محمل بالملوحة يبلل وجهيهما. ما الذي يمكن أن تكونه هذه «المفاجأة»؟ العلبة مصنوعة بدقة شديدة وكانتها تضم شيئاً ثميناً. وهي ثقيلة جداً.

- أحب بالطبع أن أذهب إلى خاوشا - قال مايتا - ولكن...

فقط اطعه باييغوس:

- ولكنك لا تملك قرشاً واحداً من أجرة الطريق. لا تقلق. أنا سأدفع لك أجرة الحافلة.

وقال مايتا بإصرار:

- حسن، سنرى، فلنرجع الآن إلى الموضوع الأساسي. إلى الأمور الجدية. هل قرأت الكتاب الذي أعطيتك إياه؟

- لقد أعجبني كثيراً، فهمته بالكامل، باستثناء بعض الأسماء الروسية. هل تعرف لماذا أعجبني هذا الكتاب يا مaita؟ لأنه عمل أكثر مما هو نظري. ما العمل، ما العمل. الحقيقة أن لينين كان يعرف ما يجب عمله يا صاحبي. لقد كان رجل أفعال، مثلثي. أم أن خططي بدت لك غير نافعة؟

تفادى مaita الرد على سؤاله بالقول:

- لحسن الحظ أنك قرأت الكتاب، ولحسن الحظ أن لينين قد أعجبك، إنك تقدم. أتريد أن أخبرك شيئاً؟ أنت محق، فأنا التي قد أثرت فيك كثيراً. لم يبد لي أنها راهبة. لقد جعلتني أتذكر أزمنة أخرى. هل تعرف أنتي في طفولتي كنت شديد التدين مثلها؟ وتقول لي خوانيتها:

- كان يبدو أكبر سنًا مما هو عليه. لقد كان في العقد الرابع، أليس كذلك؟ ولكنني قدرت بأن عمره خمسون سنة. وبما أن أخي كان يبدو أصغر من سنه، فقد كانا يبدوان مثل أبي وابنه. كان ذلك في إحدى زياراتي النادرة لبيت الأسرة. فقد كنا في ذلك الحين في محبس الدير، فنحن لم نكن حينذاك مثل هؤلاء الراهبات السخيفات اللواتي يقضين الآن نصف وقتهم في الدير والنصف الآخر في الشارع.

احتجت ماريا. إنها تهز قطعة الكرتون أمام وجهها بسرعة كبيرة، مستبشرة جنونًا ذبابياً. فالذباب ليس في الهواء، يطن حول رؤوسنا وحسب: إنه يملأ الجدار كأنه مسامير. «لقد عرفت ما هو موجود في هذه العلبة - هكذا فكر مaita - لقد عرفت ما هي المفاجأة». أحس بحرارة في صدره وفكير: «إنه مجنون». كم

يمكن أن يكون عمر خوانيتا؟ من الصعب تحديده: إنها قصيرة القامة، منتصبة القوام، إيماءاتها وحركاتها تقطر نشاطاً وأسنانها الناتئة تعض على الدوام شفتها السفلية. لقد أمضت فترة تدرّبها كراهبة مستجدة في إسبانيا. هل أمضت سنوات طويلة هناك؟ لأن في نبرة صوتها شبه بعيد باللهجة الإسبانية، لهجة إسبانية فقدت الخاءات والراءات لديها حدتها، وفقدت الثاء تدويرها. «ما الذي تفعله هنا يا مایتا؟ فكر بانزعاج - ما الذي تفعله هنا مع راهبة؟» مديده خفية على الرمل الرطب وجس «المفاجأة». أجل، إنها قطعة سلاح.

أقول لها:

- كنت أظن أنكما تتميّان إلى الأخوية نفسها.
- لقد أساءت الظن إذن - ردت ماريا. إنها تبتسم بكثرة، أما خوانيتا بالمقابل فهي جدية حتى عندما تمزح. هناك في الخارج وابل من النباح، وكأن قطيع كلاب ضارية تتصارع. وتتابع ماريا: - أنا كنت مع الراهبات البروليتاريّات، وهي مع الأرستقراطيّات. أما الآن فكلّتانا انتهيـنا إلى البروليتاريا الرثة.

بدأنا بالتحدث عن مایتا وبابيغوس، ولكننا انتقلنا دون أن ندري إلى الحديث عن الجرائم في الحي. لقد كان الثوريون أقوىاء جداً هنا في البداية: يجمعون التبرعات في وضع النهار، ويعقدون كذلك الاجتماعات. وكانوا يقتلون أحدهم بين الحين والآخر متهمينه بالخيانة. ثم ظهرت بعد ذلك كتائب الحرية لقطع الرؤوس وتبرّ الأطراف وتتشوه بالأسيد وجوه مواطنين مزعومين أو حقيقين مع الانتفاضة. لقد تضاعف العنف. وخوانيتا تعتقد بأن الجرائم

العادية ما زالت أكثر عدداً من الجرائم السياسية، وكثيراً ما تكون هذه الأخيرة قناعاً لتلك.

وت Rooney ماريا:

- قبل أيام قليلة قتل أحد جيراننا زوجته لأنها كانت تصايشه بالمشاحنات بسبب غيرتها. وقد وجدها أخواتها يحاول تقطيعه بوضع بطاقة «كلبة واشية» الشهيرة على الضحية.

أفترحتُ عليهما:

- فلنعد إلى ما جئت من أجله. إلى الثورة التي بدأت تتفاعل في تلك السنوات. ثورة مايتا وشقيقك. لقد كانت الأولى بين ثورات كثيرة. بما في ذلك القصة التي انتهت إلى هذا الذي نعيشه الآن.

وقطعتني خوانينا:

- ربما لم تكن أي واحدة من ثورات هذه السنوات هي الثورة العظمى، وإنما ثورتنا نحن المتدينين هي التي كانت كذلك. أقول هذا لأنني أسئل: هل خلفت كل تلك الميتات والاغتيالات أي أثر إيجابي؟ ذلك العنف لم يجلب إلا مزيداً من العنف، أليس هذا صحيحاً؟ هناك فقر أكثر من أي وقت مضى.. هنا، وفي الريف، وفي قرى سلسلة الجبال، وفي كل مكان.

- هل تحدثتما في هذا الأمر - سألتها -. هل حدثك مايتا عن الفقراء، عن البؤس؟

وتقول خوانينا:

- تحدثنا عن الدين. ولا تظن أنني أنا من سعيت إلى هذا الموضوع. بل هو.

- أجل، كنت كاثوليكياً متديناً جداً، ولكنني لم أعد

كذلك، لقد تخلصتُ من هذه الأوهام - دمدم مايتا ثم أحس بالندم لأنه قال ذلك، خشية أن تسيء شقيقة باييغوس فهمه، وأضاف:-
وأنت، ألا تراودك الشكوك مطلقاً؟
فتعلمتْ هي:

- منذ أن أستيقظ وحتى أنام. من قال لك إن الإيمان هو مضاد للشكوك؟

تحمس مايتا:

- أعني.. أليس خدعة كبرى القول بأن مهمة المدارس الكاثوليكية هي تكوين النخبة؟ هل من الممكن يا ترى إقناع أبناء الطبقات المهيمنة بالمبادئ الإنجيلية حول الإحسان وحب الغير؟
ألا تفكرين مطلقاً في هذا؟

ابتسمت له الراهبة:

- إنني أفكر في هذا وفي أشياء أخرى أسوأ بكثير. ومن الأصح القول إننا نفكر. هذا صحيح. عندما انضمت إلى الرهبانية، جمعينا كنا نؤمن بأن الرب هو الذي منح هذه الأسر، بسلطتها وثروتها، مهمة مساعدة أخوتهم المعوزين. وبأننا إذا أحسنا تربية أولئك الفتيات الصغيرات، وهن الرؤوس، فسوف يتولين تحسين الجذع، والأذرع، والأرجل. ولكن أيّاً منا لم تعد تؤمن الآن بهذه الطريقة لتغيير العالم.

وفوجئ مايتا وهو يسمعها تروي قصة المؤامرة التي قامت بها هي وزميلاتها الراهبات في المدرسة. ولم يتوقفن إلى أن تم إغلاق مدرسة الفقراء المجانية التي كانت تعمل في الدير. وفرض على كل واحدة من الصغيرات القدرات على الدفع أن تتولى نفقات

طفلة من المدرسة. لكل منهن فقيرتها. تحضر لها الحلوى، والملابس، وتقوم مرة في السنة بزيارة إلى بيت أسرة محبها، وتحمل إليها الهدايا. تذهب في سيارة البابا، ومعها الماما، وقد يكتفين أحياناً بأن ينزل السائق ليسلم الصرة. يا للعار، يا للفضيحة. هل يمكن تسمية هذا ممارسة للإحسان؟ لقد ألححن، وانتقدن، وكتبن، واعتربن كثيراً، لكي يجري أخيراً إغلاق مدرسة الدير المجانية.

وقال لها مايتا:

- لسنا متبعدين كثيراً كما يبدو أيتها الأم. يسعدني أن أسمعك تتكلمين هكذا. أيمكنني أن أذكر لك شيئاً قاله رجل عظيم؟ لقد قال إنه حين تتجز الإنسانية الثورات التي لا بد منها لتجاوز الظلم، فسيولد دين جديد.

- ولماذا نحتاج إلى دين جديد إذا كان لدينا الدين الحقيقي - ردت عليه الراهبة وهي تمد إليه طبق الحلوى - : تفضل، قطعة بسكويت.

- القائل هو تروتسكي - حدد مايتا - . وهو ثوري وملحد. ولكنه كان يحترم مسألة الإيمان.

- هذا الذي يقال عن أن الثورة تطلق طاقات الشعب يفهم أيضاً هنا بالذات - أطلق باليخوس حصانة نحو طير الكاترات [□] وأضاف - هل بدت لك خططي سيئة حقاً إلى هذا الحد؟ أم أنك قلت ذلك لإزعاجي فقط يا مايتا؟

[□] الكاترات alcatraz : طير أمريكي يشبه البجع.

- لقد بدت لنا تشويهًا ممسوحاً - تهز خوانيتها كتفيها وتؤمئ بحركة تعبر عن خيبة الأمل - وأنا أتساءل الآن عما إذا لم يكن من الأفضل، رغم التشوه وكل شيء، أن تجد هاتيك الصغيرات مكاناً يتعلمن فيه القراءة ويتلقين على الأقل صرة كل سنة. لم أعد أعرف، لستُ واثقة مما إذا كنا قد أحسنا صنعاً بذلك. ماذا كانت النتيجة؟ لقد كنا في المدرسة اثنين وثلاثين راهبة وحوالي عشرين أخرى. والنسبة تدور حول هذا المعدل في معظم المدارس. لقد تمزقت الجمعيات الدينية إرباً... هل كان وصولنا إلى الوعي الاجتماعي جيداً؟ وهل كانت تصحية أخي جيدة؟
تحاول رسم ابتسامة وكأنها تعذر عن مشاركتي في تشوشهما.

- هذا منطقي، إنه خبز جاهز للأكل، إنه قهوة بالحليب -
يتحمس بابيغوس - إذا كان اليهود يعملون لرب عمل يستغلهم، فإنهم يعملون دون حماس ويكون مردودهم قليلاً. وعندما يعملون من أجل أنفسهم ينتجون أكثر، وهذا يفيد المجتمع كله. هل حصلتُ على عشرين درجة يا أخي؟
فأوضح له مايتا:

- شريطة ألا تخلق طبقة طفiliية تتزع لنفسها جهود البروليتاريا والفالحين. شريطة ألا تراكم طبقة بيروقراطية سلطات واسعة بحيث تخلق بنية جديدة غير عادلة. هذا ما يوضحه ليون دافيدوفيتش في نظرية الثورة الدائمة... أوف، أنا نفسي مللت من خطباتي.

تهد بابيغوس:

- أحب أن أذهب لمشاهدة كرة القدم، ألا تحب ذلك أنت؟ لقد هربت من خواخا لكي أشاهد مباراة القمة. لا أريد إضاعة فرصة مشاهدة فريقي أليانثا - أونيفرسيداد. هلم بنا، أنا أدعوك.
أقول لها وقد رأيتها تصمت:

- ما هو الرد على هذا السؤال؟ هل كانت الثورة الصامتة في تلك الأيام نافعة للكنيسة أم أنها ألحقت بها الضرر؟
- لقد كانت مفيدة لنا نحن اللواتي فقدنا الأوهام الزائفة، ولكننا لم نفقد الإيمان، أما بالنسبة للأختيرات فمن يدري - تقول ماريا ذلك، ثم تضيف وهي تلتفت نحو خوانيتا - كيف كان مایتا؟
- كان يتكلم بنعومة، بلباقة، ويلبس بصورة متواضعة - تتذكر خوانيتا - لقد حاول إبهاري بكلمات متمادية ضد الدين. ولكنني أظن أنني أنا التي بهرتة. لم يكن يعلم بما يدور في الأديرة، وفي المدارس الدينية، وفي الكنائس. لم يكن يعرف أي شيء عن ثورتنا... ففتح عينيه على اتساعهما عندما أخبرته وقال لي: «لسنا متباعدين كثيراً إذن». وقد أظهرت السنوات أنه كان على حق، أليس كذلك؟

وتروي لي أن الأب ميفيل، وهو خوري من الحي قد اختفى بطريقة غامضة قبل حوالي سنتين، ويبدو أنه كان هو نفسه الرفيق ليونشيو الذي قاد الهجوم الدامي على قصر الحكومة في الشهر الماضي.

- أنا أشك في ذلك - تعرّض ماريا - الأب ميفيل كان متوجهاً مُحرقاً من فمه إلى الخارج فقط، أما في داخله فكان إطفائياً. أنا متأكدة من أن الشرطة أو كتائب الحرية قد قتلتة.

أجل، هذا ما كانته «المفاجأة» التي أحضرها بابيغوس. ليست مسدس طاحون ولا مسدساً عاديّاً، وإنما مسدس رشاش قصير، خفيف، يبدو وكأنه قد خرج لتوه من المصنوع: أسود، زيتٍ، لامع. تفحصه مايتا وهو مُنومٌ. رفع بصره بصعوبة عن السلاح الذي كان يرتعش بين يديه وألقى نظرة فيما حوله وهو يشعر بأن المخبرين سيبierzون من بين الكتب المبعثرة والصحف المنثورة بفوضى في الغرفة، ويشيرون إليه وهم يمدون من الضحك: «لقد وقعت يا مايتا»، «لقد خوزقت نفسك يا مايتا»، «بالجمل المشهود يا مايتا»، وفكراً: «أنت متهرور، في دماغك خلل، أنت...» ولكن لم يكن يشعر بأي حقد تجاه الملازم. بل كان يشعر بالرفق الذي توحى به شقاوة طفل عزيز، وبرغبة في رؤيته بأسرع ما يمكن. وفكراً: «لكي أشدّه من أذنيه. لكني أقول له...»

- يحدث لي معك أمر غريب. لست أدرى إذا ما كان علي أن أخبرك به أم لا. آملُ ألا تغضب. هل يمكنني أن أكلمك بصرامة؟
كان ملعب كرة القدم شبه خاو وكانا قد وصلا باكراً جداً، حتى إن التمهيد للمباراة لم يكن قد بدأ بعد.

- يمكنك - قال بابيغوس ذلك وهو يطلق الدخان من أنفه وفمه - أعرف ما الذي ستقوله، ألن تقول إن خطتي الثورية ليست إلا تبعحاً؟ أم أنك ستؤنبني مرة أخرى من أجل «المفاجأة»؟

- كم من الوقت مضى على لقاءاتنا؟ شهران؟ - قال مايتا.

- لقد صرنا مثل الظفر ولحمته، أليس كذلك؟ - رد بابيغوس وهو يصفق لردة قام بها حارس مرمى ضئيل ورشيق جداً - ما الذي ستقوله لي؟

- كل هذا يبدو لي أحياناً وكأنه إضاعة للوقت.

سها بابيغوس عن المباراة:

- أتعني إعاراتي الكتب وتعلميي الماركسية؟

فأوضح مايتا:

- ليس لأنك لا تفهم ما أعلمك إياه. فأنت لديك دماغ أكثر من قادر على فهم المادة الديالكتيكية أو أي شيء آخر.

فقال بابيغوس وهو يعود إلى مجريات المباراة:

- لحسن الحظ. ظننت أنك تضيع وقتك معى لأنى غبي مغل الدماغ.

ابتسم مايتا لبروفيل الملائم:

- لا، لست غبياً. ولكنني حين أتكلم معك، وأعرف ما الذي تفكري فيه، وأتعرف عليك،أشعر بأنه يمكن للنظرية أن تسبب لك الضرر بدل أن تفيدك.

نهض بابيغوس مصققاً:

- اللعنة، كاد أن يكون هدفاً. لفة بديعة.

وتتابع مايتا:

- بهذا المعنى، أترى؟

قال بابيغوس:

- لست أرى شيئاً. لقد تحولت إلى غبي. أجل، أنت تحاول الآن أن تقول لي أن أنسى خطتي، وأنني أساءت صنعاً بإهدائك هذا الرشيش؟ أم ما الذي تعنيه يا أخي؟ جووووول! أخيراً. براافوا!

- النظرية ترى أن العفوية الثورية أمر سين - قال مايتا -. لأنه إذا لم يكن هناك عقيدة، معرفة علمية، فإن الاندفاع يتبدد في

ممارسات فوضوية. أما أنت فلديك حصانة غريزية من الوقوع في أسر النظرية. ربما كنتَ على حق، وربما لم يقع لك، بفضل هذا، ما وقع لنا نحن...

- من أنتم؟ - سأله بابيغوس وهو يلتفت إليه من جديد.

- من نسينا الممارسة العملية لشدة اهتمامنا بتبعة أنفسنا نظرياً

و...

صمت لأن ضجة كبيرة تعللت في المدرجات: كان هناك إطلاق ألعاب نارية ومطر قصاصات ورقية يتسلط على الملعب. لقد تماديَ في الكلام يا مaita.

- لم تجب على سؤالي - قال بابيغوس بإلحاح دون أن ينظر إليه، فقد كان يتأمل سيجارته: أهو واشي؟ - لقد قلت «نحن» وأنا سألت من أنتم. لماذا لا تجيبني يا أخي.

- الثوريون البيرويون، الماركسيون البيرويون - تهجم على مايتا الكلمات وهو يمعن التفكير: أيكون عميلاً مكافلاً بمهمة التقصي والاستدراج؟ ثم أضاف: - إننا نعرف الكثير عن اللينينية وعن التروتسكية، ولكننا لا نعرف كيف نصل إلى الجماهير. هذا هو ما كنت أعنيه.

وتقول خوانيتا:

- سأله إذا ما كان مؤمناً على الأقل بالرب، وإذا ما كانت أفكاره السياسية تتطابق مع الإيمان المسيحي.

- ما كان علي أن أسألك هذا السؤال يا أخي - اعتذر بابيغوس نادماً، وكلاهما كان ساهماً في سيل الجمهور الذي ينزل عن مدرجات الستاد - آسف. لا أريدك أن تخبرني بأي شيء.

فقال مaita :

- وما الذي سأخبرك به ولا تعرفه؟ أنا سعيد لأننا جئنا، مع أن المباراة كانت سيئة. منذ قرون لم ...

فألح بابيغوس وهو يمسك بذراعه:

- أريد أن أقول شيئاً. أنا أتفهم جيداً أن تكون لديك ريبة.

- هل أنت مجنون - قال مaita -. ولماذا أرتاب منك؟

فقال بابيغوس:

- لأنني عسكري ولأنك لا تعرفني كفاية. أتفهم أن تحفي عن بعض الأمور. لا أريد أن أعرف شيئاً عن حياتك السياسية يا Maita. إنني مستقيم من رأسى حتى قدمي في علاقتي مع أصدقائي. وأنا أعتبرك أفضل أصدقائي. إذا لعبتُ معك لعبة قذرة، فلديك «المفاجأة» التي أهديتك إياها لتنقم مني ...

وأكمل لها Maita برقه:

- الثورة والديانة الكاثوليكية لا تتفقان. من الأفضل عدم خداع النفس أيتها الأم.

فقالت خوانيتا ساخرة:

- إنك مُضلّل ومتأخر كثيراً. هل تظن أنني أهتم بسماع مقوله إن الدين أفيون الشعب؟ قد يكون كذلك، وقد كان كذلك على أي حال. ولكن هذا كله انتهى. كل شيء يتبدل. فتحن أيضاً نصنع الثورة. لا تعرف ذلك؟

هل كان قد بدأ آنذاك في البيرو عصر الرهبان والراهبات التقدميين؟ خوانيتا تؤكد لي ذلك، ولكن لدى شكوكي. فالامر كان في أحسن الأحوال بدائياً ومتعرضاً بحيث لم يُتعِّن لمaita أن يعلم

به. هل كان سيسعده ذلك؟ هل كان الطفل السابق الذي أعلن إضراباً عن الطعام لكي يتماثل مع الفقراء سيشعر بالسعادة لأن المونسيور بامبران، أسقف الضواحي الهاشمية، يحمل كما قيل خاتمه الشهير مع أسلحته الأسقفية في جانب المنجل والمطرقة في الجانب الآخر؟ وأن الأب غوستافو غوتيريث صاغ تصوره للاهوت التحرر في القول إن صنع الثورة الاشتراكية هو واجب الكاثوليكين؟ وأن المونسيور مينديث أرثيو ينصح المؤمنين المكسيكيين بالحج إلى كوبا متلماً كانوا يحجون من قبل إلى لورديز¹؟ أجل، دون ريب. وربما كان بإمكانه أن يبقى كاثوليكيًا مثل الكثير من الثوريين في هذه الأيام. أكان يثير الانطباع بأنه دوغماي، وصاحب أفكار متبعة؟

تفرق خواستا في التأمل لحظة، وتقول موافقة:

- أجل، أظن ذلك، دوغماي. فهو لم يكن يتمتع بأي مرونة على الأقل فيما يتعلق بالدين. لقد تبادلنا الحديث لبرهة فقط، ربما لم أفهم جيداً أي نوع من الرجال كان. لقد فكرت فيه كثيراً فيما بعد. وقد تمكّن من التأثير كثيراً على أخي. لقد غير له حياته. جعله يقرأ، وهو ما لم يكن يفعله من قبل. وكانت القراءة كتاباً شيوعية بالطبع. حاولت أن أحذر: لا تلاحظ أنه يجذبك إلى معتقداته؟
- أجل، أعرف ذلك، ولكنني أتعلم منه أشياء كثيرة يا أختاه.

¹ لورديز Lourdes : كنيسة مكرسة للسيدة العذراء في جبال البيرينيه الفرنسيية يحج إليها المؤمنون الكاثوليكيون.

وتضييف خوانيتا:

- لقد كان أخي مثالياً ومتمراً، لديه إحساس غير واضح بالظلم. وقد وجد في مaita الناصح والدليل الذي كان يحركه على هواه.

أسأليها:

- أيعني هذا برأيك أن Maita كان المسؤول؟ أظنني أنه هو الذي خطط لكل شيء، وورط بايغوس في قضية خاوخا؟
قال Maita مرتاباً:

- لا، لأنني لا أعرف حتى كيف أستخدم السلاح. سأعترف لك بشيء. أنا لم أطلق النار في حياتي حتى من مسدس أطفال. ولنرجع إلى موضوعنا السابق، مسألة الصداقة.. أريد أن أقدم لك تحذيراً في هذا الشأن.

قال بايغوس:

- لا تحذرني من أي شيء، لقد طلبت منك المعاذرة لعدم تكتمي. إنني أفضل أن تقدم لي إحدى محاضراتك. فلنتابع مسألة ازدواجية السلطة، هذه الطريقة في سحب الأرضية شيئاً فشيئاً من تحت أقدام البرجوازية والإمبريالية.

وقال Maita

- يجب أن تعرف أنه لا يمكن حتى للصداقة أن تكون فوق الثورة، ضع هذا عميقاً في رأسك ولا تنسه. الثورة أولاً. وبعد ذلك كل ما عداها. هذا هو ما حاولت أن أوضحه لأختك في ذلك المساء. أفكارها جيدة، فهي تمضي إلى أبعد ما يمكن لـ كاثوليكي أن يصل إليه. ولكن هذا غير كافٍ. لأنك إذا كنت

تؤمن بالنعم، وبالجحيم، فإن كل ما هو هنا على الأرض سيكون ثانياً على الدوام. وهكذا لن تكون ثمة ثورة على الإطلاق. إنني أثق بك، وأعتبرك كذلك صديقاً عظيماً. فإذا ما أخفيت عنك شيئاً، إذا...

- يكفي - أسكته باليخوس -. لقد اعتذرت منك، ولا أريد أي كلمة أخرى. أقلت لي إنك لم تطلق النار قط من قبل؟ غداً سنذهب إلى لورين، ونأخذ معنا المفاجأة. سأعطيك درساً. إن إطلاق النار من مسدس رشاش أسهل من أطروحة ازدواجية السلطة.

- يجب أن يكون هذا هو ما حصل بالطبع -. قالت خوانيتا. ولكن طريقتها في قول ذلك بدت غير واثقة كثيراً - فمما تنا سياسي قديم، وثوري محترف. أما أخي فشاب مندفع يسيطر عليه الآخر بسبب السن والثقافة.

رددت عليها:

- لست أدري، فأنا غير واثق من ذلك. بل إنني أفكر أحياناً بأن الأمر كان معكوساً.

وتتدخل ماريا:

- يا للهراء. كيف يمكن لصبي أن يورط مُسنّاً مجرياً في حماقة كهذه؟

الأمر بالتحديد أيتها الأم هو أن مایتا كان ثورياً في الظل. أمضى حياته في التآمر والنضال ضمن جماعات صغيرة مثل ذلك الحزب الذي انضم إليه. وفجأة، حين كان يدنو من السن التي يتقادع فيها آخرون من النضال، ظهر له شخص ليفتح أمامه للمرة الأولى أبواب العمل المباشر. أيمكن أن يكون هناك ما هو أكثر

سحراً بالنسبة لرجل مثله من أن يوضع يوماً في يده سلاح؟
- هذا الذي تقوله كلام روايات - تقول خوانينا وهي تبتسم
في الوقت نفسه ابتسامة توضّنها عن الإساءة - هذا لا يبدو أنه
القصة الواقعية بأي حال من الأحوال.
وأؤكد لها:

- لن يكون ما سأكتبه هو القصة الواقعية بالفعل، وإنما رواية.
نسخة مختلفة جداً عن الواقع.. بعيدة عنه، بل ومزيفة إن أنت شئت.
فتقول بسخرية:

- لماذا كل هذا الجهد إذن، لماذا تحاول تقصي ما جرى، ولماذا
تأتي لتحقيق معي بهذه الطريقة. لماذا لا تكذب إذن منذ البداية؟
فأوضح لها:

- لأنني واقعي، أحارُل أن أكذب دائماً في رواياتي وأنا أعرف
السبب. إنه أسلوبِي في العمل. وأعتقد أنها الطريقة الوحيدة
لكتابة قصة بالانطلاق من التاريخ.
وتقاطعني ماريا:

- إنني أتساءل عما إذا كان بإمكانِي أن أتوصل يوماً إلى
معرفة التاريخ. أو إذا لم يكن فيه اختلاف مثل الروايات أو أكثر.
هذه القضية التي نتحدث عنها مثلاً. لقد قيل الكثير عن الرهبان
الثوريين، وعن التفلسف الماركسي في الكنيسة... ومع ذلك، ليس
هناك من يفكِّر في التفسير الأكثر بساطة.
- أي تفسير؟

- اليأس والغضب اللذان يمكن أن يتعايشا نهاراً وليلاً مع
المرض، الإحساس بالعجز حيال كل هذا الجور - تقول ماريا ذلك

محقظة بالرقة، وقد لاحظت أن الراهبة لا تكاد تحرك شفتيها وهي تتبع: - والانتباه بصورة خاصة إلى أن من يستطيعون أن يفعلوا شيئاً لا يقدمون على عمل أي شيء على الإطلاق. السياسيون، الأغنياء، من يمسكون المقلة من ذراعها، من يحكمون.

وقالت له شقيقة بابيغخوس مذهولة:

- ولكن، ولكن، كيف يمكن التخلص من الإيمان من أجل هذا؟ الأحرى أن يرسخ هذا كله الإيمان، يجب...
فواصل مايتا تصليب نبرته:

- مهما كانت قوة الإيمان، فستأتي لحظة يقول فيها أحدهنا «يكفي». لا يمكن أن يكون العلاج لكل هذا الظلم هو الوعد بالحياة السرمدية. هذا ما حدث يا أماه. فقد كنت أرى الجحيم ماثلاً في شوارع ليما. وخاصة في مونتون. أتعرفين ما هو المونتون؟ إنها ضاحية هامشية، إحدى أول هذه الضواحي، ليست أسوأ ولا أشد بؤساً من هذه التي تعيش فيها خوانيتا وماريا. لقد تغيرت الأمور كثيراً منذ اعتراف مايتا ذاك للراهبة، فالضواحي الهمشية قد تكاثرت، وأضيفت المجازر إلى البؤس والبطالة. هل صحيح أن مشهد المونتون ذاك هو الذي بدأ، قبل نصف قرن، الم الدين مايتا وحوله إلى متمرد ثوري؟ العلاقة بهذا العالم لم تؤد على أي حال إلى النتيجة نفسها بالنسبة إلى خوانيتا وماريا. فائي منها لا توحى بأنها يائسة أو ساخطة، وهما غير مستسلمتين كذلك، وما يمكنني أن أراه هو أن معايشتهما للجحور أيضاً لم توصلهما إلى القناعة بأن الحل يكمن في القتل والقنابل. كلتاهم ما زالتا متدينتين، أليس كذلك؟ هل تتردد أصداء الطلقات بعيداً في صحراء لورين؟

- لا - سدد بابيغوس السلاح، وأطلق النار وكان الدوي أقل مما توقعه مايتا. كانت يداه مبللتين بالعرق من الإثارة. وأضاف بابيغوس قائلاً: لم أكن آخذها لي، فقد كذبت عليك. كنت آخذ تلك الكتب في الواقع إلى خاوحا كي يقرأها الفتىـان. إنـي أثق بك يا مايتا. وأخبرك بشيء لا أخبر به حتى أختي، وهي أكثر شخص أحبـه.

وبـينما كان يتكلـم وضع المسدس الرشاش بين يديـه. شـرح له كـيف يمسـك بهـ، وكـيف يحرـر مـسمـار الأمـانـ، وكـيف يـسـددـ، ويـضـغـطـ الزـنـادـ، وكـيف يـمـلـأـ المـخـزنـ بالـذـخـيرـةـ وـيـفـرـغـهـ.

أنـبهـ ماـيتـاـ:

- إنـكـ تـسيـءـ التـصـرـفـ، فـهـذـهـ الـأـمـورـ لـأـحـدـ - وـكـانـ صـوـتـهـ مـتـهـدـجـاـ بـسـبـبـ الـهـزـةـ الـتـيـ أـحـسـ بـهـاـ فـيـ جـسـدـهـ حـينـ سـمـعـ زـخـةـ الرـصـاصـ وـاـكـتـشـفـ مـنـ اـهـتزـازـ مـعـصـمـيـهـ بـأـنـهـ هـوـ مـنـ كـانـ يـطـلـقـ النـارـ؛ وـفـيـ الـبـعـيدـ كـانـ الرـمـلـ يـمـتـدـ مـصـفـراـ، باـهـتاـ، مـزـرـقاـ، غـيرـ مـبـالـيـ - إـنـهـ مـسـأـلـةـ أـمـنـ بـدـائـيـةـ. الـأـمـرـ لـيـسـ مـتـعـلـقاـ بـكـ وـحـدـكـ، وإنـماـ بـالـآـخـرـيـنـ. أـلـاـ تـقـمـمـ؟ـ لـلـمـرـءـ الـحـقـ بـأـنـ يـفـعـلـ بـحـيـاتـهـ مـاـ يـحـلـوـ لـهـ. وـلـكـنـ لـيـسـ مـنـ حـقـهـ أـنـ يـعـرـضـ لـلـخـطـرـ رـفـاقـهـ وـالـثـوـرـةـ لـمـجـرـدـ إـظـهـارـ ثـقـتهـ بـصـدـيقـ. مـاـذـاـ لـوـ أـنـيـ أـعـمـلـ فـيـ خـدـمـةـ الشـرـطةـ؟ـ

ضـحـكـ بـابـيـغـوسـ:

- لـسـتـ مـنـاسـبـاـ لـهـذـاـ عـلـمـ، وـلـنـ تـسـتـطـعـ أـنـ تـكـونـ وـاـشـيـاـ حـتـىـ لوـ أـرـدـتـ ذـلـكـ. مـاـ رـأـيـكـ بـإـطـلـاقـ النـارـ؟ـ أـلـيـسـ سـهـلـاـ؟ـ

- الـحـقـيـقـةـ أـنـهـ سـهـلـ جـداـ - وـافـقـ مـاـيتـاـ وـهـوـ يـلـمـسـ فـوـهـةـ السـلاـحـ وـيـشـعـرـ بـحـرـيقـ فـيـ أـصـابـعـهـ، وـأـضـافـ:ـ لـاـ تـخـبـرـنـيـ بـأـيـ كـلـمـةـ أـخـرىـ

عن الفتىـنـ لا أـرـيدـ مـثـلـ هـذـهـ الإـثـبـاتـ لـلـصـدـاقـةـ،ـ إـنـهـ تـبـجـحـاتـ.
كـانـ قـدـ هـبـ هـوـاءـ سـاخـنـ،ـ وـبـداـ كـمـاـ لـوـ أـكـثـانـ الـمـحـيـطـةـ
بـهـماـ تـقـصـفـهـماـ بـوـابـلـ مـنـ حـبـيـبـاتـ الرـمـلـ.ـ أـجـلـ،ـ لـقـدـ اـخـتـارـ الـمـلـازـمـ
مـكـانـاـ جـيـداـ،ـ فـمـنـ يـمـكـنـهـ سـمـاعـ صـوتـ الـطـلـقـاتـ فـيـ هـذـهـ العـزـلـةـ.
يـجـبـ أـلـاـ يـظـنـ أـنـهـ قـدـ عـرـفـ كـلـ شـيـءـ.ـ فـالـهـمـ لـيـسـ مـلـءـ خـزانـ
الـمـسـدـسـ الرـشاـشـ وـتـقـرـيفـهـ،ـ وـلـاـ التـسـدـيدـ وـإـطـلاقـ النـارـ،ـ إـنـمـاـ المـهـمـ
هـوـ مـعـرـفـةـ كـيـفـيـةـ تـظـلـيفـ السـلـاحـ وـإـقـانـ فـكـهـ وـتـرـكـيـبـهـ.

ـ لـقـدـ أـخـبـرـتـكـ بـذـلـكـ لـلـأـهـمـيـةـ ـ عـادـ بـايـخـوـسـ إـلـىـ الـقـضـيـةـ
نـفـسـهـاـ،ـ وـكـانـ يـوـمـئـ لـهـ بـيـدـهـ بـأـنـ يـرـجـعـاـ نـحـوـ الـطـرـيقـ الـعـامـ،ـ لـأـنـ
الـرـمـالـ الـمـتـطـاـيـرـ سـتـخـنـقـهـماـ ـ إـنـيـ بـحـاجـةـ إـلـىـ مـسـاعـدـتـكـ يـاـ أـخـيـ.
إـنـهـمـ فـتـيـانـ مـنـ مـدـرـسـةـ سـانـ خـوـسـيـةـ،ـ هـنـاكـ فـيـ خـاوـخـاـ.ـ إـنـهـمـ شـبـابـ
صـغـارـ،ـ فـيـ السـنـةـ الـرـابـعـةـ وـالـخـامـسـةـ الـمـتوـسـطـةـ.ـ لـقـدـ صـادـقـهـمـ وـنـحنـ
نـلـعـبـ كـرـةـ الـقـدـمـ،ـ فـيـ مـلـعـبـ السـجـنـ.ـ إـنـهـمـ فـتـيـانـ الـخـوـسـيـفـيـنـيـونـ.
كـانـاـ يـتـقـدـمـاـ عـبـرـ الرـمـلـ وـوـجـاهـهـماـ بـعـكـسـ اـتـجـاهـ الـرـيـحـ،ـ
وـأـقـدـامـهـماـ غـاطـسـةـ حـتـىـ الـكـاحـلـينـ فـيـ الـأـرـضـ الـلـيـنـةـ،ـ وـنـسـيـ مـاـيـاتـاـ
فـجـأـةـ دـرـسـ الـرـمـاـيـةـ وـانـفـعـالـهـ قـبـلـ لـحظـاتـ،ـ مـذـهـلـاـ مـاـ كـانـ الـلـازـمـ
يـقـولـهـ لـهـ.

ـ لـاـ تـخـبـرـنـيـ بـشـيءـ قـدـ تـنـدـمـ عـلـيـهـ ـ قـالـ لـهـ مـذـكـراـ،ـ وـلـكـنـ
الـفـضـولـ كـانـ يـنـهـشـهـ مـعـ ذـلـكـ لـعـرـفـةـ الـمـزـيدـ.
وـقـالـ بـايـخـوـسـ الـذـيـ كـانـ قـدـ وـضـعـ مـنـدـيـلـاـ عـلـىـ فـمـهـ لـيـحـمـيهـ
مـنـ الـرـمـالـ:

ـ اـصـمـتـ،ـ كـرـاخـوـ.ـ لـقـدـ اـنـقـلـتـ مـعـ فـتـيـانـ مـنـ لـعـبـ كـرـةـ الـقـدـمـ
إـلـىـ تـنـاـوـلـ كـأـسـ مـنـ الـبـيـرـةـ مـعـاـ،ـ وـالـذـهـابـ إـلـىـ حـفـلـةـ صـفـيـرـةـ،ـ إـلـىـ

السينما والتحدث كثيراً. ومنذ أن بدأنا اجتماعاتنا وأنا أحاول أن أعلمهم ما تعلمني إياه. ويساعدني أستاذ من مدرسة سان خوسيه. يقول إنه اشتراكي أيضاً.

سأله مايتا:

- أعطيتهم دروساً في الماركسية؟

فقال بابيلخوس موئلاً بيديه:

- أجل، العلم الحقيقي. البلسم المضاد لسموم هذه المعارف المثالية والميتافيزيقية التي يحشرونها في رؤوسهم. مثلما تقول أنت بلغتك المزهرة يا أخي.

قبل لحظات، حين كان يعلمه إطلاق النار، كان رياضياً بارعاً وأمراً. وها هو الآن يتحول إلى فتى خجول، مرتبك في رواية ما يرويه له. تطلع إليه مايتا من خلال وابل الرمل. وتخيل النساء اللواتي قبّلن هذه التقاطيع الشديدة، وغضبن هاتين الشفتين البارزتين، وتلوين تحت جسد الملازم القاسي. هتف قائلاً:

- أتعرف أنك تتركني مفتوح الفم من الانتهار. كنت أظن أن دروسي الماركسية تسبب لك ضجراً قاتلاً.

واعترف بابيلخوس:

- بصراحة، كانت تسبب لي الضجر أحياناً، وفي أحياناً أخرى كنت أهيم في القمر. فالثورة الدائمة مثلاً. إنها شيء كثير دفعه واحدة. وهكذا فقد سببت خلطاً في رؤوس الفتيان. لهذا أطلب منك دائماً أن تأتي إلى خاوشا. هيا، ساعدني في تعليمهم. هؤلاء الفتياً مثل الديناميت النقي يا مايتا.

ابتسمت ماريا:

- ما زلنا متدينات بالطبع، ولكن دون براقع. لدينا فائض من المهمات، وليس من التجديف. لقد أعفونا من التعليم في المدرسة وسمحوا لنا بالعمل هنا. وجمعيتنا الرهبانية تساعدنا قدر المستطاع. هل تشعر خوانيتا وماريا بأنهما تساهمان بتقديم مساعدة فعلية، بعيشهما في الضاحية الها姆شية؟ هذا مؤكّد، وإلا لما أمكن تفسير تعريض نفسيهما للخطر في هذه الظروف الحالية. حيث لا يمر يوم إلا ويسقط خوري أو راهبة أو عامل اجتماعي في الضواحي ضحية اعتداء. وبعيداً عن جدوّي أو عدم جدوّي ما تفعلانه، من المستحيل ألا نحسدهما على هذا الإيمان الذي يمنحهما القوة للصمود في الرعب اليومي. قلت لهما إنني أشاء سيري قادماً إلى هنا، أحسست كما لو أنني أحتجاز كل حلقات الجحيم.

- لا بد أن الوضع هناك أسوأ - قالت خوانيتا دون أن تبتسم.
فتتدخل ماريا:

- ألم تذهب بي مطلقاً إلى تلك القرية المحدثة؟
- لا - ترد خوانيتا - ، لم أذهب قطّ إلى مونتون.
- أنا ذهبت مرات كثيرة، في صغرى، عندما كنت كاثوليكياً جداً - قال مايتا ذلك، ولاحظتْ هي عليه ملامح الشرود، فهو الحنين؟ - كنت أذهب مع بعض الفتیان من العمل الكاثوليكي. لقد كانت في تلك الضاحية بعثة كندية. راهبان وبضعة علمانيين. أذكر أباً شاباً، طويلاً، متورداً. كان طيباً، وقد اعتاد أن يقول: «لا شيء مما تعلّمته ينفع». ولم يكن يتحمل رؤية الأطفال يموتون كالذباب، وأعداد المصابين بالسل، بينما هناك في الصحف صفحات وصفحات مخصصة للحالات

والمآدب، ولزفاف الأغنياء، كان عمري خمسة عشر عاماً. فكنت أرجع إلى بيتي ولا أستطيع الصلاة في الليل. كنت أفكّر: «الرب لا يصغي، إنه يغلق أذنيه كي لا يسمع وعينيه كي لا يرى ما يحدث في مونتون». إلى أن توصلت يوماً إلى الاقتناع. لكي أناضل ضد كل ذلك لابد من التخلّي عن الإيمان بالرب يا أماه.

بدا لخواستي أن مايتا يخرج بنتيجة غير معقوله من مقدمات صحيحة، وأخبرته بذلك. ولكنها تأثرت للانفعال الذي بدا عليه، فقالت له:

- أنا أيضاً أمر بلحظات غم كثيرة فيما يتعلق بإيماني. مع أنني لم أصل حتى الآن، لحسن الحظ، إلى مطالبة الرب بالحساب.

- لا نتحدث في النظرية فقط، وإنما كذلك في الأمور العملية. - واصل باييغوس الكلام. وكان يمشيآن على الطريق، باتجاه ليما، وقد أخفيا المسدس الرشاش في الحقيبة، وكانا يحاولان إيقاف كل الشاحنات والحافلات التي تمر بهما.

قال مايتا ساخراً:

- في أمور عملية مثل إعداد الكوكتيل مولوتوف، ومفرقعات الديناميت والقنابل؟ أمور عملية مثل خطتك السياسية التي تكلمت عنها في المرة الماضية؟

قال باييغوس بنبرته المرحة دائمًا:

- كل شيء في وقته المناسب يا أخي. أمور عملية مثل الذهاب إلى قرى الهنود للتعرف عن قرب على مشاكل الفلاحين. وحلوها. لأن هؤلاء الهنود بدؤوا يتحركون، بدؤوا يحتلّون الأرض التي يطالبون بها منذ قرون.

- تعني يستعيدهنها - همس مايتا. وكان ينظر إليه بفضول، حائراً، وكأنه يكتشف بایيغوس الحقيقى على الرغم من أنه يلتقي به منذ عدةأسابيع .. هذه الأراضي كانت لهم، لا تنس ذلك.

فوافق الملازم:

- بالضبط، ما عنите هو استعادتهم للأرض. نذهب ونتبادل الحديث مع الفلاحين، ويرى الفتياں كيف أن أولئك الفلاحين قد بدؤوا بتحطيم قيودهم دون أي مساعدة من أي حزب. وهكذا يتعلمون كيف ستصل الثورة إلى هذه البلاد. الأستاذ أوببيو⁷ يساعدني بعض الشيء في شؤون النظرية، ولكنك تستطيع أن تساعدني أكثر منه بكثير يا أخي. ألن تذهب إلى خاوخا؟

- إنك تجعلني أفتح فمي من الدهشة - قال مايتا.

فضحك بایيغوس:

- أغلقه إذن، لأنه سيمتلئ بالرمل. انظر، هذه الحافلة ستتوقف.

- لديك إذن جماعتك وكل شيء - كرر مايتا وهو يفرك عينيه المتهيجتين من الغبار - حلقة دراسات ماركسية.. في خاوخا! وقمت باتصالات مع قواعد فلاحية، هذا يعني...

فوجئ إليه الملازم صفة:

- هذا يعني أنه بينما تتكلم أنت عن الثورة، أقوم أنا بصنعها. أجل، كراخو. أنا رجل عمل. وأنت نظري. يجب أن نتحد. النظرية والممارسة يا صاحبي. فلنطلق مسيرة هذا الشعب ولن يستطيع أحد وقفه. سنحققأشياء عظيمة. صافح هذه الأصابع الخمسة واقسم إنك ستجيء إلى خاوخا. بلادنا البيرو رائعة يا أخي!

بدا صبياً منفعلاً وسعيداً ببدلته المتقدة وغرتة الهندية. أحس مايتا بالسعادة لوجوده معه مرة أخرى. جلسا إلى مائدة في الركن، وطلبا من النادل الصيني فنجاني قهوة وفکر مايتا فيما لو أنهما كانوا طفلين ومتماثلين في العمر، لكانا مهرا صداقتهما بعهد بالدم.

- هناك الآن الكثير من الرهبان والراهبات مثل ذلك الأب الكندي الذي كان في مونتون - قالت الأم الراهبة دون أن تبدي ضيقاً - لقد عرفت الكنيسةُ البؤس منذ الأزل، ومهما كان رأيك، فإنها قد عملت دائماً ما تستطيعه للتخفيف منه. ولكن الصحيح الآن هو أنها أدركت بأن الظلم ليس فردياً وإنما اجتماعي. فالكنيسة لم تعد تقبل أيضاً بأن يملك قلة كل شيء بينما الأغلبية لا تملك شيئاً. نعرف أن المساعدة الروحية الخالصة في هذه الظروف تحول إلى سخرية... ولكن، أرى أنني أبتعد عن الموضوع.

شجعها مايتا:

- لا، فهذا هو الموضوع. البؤس، ملايين الجائعين في بيرو. هذا هو الموضوع الوحيد. هل هناك حل؟ ما هو؟ من يملكه؟ رب؟ لا يا أماه. إنها الثورة.

بدأ الغروب يحل وحين أنظر إلى الساعة أرى أنه قد مضى على هناك أربع ساعات. كان يروقني أن أسمع هذا الذي سمعته خوانيتا، أن أسمع من فم مايتا كيف تخلى عن الإيمان. في أثناء الحديث كان يطل أحياناً صبية من باب البيت الموارب: كانوا يطلون برؤوسهم، يتجمسون، يملون، ويذهبون. كم منهم سيجري

تجنيدهم في الانفلاحة؟ هل حدثني زميل الدراسة السابق يوماً عن ذهابه إلى مونتون لمساعدة رهبان البعثة الكندية؟ كم من هؤلاء الصبية سيقتلون أو يُقتلون أختيالاً؟ خرجت خوانيتا لحظات إلى المستوصف المجاور لترى إذا ما كان هناك أي جديد. هل كان يذهب كل يوم بعد انتهاء الدروس في مدرسة ساليسيانو، أم في أيام الأحد فقط؟ المستوصف يعمل من الثامنة حتى التاسعة، بطبيبين متطوعين يتبادلان المناوبة، وبعد الظهر يأتي ممرض وممرضة لإعطاء اللقاحات وإجراء الإسعافات المستعجلة. هل كان مايتا يساعد المعالج ذا الشعر الأشقر، اليائس والغاضب، في دفن الأطفال الذين يصرعهم الجوع والالتهابات، وهل كانت تمتلي عيناه بالدموع ويتحقق قلبه الصغير بقوة ويطير خياله المحموم كطفل مؤمن إلى السماء ويسأل لماذا، لماذا تسمح يا رباه بحدوث كل هذا؟ إلى جوار المستوصف، في كوخ من ألواح خشبية، يقوم مركز العمل التعاوني بممارسة مهامه. وجود المركز الطبي هو مبرر حضور خوانيتا وماريا في الحي. هل كانت هكذا أيضاً البعثة الكندية التي مارس فيها مايتا عمله التطوعي؟ وهل كان يذهب إلى هناك أيضاً محام ليساعد الأهالي مجاناً في المشاكل القانونية، وتقني تعاوني ليرشدهم حول إقامة صناعات؟ كان يذهب إلى هناك، يغوص في هذا البؤس، ويبداً إيمانه يتزعزع، ثم لا يقول لنا في المدرسة كلمة واحدة عن كل ذلك. كان يواصل الحديث معي عن المسلسلات وعن كم سيكون رائعًا لو أنهم يصنعون فيلماً عن الكونت دي مونت كريستو. تخبراني أنهما، خوانيتا وماريا، قد عملتا بضع سنوات في معمل سان خوسيه دي

لوريغانتشو للتعليق. ولكن بعد أن أفلس المعلم ، كرستا نفسها لها للعمل التعاوني وحسب؛ وكانت أخوية كل منها الدينية تقدم إليهما مبلغاً شهرياً ضئيلاً يتيح لها العيش. لماذا وثق هكذا بشخص يراه للمرة الأولى؟ لأنها راهبة، أم لأنها أثرت فيه، أم لأنها أخت صديقه الجديد، أم لأنه كان عليه أن يتذمّن نفسه فجأة من السوداوية وهو يتذكر إيمانه المتراجّح حين كان تلميذاً في ساليسيانو؟

تقول ماريا:

- عندما بدأت الاغتيالات شعرنا بالخوف. كنا نخشى أن يضعوا لنا قبلة ويدمروا هذا كله. ولكن وقتاً طويلاً انقضى ولم نعد نتذكر ذلك. لقد كنا محظوظتين. على الرغم من أن هذا الجانب وذاك قد أراقا دماء كثيرة في الحي، إلا أنهم احترمونا حتى الآن.

سألها مايتا:

- هل أسرتك كاثوليكية جداً؟ ألم تواجهي مشاكل في...؟
فابتسمت الراهبة:

- إنهم كاثوليك بحكم العادة أكثر من القناعة. مثل معظم الناس. لقد واجهتُ مشاكل بالطبع. فقد ذهلو حين قلت لهم إنني أريد أن أترهب. كان ذلك هو نهاية العالم بالنسبة لأمي، وأحس أبي كما لو أنني سأدفع وأنا على قيد الحياة. ولكنهما اعتادا.

- ابن إلى الجيش وابنة إلى الدير - قال مايتا -. كان هذا هو شعار كل الأسر الأرستقراطية في العهد الاستعماري.
- تعال، تعال - ناداه باليخوس من المائدة - تحدث قليلاً أيضاً مع

بقية الأسرة ولا تحتكر أختي، فتحن لا نكاد نراها.

كلتاهم تقدمان دروساً في الصباح في المدرسة الصغيرة التي تعمل ضمن العمل التعاوني. وفي أيام الأحد، عندما يأتي الكاهن من أجل القداس، يتحول المكان إلى مصلى. ولكن الكاهن لم يعد يأتي كثيراً في الفترة الأخيرة: لقد وضعوا له مفرقة من الديناميت في كنيسته فأصيب بانهيار عصبي.

وتقول ماريا:

- يبدو أن من وضعوها لم يكونوا من كتائب الحرية، وإنما بعض زعران الحي لكي يتسلوا ، لأنهم يعرفون أنه رعديد. لم يمارس المسكين أي نوع من السياسة مطلقاً، ونقطة ضعفه الوحيدة هي السكاكر. لقد فقد أكثر من عشرة كيلوغرامات من وزنه بسبب الرعب الذي سببته له المفرقة.

- أبيدو لكَ أنني أتكلم عنه بشيء من الحقد، بكراهية؟ - تقوم خوانيتا بحركة مثيرة للفضول، وألاحظ أنها لا تسأل مجرد السؤال؛ وإنما لأن هذا السؤال يؤرقها منذ زمن طويل.

فأقول لها:

- لم ألاحظ أي شيء من هذا. ولكنني لاحظت أنك تتجنبين ذكر مايتا باسمه. دائمًا تقومين بالتفافه ما بدلاً من أن تقولي مايتا. هل السبب هو ما جرى في خاوخا، لأنك واثقة من أنه هو الذي دفع باليخوس؟

تتكر خوانيتا:

- لست واثقة. من المحتمل كذلك أن يكون لأخي جزء من المسؤولية. ولكنني على الرغم مني، ألاحظ أنني أشعر نحوه بقليل

من الكراهية. ليس بسبب ما جرى في خاوخا. وإنما لأنه غرس في نفس أخي الشك. ففي المرة الأخيرة التي اجتمعنا معاً سأله: «هل ستصبح ملحداً مثل صديقك مايتا، هل ستصل إلى ذلك أيضاً؟» فلم يرد علي بالجواب الذي كنت أنتظره. بل هز كتفيه وقال:

- هذا ممكن يا أختاه، لأن الثورة أولاً وقبل أي شيء.

وتتذكر ماريا:

- الأب ارنستو كاردينال أيضاً كان يقول إن الثورة أولاً وقبل كل شيء. - ثم تضيف قائلة إنها لا تعرف لماذا يرد ذلك الأب الأشقر في قصة مايتا إلى ذاكرتها كلما فكرت بمجيء إيفان إليتش إلى البيرو أولاً، ثم بعد ذلك مجيء ارنستو كاردينال.

- أجل، صحيح - تقول خوانيتا - ، ما الذي كان سيقوله مايتا في ذلك المساء الذي تبادلنا الحديث فيه لو أنه عرف بأنه يمكن سماع مثل هذه الأشياء داخل الكنيسة. فعلى الرغم من أنني كنت أظن أنني قد تجاوزت كل شيء، إلا أنني وفقت مذهولة حين جاء إيفان إليتش. أ يكون أسفقاً حقاً من يقول تلك الأشياء؟ هل وصلت ثورتنا الدينية إلى تلك الحدود؟ إنها لم تعد ثورة صامدة إذن.

وتعقب ماريا، وعيناها الزرقاءان تمتلئان بالخبر:

- ولكننا لم نسمع شيئاً يذكر من إيفان إليتش. كان لا بد من سماع أرنستو كاردينال لكي نعرف ما هو الجيد. في المدرسة طلب عدد منا الإذن بالذهب لرؤيته في المعهد الوطني للثقافة وفي مسرح باردو وألياغا.

- إنه الآن وزير الثقافة، شخصية سياسية كاملة، أليس كذلك؟ - تسأل خوانيتا.

وعده مايتا بصوت خافت:

- أجل سأذهب معك إلى خاوحا. ولكن أرجوك أن تتكتم.
خصوصاً بعد هذا الذي رويته لي. إن ما تعمله مع هؤلاء الفتىي هو
عمل انقلابي يا رفيق. إنك تقامر بمستقبلك المهني وبأشياء أخرى
كثيرة.

- أنت من تقول لي هذا؟ أنت من تثقلني بالدعاهية الانقلابية
في كل مرة نلتقي فيها؟

غرقا في الضحك، وسألهما الصيني الذي أحضر لهما القهوة
عن النكتة التي تُضحكهما. فقال له الملازم: «إنها واحدة من
طرائف أوتو فيرتز»

وعده مايتا:

- عندما تأتي في المرة القادمة إلى ليما سنحدد موعد ذهابي
إلى خاوحا. ولكن عاهدنا بـلا تقول شيئاً لجماعتك حول مجئي.

- أسرار، أسرار، يا لهوسك بالأسرار - احتج باييغوس - أجل،
أعرف أن الأمان حيوى. ولكن لا يمكنك أن تكون متكافلاً إلى
هذا الحد يا أخي. هل أخبرك شيئاً بمناسبة الكلام عن الأسرار؟
أتذكر بيبيوتي، ذاك الأبله الذي كان في حفلة خالتك. لقد انتزع
مني صديقتي ألسني. ذهبت لزيارتها فوجدتتها معه. يمسك كل منها

بيد الآخر. وقالت لي: «أقدم لك خطيبى». لقد سخرا مني.
لم يهد عليه الاهتمام بالأمر، فقد كان يرويه وهو يضحك. لن
يقول شيئاً للفتىان ولا للأستاذ أوبيبيوثر، سيفاجئهم بالزيارة. والآن
عليه أن يذهب بأقصى سرعة. تصافحاً مودعين وراء مايتا يخرج من
الحانة، منتسباً وراسخاً في زيه العسكري، ويمضي نحو جادة

إسبانيا. وبينما هو يراه يبتعد، فكر في أنهما قد التقى للمرة الثالثة في المقهى نفسه. هل هذا تبصر؟ كان مركز الشرطة على بعد خطوة من المقهى ولم يكن مستغرباً أن يكون هناك وشاة كثيرون بين زبائنه. لقد شكل إذن حلقة ماركسية بمبادرة ومجازفة تلقائية. من كان سيصدق ذلك! أغمض عينيه ورأى، هناك على ارتفاع أكثر من ثلاثة آلاف متر، وجوههم المراهقة والجبلية، ألوانهم وشعورهم السبطية وأفواصهم الصدرية العريضة. رأهم يتراكضون وراء كرة، متعرقين ومنفعلين. الملائم يركض بينهم، وكأنه في مثل سنهما، ولكنه أطول قامة، وأكثر رشاشة وقوة وبراعة، يفاضل، ويضرب الكرة بقدمه وبرأسه، ومع كل ضربة بالقدم أو بالرأس تتصلب عضلاته. ورأهم بعد انتهاء المباراة محشورين في غرفة من الطين والتوياء، تظهر من نوافذها سحب بيضاء تتلوى في ذؤابات نفسجية. يستمعون باهتمام إلى الملائم الذي يريهم ما العمل للينين، ويقول لهم: «هذا ديناميت نقى يا شباب». لم يضحك. لم يكن يشعر بأي رغبة في السخرية، أو في قول ما كان قد قاله عنه لرفاقه في ح ٤ ث (ت): «إنه شاب فتي، ولكنه من طينة جيدة»، «ينفع، ولكنه بحاجة لأن ينضج». إنه يشعر في هذه اللحظة بتقدير شديد لبايخوس، بشيء من الحسد لشبابه وحماسته، وبشيء أكثر من ذلك، شيء حميم ودافئ. سيطلب في الاجتماع القادم للجنة المركزية لـ ح ٤ ث (ت) بنقاش معمق للأمر، لأن مسألة خاوحا بدأت تأخذ منحي آخر. كان سينهض عن الطاولة التي في ركن المقهي - فالحساب دفعه بايخوس قبل أن يغادر - حين لاحظ انفاسه بنطاله. التهاب وجهه، وجسده. وانتبه إلى أنه يرتجف بالشهوة.

- سرافوك - قالت خوانيتا.

تحدثا قليلاً عند مدخل البيت، تحت الشفق الذي سيصبح ليلاً عما قريب. قلت لهما إنه لا حاجة لذلك، فقد تركت السيارة على بعد كيلومتر تقريباً، فلماذا عليهما أن تمشيا هذه المسافة.

- ليس هذا بداعف اللطف - قالت ماريا - ولكننا لا نريدهم أن يسرقوك مرة أخرى.

- لا يوجد لدى الآن شيء يسرقونه - قلت لهما - فأنا لا أكاد أحمل سوى مفتاح السيارة وهذا الدفتر. الملاحظات لا تهمني أبداً. فما لا يبقى في الرأس لا ينفع في الرواية.

ولكن لم تكن هناك طريقة لشيئهما، وخرجتا معى إلى عفونة وغبار الحي. أمضى بين الاشتين وأدعوهما حارستي الشخصيتين، بينما نحن نتقدم بين تصارييس هذيانية من أكواخ وكهوف وبسيطات وزرائب خنازير وأطفال يتفرغون وكلاب فجائمة. كان يبدو وكأن كل الناس يقفون أمام بيوتهم أو يتجلولون في الدروب الترابية وتُسمع حوارات، ونكات، وكلمة بذئبة بين حين وآخر. وأصطدم أحياناً بحفرة أو بحجر، بالرغم من الحذر الذي أتوخاه وأنا أطأ الأرض، ولكن ماريا وخوانيتا تسيران بانطلاق، وكأنهما تعرفان العراقيل عن ظهر قلب.

تقول خوانيتا من جديد:

- عمليات السرقة والسطو أسوأ من الجرائم السياسية. سببها البطالة والمدرارات. لقد كان هناك على الدوام لصوص في الجوar بالطبع. ولكن لصوص الحي في السابق كانوا يذهبون للسرقة خارجه، حيث الأغنياء. أما الآن فقد اختفت أدنى مشاعر التضامن

الجواري بسبب البطالة والمخدرات وال الحرب. فالفقراء الآن يسرقون ويقتلون الفقراء.

وتضيف قائلة إن ذلك قد تحول إلى مشكلة كبيرة. فما إن يخيم الظلام حتى لا يعود هناك من يتجرأ على التجوال في الحي، اللهم إلا من يحمل سكيناً أو يكون قاتلاً، أو شخصاً غير واعٍ أو سكران فقد الصواب، لأنه يعرف أنه سيتعرض للسطو. اللصوص صاروا يداهمنون البيوت في وضح النهار، وتسفر عمليات السطو في الغالب عن أحداث دامية. يأس الناس لم يعد له حدود ولها تقع هذه الأحداث. مثل ذلك التعيس الذي وجده أهالي إحدى الضواحي يحاول اغتصاب طفلة فبللوه بالكريوسين وأحرقوه حياً.

وتقول ماريا:

– أمس بالذات اكتشفوا هنا معملاً لتحضير الكوكايين. كيف كان مايتا سيفكر في هذا كله؟ في ذلك الوقت لم تكن المخدرات موجودة عملياً، فقد كانت لعبة منألعاب المتذوقين ومحبي الليل. أما الآن بالمقابل...

وأسمعهما نقولان إنهما لا تستطيعان ترك أدوية في المستوصف. ففي الليل تأخذان الأدوية إلى البيت الذي تعيشان فيه وتحفيانها في مخبأ، تحت صندوق. لأن هناك من يدخل إلى المستوصف كل ليلة لسرقة القوارير، والحبوب، والحقن. ليس للعلاج، فالمستوصف موجود لهذا الغرض والعلاج فيه مجاني، وإنما يسرقونها لتعاطيها كمخدرات. فهم يظنون أن كل دواء هو مخدر ويتناولون ما يجدونه. ويضطر لصوص كثيرون إلى المجيء إلى المستوصف في اليوم التالي وهم مصابون بحالات إسهال أو

تفيؤ أو بما هو أسوأ. فتيان الحي يتخدرون بقشور الموز أو بأوراق الفلوريبيونديو¹، وبالمطاط، وكل ما يمكن تصوره. ما الذي كان سيقوله مايتا عن كل هذا؟ لا أستطيع أن أخمن ذلك، كما أني لا أستطيع أن أركز تفكيري على تذكر مايتا: فوجهه يظهر ويخف في نار طافية.

حين وصلنا إلى المزابل - الحظائر، سمعنا قباع الخنازير. الننانة تتكثف وتتجسد. ألح عليهما لترجمها، ولكنهما ترفضان. وتقولان: منطقة المزابل هذه هي الأخطر. هل أنا غير قادر على التركيز على مايتا لأن قصته، أمام هذا الخراب، تتضاءل وتتبخر؟ «أي وجه غريب هنا يصبح هدفاً مغرياً»، أهي ماريا التي قالت ذلك؟ وتضيف خوانيتا:

- هذا هو الحي الأحمر في المنطقة أيضاً - أم أن الأدب، وليس مايتا، هو الذي يصبح غير مجرٍ حيال هذا الخزي؟ . مؤلم جداً، أليس كذلك؟ التعبير من أجل كسب العيش مؤلم بالطبع، ولكن أن يمارس ذلك هنا، وسط هذه الزيالة وهذه الخنازير...

وتحدد ماريا الأمر:

- التفسير هو أن لهن زبائن.

إنها أفكار سيئة هذه التي تخطر لي. أجل، فأنا أيضاً أسمح للناس بأن يتغلب عليّ، مثل ذلك الأب الكندي في حكاية مايتا، لن أكتب هذه الرواية. فما كان لهذا أن يساعد أحداً في شيء؛

¹ فلوريبيونديو Floipondio : نبطة باذنجانية موطنها البيرو، أزهارها بيضاء لها شكل الجرس.

مهما كانت الرواية يومية، فإنها ليست شيئاً بالمقارنة مع اليأس.
أتشعران بالأمان وهم تتنقلان في الحي ليلاً؟ حتى الآن لم يحدث
لهم أي شيء، والحمد لله. حتى ولا مع سكارى ساخطين يمكن
لهم أن لا يتعرفوا عليهما.

وتطلق ماريا فهقهها:

- ربما أنتا قبيحتان جداً ولا نفوبي أحداً.

وتقول خوانيتا:

- الطبيبان هوجما. ولكنهما مازالا يأتيان مع ذلك.

أحاول متابعة الحديث، ولكنني أسهو وأحاول العودة إلى ما ياتا
فلا أستطيع ذلك أيضاً، لأن صورته تقاطع مرة بعد أخرى مع
صورة ارنستو كاردينال، مثلما بدا في ذلك اليوم الذي جاء فيه
إلى ليما - أكان ذلك منذ خمس عشرة سنة؟ - وأثر كثيراً في
ماريا. لم أخبرهما بأنني أنا أيضاً ذهبت للاستماع إليه في المعهد
الوطني للثقافة وفي مسرح باردو وألياغا وأنه سبب لي كذلك
صدمة شديدة الحدة. سأندم على الدوام لأنني ذهبت للاستماع
إليه، لأنني لم أعد أستطيع منذ ذلك الحين قراءة أشعاره التي
كانت تعجبني كثيراً من قبل. أليس هذا ظلاماً وهل هناك علاقة
يا ترى بين أحد الأمرين والآخر؟ يجب أن تكون هناك علاقة
بطريقة لا أستطيع تفسيرها. ولكنها علاقة موجودة، لأنني أعيشها.
لقد ظهر متتكراً بهيئة تشي غيفارا ورد في الندوة على ديماغوجية
المستمعين الاستفزازيين بديماغوجية أشد من تلك التي كانوا
يأملون سماعها. لقد فعل وقال كل ما يلزم لكي يستحق تأييد
وتصفيق أشد الناس جموداً: ليس هناك أي اختلاف بين ملكوت

الرب والمجتمع الشيوعي؛ الكنيسة تحولت إلى عاهرة، ولكنها ستعود إلى طهارتها بفضل الثورة، مثلاً هي ترجع الآن في كوبا؛ والفاتيكان، وكر الرأسماليين الذي دافع على الدوام عن مصالح الأقوياء، تحول الآن إلى خادم للبنتاغون؛ والحزب الواحد في كوبا والاتحاد السوفييتي يعني أن النخبة قد تحولت إلى خميرة للجماهير، تماماً مثلاً أراد يسوع أن تكون الكنيسة للشعب؛ وأنه من غير الأخلاقي التكلم عن معسكرات العمل الإجباري في الاتحاد السوفييتي، لأنه كيف يمكن تصديق الدعاية الرأسمالية؟ ثم الخبطة المسرحية الأخيرة، حين رفع يديه: من هذا المنبر أستذكر أمام العالم أجمع الإعصار الأخير في بحيرة نيكاراغوا لأنه كان نتيجة تجارب باليستية أمريكية... ما زلت حتى الآن أحتفظ بانطباع حي لعدم النزاهة والهوس الهستيري الذي سببه لي. منذ ذلك الحين صرت أتجنب التعرف على الكتاب الذين يعجبونني حتى لا يحدث لي معهم ما حدث مع الشاعر كاردينال الذي كلما حاولت قراءته، تتتصب من النص نفسه، مثل حمض يجرده من وقاره، ذكري الرجل الذي كتبه.

وصلنا إلى السيارة. لقد خلعوا بابها الذي عند المقدمة. وبما أن اللص لم يجد شيئاً يأخذ، فقد انتقم بتمزيق فرش المقعد وبهذه البقعة التي تشير أيضاً إلى أنه تبول عليه. أقول لخوانيتا وماريا إنه قد قدم لي خدمة بذلك، لأنه سيجبرني على استبدال قماش المقاعد العتيق جداً. ولكنهما تواسياني بأسف وارتباك.

الفصل الرابع

- لا بد من كتابة القصة عاجلاً أو آجلاً - يقول السيناتور وهو يتحرك في المهد إلى أن يجد وضعاً مريحاً لساقه الجريحة - القصة الحقيقة، وليس الأسطورة. مع أن الوقت لم يحن بعد.

كنت قد طلبت منه أن تجري الحديث في مكان هادئ، ولكنه أصر على لكي أحضر إلى الكونفرس. ومثلاً كنت أخشى، كانت تتم مقاطعتنا في كل لحظة: فزملاء في المجلس وصحفيون يقتربون منه، يحيونه، يتداولون النمايم والأقاويل، ويوجهون إليه أسئلة. فكان حديثنا متقطعاً، تخلله وقفات طويلة.

أشرح له مرة أخرى أنني لا أنوي كتابة «القصة الحقيقة» مaita. ما أريده هو جمع أكبر قدر من المعلومات والآراء عنه، لكي أضيف إلى هذه المواد فيما بعد جرعات وافرة من الاخلاق، وأبني شيئاً يكون روایة لا يمكن التعرف عليها لما حدث. تحصّنني عيناه الصغيرتان المتقاربتان والمرتابتان دون تعاطف. ودمدم قائلاً:

- في هذه الأيام بالذات يجب عدم الإقدام على عمل أي شيء قد يؤثر على عملية التوحيد العظمى لليسار الديمقراطي التي نسعى إليها، فالشيء الوحيد الذي يمكنه أن ينقد البيرو هو الأوضاع الحالية. ويمكن لقصة مايتا، على الرغم من مرور خمس وعشرين سنة، أن تسبب بعض الآثار الضارة.

إنه رجل نحيل وهو يتكلم بطلاقة. يلبس بأناقة، ويكثر الشيب في شعره الأجد، ويدخن بمسم. يبدو أن ساقه المصابة تؤلمه أحياناً، ذلك أنه يمسدتها بقوة. إنه يكتب بأسلوب منمق بالنسبة إلى سياسي. وقد كان هذا هو المفتاح الذي فتح أمامه أعلى الدوائر في الحكومة العسكرية للجنرال فيلاسكو، الذي عينه مستشاراً له. وهو من اخترع قسماً كبيراً من العبارات الموزونة التي اكتسبت بها الدكتورية حالة التقدمية، وكان مديرًا لإحدى الصحف المصادر. وقد كتب الخطابات التي كان يلقاها الجنرال فيلاسكو (يمكن التعرف عليها من بعض العبارات السوسية - حقوقية التي كانت تتشابك بأسنان الدكتاتور) ومثل، مع جماعة صفيرة، الجانب الأكثر راديكالية في النظام. أما الآن، فقد أصبح السناتور كامبوس شخصية معتدلة يهاجمه اليمين المتطرف واليسار الماوي والتروتسكي المتطرف بغضب. وقد أصدر عليه رجال حرب العصابات حكماً بالموت وحذت حذوهم أيضاً كتائب الحرية. وهذه الأخيرة - وهي إشارة إلى عبئية الأزمنة التي نعيشها - تؤكد أنه الزعيم السري للتمرد الثوري. وقبل بضعة شهور دمرت قبلة سيارته وأدت إلى جرح ساقه وكسر ساقه اليسرى التي يرفعها مستوية الآن. من ألقى تلك القنبلة؟ لا أحد يعرف.

وحين كنتُ قد أيقنت أنه ليست هناك وسيلة لدفعه إلى الكلام، وبدأت أستعد لوداعه؛ هتف فجأة:

- ولكن، أخيراً.. إذا كنت قد عرفت أشياء كثيرة، فيجب أن تعرف كذلك أمراً أساسياً: لقد تعاون مايتا مع أجهزة استخبارات الجيش، ومن المحتمل أن يكون قد تعاون مع الـ CIA أيضاً.

- هذا غير صحيح. - قال مايتا معترضاً.
- بل صحيح - رد أناتولييو - لينين وتروتسكي قد أدانوا الإرهاب
على الدوام.
وقال مايتا :

- العمل المباشر ليس إرهاباً، وإنما هو ممارسة للانتفاضة
الثورية ببنقائها وبساطتها. فإذا كان لينين وتروتسكي قد أدانوا هذا
الذى أعنيه، فلست أدرى إذن ما هو الشيء الذى عملاه طوال
حياتهما. إننا ننسى يا أناتولييو الشيء المهم. فواجبنا هو الثورة،
وهذه هي المهمة الأولى لأى ماركسي. أليس غريباً أن يأتي ملازم
ليذكرنا بذلك؟

قام أناتولييو بتراجع تكتيكي :
- ألا توافق على الأقل بأن لينين وتروتسكي قد أدانوا الإرهاب؟
فوافق مايتا :

- وأنا أيضاً أدينه، ولكن مع الاحتفاظ بالمسافات الفاصلة.
فالإرهاب الأعمى، المنفصل عن الجماهير، يُبعد الشعب عن
الطليعة. أما نحن فسنكون شيئاً مختلفاً: نريد أن تكون الشرارة
التي تستشعر الفتيل.. ككرة الثلج التي ستتحول إلى تيار جارف.

- أراك صرتَ شاعراً اليوم. - قال أناتولييو ذلك وهو يطلق
ضحكه بدت قوية جداً بالمقارنة مع حجم الحجرة الضيقة.
«لستُ شاعراً. وإنما حالم، متجدد الشباب.» وبتقاؤل لم يشعر
بمثله منذ سنوات طويلة. بدا كما لو أن كتلة الكتب والصحف
المتراسكة حوله تلتهب بنار فاترة متلوية تبقي جسده وروحه في
حالة توهج، ولكن دون أن تحرقه. أهذه هي السعادة؟ لقد كانت

المناقشة في اللجنة المركزية لـ حـ ثـ (تـ) مؤثـ رـةـ، بل هي أكـ ثـرـ المناقـ شـاتـ التي يتـ ذـ كـ رـ هـاـ منـذـ سنـوـاتـ إـثـارـةـ لـ الشـ جـونـ. كانـ قدـ ذـهـ بـ بعدـ الـ اـجـتمـاعـ إـلـىـ سـاحـةـ مـسـرـحـ سـيـفـورـاـ، حيثـ مـكـاتـبـ فـرـانـسـ بـرسـ. وـبـقـيـ يـتـرـجـمـ نـصـوصـاـ هـنـاكـ طـوـالـ أـرـبعـ سـاعـاتـ تـقـرـيبـاـ. وـبـالـرـغـمـ منـ كـلـ هـذـاـ عـلـمـ، فـقـدـ كـانـ يـشـعـرـ بـالـحـيـوـيـةـ وـصـفـاءـ الـذـهـنـ. لـقـدـ تـمـتـ المـوـافـقـةـ عـلـىـ تـقـرـيرـهـ حـولـ الـمـلـازـمـ، وـكـذـلـكـ عـلـىـ اـفـتـراـحـهـ بـأـنـ تـؤـخـذـ خـطـةـ بـايـخـوسـ بـعـينـ الـاعـتـارـ. وـفـكـرـ: «ـقـاعـدـةـ عـلـمـ، خـطـةـ عـلـمـ، يـاـ لـلـثـرـثـرـةـ». لـقـدـ كـانـ الـاـتـفـاقـ مـهـمـاـ فـيـ الـوـاقـعـ: الـقـيـامـ بـالـثـورـةـ الـآنـ، وـمـرـةـ وـاحـدـةـ. وـبـيـنـمـاـ كـانـ يـطـرـحـ آـرـاءـ، تـكـلـمـ مـاـيـتاـ بـقـنـاعـةـ أـثـرـتـ بـعـقـمـ فـيـ رـفـاقـهـ: لـقـدـ لـمـحـ ذـلـكـ فـيـ مـلـامـحـ وـجـوهـهـمـ وـفـيـ إـصـفـائـهـ إـلـيـهـ دـوـنـ أـنـ يـقـاطـعـهـ وـلـوـ مـرـةـ وـاحـدـةـ. أـجـلـ، إـنـ الـخـطـةـ قـابـلـةـ لـالـتـحـقـيقـ، شـرـيـطـةـ أـنـ تـقـودـهـاـ مـنـظـمـةـ ثـورـيـةـ مـثـلـ حـ ثـ (ـتـ)ـ وـلـيـسـ شـابـاـ طـيـبـ النـوـاياـ وـلـكـنـهـ يـفـتـرـ إـلـىـ أـيـديـوـلـوـجـيـةـ رـاسـخـةـ: إـنـ طـلـيـعـةـ ضـئـيلـةـ مـسـلـحـةـ وـمـجـهـزـةـ جـيـداـ، مـعـ دـعـمـ مـدـيـنـيـ وـأـفـكـارـ وـاضـحـةـ حـولـ الـهـدـفـ الـاسـتـراتـاتـيـجيـ وـالـخـطـوـاتـ التـكـيـكـيـةـ، يـمـكـنـ لـهـاـ أـنـ تـكـوـنـ الـبـؤـرـةـ الـتـيـ تـشـعـ مـنـهـاـ الـثـورـةـ نـحـوـ بـقـيـةـ أـنـحـاءـ الـبـلـادـ، وـأـنـ تـكـوـنـ زـنـدـ وـصـوـانـ الـقـدـحـ الـذـيـ سـيـنـبـعـثـ مـنـهـ الـحـرـيقـ الـثـورـيـ. أـوـلـيـسـتـ الـظـرـوفـ الـمـوـضـوعـيـةـ مـتـوـفـرـةـ مـنـذـ زـمـنـ بـعـيدـ جـدـاـ فـيـ بـلـادـ تـعـمـهاـ الـتـنـاقـضـاتـ الـطـبـقـيـةـ مـثـلـ الـبـيـرـوـ؟ـ هـذـهـ الـبـؤـرـةـ الـاـبـدـائـيـةـ، وـمـنـ خـلـالـ ضـرـيـاتـ دـعـائـيـةـ مـسـلـحـةـ جـرـيـئـةـ، سـتـخـلـقـ الـظـرـوفـ الـذـاتـيـةـ لـكـيـ تـضـمـ الـقـطـاعـاتـ الـعـمـالـيـةـ وـالـفـلـاحـيـةـ إـلـىـ الـعـمـلـ النـضـالـيـ. وـعـادـتـ تـتـمـثـلـ لـهـ صـورـةـ أـنـاتـوليـوـ وـهـوـ يـنـهـضـ مـنـ الرـكـنـ عنـ السـرـيرـ الـذـيـ كـانـ يـجـلسـ عـلـيـهـ.

— سأذهب لأرى إذا ما انتهى طابور الانتظار على باب المرحاض، وإنما سأشخ في بنطالي، فأنا لم أعد أستطيع التحمل.

كان قد نزل مرتين وكان يجد من ينتظر أمام المرحاضين في المرتين. رأه يخرج وهو منحن قليلاً ويضغط على معدته. كم هو رائع مجيء أناتولي في هذه الليلة، وكم هو رائع أنه في هذا اليوم الذي يحدث فيه شيء مهم أخيراً، شيء جديد، يجد من يشاطره فوران الأفكار التي تدور في رأسه. وفكراً: «القد قفز الحزب قفزة نوعية». كان مستلقياً على سريره، مستخدماً ذراعه الأيمن وساده. بعد أن وافقت اللجنة المركزية لـ«جع ث» على العمل مع بايغوس، عينت فريق عمل - مؤلفاً من الرفيق خاثينتو، والرفيق أناتولي، ومايتا نفسه - مكلفاً بإعداد رزنامة نشاطات. وتقرر أن يسافر مايتا فوراً إلى خاوخارى على أرض الواقع مم تتألف منظمة بايغوس الصغيرة، وأي نوع من الاتصالات تقيم مع تجمعات الفلاحين في وادي مانتارو. وبعد ذلك يذهب عضواً فريق العمل الآخرين إلى سلسلة الجبال أيضاً لتنسيق العمل. وانتهى اجتماع «جع ث» بجو من الانشراح. وقد بقي مايتا يشعر بهذا الانشراح نفسه بينما هو يترجم برقيات الأخبار في مكتب فرانس برس. وهكذا وصل إلى غرفته في جادة ثيبيتا. وعند مدخل البناء كان ينتظره شبح شاب.. أسنان لامعة في الظلام الخفي.

قال له أناتولي:

— لقد تأثرتُ إلى حد أنني جئتكم لأرى إذا ما كان بإمكاننا أن نتحدث قليلاً. هل أنت متعب جداً؟

فربت مایتا علی ظهره:

- بالعكس، فلنصل. أنا أيضاً أشعر بانقلاب كامل. لأن الأمر صار ديناميتاً نقيناً، مثلما يقول باليخوس.
كانت هناك إشاعات، وتلميحات، وقولات، بل وكان ثمة منشور يجري تداوله في أروقة جامعة سان ماركوس، يتضمن اتهامه. أيتهمه بأنه مندس؟ بأنه واشِ؟ ثم كان هناك فيما بعد مقالان يتضمنان تفاصيل مثيرة للقلق حول نشاطات مایتا.

وأقاطعه:

- أتعني أنه كان واشياً ولكنكم كنتم مع ذلك...
يرفع السيناتور كامبوس يده ولا يتبع لي مواصلة كلامي:
- نحن كنا تروتسكيين، مثل مایتا، وكانت تلك الهجمات تأتي من الموسكوفيين، ولهذا لم نعرها اهتماماً في أول الأمر -
يشرح لي ذلك وهو يهز كتفيه - كانوا يقولون عنا في حديث العجائب كل يوم. فقد كان الشناق هو السائد على الدوام ما بين التروتسكيين والموسكوفيين. الفلسفة القائلة: «أسوا الأعداء هو أكثرهم قريباً، ويجب القضاء عليه ولو بالتحالف مع الشيطان». يصمت السيناتور مرة أخرى، فهناك صحفي يقترب منه ويسأله عما إذا كان صحيحاً ما جاء في الجريدة: إنه يستعد بسبب خوفه من التهديدات ضده، للهرب إلى خارج البلاد، وإنه سيغادر بحجة إجراء عملية جراحية أخرى لساقه. فيوضح السيناتور: «افتراطات محضة. ما لم يقتلوني، فسيجدني البيرويون أمامهم لوقت طويل». انصرف الصحفي مفتوناً بالعبارة. طلبنا جولة أخرى من القهوة. «أعرف أننا هنا في الكونفرس نتمتع بامتياز

تناول عدة فناجين قهوة في اليوم بينما تحولت القهوة إلى مادة رفاهية بالنسبة إلى البيروبيين الآخرين. ولكن هذا لن يستمر لوقت طويل. مستمر الكافيتريا كان يملك كمية احتياطية وهي آخذة بالضوب». واستغرق لحظة في مونولوج عن آثار الحرب: التقني، انعدام الأمن، الحالة النفسية المرضية التي يعيشها الناس هذه الأيام بسبب الإشاعات عن دخول قوات أجنبية إلى أراضي البلاد.

ثم يعود فجأة إلى ما كان ي قوله لي:

ـ الحقيقة أن الرفاق الموسكوفيين كانوا يملكون تقارير موثوقة جداً. وقد وصلتهم المعلومة من فوق، من المؤكد أنها جاءت من موسكو، من الـ كي جي بي. من هناك اطلعوا على ازدواجية مايتا. يضع سيجارة في المسم، ثم يشعلها.. يأخذ نفساً، ويمسد ساقه. يبدي الفم في وجهه، وكأنه يتساءل إذا ما كان قد مضى بعيداً في الكشف. لقد ناضل هو وزميلي في الدراسة معاً، تشارطاً أحلاماً سياسية، وعملاً سرياً، وملحقة. فكيف يمكن له أن يكشف لي أن مايتا كان صرصاراً قذراً بمثل هذه

اللامبالاة؟

ينفض رماد السيجارة في فنجان القهوة الفارغ:

ـ أنت تعرف أن مايتا قد دخل السجن وخرج منه مرات كثيرة. ولا بد أنهم ابتزوه هناك لكي يعمل معهم. هناك من يصلّبهم السجن، وهناك من يلينهم.

ينظر إلى مقدراً تأثير كلماته. وأراه هادئاً، واثقاً من نفسه، بهذا التعبير اللطيف الذي لا يفقده حتى في أشد المناظرات سخونة. لماذا تراه يكره رفيقه القديم؟

- هذه الأمور من الصعب إثباتها دوماً.

هناك، في لحظة ما من الماضي، يظهر ما ياتا لا يمكن التعرف عليه تحت لفاف مزيت، وهو يقدم دفاتر مكتوبة بحبر سري تتضمن أسماء، وخططاً، وعنوانين، إلى عسكري يبدو متضايقاً من ارتدائه ملابس مدنية، وإلى أجنبي مرتاب لا يصيّب في استخدام حروف الجر بالإسبانية.

ويصحح لي ما قلتة:

- من المستحيل إثبات الأمر. ومع ذلك، فقد أمكن إثباته مرة.. -
يأخذ نفساً، وينفتح شفرة المقصلة - في عهد الجنرال فيلاسكو اكتشفنا أنـ CIA هي من تقود عملياً أجهزة مخابراتنا. وقد خرجت أسماء كثيرة. ومن بينها اسم مايتا. وبعد مراجعة الحسابات، والتذكرة، اتضحت لنا بعض الأشياء. لقد كان سلوكه مريباً مذ تعرف على بايخوس.

أقول له:

- هذا اتهام فظيع. جاسوس للجيش، وعميل للـ CIA وفي الوقت نفسه...

فيحدد:

- جاسوس.. عميل.. هذه كلمات كبيرة. لقد كان مخبراً..
أداة، وربما ضحية. هل تحدثت مع أحد غيري من كانوا يعرفون مايتا في ذلك الحين؟

- مع موسيس باري لييفا. كيف يمكن إلا يعرف هو أي شيء عن هذا؟ لقد كان موسيس حاضراً في الاستعدادات لقضية خاوحا، بل إنه رأى مايتا عشية...

فيبيتسن السيناتور كامبوس:

- موسيس رجل يعرف أشياء كثيرة.

هل سيكتشف لي أن موسيس أيضاً عميل لك CIA؟ لا، لن يصل به الأمر مطلقاً إلى حد توجيه مثل هذا الاتهام إلى مدير مركز نشر له كتابي أبحاث اجتماعية سياسية، وقد كتب مقدمة أحدهما باري ليفان نفسه.

- موسيس رجل حذر، ممتهن بمصالح عليه حمايتها. - ينسن السيناتور بجرعة معتدلة من الحموضة، ويضيف: - لقد تبني موسيس فلسفة «ما مضى قد مضى». وهي الأفضل إذا كان المرء يرغب في تجنب المشاكل. لسوء حظي أنني لست مثله. فأنا لم أعتد الصمت مطلقاً. وهذا هو جهري بكل ما أفكّر فيه قد تركني أخرج. ويمكن أن يجلب لي الموت في أي لحظة. ما كسبته هو أنني أستطيع أن أنظر إلى أسرتي دون أي إحساس بالخجل.

يبقى مط araً للحظة، وكأنه مرتبك لانجراره إلى مثل هذا الاندفاع في السيرة الذاتية. ثم يسألني دون أن يتوقف عن النظر إلى مقدمة حذائي:

- ما رأي موسيس بمايتا ذلك الزمن؟

يستغرق في التأمل وسط حلقات الدخان، ثم يضيف :

- أنا سأقول لك: من الأفضل عدم رفع الغطاء عن هذه القدر حتى لا تفوح منها رائحة قد تخنق الكثرين. - يتوقف قليلاً، فيبيتسن وجه ضريته الحاسمة: - لقد كان موسيس هو من وجه إليه تهمة الاختراق في الليلة التي طردنا فيها مايتا من حـ ث (ت).

لقد أفقدني القدرة على النطق: في الكراج الصغير المتحول إلى محكمة، ينهي موسيس مراهقًّا ومز مجرّاً مرافعته مشهراً حفنة من الأدلة التي لا يمكن دحضها. واشِ! واشِ! ولا يستطيع زميل دراستي مايتا الرد بكلمة واحدة وهو منكمش على نفسه تحت صورة المنظرين. فُتح الباب ودخل أناتولي.

- ظننتك قد علقت في المرحاض - قال له مايتا مرحباً.

وضحك أناتولي و هو يغلق الباب:

- أوف، الآن أشعر بالراحة. - كان قد بلل شعره ووجهه وصدره، وكانت بشرته تلمع بقطرات الماء. لقد رجع حاملاً قميصه في يده ورأه مايتا وهو ينشره بحذر على حافة السرير الضيق. وفكّر: «كم هو جذاب». الأضلاع بارزة بوضوح في صدره الأهيف وحصل الشعر الناعم اللامع تغطى صدره. وذراعاه طويتان ومتاسقتان. لقد رأه مايتا أول مرة قبل أربع سنوات، في محاضرة في نقابة عمال البناء. وفي كل لحظة كانت تقاطعه جماعة من الشبيبة الشيوعية، مرددة أهزوجة السخرية المعروفة واسعاً ضد تروتسكي والتروتسكية: حلفاء هتلر، عمال الإمبريالية، أتباع وول ستريت. وكان أكثرهم عدوانية هو أناتولي: شاب واسع العينين، وداكن الشعر، يجلس في الصف الأول. أكان هو من يعطفهم الإشارة للتهجم عليه؟ ولكن على الرغم من كل ذلك، كان ثمة شيء في الفتى جعل مايتا يستلطنه ويميل إليه. فقد أحس بإحدى تلك الاختلاجات التي كان يشعر بها أحياناً، وكانت تُحقق على الدوام. ولكنها أصابت في تلك المرة. فلدى الخروج من النقابة، وكانت الخواطر قد هدأت بعض الشيء، اقترب منه

وعرض عليه أن يتاولاً معاً فنجاناً من القهوة «من أجل مواصلة مناقشة خلافاتنا»، ولم يجعله الفتى يتسلل. وفيما بعد، حين أصبح عضواً في حـ(ثـ)، اعتاد أناتوليـو أن يقول له: «لقد أجريت لي غـسـيل دـمـاغـ جـيـزوـيـتيـ ياـ رـفـيقـ». والحقيقة أنه مارس معه عمـلاـ ماـكـراـ وـمـتـوـدـداـ، فقد أـعـارـهـ كـتـبـاـ وـمـجـلـاتـ، وأـقـعـهـ بـأـنـ يـحـضـرـ حـلـقـةـ درـاسـاتـ مـارـكـسـيـةـ يـشـرـفـ هوـ نـفـسـهـ عـلـيـهـ، وـدـعـاهـ إـلـىـ أـعـدـادـ لاـ حـصـرـ لـهـ مـنـ فـنـاجـينـ الـقـهـوةـ، وـأـقـعـهـ فـيـ أـشـاءـ ذـلـكـ بـأـنـ التـرـوـتـسـكـيـةـ هـيـ المـارـكـسـيـةـ الـحـقـيقـيـةـ، وـأـنـهـ الثـورـةـ الـخـالـيـةـ مـنـ الـبـيـرـوـقـراـطـيـةـ وـمـنـ الـاستـبـادـ وـالـفـسـادـ. وـهـاـ هـوـ الـآنـ، شـابـ وـفـتـيـ طـبـيـبـ، صـدـرـهـ عـارـ، وـهـوـ يـمـسـدـ قـمـيـصـهـ تـحـتـ مـخـرـوـطـ الضـوءـ الـمـغـبـرـ فـيـ الـفـرـفـةـ الـمـزـرـيـةـ. وـفـكـرـ: «مـذـ تـعـرـفـتـ عـلـىـ بـاـيـخـوـسـ لـمـ أـعـدـ أـرـىـ وـجـهـ أـنـاتـوليـوـ فـيـ أـحـلـامـيـ». كـانـ مـتـأـكـداـ: ولاـ مـرـةـ وـاحـدةـ. مـنـ حـسـنـ الـحـظـ أـنـ جـرـىـ اـخـتـيـارـ أـنـاتـوليـوـ ضـمـنـ فـرـيقـ الـعـمـلـ. فـعـلـاقـتـهـ بـهـ أـفـضـلـ مـنـ عـلـاقـتـهـ بـأـيـ شـخـصـ آـخـرـ فـيـ الـحـزـبـ، وـهـوـ يـمـارـسـ عـلـيـهـ تـأـثـيرـاـ أـكـثـرـ مـنـ سـوـاهـ. وـهـوـ لـمـ يـجـعـلـهـ يـنـتـظـرـ مـطـلـقاـ كـلـمـاـ اـتـقـنـاـ عـلـىـ الـخـرـوجـ مـعـاـ لـبـيعـ صـوـتـ الـعـمـالـ أـوـ لـتـوزـيـعـ مـنـشـورـاتـ أـمـامـ أـبـوـابـ الـمـصـانـعـ فـيـ جـادـةـ الـأـرـجـنـتـيـنـ، بـالـرـغـمـ مـنـ أـنـهـ يـعـيـشـ فـيـ كـايـاوـ.

- أـشـعـرـ بـالـتـكـاـسـلـ وـدـمـ الرـغـبـةـ فـيـ الـخـرـوجـ فـيـ هـذـاـ الـوقـتـ...

- إـذـاـ لـمـ يـكـنـ يـزـعـجـكـ ضـيـقـ الـمـكـانـ فـابـقـ هـنـاـ.

جميعـ الرـفـاقـ فـيـ الـلـجـنـةـ الـمـرـكـزـيـةـ لـحـ(ثـ)ـ كـانـواـ قدـ نـامـواـ فـيـ إـحـدـىـ الـلـيـالـيـ فـيـ الـفـرـفـةـ، وـأـحـيـاـنـاـ كـانـ يـبـقـىـ عـدـدـ مـنـهـمـ وـيـنـامـونـ مـحـشـورـينـ بـعـضـهـمـ فـوـقـ بـعـضـ.

قالـ أـنـاتـوليـوـ:

- لست أدرى لماذا عليّ أن أجعلك تقضي ليلة مزعجة. عليك أن تقتني سريراً أكبر، من أجل حالات الطوارئ.
ابتسم له مايتا. وكان جسده المسترخي قد تصلب. فركز جهده للتفكير في خاوحا. هل طردوه من الحزب بعد قضية خاوحا؟

- بل قبلها - يصحح لي السيناتور وهو يراقب حيرتي بمنعة - قبل قضية خاوحا مباشرة. وإذا لم تخني الذاكرة، فقد قدموا الموضوع كما لو أن مايتا قد استقال من حـعـث (ت). حيلة رحيمة، لكي لا ظهر تصدعنا أمام العدو. ولكنه طرد. وبعد ذلك حدثت مسألة خاوحا ولم يكن بالإمكان توضيح أي شيء. ألا تتذكر حملة القمع ضدنا؟ بعضنا وقع في الاعتقال، وانتقل آخرون إلى السرية. ودفنت قضية مايتا. هكذا يكتب التاريخ يا صديقي. ففي خضم الفوضى والجمة الرجعية التي سببتها مسألة خاوحا، بدا مايتا وبأي خوس كبطلين...

بقي مستغرقاً، يتأمل في غرائب التاريخ. وتركته يفكر دون أن تستعجله، واثقاً من أنه لم يتوصل إلى نتيجة بعد. فهو المرتد مايتا الذي تحول إلى مسخ بوجهين، يدبر مؤامرة شديدة المجازفة لكي ينصب فخاً لرفاقه؟ إنه لأمر قاس جداً: من المستحيل تبريره في رواية لا تتبني، منذ البدء، عدم واقعية الجنس البوليسي.

ويضيف السيناتور:

- لم يعد لأي شيء من هذا أهمية الآن. لأنه أخفق. كانوا يريدون تصفية اليسار إلى الأبد. ولم يتوصلا إلا إلى تعطيله لبعض سنوات. ثم جاءت كوبا، وفي 1965 جاءت حركة خافير

هيراودا، وفي 65 حرب عصابات منظمة المিروجية التحرير الوطني. هزيمة إثر هزيمة لطروحات الانفراضة المسلحة. وها هم أخيراً قد خرجو الآن وفق مزاجهم. باستثناء أن...

أقول:

- باستثناء أن...

- باستثناء أن هذا الذي يجري ليس ثورة وإنما كارثة. هل كان هناك من يتصور يوماً أن البيرو ستعيش مثل هذه المجازرة؟ - ينظر إليّ ويضيف - ما يجري الآن دفن قصة مايتا وبابيغوس نهائياً. ليس هناك من يتذكرهما اليوم، إنني واثق من هذا. طيب. ثم ماذا؟

أقول له:

- وهل كان بابيغوس متآمراً أيضاً؟

يأخذ نفساً من مسم سigarته ويطلق سحابة من الدخان جانبًا لكي لا ينفثها في وجهي.

- ليست هناك أدلة بالنسبة لبابيغوس. من الممكن أنه كان أداة لمايتا - يعود مرة أخرى إلى تركيب الفسيفساء - هذا هو المحتمل، أليس كذلك؟ لقد كان مايتا ثعلباً عجوزاً وماكراً، بينما كان الآخر شاباً عديم الخبرة. ولكنني أقول وأكرر، لا توجد أدلة.

إنه يتكلم بنعومة طوال الوقت، ويحيي في أشاء ذلك من يدخلون ويخرجون.

ضيف قائلًا:

- أنت تعلم أن مايتا أمضى حياته في التنقل من حزب لآخر. ودائماً ضمن أحزاب اليسار. فهو مجرد تقلب أم براعة؟ لا يمكنني

حتى أنا نفسي الذي عرفته جيداً أن أحدد ذلك. لأنه كان مثل الحنكليس: ينزلق ولا توجد طريقة لمعرفته معرفة عميقة. ولكنه مع ذلك كان مع هذا الفريق وذاك، كان قريباً وضمن جميع المنظمات التقدمية. إنها مسيرة مرتبة، ألا ترى ذلك؟

فأقول له:

- وكل تلك السجون التي دخلها. سجن الإصلاح، والستو، والفرونتون.

فيلم السيناتور:

- لدى معلومات بأن سجنه لم يكن يطول أبداً لفترات طويلة. من الأفضل القول إنه مرّ من سجون كثيرة بدل القول إنه كان فيها. والصحيح هو أن اسمه وارد في سجلات الخدمة في المخابرات.

كان يتكلم باتزان، دون أدنى أثر من الحقد ضد ذلك الرجل الذي يتهمه بأنه كان يكذب ليلاً ونهاراً، على امتداد السنوات، وبأنه كان يشي بمن يثقون به ويطعنهم في الظهر، وبأنه نظم انتفاضة مسلحة لمجرد توفير ذريعة تبرر القمع الشامل ضد اليسار. إنه يمقته بكل قواه، لا شك في ذلك. لا بد أن كل ما يقوله لي ويلمح به ضد مايتا مدروس وآتٍ من بعيد، فقد فكر به، وأعداد التفكير، ورواه مرة بعد أخرى خلال هذه السنوات الخمس والعشرين. هل هناك أساس صحيح لما حوله حقده إلى جبل؟ أهي مهزلة بالكامل من أجل تحقيرك مايتا لدى أولئك الذين ما زالوا يتذكرونها؟ وما سبب كل هذا الحقد؟ فهو سبب سياسي، أو شخصي، أم كلاماً للأمررين؟

**يُخرج عقب السيجارة من المسم مستخدماً عود ثقاب ويُسحقه
في المنفحة:**

- لقد كان شيئاً ميكافيلياً في الواقع. في البدء كنا نشك
في ذلك، فالدقة التي رتب بها الكمين لنا تبدو مستحيلة. إنها
عملية بارعة.

فأقاطعه:

- وهل هناك معنى لإقدام أجهزة المخابرات والـ CIA على
ترتيب مثل هذه المؤامرة؟ أيفعلون كل ذلك من أجل تصفيه منظمة
من سبعة أعضاء؟

يضحك السيناتور كامبوس:

- بل ستة، ستة أعضاء. لا تنس أن مايتا كان واحداً منهم.-
ولكنه يستعيد جديته على الفور ويضيف: - هدف المكيدة لم
يكن حـث (ت)، وإنما اليسار بمجمله. عملية احترازية: بترأـي
محاولة ثورية في البيرو من جذورها. ولكنـا كشفنا لعبـتهم،
المؤامـرة انفجرـت ولم تتحقق النـتائج التي كانوا يأملـونـها. ومعـ أنـنا
كـنا منـظمة صـغـيرـة جداً، إلاـ أنـنا نـحنـ فيـ حـثـ (تـ)ـ منـ أنـقـذـناـ
الـيسـارـ منـ حـمـامـ دـمـ مـثـلـ هـذـاـ الـذـيـ يـجـريـ فـيـ الـبـلـادـ الـآنـ.

فأـرـدـ عـلـيـهـ:

- وبـأـيـ طـرـيـقـ أحـبـطـ حـثـ (تـ)ـ الـمـكـيـدةـ.ـ فـمـاـ كـانـ مدـبـراـ فـيـ
خـاوـخـاـ قـدـ حدـثـ.ـ أـلـيـسـ كـذـلـكـ؟

فيـحدـدـ هوـ:

- لقد أحـبـطـناـ بـمـعـدـلـ تـسـعـينـ بـمـائـةـ.ـ وـلـمـ يـتـوـصـلـواـ إـلـىـ ماـ كـانـواـ
يـرـيـدونـ إـلـاـ بـمـقـدـارـ عـشـرـةـ بـمـائـةـ.ـ كـمـ أـعـتـقـلـ مـنـاـ؟ـ وـكـمـ هـمـ الـذـينـ

اضطروا إلى الاختباء؟ لقد أبقونا محاصرين أربع أو خمس سنوات. ولكنهم لم يتمكنوا من القضاء علينا، وكان هذا هو الهدف الذي أرادوه.

أقول له:

- ألم يكن الثمن عالياً جداً لأن مaita وباييغوس...

فيقاطعني الفسيفسائي:

- أن يعمد المرء إلى الاستدراج والوشاشية هو أمر ينطوي على مجازفة - ثم يؤكد بقصوّة: - لقد أخفقا ودفعا الثمن بالطبع. أليس هذا هو ما يحدث في هذه المهنة؟ أضف إلى ذلك أن هناك دليلاً آخر. استعرض أسماء من ظلوا أحياء. ما الذي جرى لهم؟ ما الذي فعلوه فيما بعد؟ ما الذي يفعلونه الآن بالذات؟
يبدو أن السيناتور كامبوس قد فقد بمرور السنوات عادة النقد الذاتي.

- لقد كنتُ مؤمناً على الدوام بأن الثورة تبدأ بالإضراب العام -
يقول أناتوليyo.

فيسخر منه مaita:

- تحريفية سوريلية شديدة الفوضوية. لم يقل ماركس، ولا لينين، ولا تروتسكي أبداً بأن الإضراب العام هو المنهج الوحيد للثورة. هل نسيت الصين؟ ماذا كان أسلوب ماو؟ الإضراب أم الحرب الثورية؟ تشتبث وإلا ستقع.

انزلق أناتوليyo قليلاً عن حافة السرير. وقال:

- إذا ما أخذت الخطة، فلن يكون هناك أخوة على الإطلاق بين الجنود والشعب في بيرو. ستكون حرباً مفتوحة.

— علينا أن نحطم الصيغ الجاهزة — وكان مايتا يرهد مسمعيه، لأن الأصوات تُسمع عموماً في مثل هذا الوقت. وعلى الرغم من لفته، فقد كان يفضل عدم مواصلة التحدث في السياسة مع أناتولي. عمَ سيرتحثان إذن؟ عن أي شيء، ولكن ليس عن هذا النضال الذي يقيم بينهما تضامناً تجريدياً، وأخوة مبهمة. ثم أضاف: — وهذا أصعب بالنسبة إلي مما هو بالنسبة إليك، لأنني أكبر منك سنًا.

السرير الضيق لا يكاد يتسع لهما، وهو يئن لدى أدنى حركة. لقد كانوا دون قميصيهما ودون حذاءيهما، ولكنهما يلبسان بنطاليهما. وكانوا قد أطفأا النور فكان بريق مصباح الشارع ينفذ من النافذة الأمامية. وفي البعيد، كان يُسمع بين حين وآخر الماء الشبق لقطة متهيجة: كان هذا هو الليل.

— سأعترف لك بشيء يا أناتولي. قال مايتا ذلك وهو مستلق، مستلداً إلى ذراعه الأيمن، وكان قد دخن علبة سجائر في ساعات قليلة. وبالرغم من هذه الوخزة التي يشعر بها في صدره، فإنه ما يزال راغباً في التدخين. كانت الهففة تخنقه. وفكرا: «إهدا يا مايتا. لن تقوم بندالات الآن، أليس كذلك يا مايتا؟» ثم أضاف بصوت عال: — هذه هي أهم لحظة في حياتي. إنني متأكد من ذلك يا أناتولي.

فقال الفتى وكأنه الصدى:

— إنها كذلك بالنسبة إلى الجميع. إنها أهم لحظة في حياة الحزب. وعساها تكون في حياة بيرو أيضاً.
وقال مايتا:

- الأمر مختلف في حالتك. فأنت فتي جداً. مثلاً هو بيّاردي. إنكم تبدأن حياتكم كثوريين وتبدأنها جيداً. أما أنا فقد تجاوزت الأربعين من عمري.

- وهل هذا يعني الشيخوخة؟ أليست هذه السن هي الشباب

الثاني؟

فغمم مايتا:

- أو الشيخوخة الأولى بكلمة أصح. لقد أمضيت قرابة خمس وعشرين سنة على هذه الحال. وفي الشهور الأخيرة، في هذه السنة الأخيرة، وخصوصاً بعد أن انقسمنا وبقينا سبعة أشخاص فقط، كانت تطن في أذني على الدوام كلمة واحدة: زيالة.

ساد الصمت. وحطمه مواء قطة. ثم سمع أناتولي يقول:

- أنا أيضاً أشعر بالغم أحياناً. فرؤبة السواد في كل شيء هو أمر إنساني حين تكون الأمور سيئة. ولكنني أستغرب أن تشعر أنت بذلك يا مايتا. لأنه إذا ما كان هناك شيء أقدر فيك دائماً، فإنه تقاؤلك.

كان الجو حاراً وكان ذراعاهما المتلامسان رطبين. وقد كان أناتولي أيضاً مستلقياً على ظهره، وبإمكان مايتا أن يرى، في الظلام، قدميه العاريتين عند حافة السرير قريبتين من قدميه. وفكر في أن أقدامهما قد تتلامس في أي لحظة.

قال مواريا استياعه:

- افهمني جيداً. لست معموماً لأنني كرست حياتي للثورة. هذا لا يمكن أن يحدث مطلقاً يا أناتولي. في كل مرة أخرج إلى الشارع وأرى في أي بلاد أعيش، أدرك أنه ليس ثمة ما هو أهم من

الثورة. إنني أصاب بالغم لأنني ضيعت الوقت، لأنني اتخذت طريقاً خطأً.

وقال أناتولييو مازحاً:

– إذا ما قلت لي إنك قد خُدعت بليون دافيديوفيتش وبالتروتسكية، سأقتلك. لا تجعلني أشعر بأنني قد قرأت كل تلك المجلدات عبثاً.

ولكن مايتا لم يكن يشعر برغبة في المزاح. كان يشعر بالحماس وبالغم في الوقت نفسه. وكان قلبه ينبض بقوة إلى حد قال معه في نفسه بأنه ربما كان أناتولييو يسمع تلك النبضات. وكان الغبار المتراكم ما بين كتب وأوراق وصحف البيت الصغير قد بدأ يدغدغ أنفه، ففك رأسخف: «اكبح عطاسك والإستموت».

– لقد ضيعنا الكثير من الوقت يا أناتولييو في مسائل بيرزنطية، وفي ترهات لا علاقة لها بالواقع. كنا منفصلين عن الجماهير دون جذور بين الشعب. أي نوع من الثورة كنا سنصنع؟ أنت ما تزال شاباً. أما أنا فقد أمضيت سنوات طويلة في هذا الأمر، ولكن الثورة لم تقترب ولو ميليمتراً واحداً. واليوم أحست لأول مرة بأننا نتقدم، وبأن الثورة ليست شيئاً وإنما هي جسد من عظم ولحم.

ـ اهدأ يا أخي ـ قال له أناتولييو وهو يمد يده ويربت على رجله. فانكمش مايتا على نفسه كما لو أنه تلقى ضرية على فخذه وليس مجرد ملامسة ودودة ـ . في اجتماع اللجنـة اليوم، عندما طرحت اقتراحـك بالانتقال إلى العمل، وتساءـلت إلى متى سنواصل

إضاعة الوقت، لست أوتار قلوبنا. لم أسمعك تتحدث بمثل هذا الاندفاع من قبل يا مaita. كان الكلام يخرج من أعماقك. وكنت أفكّر: «فلنذهب الآن فوراً إلى الجبال، ماذا ننتظر». لقد تشكّلت عقدة هنا، في حلقي، أقسم لك.

مال مaita على جانبه بمشقة، ورأى بروفيل أناطولي مرسموا على خلفية خزانة الكتب الفائمة: ناصية شعره، جبهته اللامعة، بياض أسنانه، شفتيه المفتوحتين.

- سنبدا حياة أخرى - همس - . سنخرج من الكهف إلى الهواء الطلق، من دسائس الكراج والمقهى إلى العمل بين الجماهير وتوجيه الضربات إلى العدو. سنسبح وسط الشعب يا أناطولي.

كان وجهه قريباً جداً من كتف الفتى العاري. وتسربت إلى أنفه رائحة بشرة بشرية، قوية، وشوشته. ركتبة المنكمشتان لامستا ساق أناطولي. وكان مaita لا يكاد يميز في العتمة بروفيله الثابت. هل عيناه مفتوحتان؟ أنفاسه تُحرك صدره بانتظام. وببطء مد يده اليمنى الرطبة التي ترتجف، وتلمس، حتى وصل إلى بنطاله:

- دعني أداعبه لك - دمم بصوت محضر وهو يشعر أن جسده كله يلتهب - دعني يا أناطولي.

- وأخيراً، هناك مسألة أخرى لم نتعرض لها، ولكننا إذا أردنا الوصول إلى عمق الأشياء فلا بد لنا من تناولها - تهدى السيناتور كامبوس، بحيث يمكن القول إنه محزون، وأضاف: - وأنت تعرف بالطبع أن مaita كان لوطياً.

فقلت له:

- هذه تهمة توجه بكثرة إلى الخصوم في بلادنا. وهي تهمة من الصعب إثباتها أيضاً. هل لهذا علاقة بما جرى في خاوخا؟

- أجل، ربما كانت تلك هي نقطة الضعف التي أمسكوه منها. من هذه النقطة حصروه إلى الجدار وأجبروه على العمل من أجلهم. إنه عقب أخيه. يكفي أن يتنازل مرة واحدة. وماذا يبقى له بعدها سوى مواصلة التعاون معهم؟

- لقد عرفت من موسيس أنه كان متزوجاً.

- جميع المختفين يتزوجون - ابتسם السيناتور. إنها وسيلة التكرر الأكثر شيوعاً. وفضلاً عن التهريج، فقد كان زواجه كارثة حقيقة. لم يستمر إلا لوقت قصير.

لقد بدأت جلسة مجلس الشيوخ، أو مجلس النواب، لأن أصواتاً متتصاعدة وضريات حافظات أوراق تأتي من قاعة الجلسات وتُسمع أصوات مضخمة بمكبرات الصوت. البار أقفر ولم يعد فيه أحد. ودمدم السيناتور كامبوس: «سنستجوب الوزير. المجلس سيطلب منه أن يقول بوضوح إذا ما كانت قوات أجنبية قد توغلت داخل التراب الوطني». ولكنه لا يبدي ألمارات التعجل. ويواصل التكلم دون فقدان هذه الموضوعية العلمية التي يغطي بها أحقاده.

- ربما كان التفسير هناك - يفكر وهو يتلاعب بالبسـم -

أيمكن الثقة بشخص شاذ جنسياً؟ إنه كائن غير مكتمل،

مخنث، معرض لكل أشكال الضعف، بما في ذلك الخيانة.

ويتحمس وقد سيطر عليه الموضوع، فيبتعد عن مaita وعن أحداث خاوخا ويوضح لي أن الشذوذ الجنسي مرتبط ارتباطاً وثيقاً بالانقسام الطبقي وبالثقافة البرجوازية. وإلا، لماذا لا يوجد شاذون

جنسياً في البلدان الاشتراكية؟ ليس الأمر صدفة، وليس لأن هواء تلك البلدان يجعل الناس فاضلين. من المؤسف أن البلدان الاشتراكية تمد يد المساعدة إلى دعاه قلب النظام في البيرو. لأن في تلك المجتمعات أشياء كثيرة جديرة بأن تحاكي. فقد اختفت فيها ثقافة البطالة والكسل والخواص النفسي، وهذا القلق الوجودي التقليدي لدى البرجوازية التي ترتاب حتى في الجنس الذي تتمنى إليه. الشذوذ هو صفة مطلقة، رغم التباينات.

- لا تخجل من نفسك؟ - سمعه يقول - تستغل صداقتنا، لأنني

في بيتك. لا تخجل من نفسك يا مايتا؟

كان أناتولييو قد جلس على حافة السرير واضعاً يديه فوق ركبتيه، وكانت يداه مجتمعتين تسندان ذفته. وكان البريق الذي الآتي من النافذة يصفع ظهره ويفطري بلمعان أخضر قاتم بشرته الناعمة التي تظهر منها ضلوعه.

ولعلتم مايتا وهو يبذل جهداً ليتكلم:

- بلى، إنني أخجل. انس ما حدث.

- كنتُ أظن أننا صديقان - قال الفتى ذلك بصوت مكسور،

وهو ما يزال يدير له ظهره. وكان ينتقل من الغضب إلى الازدراء ثم إلى الغضب من جديد: - يا لخيبة الأمل، اللعنة! أكنت تظنين مختنا؟

- أعرف أنك لست كذلك - همس مايتا. والحر الذي كان

يشعر به قبل لحظة تلاه برد ينخر عظامه: حاول أن يفكر ببابيغوس، بخاوحا، بالأيام المثيرة والمطهرة الآتية، ثم أضاف: - لا تشعرني بالذنب أكثر مما أشعر به.

- وكيف تراني أشعر أنا؟ - صرخ أناتولييو. واهتز السرير

الصغير مطلقاً صريراً وظن مايتا أن الفتى سينهض واقفاً، ويرتدى قميصه ويخرج صافقاً الباب بقوة. ولكن السرير هدا من جديد وبقيت بشرة ذلك الظهر المشدودة أمامه. ثم أضاف الفتى: - لقد دمرت كل شيء يا مايتا. كم أنت فظيع. لقد اخترت لحظة طيبة. اليوم، هذا اليوم بالذات.

فتنهد مايتا:

- وهل حدث أي شيء؟ لا تكن طفلاً. إنك تتكلم وكأننا قد متنا.

- أنت بالنسبة إلى صرت ميتاً منذ هذه الليلة.
في هذه الأثناء سمعا فوق رأسيهما الضجيج الخافت: خافتاً، متعددًا، خفيًا، مقرضاً، غامضاً. بدا لبعض ثوان وكأنه هزة أرضية، فقد ارتجت أخشاب السقف القديمة وبدا كما لو أنها ستنهار فوقهما. وفجأة، تلاشت الأصوات بصورة مباغته مثلما بدأت. إنها تسبب التشنج لمايتا في ليال أخرى، ولكنه كان يشعر بالامتنان نحوها في هذه الليلة. كان يحس بتشنج أنatalيو ويرى رأسه متقدماً، يصفي إذا ما كانت الأصوات ستعود: لقد نسي، لقد نسي. وفكرا مايتا بجيранه الذين ينامون في جماعات من ثلاثة أو أربعة أو ثمانية أشخاص في غرف البناء المصفوفة على شكل حذوة، غير مبالين بالقمامنة، بالضجيج. إنه يحسدهم في هذه اللحظة.

تعلغم:

- إنها جرذان. هنالك الكثير منها ما بين السقفين. إنها تتسابق، تتشاجر، ثم تهدأ بعد ذلك. لا يوجد منفذ تدخل منه. لا تقلق.

- لست قلقاً - قال أناتوليо ذلك. ثم أضاف بعد قليل: - هناك حيث أعيش في كاياو توجد جرذان كذلك. ولكنها على الأرض، في المجارير، في... وليس فوق رؤوس الناس. قال مايتا وقد تحسن صوته، وكان يسترد السيطرة على عضلاته، ويمكّنه التنفس:

- في البدء كانت تأتيني الكوابيس. لقد وضعت سماً ونصبت مصائد. وفي إحدى المرات تمكنا من جعل البلدية ترش المبيدات. ولكن دون جدوى. إنها تختفي بضعة أيام ثم تعود. وقال أناتوليо:

- القلط خير من السموم والمبيدات. يجب أن تحصل على قط. أي شيء بدل هذه السيمفونية فوق رأسك، يا للعنة. وكما لو أن القطة النزوية قد أحست بالإشارة فعادت تطلق إحدى صرخاتها الفاحشة في البعيد. وبما لمaita أن أناتوليо بيتسن، فطفر قلبه.

- لقد تشكل في حـعـثـ (ت) فريق عمل لإعداد مع باييخوس لمسألة خاوشا. وقد كنتَ حضرتك واحداً من أعضاء ذلك الفريق، أليس كذلك؟ ما هي النشاطات التي قمت بها؟

- قليلة جداً، وبعضها مضحك. - وبحركة ساخرة يحط السيناتور من قدر تلك الواقعية القديمة ويحولها إلى شقاوة صبيان: - لقد أمضينا مساء أحد الأيام مثلاً ونحن نطحن الفحم ونشتري ملح البارود والكبريت لكي نصنع باروداً. لم ننتاج ميليفراماً واحد على ما ذكر.

يهز رأسه باستمتع ويتأخر في إشعال سيجارة جديدة. يطلق

الدخان إلى أعلى ويتأمل الدوائر. حتى الندل قد ذهبوا، وصار بار الكونغرس يبدو أكثر اتساعاً. وفي داخل المجلس انفجرت عاصفة من التصفيق. «عسى المجلس يتمكن من جعل الوزير يتكلم على المكشوف. وأن نعرف إذا ما كان هناك مارينز في بيرو»، كان السناتور يفكر بذلك متجاهلاً وجودي لبضع ثوان. «إذا ما كان الكوبيون يستعدون لغزونا من الحدود مع بوليفيا».

ثم عاد بعد ذلك إلى الموضوع:

- في فريق العمل بدأت شكوكنا تتأكد. كنا قد أحضناه قبل ذلك إلى المراقبة، دون أن يلاحظ ذلك. منذ أن جاء بين عشية وضاحها بحكاية أنه قد التقى ب العسكري ثوري. ملازم سيدأ الثورة في الجبال، وأنه علينا مساندته. غيرِ الزمن، وانتقل إلى عام 1958. ألا ترى الأمر مثيراً للريبة؟ ولكن فيما بعد، حين ورطنا على الرغم من شكوكنا في مغامرة خاوحا، بدأت رائحته الكريهة تفوح.

ليست الاتهامات ضد مايتا وباباخوس هي التي تشير حيرتي، وإنما منهج السناتور الأملس كالأخن، والزئبقي الذي لا يمكن الإمساك به. إنه يتكلم بنبرة ثابتة، ومن يسمعه يقول إن ازدواجية مايتا هي أمر بدائي. وفي الوقت نفسه، وعلى الرغم من جهودي، لم أستطع أن أنتزع منه دليلاً قاطعاً واحداً، ليس هناك سوى هذه الشبكة العنكبوتية من الظنون والافتراضات التي راح يحوّلها حولي. ويصبح فجأة: «يقال أيضاً إن الكوبيين قد دخلوا وإنهم هم الذين يقومون بالعمليات العسكرية في كوسكو وبونو. الآن سنعرف ذلك».

وأعده إلى قضيتك:

- أتذكر بعض الواقع التي دفعتك إلى الارتياب به؟
- هناك وقائع لا تحصى - يقول على الفور، بينما هو يطلق سحابة من الدخان - إنها وقائع قد لا تعني الكثير إذا أخذت منفصلة، ولكنها تصبح أدلة حاسمة إذا وضعت في سياق مجرياتها.

- هل في ذهنك مثال محدد؟

ويقول السيناتور:

- في أحد الأيام اقترح علينا أن نضم إلى مشروع الانتفاضة المسلحة جماعات سياسية أخرى. ابتداء من الموسكوبين. بل إنه كان قد قام بالاتصالات أيضاً. هل تلاحظ ذلك؟

وأجبته:

- بصراحة لا ألاحظ أي شيء. فكل الأحزاب اليسارية، من موسكوبين، وبكينيين، وتروتسكيين تقبلوا بعد سنوات من ذلك فكرة التحالف، والعمل المشترك، بل والاندماج في حزب واحد. فلماذا يكون مريباً إذن هذا الشيء الذي لم يعد كذلك فيما بعد؟

فدمدم هو بسخرية:

- فيما بعد تعني بعد مرور خمس وعشرين سنة. فمنذ ربع القرن لم يكن بإمكان أي تروتسكي أن يدعو الموسكوبين فجأة إلى التعاون. لقد كان الأمر حينذاك أشبه بأن تقترح الفاتيكان على الكاثوليك أن يتتحولوا إلى الإسلام. إن مثل ذلك الاقتراح هو أشبه بوشاشة ذاتية. لقد كان الموسكوفيون يكرهون مايتا إلى حد

الموت. وكان هو يكرههم أيضاً، في الظاهر على الأقل. أيمكنك أن تتصور تروتسكي يدعو ستالين إلى التعاون؟ - ويهز رأسه بأسف: - لقد كانت اللعبة واضحة.

قال أناتولييو:

- أنا لم أصدق ذلك مطلقاً. آخرون في الحزب صدقوه. أما أنا فكنت أدفع عنك دوماً قائلاً إنها افتراءات. ودمدم مايتا:

- إذا كان التحدث في هذا الأمر سيجعلك تتssi، فلا بأس في أن نتحدث. أما إذا لم يكن كذلك، فمن الأفضل ألا نتحدث. إنه موضوع صعب يا أناتولييو، وأنا مشوش بشأنه على الدوام. إنها سنوات طويلة في السرية، وأنا أحاول خلالها أن أفهم.

سأله أناتولييو:

- أتريدينني أن أذهب؟ سأذهب الآن حالاً.

ولكنه لم يتحرك. لماذا لا يستطيع مايتا أن يتخلّى عن التفكير بتلك الأسر التي في الغرف الأخرى، المتراسكة في العتمة، آباء وأبناء وأبناء للزوج أو الزوجة من زواج سابق يتقاسموه الفراش والبطانيات والهواء الفاسد ورائحة الليل العفنة؟ لماذا يسيطرون على تفكيره الآن، بينما هو لا يتذكّرهم مطلقاً؟

قال:

- لا أريدك أن تذهب. أريدك أن تتssi ما حدث ولا نتحدث أبداً في هذا الأمر.

مررت في الشارع المجاور سيارة صاحبة ومدوية، لا بد أنها قدّيمة ومهترئة من أعلىها إلى أسفلها، فجعلت زجاج النوافذ يهتز.

- لست أدرى - قال أناتوليyo . لست أدرى إذا ما كان بإمكانني
أن أنسى وأن يعود كل شيء مثلما كان من قبل. ما الذي جرى لك
يا مaita؟ كيف استطعت عمل ذلك؟

- سأخبرك بكل شيء مادمت مصرأً إلى هذا الحد - سمع
نفسه يقول ذلك بتصميم أدهشه. أغمض عينيه، وواصل وهو يخشى
أن يخونه لسانه في أي لحظة: - لقد كنت سعيداً منذ اجتماع
اللجنة. كنت مثل من استبدلوا دمه، سعيداً بفكرة الانتقال أخيراً
إلى الممارسة العملية. كنت... باختصار، أنت رأيتني كيف كنت يا
أناتوليyo. وكان هذا هو السبب. الإثارة، الحماسة. إن الغريزة تعمي
العقل، وهذا سيئ. لقد أحسستُ برغبة في لمسك، في مداعبتك.
وقد راودتني هذه الرغبة مرات كثيرة منذ تعرفت عليك . ولكنني
كنت أكبح نفسي على الدوام ولم تكن أنت تتبعه إلى ذلك. وفي
هذه الليلة لم أستطع. أعرف أنك لن تشعر مطلقاً بالرغبة في أن
أمسك. إن أكثر ما يمكنني الحصول عليه من شخص مثلك يا
أناتوليyo هو السماح لي بأن أداعب عضوه.

- يجب علي أن أخبر الحزب بهذا وأن أطلب منهم أن يطردوك.

- والآن يتوجب علي أن أودعك - يقول السيناتور كامبوس
فجأة وهو يلقي نظرة إلى ساعته ثم يلتفت بعينيه نحو قاعة
الاجتماعات: - سيناقش مشروع تخفيض الخدمة العسكرية
الإجبارية إلى سن الخامسة عشرة. جنود في الخامسة عشرة، ما
رأيك. حسن، في صفوف الجانب الآخر هناك أطفال في سن
المدرسة الابتدائية...

ينهض واقفاً وأخذوا حذوه. أشكروه على الوقت الذي خصصه

لي، ولكنني أعرف له مع ذلك بأنني أنصرف محبطاً بعض الشيء. فهذه الهجمات القاسية ضد مaita وتفسيره لأحداث خواخا على أنها مجرد مكيدة، لا تبدو لي شديدة التماسك. وواصل هو الابتسام بلطف، وقال لي:

- لست أدرى إذا ما كنت قد أحسنت صنعاً بالتحدث إليك بكل هذه الصراحة. إنها نقدي، أعرف ذلك. غير أنه في هذه القضية بصورة خاصة، ولأسباب سياسية، يجب عدم تحريك الوحل كي لا نلوث أناساً كثريين. ولكنك لست مؤرخاً وإنما أنت روائي. لو أنك قلت لي إنك ستكتب مقالاً أو كتاباً سوسيو بوليتيكياً، لكنك اعتصمت بالصمت. أما الرواية فهي شيء مختلف. إنها كتاب صدق أو لا تصدق بالطبع.

أوضح له أن كل الشهادات التي أحصل عليها، سواء أكانت صحيحة أم زائفة، ستتفعني. هل ظننت أنني سأشتغلي عن تأكيداتك؟ إنك مخطئ؛ فما استخدمه ليس مصداقية الشهادات وإنما قدرتها على الإيحاء والابتداع، لونها، قوتها الدرامية. ولكنني أشعر بالمقابل أنك تعرف أكثر مما أخبرتني به.

فرد علي دون استغراب:

- مع أنني تكلمت مثل بيغاء، ولكن هناك أشياء لا أرويها حتى ولو سُلخت حياً. لا بد من منح وقت للوقت للتاريخ يا صديقي. مشينا باتجاه بوابة الخروج. وكانت ممرات الكونغرس مطروقة بكثرة: لجان آتية لمقابلة البرلمانيين، ونساء يحملن محافظ أوراق، وأنصار للأحزاب السياسية ينظمهم في جماعاتٍ أشخاصٌ يضعون أشرطة على سواุดهم، ويصطفون للصعود إلى شرفات

مجلس النواب، حيث ستكون المناقشة حامية حول قانون الخدمة العسكرية الجديد. الأمن مستتب في كل مكان: فهناك حراس من رجال الشرطة مزودون ببنادق، وتحريون باللباس المدني يحملون المسدسات الرشاشة، إضافة إلى الحراس الشخصيين للبرلمانيين. وبما أنه لا يُسمح لهؤلاء الآخرين بدخول قاعات الجلسات، فقد كانوا يتمشون من جانب إلى آخر، دون أن يخفوا المسدسات التي يحملها بعضهم في قراب ويدسها آخرون ما بين البنطال والقميص. وكانت الشرطة تفتش بدقة كل شخص يتجاوز البهو، فتجبره على فتح الأكياس أو المحافظ بحثاً عن متفجرات. ولكن هذه الاحتياطات لم تحل في الأسابيع الأخيرة دون وقوع محاولتي اغتيال داخل الكونغرس، كانت إحداهما جدية جداً: شحنة من الديناميت انفجرت ببعض السيناتورات وأدت إلى موت اثنين وجرح ثلاثة منهم. كان السيناتور كامبوس يعرج، مستعداً إلى عكاز، ويوجه التحيات ذات اليمين وذات اليسار. رافقني حتى المخرج اجتنزا ذلك الجو المفعم بالناس، وبالأسلحة، وبالجادلات السياسية، الذي يبدو أشبه بحقل الغمام. لدى إحساس بأنه يمكن لحدث تافه أن يفجر الكونغرس كله مثل برميل بارود.

ويقول السيناتور ونحن عند الباب:

- كم هو جيد التمتع بقليل من الهواء البارد. لست أدرى كم من الساعات أمضيت هنا، والهواء في الداخل ملوث بكل هذا الدخان. حسن، لقد ساهمت بنصيبي في ذلك. إنني أدخن كثيراً. يجب علي أن أتخلّى عن السيجارة في أحد هذه الأيام. الحقيقة أنني توقفت عن التدخين حوالي خمس مرات.

يمسك مرفقي بآلفة، ولكن كي يقول لي هامساً في أذني:
- فيما يتعلق بحديثنا، أنا لم أقل لك شيئاً. لا حول مايتا ولا
حول خواخا. لا أريد لأحد أن يتهمني بالمساهمة، في هذه
اللحظات، بانقسام اليسار الديمقراطي من خلال بعث جدل حول
أحداث مما قبل التاريخ. إذا ما استعملت أسمي، فسوف تجبرني
على تكذيبك - واصل الكلام وكأنه يمزح، ولكننا كلينا كنا
نعرف أنه تحت النبرة المستخفة، كان يصوغ تحذيراً - لقد صمم
اليسار على دفن هذه الواقعة، وهذا هو الحل العقلاني في الوقت
الحالي. ولا بد أن تحين الفرصة المناسبة لنشر الفسيل تحت
الشمس.

- إنني أدرك ذلك بوضوح أيها السيناتور. لا تخش شيئاً.
- إذا ما قولتني شيئاً فسيكون علي أن أقاضيك بتهمة التزوير
- يقول ذلك وهو يغمز لي بعينه ويمد يده بما يشبه المصادفة ليتلمس
الجزء المنقخ من سترته، حيث يخفي المسدس، ويضيف: - ولكنك
صرت تعرف الحقيقة، فاستخدمنا دون ذكر أسمي.
يمد لي يداً متوددة ويفغمز لي بعينه مرة أخرى، بخبث: إن له
أصابع قصيرة ورقيقة من الصعب تصورها تضفط على الزناد.
- هل أحست بالحسد نحو البرجوازيين يوماً؟ - قال مايتا.
- لماذا تسألني عن ذلك؟ - فوجئ أناتولي.
- لأنني أنا الذي احتقرتهم على الدوام، أحسدتهم على شيء
واحد - قال مايتا ذلك، وفكرا: هل سيُضحكه؟
- وما هو هذا الشيء؟
- تمكنتهم من الاستحمام كل يوم - كان مايتا واثقاً من أن

الفتى سيبتسم على الأقل، ولكنه لم يره يبدي أدنى تأثر. فقد كان ما يزال جالساً على حافة السرير؛ وكان قد انحرف قليلاً بحيث صار بإمكانه الآن أن يرى بروفيله، متطاولاً، شديد الجدية، أسمراً، بارز العظام، يتسلط عليه البريق الآتي من النافذة. كان له فم عريض الشفتين وبارزهما، وبدت أسنانه الكبيرة لامعة.

- مایتا.

- نعم يا أناتولي.

- أتظن أنه يمكن لعلاقتنا بعد هذه الليلة أن تظل مثلاً كانت في السابق؟

- أجل، ستبقى نفسها - قال مایتا - لم يحدث أي شيء يا أناتولي. وهل حدث أي شيء؟ أدخل هذا في دماغك مرة واحدة. وسُمع مرة أخرى الركض ما بين السقفين، قصيراً، متكتماً، وأحس مایتا أن الشاب قد انتصب متوتراً.

- لست أدرى كيف يمكنك أن تتم مع هذه الضجة كل ليلة.

فرد مایتا:

- أستطيع النوم مع هذه الضجة لأنه لا مناص لي. ولكن ليس صحياً أن الإنسان يعتاد على كل شيء مثلاً يقولون. فأنا لم أعتد على عدم استطاعتي الاستحمام كلما رغبت. مع العلم أنني قد نسيت متى سكنت آخر مرة في بيت فيه حمام. أظن أنه كان بيت خالي خوسيفا، في سوركبيو، منذ قرون. ولكن الاستحمام مازال مع ذلك أمراً أتشوق إليه كل يوم. عندما أعود متعباً وأتمكن من الاغتسال مثل قطٍ فقط هناك في الأسفل، ثم أصعد

بطشت ماء أغمس فيه قدمي، عندئذ أفكربكم هو لذيد الاستحمام بالدوش، الدخول تحت الماء المتدفق ليحمل الماء معه الوسخ، والهموم. ثم النوم منتعشاً بعد ذلك... يا طيب حياة البرجوازيين يا أناطولي.

- ألا يوجد حمام عمومي قريب؟

فقال مايتا:

- هناك واحد على بعد خمس كمودرات، وأنا أذهب إليه مرة أو مرتين في الأسبوع. ولكنني لا أملك النقود دائمًا. فالحمام يكلف مثلما تكلف وجبة طعام في المطعم الجامعي. يمكنني أن أعيش دون استحمام، ولكنني لا أستطيع العيش دون أكل. هل لديك دوش في بيتك؟

- أجل. المشكلة أن الماء غير متوفر دائمًا - قال أناطولي.

- يا لك من محظوظ - تثاءب مايتا - أترى.. هناك شيء على الأقل تشبه به البرجوازيين.

لم يبتسم أناطولي بهذه المرة أيضًا. بقيا صامتين وساكنين، كل منهما في مكانه. وبالرغم من أن الظلام مازال هو نفسه، إلا أن مايتا لاحظ قدوم تباشير الفجر في الجانب الآخر من النافذة: محركات سيارات، نفير بين حين وآخر، أصوات غير مميزة، حركة نشطة. أتكون الساعة الخامسة، السادسة؟ لقد أمضيا الليلة مئرعين. كان يشعر بالضعف كما لو أنه بذل مجهوداً عظيماً، أو كأنه ناقه من مرض شاق.

- فلننـم قليلاً - قال وهو ينـقلب على ظهره. غطى عينيه بساعدـه وابتـعد قدر ما يـستطيع ليـفسـح له مـجالـاً - لـابـد أنـوقـت قدـتأـخرـ.

في الغد، أو اليوم بكلمة أصح، سيكون علي أن أبدأ بقصم ظهري من جديد.

لم يقل أناطولي شيئاً، ولكن مايتا أحس به يتحرك بعد قليل، وسمع السرير يصر ورآه بطرف عينه وهو يستلقي على ظهره أيضاً إلى جانبه، محاذراً لا يلمسه.

- مايتا.

- أيوه يا أناطولي.

لم يقل الفتى شيئاً، مع أن مايتا انتظر لوقت لا بأس به. كان يشعر بأنه يتنفس بقلق. وكان جسده الجامح قد بدأ يحمى من جديد. ولكنه قال:

- نم الآن. وغداً لن نفك إلا بخواخا يا أناطولي.

- يمكنك أن تداعبه لي إذا رغبت - سمعه يهمس بخجل. ثم يضيف بصوت أشد خفوتاً، وبخوف: - ولكن ليس أكثر من ذلك يا مايتا.

يبعد السيناتور كامبوس وأبقى أنا في أعلى أدراج الكونgres، قبالة نهر من البشر، والميكروباصات، والسيارات، والحافلات، والحركة، والصخب في ساحة بوليفار. إلى أن يغيب عن النظر في جادة أبانكاي، الحق حافلة نقل عتيقة، رمادية ومائلة إلى جهتها اليمنى، وعادمها، مثل مدخنة على مستوى السقف، تطلق سحابة دخان أسود، وعلى أبوابها تتعلق كتلة من الناس متمسكة بأعجوبة، يحتكون بالسيارات العابرة، وبأعمدة النور، وبالمشاة العابرين. إنها ساعة الخروج من العمل. في كل ناصية هناك حشد مزدحم ينتظر الحافلات والميكروباصات؛

وعندما يصل أحدها يدور حوله اشتباك من التدافع، والصرخ، والمحاكمة والسباب. إنهم أناس بؤساء ومتعرقون، رجال ونساء تشكل معركة الشوارع هذه من أجل الصعود إلى الآليات النتنة، روتينهم اليومي، حيث ينتقلون فيها، إذا استطاعوا الصعود إليها، مدة نصف ساعة أو ثلاثة أرباع الساعة، وقوفاً، محشورين، مختنقين من الحر. وهؤلاء البيرويون، على الرغم من ملابسهم البائسة والمضحكة بعض الشيء، ومن تنايرهن المبتذلة، وربطات عناقهم المزيفة، هم أعضاء في أقلية لمست إله الحظ جبهاها، فمهما كان تواضع ورتابة حياتهم، إلا أن لديهم عملاً كموظفات موظفين، وراتباً صغيراً، وضماناً اجتماعياً وكفالة تقاعدية. وهذه امتيازات عظيمة إذا ما قورنوا على سبيل المثال بهؤلاء المولدين الحفاة الذين أراهم يجررون عربة مماثلة بزجاجات فارغة، ويبصقون على السيارات وهم يتفادونها، أو بأفراد هذه الأسرة ذوي الأسماء - امرأة دون سن محددة، وأربعة أولاد لهم بشرة مغطاة بالقذارة - الذين يجلسون على أدراج متحف محكمة التفتيش، ويمدون أيديهم آلياً فور رؤيتي أقترب: «صدقة يا بباباشيتو»، «أرجوك يا سينورثيثو»... وفجأة، بدلاً من أن أواصل طريقي باتجاه ساحة سان مارتين، أقرر الدخول إلى متحف محكمة التفتيش. فأنا لم أذهب إليه منذ زمن طويل، ربما منذ الزمن الذي رأيت فيه زميلاً في الدراسة مايتا للمرة الأخيرة. وبينما أنا أزور المكان، لم أستطع أن أنتزع من رأسني صورة وجهه، كما لو أن هيئة ذلك الرجل الهرم والمنهوك مبكراً الذي رأيته في الصورة الفوتوغرافية في بيته خالته وعراشه، قد استدعيت إلى ذهني بصورة لا تقاوم بتأثير المبني الذي

أزوره. ما هي العلاقة؟ ما هو الخيط السري الذي يجمع بين الهيئة كلية القدرة التي تولت طوال ثلاثة قرون حراسة الأصولية الكاثوليكية في بيرو وفى أميركا الجنوبية، وذلك المناضل الشورى الفامض الذى خرج إلى النور مثل وميض برق قبل خمس وعشرين سنة؟

المبنى الذى كان قصر محكمة التفتيش فيما مضى هو الآن مجرد أطلال، ولكن زخارف خشب الكابلي التى من القرن الثامن عشر مازالت محفوظة بحالة جيدة، مثلاً توضح معلمة تقينية لجماعة من التلاميذ. مشغولات بدعة: فقد كان قضاةمحاكم التفتيش رجال ذوق. لقد اختفت تقريراً كل زخارف القيشانى الاشبوبية التى استوردها الرهبان الدومينيكانيون لتزيين المكان. وكذلك بلاط الأرضية الذى جلب من إسبانيا؛ فهو لا يكاد يظهر تحت القذارة.أتوقف قليلاً أمام الشعار المنحوت في الحجر الذى كان يعلو باعتزاز واجهة هذا القصر، وفيه الصليب والسيف وغضن الغار. إنه يستقر الآن فوق طاولة مخلعة.

لقد استقر قضاة التفتيش هنا في سنة 1584 ، بعد أن أمضواخمس عشرة سنة السابقة قبلة كنيسة الرحمة. اشتروا العقار من دون سانتشو دي ريبيرا ، ابن أحد مؤسسى ليما ، بمبلغ زهيد ، ومن هنا سهروا على النقاء الروحي في الأراضي التي تسمى اليوم البيرو ، والاكوادور ، وكولومبيا ، وقنزويلا ، وبنما ، وبوليفيا ، والأرجنتين ، وتشيلي ، وباراغواي. من هذه القاعدة ، ومن وراء هذه المنضدة الثقيلة المصنوعة من قطعة خشب واحدة ، ولها بدل القوائم أشكال مسوخ بحرية ، كان قضاة التفتيش ذوو المسوح البيضاء

وحيشهم من المجازين والمحضرين والكتبة والسجانين والجلادين، يقارعون بحماسة كل أشكال الشعوذة، والشيطنة، واليهودية، والهرطقة، وتعدد الزوجات، والبروتستانتية، والشذوذ. وفكـر: «كل أشكال الهرطقة والانشقاق». لقد كان شاًقاً وصارماً، شرعاً ومهوساً عمل السادة القضاة الذين كان بينهم (أو تعاون معهم) أبرز مثقفي العصر من محامين ولاهوتيين وأساتذة وخطباء وناظمي أشعار وناثرين. وفكـر: «كم من الشاذين جنسياً أحـرقوا؟». هناك تحقيق مفرط في الدقة والتفصيل، يُحـبـر عدداً لا حصر له من الصفحات في ملف محفوظ بإحكـام، يسبق كل إدانة وإعدام للهراطقة بالحرق. وفكـر: «كم من المـجـانـين عذبـوا؟ وكم من السـدـجـ خـنقـوا؟». كانت تمر سنوات قبل أن تصدر محكمة التفتيش القدسية العليا حكمها من وراء هذه المنضدة التي تزيـنـها جمـجمـة ومحـابـر فـضـيـة مـزـركـشـة بـأشـكـالـ سـيـوفـ وـصـلـبـانـ وـأـسـمـاكـ، وـعـبـارـةـ: «ـأـنـاـ، نـورـ الـحـقـيقـةـ، أـقـودـ ضـمـيرـكـ وـيدـكـ. فـإـذـاـ لـمـ تـطـبـقـ الـعـدـالـةـ، تـصـنـعـ بـحـكـمـكـ دـمـارـكـ نـفـسـهـ.» وـفـكـرـ: «ـكـمـ مـنـ الـقـدـيسـينـ الـحـقـيقـينـ، وـكـمـ مـنـ الـجـرـئـينـ، وـكـمـ مـنـ الـبـسـطـاءـ الـمـساـكـينـ أحـرقـوا؟»

لأن ما كان يقود يد حـاـكـمـ التـفـتـيـشـ لمـ يـكـنـ نـورـ الـحـقـيقـةـ، بل الوـشـاةـ. وـهـمـ مـنـ كـانـواـ يـُـقـيـونـ هـذـهـ الزـنـازـينـ وـالـسـجـونـ مـمـتـلـئـةـ، هـذـهـ الـكـهـوـفـ الـرـطـبـةـ وـالـعـمـيقـةـ الـتـيـ لـاـ تـصـلـهـاـ الشـمـسـ وـلـاـ يـخـرـجـ مـنـهـاـ السـجـينـ إـلـاـ كـسـيـحاـ. وـفـكـرـ: «ـأـنـتـ كـنـتـ سـتـتـهـيـ هـنـاـ عـلـىـ أـيـ حـالـ يـاـ مـاـيـتاـ. بـسـبـبـ طـرـيـقـتـكـ فـيـ الـحـيـاـةـ.» كـانـ الـواـشـيـ يـنـعـمـ بـأـقـصـىـ الـحـمـاـيـةـ، وـكـانـ سـرـيـتـهـ مـكـفـولـةـ، لـكـيـ يـتـعـاـونـ دـوـنـ أـيـ

خوف من العقاب أو الانتقام. هاهي ذي سليمة ببوابة السر، وتطلع مايتا بإحساس قلقٍ من الفتحة الصغيرة، يراوده شعور بأنه ذلك الواشي الذي يمكن لشهادته أن تقود المراء إلى السجن لسنوات طويلة، وتحرمه من كل ثرواته، وتحكم عليه بحياة مشينة، أو بالحرق حياً. اقشعر بدنه: كم كان سهلاً التخلص من خصم. يكفي الدخول إلى هذه الحجرة الضيقة، ووضع اليد على الكتاب المقدس، والإدلاء بالشهادة. لقد كان بإمكان أناتولي أن يأتي، وأن ينظر من الفتحة، وأن يهز رأسه موافقاً وهو يشير إليه ليقدمه إلى لبيب المحرقة.

لم يحرقوا الكثيرين في الحقيقة، فهناك لوحة مكتوبة بخط مريب توضح: خمسة وثلاثون شخصاً خلال ثلاثة قرون. ليس بالرقم المخجل. ومن بين الخمسة والثلاثين، هناك ثلاثون شخصاً - ويا للعزاء البائس - أعدموا بالآلة الخنف قبل أن تأكل النار جثثهم. وأول بطل لاستعراض الحرق في ليما لم يحالقه الحظ: فذلك الفرنسي، ماتيو سالادو، أحرقوه حياً، لأنه كان ينصرف إلى إجراء تجارب كيميائية وشى بها أحدهم بأنها «اتصالات مع الشيطان». وفكّر: «سالادو؟». أيكون ذلك الفرنسي هو الذي ولد اللفظة البيروية «salado» للإشارة إلى الشخص سيئ الطالع؟ وفكّر: «من الآن وصاعداً لن تكون ثوريأً سالادو يا مايتا».

ومع أن المحكمة المقدسة لم تحرق أنساً كثيرين، إلا أنها عذبت دون حدود. وبعد الوشاة، كان التعذيب الجسدي هو أكبر حمال للضحايا، من كل الأجناس والظروف والأحوال، إلى قضاة الإيمان. وهنا تعرضت جيداً، في معرض الرعب، الذي كانت

تستخدمه المحكمة المقدسة من أجل - الفعل الرياضي - «انتزاع الحقيقة» من المشبوه. وثمة دمى من الورق المضغوط تعرف الزائر على كيفية عمل «البكرة» أو «استرابادو»، وهو جبل يعلق به المتهم ببكرة، ويداه مقيدتان إلى ظهره بينما يربط بقدميه ثقل يزن مئة كيلogram. أو كيف كان يمدد على «البوتزو»، وهي طاولة عمليات، يمكن بواسطه أربعة ضواحي خلع أطرافه الأربع، واحداً بعد واحد أو الأربع معاً. وأكثر أساليب التعذيب عامية هو الغل الذي يثبت رأس المتهم مثل نير بينما هو يُجلد؛ وأكثرها تخيلاً «المانكويردا»، وهي ذات تفنن وتخيل سوريالي، حيث يمكن للجلاد، بواسطة جهاز من الأصفاد والأغلال، أن يمارس التعذيب على ساقى أو ذراعى أو عضدي أو عنق أو صدر المتهم. وأكثر أساليب التعذيب معاصرة هو «الخمار» - وهو قطعة قماش توضع على الأنف أو تحشر في الفم، ويُسكب عليها ماء متواصل، فتمعن التنفس عندما تُشبع بالماء - وأكثرها استعراضية هو المجمرة التي تُقرب من قدمي المحكوم المثبتين مسبقاً والمطليتين بالدهن لكي تتشويا. وفكراً مايتا: «الآن لديهم الكهرباء في الخصيتين، والحقن بعقارات الهلوسة، والتقطيس في براميل مملوءة بالبراز، والحرق بالسجائر». لم يحدث تطور يذكر في هذا المجال.

ولكنه تأثر أكثر - لقد فكر عشر مرات: «ما الذي تفعله هنا يا مايتا، وهذا هو الوقت المناسب لإضاعة الوقت، أليس لديك أموراً أشد أهمية يجب إنجازها» - برؤية الحجرة الصغيرة التي تضم الملابس التي كان يتوجب على المتهمين باليهودية والشعودة أو بمباضعة الشيطان أو الهرطقة أن يلبسوها لشهر، لسنوات أو حتى

موتهم، ممن أظهروا «توبتهم وندمهم الشديد» وارتدوا عن خطايهم وتعهدوا بافتداء أنفسهم. إن حجرة لأدوات التذكر، وسط هذه الفطاعات، تبدو شيئاً أكثر إنسانية. هنا يوجد الـ«كوروٹا» أو القبعة التي لها شكل طرطور والسامبنينيتو¹ أو عباءة الجمال البيضاء المطرزة بصلبان وأفاع وشياطين ولبيب، وبها كان يسیر المحكومون في موكب حتى ميدان بلاثا مايور – وهناك وقفة قصيرة في زقاق الصليب، حيث يتوجب عليهم أن يجثوا قبلة صليب دومينيكاني –، ليعرضوا هناك للجلد أو الإعدام، أو يتوجب عليهم أن يرتدوا تلك الثياب نهاراً وليلاً طوال مدة الحكم. هذه هي الصورة الأخيرة التي بقيت عالقة في ذهني عندما أنهيت الزيارة، ومضيت نحو بوابة الخروج: إنها صورة أولئك المحكومين whom يقومون بأعمالهم اليومية بذلك الزي الذي كان يثير الرعب والهلع والقرف والتقرز والساخرية والحدق فيما حولهم. لقد تصور ما كانت عليه أيام وشهرور وسنوات أولئك الناس بتلك الملابس، ممن كان الجميع يشيرون إليهم ويتجنبونهم وكأنهم كلاب مصابة بداء الكلب. وفكرا: «إنه متحف يستحق عناء زيارته». تعليمي، مبهر. ففيه عنصر جوهري وثابت من تاريخ هذه البلاد، منذ أزمنتها المفرقة في القدم، عنصر مكثف في بضعة صور وأشياء مؤثرة: إنه العنف. العنف الأخلاقي والجسدي، العنف المتولد من التعصب والتزمت، العنف الأيديولوجي، عنف الفساد والحمامة

¹ - سامبنينيتو (sambenito): بدلة العار التي كان يلبسها المحكوم عليهم فيمحاكم التفتيش.

الذى رافق السلطة على الدوام عندنا، وهذا العنف القذر، الضئيل، اللئيم، الانتقامي، المصلحى، الطفيلي الذى يتولد من العنف الأول. من الجيد المجيء إلى هنا، إلى هذا المتحف، للتأكد كيف وصلنا إلى ما نحن عليه اليوم، ولماذا نحن على ما نحن عليه.

عند بوابة متحف محكمة التفتیش، كانت قد انضمت إلى أسرة الأسمال الجائعة ذرينة أخرى على الأقل من المسنين، والرجال والنساء والأطفال. لقد كانوا يشكلون بلاطأً صغيراً من معجزات نسالات وسخام وقشور. ما إن رأوني أظهرحتى مدوا على الفور أيادي ذات أظفار سوداء، طالبين صدقة. العنف من ورائي والجوع من أمامي. هنا، على هذه الأدراج، تتلخص بلادي. هنا يتلامس وجهاً تاريخ البيرو. وأفهم لماذا رافقني مايتا متسلطاً على عقلي خلال جولتي في المتحف.

أنطلق بما يشبه الركض حتى سان مارتين لأركب الحافلة، فقد تأخر الوقت، لأن حركة المرور تتوقف تماماً قبل نصف ساعة من موعد منع التجوال. أخشى أن يدركني حظر التجوال هذه المرة وأنا أمشي لأقطع الكوادرات التي تفصل ما بين جادة غراو وبيني. إنها كوادرات قليلة، ولكنها تكون خطرة عندما يخيم الظلام. لقد وقعت فيها عدة عمليات سطو، وفي الأسبوع الماضي جرت عملية اغتصاب. فزوجة لويس سالدياس الذي تزوج حديثاً، ويعيش قبالة بيتي - إنه مهندس مائي - تعطلت سيارتها وتأخرت عن موعد حظر التجوال، فاضطررت إلى المجيء مأشية من سان إيسيدرو. وفي هذا الجزء الأخير من الطريق، أوقفتها دوربة. كانوا ثلاثة من رجال الشرطة: أدخلوها إلى سيارتهم وعروها - بعد أن ضربوها،

لأنها قاومتهم - واغتصبواها. ثم أوصلوها بعد ذلك إلى بيتها قائلين لها: «احمدي الله أننا لم نطلق عليك رصاصة». فهذه هي الأوامر التي لديهم للتعامل مع من يخرقون حظر التجوال. روى لي لويس سالدياس ذلك بعينين مفعمتين بالغضب وأضاف أنه صار يشعر منذ ذلك الحين بالسعادة كلما جرى اغتيال شرطي. يقول إنه لم يعد يهمه أن ينتصر الإرهابيون، لأنه «لا يمكن لأي شيء أن يكون أسوأ مما نعيشه الآن». أنا أعرف أنه مخطئ، وأن الأمور قد تسوء، وأنه لا توجد حدود للإنحدار، ولكنني أحترم أمله وأصمت.

الفصل الخامس

من أجل ركوب القطار إلى خاوخا يجب شراء التذكرة منذ اليوم السابق والحضور إلى محطة ديسامبارادوس في السادسة صباحاً. لقد قالوا لي إن القطار يسافر ممتئاً على الدوام، وبالفعل، فقد اضطررت إلى ركوب القطار مزاحمة. ولكن الحظ حالفني بالعثور على مقعد، بينما كان معظم المسافرين وقوفاً. لا وجود في العربات لدورات مياه، وبعض المتهورين يتبولون من فوق السلم بينما القطار سائر. ومع أنني كنت قد تناولت بعض الطعام قبل أن أغادر ليماء، إلا أنني بدأت أشعر بالجوع بعد ساعات قليلة. من المستحيل شراء أي شيء في المحطات التي ينزل أو يصعد فيها المسافرون: محطة تشوسيكا، سان بارتولومي، ماتوكانا، سان ماتيو، كاسابالكا، لاوريما. قبل خمس وعشرين سنة، كان الباعة المتجولون يهاجمون العربات في كل موقف عارضين الفواكه والمياه الغازية والسنديشات والحلوى. أما الآن فإنهم لا ينادون إلا على بعض المأكولات التافهة أو الأعشاب المغلية. ولكن على الرغم من ازعاجات الرحلة وبطئها، فإنها مليئة بالمفاجآت، أولى المفاجآت هي هذه العربات التي تتسلق صاعدة من مستوى البحر إلى ارتفاع خمسة آلاف متر لتجتاز جبال الانديز من ممر

أنتيكونا، عند أقدام جبل ميفس. وحيال المشهد الشامخ نسيت وجود الجنود بينما قفهم المهاة في كل عربة والرشاش الموجود فوق سطح القاطرة، تحسباً من الهجمات. كيف مازال هذا القطار يعمل؟ الطريق الإسفلي إلى سلسلة الجبال المركزية يُدفن باستمرار تحت وابل من الصخور التي ينزعها الإرهابيون من حواف الطريق بالتفجيرات، حتى أصبح الطريق غير صالح للاستخدام تقريراً. لماذا لم يُنسف هذا القطار حتى الآن، ولم تُسد أنفاقه ولم تُخرِب جسورة؟ ربما كان من المناسب لهم، لهدف استراتيجي ما، إبقاء الاتصال بين ليما وخونين قائماً. ولكن هذا يسعدني، فالرحلة إلى خاوَا ضرورية من أجل إعادة بناء تحولات وتقلبات مايتا.

تنتوى الجبال، تفصل بينها أحياناً هاويات سحرية تشخر في أعماقها أنهار متداقبة. يجتاز القطار جسورة وأنفاقاً من المستحيل عدم التفكير بتأثيره المهندس ميفس الذي شيد قبل أكثر من ثمانين عاماً هذه السكة في مثل هذه الجغرافية ذات الاختناقات والقمم والذرى التي تزمر فيها العواصف، وتحت رحمة ما تحمله الأنهر. هل فكر الثوري مايتا بأوديسا ذلك المهندس حين ركب هذا القطار أول مرة، في صباح يوم من أيام شباط أو آذار، قبل خمس وعشرين سنة؟ لقد فكر في الآلام التي تحملها آلاف المولدين والهنود لكي يمدوا هذه السكة، ويقيموا هذه الجسور، ويشقوا هذه الأنفاق مقابل أجر رمزي، لا يكاد يكون في بعض الأحيان سوى حفنة من طعام سيئ مع قليل من أوراق الكوكا، كانوا يتعرقون اثننتي عشرة ساعة يومياً، ينحثرون الأحجار،

ويفرجرون الصخور، ويحملون الأثقال على كواهلهم وهم نائمون، ويسيرون الأرض، حتى يتحول أعلى قطار في العالم إلى واقع. كم منهم فقدوا أصابعهم، عيونهم، وهم ينسفون سلسلة الجبال؟ كم منهم سقط في هذه الهاويات السحرية أو دفن تحت الانهيارات التي كانت تخرّب المعسكرات حيث ينامون فوق بعضهم البعض، مرتجفين من البرد، سكارى من الإنهاك، مخدرين بالكوكا، لا يتذمرون إلا بعباءات البونشو وبأنفاس رفاقهم؟ كان قد بدأ يشعر بدوار المرض: بعض الصعوبة في التنفس، ضغط الدم في الصدغين، تسرع القلب. وفي الوقت نفسه لم يكن يكاد يستطيع مواراة انفعاله. كان يرغب في الابتسام، في الصفير، في مصافحة أيدي جميع من هم في العربية. وكان يموت لهة للقاء بآبيخوس.

- أنا الأستاذ أوببيوث - قال لي ذلك وهو يمد يده فور اجتيازي حاجز محطة خاوحا، حيث كنت قد وقفت في طابور طويل ليفتشنى شرطيان بالملابس المدنية ويفتحا حقيبتي اليدوية التي أضع فيها بيجامتي -. الأصدقاء يدعونني الأفطس. وإذا سمحت لي، فإننا أنا وأنت قد أصبحنا أصدقاء.

كنت قد كتبت له لأنبهره برحلتي، وها قد جاء لانتظاري. هناك في محيط المحطة انتشار عسكري كبير: جنود يحملون البنادق وحواجز وأسلاك شائكة. ودبابة صغيرة تروح وتتجيء في الشارع بمشية سلحفاة. مشينا. هل الوضع سيئ جداً هنا؟

فيقول لي أوببيوث:

- أصبح أكثر هدوءاً نوعاً ما في هذه الأسابيع الأخيرة. حتى

إنهم أوقفوا العمل بحظر التجوال. لقد صار بإمكاننا الخروج لرؤية النجوم. كنا قد بدأنا ننسى كيف هي.

يروي لي أن المتمردين شنوا منذ شهر هجوماً واسعاً على ثكنة خاوشا. استمر تبادل إطلاق النار طوال الليل وبقي محيط الثكنة مزروعاً بالجثث. انبعثت الروائح الكريهة، وكانت الجثث كثيرة إلى حد أنه كان لا بد من رشها بالكيروسين وإحرافها. منذ ذلك الحين لم يعد المتمردون إلى القيام بأي عمل مهم في المدينة. ولكن الجبال المحيطة تستيقظ كل صباح على رياضات حمراء منصوبة ومزينة بالمنجل والمطرقة. وتقوم الدورية العسكرية بانتزاع تلك الأعلام مساء كل يوم.

— لقد حجزت لك غرفة في نزل باكا — قال — إنه مكان جميل، سترى.

إنه عجوز مربوع وقصير القامة، محشور في بدلة مخططة مزررة، مما يجعله يبدو أشبه بكيس متحرك. كان يضع ربطه عنق ذات عقدة ميلمترية وينتعل حذاء لا بد أنه اجتاز بركة موحلة. فيه ذلك التجمل التقليدي لأناس سلسلة الجبال ويتكلّم إسبانية صافرة تتخللها بين حين وآخر ألفاظ بالكتيشوا. وجدنا سيارة تكسي عتيقة، بالقرب من الساحة. المدينة لم تغير كثيراً منذ المرة الأخيرة التي زرتها فيها. ولا تبدو للنظرية المجردة على الأقل آثار تشير إلى الحرب. فليس هناك أكواام قمامنة ولا حشود من المسؤولين. البيوت تبدو نظيفة وخالدة، بأبوابها العتيقة وشبابيكها ذات القضبان الحديدية المتقطعة. لقد أمضى الأستاذ أوبيبوت ثلاثين سنة وهو يعلم العلوم في مدرسة سان خوسيه الوطنية.

وعندما تقاعد - في الأيام التي بدأ يتحول فيها ما كنا نظن أنه مجرد غارة متطرفين ليتخذ أبعاد حرب أهلية -، أقيمت حفلة على شرفه حضرها جميع الطلاب السابقين الذين كانوا تلاميذه. وعندما ألقى كلمته، أجهش بالبكاء.

- مرحباً يا أخي - قال بابيغوس.

- مرحباً يا رجل - قال مايتا.

- ها أنتذا قد جئت أخيراً - قال بابيغوس.

- أجل، أخيراً - قال مايتا.

تعانقا. كيف ما يزال نزل باكا مفتوحاً؟ هل مازال السياح يأتون إلى خاوشا؟ لا، بالطبع لا. وما الذي سيأتون من أجله؟ كل الاحتفالات، بما في ذلك الكرنفالات الشهيرة، قد ألغيت. ولكن النزل ما يزال مفتوحاً لأن الموظفين الذين يأتون من ليما ينزلون فيه، وكذلك البعثات العسكرية أحياناً. يبدو أنه لا توجد الآن أي بعثة عسكرية، لأنه لا وجود لحراسة في المكان. النزل لم يعرف الطلاء منذ قرون، وهو يثير في النفس انطباعاً بالأسى. ليس هناك عمال خدمة ولا مدیر، وإنما حارس فقط يقوم بكل الأعمال. بعد أن تركت حقيبتي الصغيرة في الغرفة الممتلئة بنسيج العنكبوت، مضيت للجلوس على الشرفة المطلة على البحيرة، حيث ينتظرني الأستاذ أوببيوث. أتراه يعرف قصة باكا؟ ويشير إلى المياه الصافية، والسماء المرسومة، والخط الناعم للجبال المحيطة بالماء: هذا المكان كان منذ مئات السنين قرية أناس أنانيين. وظهر المسؤول في صباح يوم ذي شمس مشرقة وهواء عليل. ومضى من بيت لبيت يطلب الصدقات، وكان ساكنو جميع البيوت يطردونه

بفظاظة، ويستحثون الكلاب عليه. ولكنه وجد في أحد آخر البيوت أرملة رحيمة، تعيش مع طفل صغير. فقدمت له ما يأكله وبعض كلمات الأمل. عندئذ تألق المسؤول، وأبدى للمرأة الرحيمة وجهه الحقيقي - وجه يسوع - وأمرها: «أخرجي من باكا مع ابنك الآن فوراً، واحملي معك كل ما تستطعين حمله. ولا تلتفتي مطلقاً إلى هنا مهما سمعت». انصاعت الأرملة وغادرت باكا، ولكنها حين كانت تصعد الجبل سمعت ضجة قوية جداً، وكانتها صادرة عن طبل هائل، فدفعها الفضول إلى الالتفات. واقتصر ما رأته على انهيار الصخور والوحول المرعب الذي دفن باكا وساكنيها والمياه التي حولت ما كان قريتها إلى بحيرة هادئة للبط وأسمال الترويit. ولم ترهي أو ابنها ولم يسمعها أكثر من ذلك لأن التمايل لا ترى ولا تسمع. أما أهالي خاوحا فيمكنهم رؤيتها هي وابنها، في البعيد: شكلان متجردان، يرصدان البحيرة، في نقطة من الجبال تحج إليها المواكب لتذكر أولئك السكان الذين عاقبهم رب لجشعهم وقوتهم وصاروا يرقدون هناك في الأسفل، تحت هذه المياه التي تنق فيها الضفادع وينبع البط ويجدف السياح منذ القدم.

- ما رأيك يا رفيق؟

أدرك مايتا أن باليخوس كان سعيداً ومتائراً مثله. مشيا نحو النزل الذي يسكن فيه الملازم، في شارع تاراباكا. الرحلة؟ ممتازة جداً، ومؤثرة بصورة خاصة، لا يمكن للمرء أن ينسى أبداً ممر الجحيم. ودون أن يتوقف عن الكلام، كان يراقب البيوت التي تعود إلى العهد الاستعماري، ونقاوة الهواء، والشامات التي

ترسمها نساء خاوحا في وجوههن. ها أنتذا في خاوحا يا مaita.

ولكنه لم يكن يشعر بأنه على ما يرام:

- إنني مصاب بدور المترفعتات. يسيطر عليّ إحساس غريب

جداً. كما لو أنه سيفمى علىّ.

- بداية سيئة للثورة - ضحك باليخوس وهو ينتزع منه الحقيقة

الصغيرة: كان يرتدي بنطالاً وقميصاً خاكي اللون، وجزمة ذات

نعل ضخم وكان شعره الحليق قصير جداً - ستتناول مته الكوكا

وتناول قيلولة فتعود جديداً. في الثامنة سنجتمع حيث يقيم الأستاذ

أوببيوث. إنه شخص رائع، سترى ذلك.

كان قد نصب له سريراً ضيقاً في غرفته نفسها في النزل -

وهو مجموعة غرف علوية متالية حول بهو ذي درابزين. وودعه وهو

ينصحه بأن ينام قليلاً ليشفى من داء المترفعتات. انصرف، ورأى

مايتا دوشأ في الحمام. وفكرا: «سأستحم قبل النوم وعند

الاستيقاظ في كل الأيام التي سأقضيها في خاوحا». سياخذ معه

مؤونة من الاستحمامات إلى ليما. استلقى بملابس، دون أن يخلع

شيئاً باستثناء الحذاء، وأغمض عينيه. ولكنه لم يستطع النوم. لم

تكن تعرف الكثير عن خاوحا يا مaita، ما الذي كنت تعرفه

مثلاً؟ إنها أسطير أكثر منها حقائق، مثل التفسير التوراتي لميلاد

باكا. لقد كانت تشكل جزءاً من حضارة هواناكا، إحدى أقوى

الحضارات التي قهرها الإنكا، ولهذا السبب تحالف الخاويون

مع القائد الإسباني بيشارو والفاتحين والمحاربين لينتقموا من

أسيادهم السابقين. لا بد أن هذه المنطقة كانت شديدة الشراء في

العصور الاستعمارية، حين كان اسم خاوحا مرادفاً للوفرة، ولكن

من يمكنه قول ذلك الآن وهو يرى بؤس الشعب؟ كان يعرف أن هذه البلدة الصغيرة كانت أول عاصمة للبيرو، وقد اختارها لتكون كذلك الفاتح يشارو في أشاء رحلته الهميرية من كاخاماركا إلى كوسكو، عبر أحد دروب الإنكا الأربع التي كانت تسلق وتهبط سلسلة الأنديز مثلاً تتلوى فيها الآن الطواوير الثورية، وأن تلك الشهور التي تباهت فيها بلقب العاصمة، كانت الأكثر مجدًا في تاريخها. ولكن، ما إن انتزع منها مدينة ليما الصولجان، حتى دخلت خاوشا، مثل كل مدن وأناس وثقافات الأنديز، في انحدار لا مناص منه وفي تبعية لذلك المركز القيادي الجديد للحياة الوطنية القائم في أشد أركان الساحل وبالاً، والذي سيبدأ من موقعه ذاك بمصادرة وانتزاع كل طاقات البلاد لصلحته.

كان قلبه ينبض بقوة، وكان يحس بالدوار الدائم بينما الأستاذ أوبيسيوث يواصل الكلام. وأسهوا أنام محاصراً بصور الكابوس المرتبطة باسم خاوشا في طفولتي. مدينة المسلطين! فقد كان يأتي إلى هنا، منذ القرن الماضي، أولئك البيروفيون ضحايا المرض المرعب آنذاك الذي حوله الأدب والسداد المازوشية الرومنسية إلى أسطورة، ذلك السل الذي كان مناخ خاوشا الجاف يعتبر بلسماً استثنائياً له. كانوا يأتون إلى هنا من أربع جهات البلاد، في أول الأمر على ظهور البغال وعبر دروب متعرجة، ثم بعد ذلك في قطار المهندس ميفيس، جميع البيروفيين الذين يبدؤون بالسعال دماً ويستطيعون دفع تكاليف الرحلة ولديهم الإمكانيات الازمة للشفاء أو الاحتضار في أجنحة مصح أولافيغوفيا الذي

كان يتسع باطراد بفضل هذا الفزو المتواصل إلى أن اختلط - في أحد الأوقات - بالمدينة. الاسم الذي أيقظ قبل قرون الجش، والإعجاب، والحلم بالذهب وبالجبال المكاللة بهالات مذهبية، تحول معناه إلى رئات مثقوبة، وإفراط في السعال، وبصاق دام، ونزيف، وموت من الهزال. وفكّر: «خاوحا، اسم متقلب». وبينما هو يلمس صدره ليعد نبضاته، تذكر عرابته، في بيتها في شارع سوركبيو، في تلك الأيام التي نُفِّدَ فيها إضرابه عن الطعام، حين كانت تؤنبه بإصبعها المرفوع ووجهها السمين الطيب: «أتريدين أن نرسلك إلى خاوحا أيها الأحمق؟» وكانت أليثيا وثوليتيتا تجننانه كلما سمعتاه يتتحنح: «وي، آي، يا ابن الخالة، لقد بدأ السعال، إننا نراك ذاهباً إلى خاوحا». ما الذي ستقوله الخالة خوسيفا وثوليتيتا وأليثيا عندما يعلمون بما جاء يفعله في خاوحا الآن؟ فيما بعد، وبينما كان باليخوس يقدمه إلى أوبيبيوث الأفطس، هذا السيد الاحتفالي الذي طأطاً رأسه محياً وهو يمد يده لمسافحته، وإلى نصف دزينة من الفتياذ الذين أحсс بأنهم ليسوا من تلاميذ السنوات الأخيرة، وإنما السنوات الأولى في مدرسة سان خوسيه، قال مايتا لنفسه، فجأة، وجسده ما يزال منملأً من الإحساس بالدوش الجليدي، إنه يمكن أن تضاف إلى تلك الصور صورة أخرى: خاوحا، مهد الثورة البيروية. هل ستتصبح الثورة في المستقبل جزءاً من أساطير المكان؟ هل ستكون هناك خاوحا - الثورة، مثل خاوحا - الذهب وخاوحا - السل؟ كانوا في بيت الأستاذ أوبيبيوث وكان مايتا يرى من خلال النافذة المغشّاة أبنية من الطين، وسقوفاً من القرميد والتوباء، وجزءاً من شارع مرصوف بأحجار وأقنية

عالية للسيول التي تشكلها - مثلاً شرح له باييغوس وهما قادمان - الأمطار الغزيرة في شهر كانون الثاني وشباط (ينايرو وفبراير). وفك: «خاوحا، مهد الثورة الاشتراكية في البيرو». من الصعب تصديق ذلك، فالعبارة ذات وقع غير واقعي مثل تسميات: مدينة الذهب أو المسؤولين. أقول له إن الجوع والبؤس في خاوحا يبدوان، للوهلة الأولى على الأقل، أخف مما هما عليه في ليما. ألسْت مُحَقّاً؟ وبدلًا من أن يرد علي، يبدي الأستاذ أوببيوثر ملامح الجد ويتطرق فجأة، ونحن على ضفة البحيرة المقرفة، إلى القضية التي جاءت بي إلى هذه المنطقة:

- لقد سمعت بالطبع حكايات كثيرة عن قصة باييغوس. وستواصل سمعها في هذه الأيام.

فأجبته:

- مثلاً يجري حول كل القصص. فالشيء الذي يتعلم منه المرء حين يحاول إعادة بناء أحداث معينة بالاستناد إلى الشهادات، هو أن كل القصص هي حكايات.. وأنها مؤلفة من حقائق وأكاذيب. اقترح عليّ أن نذهب إلى بيته. لحقت بنا عربة يجرها ثوران ووافق سائق العربة على نقلنا إلى المدينة. وبعد نصف ساعة تركنا أمام بيت أوببيوثر، في الشارع التاسع من حي ألفونسو أغوارت. وقبل الإطلال على السجن قال لي قبل أن أسأله: «أجل. كانت تلك هي منطقة سيادة الملائم، وهناك بدأ كل شيء» كان السجن يحتل كل الرصيف المقابل، وبه ينتهي الشارع. بهذا السور الرمادي ذي الطنف القرمیدية تنتهي المدينة. بعد ذلك يبدأ الريف: الحقول المزروعة، أشجار الأكالبتوس، الجبال. وأرى، في البعيد، خنادق

وأسلاكًا شائكة، وجندواً متفرقين يقومون بالحراسة. لقد كانت إحدى الإشاعات الملحقة، في السنة الماضية، تقول إن رجال حرب العصابات يعدون العدة للهجوم على خاوشا، وإنهم ينفون إعلانها عاصمة للبيرو المحررة. ولكن، ألم تسرِّ إشاعات مماثلة حول آريكيما، وبونو، وكوسكو، وتroxibyo، وكاخamarكا، بل وحول إكيتوس كذلك؟ السجن وبيت الأستاذ أوببيو يقونان في حي ذي اسم ديني، له رنة العذاب والتکفير: صليب الشوك. إنه بيت متواضع، منخفض ومظلم، فيه صورة ضخمة محاطة بإطار قشية، وشاربان مشذبان، ياقة قاسية، صدرية، ولحية صغيرة ميفيستوفيلية - لا بد أنه أبو الأستاذ أو جده، بالنظر إلى تشابه الملامح. وهناك أريكة طويلة مغطاة بعباءة بونشو متعددة الألوان وقطع أثاث متنوعة تبدو على وشك التداعي لكثرتها ما استخدمت. وفي خزانة ذات واجهة زجاجية توجد أكdas صحف مختلطة. وهناك ذبابات تئز وتتطير فوق رأسينا وأحد الفتيان يساعد في تمرير طبق شرائح جبن طازج وقطع خبز محمصة جعلت لعاب مايتا يسيل. إنني أموت جوعاً، وأسائل الأستاذ عما إذا لم يكن هناك مكان يمكن شراء ما يؤكل منه. في يقول: «في مثل هذه الساعة غير ممكن. ربما يمكننا الحصول على بعض البطاطا المسلوقة عند الغروب من محل صغير أعرفه. ولكنني أستطيع أن أقدم لك كأساً لا بأس به من البيسكو.»

ثم أضاف:

- لقد قيلت عن صداقتني لبایخوس أكثر الحماقات الممكنة.

قيل إننا تعارفنا في ليما، حين كنت أؤدي الخدمة العسكرية. وإننا بدأنا التآمر منذ ذلك الحين وواصلنا ذلك هنا، حين جاء كقائد للسجن. والشيء الوحيد الصحيح في هذا كله هو أنني مجاز من الجيش. ولكن، عندما كنت في الخدمة، كان بابي خوس ما يزال طفلاً رضيعاً... مجرد أوهام! لقد تعارفنا هنا، بعد أيام قليلة من مجيء بابي خوس لشغل منصبه. ويمكّنني أن أقول لك بكل فخر إنني أنا الذي علمته كل ما عرفه عن الماركسية. لأنه لا بد لك من أن تعرف - وهنا خفض صوته، ونظر فيما حوله بشيء من الحذر، وأشار إلى بعض الخزائن الفارغة - أنني كنت أملك المكتبة الماركسية الأكثر اكتمالاً في خاوشا.

استطراد طويل في الكلام أبعده عن بابي خوس. فعلى الرغم من أنه رجل مسن ومريض - لقد استأصلوا إحدى كليتيه، وهو يعاني من ارتفاع الضغط ومن الدواليا التي تريه يهودا -، كما أنه منعزل عن أي نشاط سياسي، فقد أقدمت السلطات منذ سنتين، عندما بلغت الأعمال الإرهابية أوجها في المقاطعة، على إحراق كتابه كلها وأبنته في السجن أسبوعاً. وعذب في أثاء ذلك بالكهرباء في خصيته لإجباره على الاعتراف بتواطؤ مزعوم مع رجال حرب العصابات. أي تواطؤ يمكن له أن يتوصل إليه وهو المدان الذي يضعه المتمردون في قائمتهم السوداء، بسبب افتراءات خبيثة؟ ينهض، ويفتح صندوقاً، ويخرج قصاصة ورق يعرضها على: «لقد صدر حكم الشعب بإعدامك أيها الكلب الخائن». يهز كتفيه: إنه عجوز ولم تعد الحياة تهمه. فليقتلوه، ما أهمية ذلك. ولم يكن يحترس: إنه يعيش وحيداً وليس لديه ولو عصا للدفاع عن نفسه.

وأنهُ الفرصة لكي أقاطعه:

- أنت إذن من عَلَمْ بـأبيخوس الماركسيّة. كنت أظن أن ما ياتا هو الذي فعل ذلك.

فيتحرك في مقعده موئلاً بازدراء:

- أتعني التروتسكي؟ يا مایتا المسکین؟ كان يمضي في خواجا مثل مسرنِم بسبب داء المترفعتات...

وكان ذلك صحيحاً. فما ياتا لم يشعر مطلقاً بمثل ذلك الضغط في صدغيه ويمثل ذلك الاضطراب في قلبه الذي كانت تقطعه فجأة توقفات محيرة يبدو فيها وكأنه قد توقف عن النبض. كان مایتا يشعر بالخواء.. بالتلاشي المفاجئ لعظامه، وعضلاته، وأوردته، وببرودة قطبية تجمد التجويف الذي تحت جلدِه. هل سيغمى عليه؟ هل سيموت؟ إنه توعك متلوٌ وغدار: يذهب ويجيء، فهو يشعر وكأنه على حافة هاوية ولكن التهديد بالسقوط في الهوة لا يتحقق أبداً. بدا له أن الجميع في حجرة أوببيوث الأفطس المزدحمة قد انتبهوا إلى حاله. كثيرون كانوا يدخنون وكانت سحابة رمادية، يتخاللها الذباب، تشوّه وجوه الفتياـن الجالسين على الأرض، والذين كانوا بين الحين والآخر يقطعون منولوج أوببيوث موجهين أسئلة. لقد أضاع مایتا خيط الحديث: كان يجلس على مقعد إلى جوار أبيخوس، وظهره يستند إلى خزانة الكتب، ومع أنه كان يرغب في الاستماع، إلا أنه لم يكن ينتبه إلا إلى أوردته، إلى صدغيه، إلى قلبه. إلى داء الأعلى الذي يضفي عليه إحساساً بأنه مُضحك. وفكـر بينه وبين نفسه: «أنت هو الثوري الذي جاء لي Finch هؤلاء الرفاق؟ لقد حولـتكـ الثلاثـةـ آلاـفـ وـخمـسـةـ مـتـرـ إلىـ قـزمـ مـصـابـ

بتسرع في القلب» وكان يسمع أوببيوثر بصورة غائمة وهو يشرح للفتىان - أتراه يحاول أن يبهره هو بالذات بمعارفه الماركسية المشوّشة؟ - بأن الطريقة التي يمكن بها للثورة أن تتقدم هي في التفسير الصحيح للتراكمات الاجتماعية والمواصفات التي يتخذها النضال الظبقي في كل مرحلة من المراحل. وفكرا: «أنف كليوباترا». أجل، إنه هو: الأمر التافه الذي يقلب قوانين التاريخ ويحول العلم إلى شعر. يا للغباء في عدم رؤية ما هو جلي تماماً، في عدم رؤية أن الرجل الذي يصعد إلى جبال الانديز يمكن له أن يصاب بداء الأعلى، وعدم شراء بعض أقراص الكورامين لتعديل اختلاف الضغط الجوي على جسده. سأله باييغوس «هل أنت على ما يرام؟» «أجل، في أحسن حال». وفكرا: «لقد جئت إلى خاوخا لكي يأتيني أستاذ تافه يبول خارج المبولة ويعطيني درساً في الماركسية». ها هو ذا الأفطس أوببيوثر يشير إليه الآن، مرحباً به: إنه الرفيق القادم من ليما الذي حدثكم عنه باييغوس، وهو شخص يملك تجربة ثورية ونقابية كبيرة. دعاه ليتكلم، ودعا الفتىان إلى توجيه الأسئلة إليه. ابتسم مايتا لنصف ذينة الوجه المُرْد التي راحت تتظر إليه بفضول وبشـء من التقدير. وفتح فمه.

- إنه المذنب الكبير، إذا كانت المسألة هي البحث عن مذنب يكرر الأستاذ أوببيوثر بوجه تعلوه المرارة - فقد خدعنا على هواه. كان من المفترض أنه صلة الوصل مع الثوريين في ليما، مع النقابات، مع الحزب، وأنه يمثل مئات الرفاق. الواقع أنه لم يكن يمثل أحداً. والأدهى من ذلك أنه تروتسكي. ومجرد مجئه أغلق أمامنا إمكانية دعم الحزب الشيوعي لنا. لقد كنا ساذجين جداً،

هذا صحيح. أنا كنت أعرف الماركسية، ولكنني لم أكن أعرف أي شيء عن قوة الحزب، ولا عن انقسامات اليسار. وبایخوس كان أقل مني معرفة بالطبع. هل كنت تعتقد إذن أن التروتسكي مايتا هو الذي ثقف الملازم؟ لا شيء من هذا. فهما لم يلتقيا تقريراً إلا في بعض المرات التي كان يهرب فيها بایخوس لوقت قصير إلى ليما. والملازم تعلم الدياليكتيك والمادية في هذه الغرفة بالذات.

الأستاذ أوبييوث ينتمي إلى أسرة عريقة من خواخا، خرج منها نواب محافظون، وعمد وعدد كبير من المحامين (المحاماة هي المهنة المفضلة في سلسلة الجبال، وهناك في خواخا أعلى نسبة من المحامين بالنسبة إلى عدد السكان) ولا بد أنهم أناس أغنياء، لأنه قال لي إن عدداً كبيراً من أقربائه قد سافروا إلى الخارج: إلى المكسيك، وبوليفيا، وبوليفيا، وميامي. أما هو فلم يسافر، إنه سيبقى حيث هو حتى النهاية، سواء تلقى تهديدات أو أي شيء آخر، وسيفرق مع كل ما سيفرق. ليس لأنه لا يملك وسائل السفر وحسب، وإنما بسبب نزوعه إلى المعارضة، بسبب روح التمرد التي جعلته في شبابه يتميز عن أبناء عمومته وأعمامه وأخوته الذين كانوا يعيشون حياة يملؤها الاهتمام بقطع الأرض الزراعية أو تجارة البقالة أو ممارسة المحاماة والقانون، فكرس نفسه للتعليم وتحول إلى أول ماركسي في المدينة. ويضيف قائلاً إنه دفع الثمن في اعتقالات لا تحصى، وفي تلقي الضرب والإهانات. بل وما هو أسوأ من كل ذلك، في نكران جميل من جانب اليسار نفسه الذي نما الآن وصار على وشك الاستيلاء على السلطة، متجاهلاً أولئك الذين حرثوا الأرض ونشروا فيها بذور الفكر اليساري.

ويهتف بافتخار:

- الدروس الحقيقة في الفلسفة والتاريخ. الدروس التي لا يمكن تقديمها في مدرسة سان خوسيه، كنت أعطيها في هذه الغرفة. لقد كان بيتي جامعة للشعب.

يصمت، لأننا سمعنا ضجة معدنية وأصوات عسكرية. أطل من خلال الستارة لرصد ما يجري: الدبابة تمر، إنها الدبابة نفسها التي رأيتها في المحطة. وإلى جانبها تهرون جماعة من الجنود يقودها ضابط. ويفيرون عن النظر عند زاوية السجن.

أسأله بفظاظة:

- ألم يكن مايتا هو الذي خطط لكل شيء إذن؟ ألم يكن هو من فكر بكل تفاصيل الانتفاضة؟

المفاجأة التي استولت على وجهه شبه الداكن، الممتئ بنقاط بيضاء في الذقن، بدت صادقة. ويقول متوجياً كلماته بتلك اللهجة الجبلية السريعة التي لا تسمح بإفلات حتى هالة الكلمات:

- أتعني أن التروتسكي مايتا هو الموجه الفكري للانتفاضة؟ أي خاطر هذا! عندما جاء إلى هنا كنا أنا وبأيخصوص قد طبخنا كل شيء. لم تكن له شمعة في ذلك المأتم حتى النهاية. سأقول لك أمراً آخر: نحن لم نخبره بالتفاصيل إلا في اللحظة الأخيرة.

فاستجوبه:

- بداع عدم الثقة به؟

ويقول الأستاذ أوببيوث:

- بداع الحيطة والحدر. حسن، وإذا كانت الكلمة تروفك، فبسبب عدم الثقة. ليس من أن يكون واشياً، وإنما خشية أن

يتراجع ويتخلّى عن الأمر. لقد قررت أنا وبأيّخوس أن نبقيه صائماً، حين أدركنا أنه ليس لديه أنصار، وأنه كان وحيداً. وما هو الغريب في أن يتراجع مثل هذا الشخص عندما تحين الساعة ويتخلّى عن كل شيء؟ فهو لم يكن من هنا، بل ولم يكن قادرًا على تحمل الأعلى. ولم يكن قد أمسك سلاحاً على الإطلاق. لقد علمه بأيّخوس الرمادية، في رملة بالقرب من ليما. يا للثوري الذي حصل عليه! بل يقال إنه كان مختناً.

يُضحك ضحكته الاضطرارية المعتادة، وكانت على وشك أن أقول له إنه هو نفسه على الرغم من ذلك، لم يكن في ذلك اليوم حيث كان عليه أن يتواجد - لسبب أرجو أن يوضحه لي -، أما مايتا فعلى العكس منه، وبالرغم من معاناته من داء الأعلى ومن أنه لا يمثل أحداً، كان إلى جانب بأيّخوس عندما - والتعبير له - «بدأت البطاطا تحرق». وكانت على وشك أن أقول له إن كثيرين آخرين قد قالوا عنه ما يقوله هو عن مايتا: لقد كان المذنب الأكبر، المنشق. ولكنني لم أقل له شيئاً من هذا. فأنا لست موجوداً هنا لأناقض أحداً. واجبي هو الاستماع، والللاحظة، ومقارنة الروايات، وعجن كل شيء والتخييل. وأعود لأسمع من جديد في الخارج صوت الدبابة المعدني ووقع خطوات الجندي.

عندما قال أحد الفتياـن «حان وقت المفـادرة»، أحـس مايتـا بالراحـة. لقد بدأ يشعر ببعض التحسـن بعد أن أمضـى لحظـات احتـضارـية: كان يـرد على أسـئلة أوبـيـيـوـثـ، وبـأـيـخـوسـ، والـفـتـيـانـ، وـكـانـ تـفـكـيرـهـ منـصـباـ فـيـ الـوقـتـ نـفـسـهـ عـلـىـ التـوعـكـ الذـيـ يـعـذـبـ رـأـسـهـ وـصـدـرـهـ وـيـبـدوـ كـمـاـ لـوـ أـنـهـ يـلـهـبـ دـمـاءـهـ. هلـ أـجـابـ عـلـىـ أـسـئـلـتـهـ

بصورة جيدة؟ لقد أبدى على الأقل ثقة بالنفس كان أبعد ما يكون عن الإحساس بها، وحاول ألا يكذب عندما انتبه إلى شكوكه، ولكنه حاول أيضاً ألا يقول الحقائق التي قد تُفترِّحَ حماسهم. ولم يكن الأمر سهلاً. هل ستدعهم الطبقة العاملة في ليما فور اندلاع العمل الشوري؟ أجل، ولكنها لن تفعل ذلك فوراً. فهي ستشعر في البداية بالتردد، وبالبلبلة، بسبب الأخبار التي ستتلقاها الصحافة والإذاعة، وبسبب أكاذيب السلطة وأحزاب البرجوازية، وسُتصاب بالشلل بسبب وحشية القمع. ولكن هذا القمع نفسه هو الذي سيفتح عينيها شيئاً فشيئاً، ويكشف لها من الذي يدافع عن مصالحها ومن الذي يخدعها ويستغلها. لأن العمل الشوري سيُفاصِمُ الصراع الطبقي ويوصله إلى مستويات شديدة العنف. عيون الفتى المفتوحة على اتساعها، واهتمامهم المسلط عليه، أثر في نفس مaita. وفكراً: «إنهم يصدقون كل ما تقوله لهم». والآن، بينما كان الفتى يودعونه ويصافحونه باحتفالية، تسأله بينه وبين نفسه عما سيكون عليه في الحقيقة موقف البروليتاريا في ليما عندما تتدلع العمليات. أيكون موقفها هو عدم المبالاة؟ العدائية؟ الازدراء تجاه هذه الطليعة التي تقاتل من أجلهم في الجبال؟ الحقيقة أن النقابات تحت سيطرة حزب الأبرا، حليف الحكومة، والمعادي لكل ما له رائحة الاشتراكية. ربما يكون الوضع مختلفاً في بعض النقابات القليلة، مثل نقابة البناء المدني، الواقع تحت تأثير الحزب الشيوعي. لا، لن يحدث ذلك. ستتهمه الطبقة العاملة بالاستفزاز، بممارسة لعبة الحكومة، وبأنهم يقدمون لها على طبق الذريعة الالزمة لإعلان الحزب خارجاً على

القانون وملاحقة التقدميين وسجنهم، تصور عنائهم «أونيداد»، ومضمون المنشورات التي سيوزعنها، ومقالات صوت العمال التي يصدرها حـثـ الخـصـمـ. أـجـلـ، كـلـ ذـلـكـ سـيـكـوـنـ صـحـيـحاـ فيـ المـرـحـلـةـ الـأـوـلـىـ. وـلـكـنـهـ كـانـ وـاـثـقاـ، إـذـاـ مـاـ تـمـكـنـتـ الـانـقـاـضـةـ منـ الاستـمـرـارـ، وـالـتـطـوـرـ، وـزـعـزـعـةـ السـلـطـةـ الـبـرـجـواـزـيةـ هـنـاـ وـهـنـاكـ، وـاجـبارـهاـ عـلـىـ نـزـعـ قـنـاعـهـاـ الـلـيـبـرـالـيـ وـإـظـهـارـ وجهـهاـ الدـموـيـ الحـقـيقـيـ، فـإـنـ الطـبـقـةـ الـعـامـلـةـ سـتـبـدـأـ بـالـخـرـوجـ مـنـ سـبـاتـهاـ، وـسـتـفـضـ عنهاـ الخـدـعـ الـإـصـلـاحـيـةـ، وـتـخـلـصـ مـنـ قـادـتهاـ الـفـاسـدـينـ، وـمـنـ وـهـمـ إـمـكـانـيـةـ التـعـاـيشـ مـعـ الطـبـقـةـ الـمـسـتـسـلـمـةـ وـتـلـتـحـقـ بـرـكـبـ النـضـالـ.

ـ حـسـنـ، هـاـ هـمـ الصـبـيـةـ قـدـ اـنـصـرـفـواـ ـ قالـ الأـفـطـسـ أـوـبـيـوـثـ ذـلـكـ وـهـوـ يـخـرـجـ مـنـ فـوـقـ كـوـمـةـ مـنـ الـكـتـبـ وـالـنـشـرـاتـ وـالـمـجـلـاتـ وـشـبـاكـ الـعـنـكـبـوتـ الـتـيـ فـيـ غـرـفـتـهـ، زـمـرـيـةـ وـبـعـضـ الـأـقـدـاحـ ـ فـلـنـتـاـوـلـ آـنـ بـعـضـ الـكـؤـوسـ.

ـ مـاـ رـأـيـكـ بـالـفـتـيـانـ؟ـ سـائـلـهـ بـاـيـخـوـسـ.

ـ إـنـهـمـ مـتـحـمـسـوـنـ جـداـ ـ قـالـ مـاـيـتاـ ـ وـلـكـنـهـ صـفـارـ جـداـ أـيـضاـ، لـاـ بـدـ أـنـ بـعـضـهـمـ فـيـ الـخـامـسـةـ عـشـرـةـ، أـلـيـسـ كـذـلـكـ؟ـ هـلـ أـنـتـ وـاثـقـ مـنـ أـنـهـمـ سـيـتـجـاوـيـوـنـ؟ـ وـقـالـ بـاـيـخـوـسـ ضـاحـكاـ:

ـ أـنـتـ لـاـ تـؤـمـنـ بـالـشـبـابـ. إـنـهـمـ سـيـتـجـاوـيـوـنـ بـالـطـبـعـ. وـقـالـ الأـفـطـسـ أـوـبـيـوـثـ وـهـوـ يـتـحـركـ مـثـلـ عـفـريـتـ بـيـنـ رـفـوفـ الـكـتـبـ لـيـرـجـعـ إـلـىـ مـقـعـدـهـ:

ـ تـذـكـرـ عـبـارـةـ غـوـنـثـالـثـ بـرـادـاـ: «الـشـيـوخـ إـلـىـ الـقـبـرـ وـالـشـبـابـ إـلـىـ الـعـملـ».

- ثم إن كل شخص سيكون له عمله - قال بايغوس ذلك وهو يضرب راحة إحدى يديه بقبضته، وفكرا مaita: «حين أسمعه لا أستطيع الشك، يبدو أن كل شيء خاضع لمشيئته، إنه قائدمنذ مولده، بل إنه لجنة مرکزية بمفرده». وأضاف بايغوس: لن يطلب أحد من هؤلاء الفتيا إطلاق الرصاص. سيكونون مراسلين.

- إنهم تشاشكيو¹ الثورة - عمدتهم الأفطس أوبيبوت - إنني أعرفهم منذ كانوا أطفالاً يحبون على أربع، إنهم زهرة وقشدة الشبيبة الخوسيفينية.

وأوضح بايغوس مومئاً:

- سيتولون أمر الاتصالات. تأمين الاتصال بين رجال حرب العصابات والمدينة، وإحضار ونقل التعليمات والمؤن والأدوية. ولأنهم صغار السن تحديداً، سيكون بإمكانهم المرور دون لفت الأنظار. إنهم قادرون على التجوال في جبال المقاطعة كلها كما لو أنهم في بيتم. لقد قمنا برحلات ترفيهية عديدة، ودربرتهم على المسيرات الطويلة. إنهم رائعون.

لقد كانوا قادرين على القفز من أعلى هاوية والسقوط إلى قعرها واقفين دون أن يصابوا بأي كدمة، وكأنهم مصنوعون من مطاط؛ ويتجاوزون تيارات المياه المندفع مثل أسماك رشيقه دون أن تتبعهم الحوامات أو تلطمهم بالصخور؛ يتحملون الثلج دون أن يشعروا بالبرد ويركضون في الأعلى الشاهقة ويقفزون دون أن

¹ - التشاشكي (chasqui): بلغة الكيتشوا، هو الهندي الذي كان يستخدم مراسلاً في امبراطورية الإنكا.

يعترفهم أي اضطراب. كان خفقات قلب ماتا قد ازداد كثيراً
واشتد نبض الدم في صدغيه إلى حد لا يطاق. أيخبرهما بذلك؟
أيطلب منها نبتة كوكا، أو دواء، أو شيئاً يخلصه من هذا
الضيق؟

وقال بابيغوس:

- أما من سيحملون البنادق ويدخلون معنا في المعمعة، فستبدأ
بالتعرف عليهم جداً في ريكاران. استعد للصعود إلى البوна
والتعرف على حيوانات اللاما وأعشاب الآيتشو.

وفي خضم تكدره لاحظ ماتا الصمت. كان الصمت يأتي
من الخارج، وكان ملماساً، يتبدى كلما سكت الأفطس
أوببيوث أو بابيغوس عن الكلام. ما بين كل سؤال وجواب، في
وقفة مونولوج، هذا الغياب للحركات، للأبواق، للمكابح،
لمواسير دخان السيارات، للخطوات وللأصوات يبدو مدوياً. لا بد أن
هذا الصمت الذي يخيم على خاوحا، مثل ليل يلف الليل، كان
حضوراً كثيفاً في الغرفة وكان يشوشه. لقد بدا غريباً جداً ذلك
الفراغ الخارجي، ذلك الغياب للحياة الحيوانية أو الآلية أو البشرية
في الشارع. لا يتذكر أنه عرف مثل هذا الصمت الباهر في ليما،
أو حتى في السجون التي أمضى فيها فصولاً (سجن سيسوتو،
سجن بانويتيكو، سجن فرونتون). وحين كان بابيغوس وأوببيوث
يكسرانه، يبدوان وكأنهما ينتهكان حرمة شيء ما. كان
الضيق قد تقلص، ولكن قلقه مازال قائماً، ذلك أنه يعرف بأنه
يمكن في أي لحظة أن يعاوده الإحساس بالاختناق، وتسرع
القلب، والضيق، والبرودة الثلجية. قدم له الأفطس نخبأ، فرفع

الكأس إلى فمه وهو يجبر نفسه على الابتسام: المشروب الملتهب جعله يشعر. وفكراً: «يا للعجبية. على بعد أقل من ثلاثة كيلومتر عن ليما وأبدو كأنني أجنبي في عالم مجهول. أي بلاد هذه التي ما إن ينتقل المرء فيها من مكان إلى آخر حتى يشعر بأنه غريب، بأنه مريخي». أحس بالخجل لأنه لا يعرف سلسلة الجبال، وأنه لا يعرف أي شيء عن عالم الريف. وعاد باهتمامه إلى ما كان يقوله بآييغوس وأوببيوثر. لقد كانا يتحدثان عن قرية، على السفح الشرقي، تمتد في الأدغال: تدعى أوتشوباما.

- وأين هي؟

فيقول لي الأستاذ أوببيوثر:

- ليست على بعد كيلومترات كثيرة. إنها قريبة إذا نظرت إليها على الخريطة. ولكنها بعيدة بعد القمر إذا ما أردت الذهاب إليها من خواخا. بعد سنوات من ذلك، في زمن بيلاؤندي، شقوا درباً يغطي ربع الطريق. أما قبل ذلك، فكان لا بد من الذهاب زحفاً عبر البونا والوهاد والصدوع التي تحدّر باتجاه الغابة.

هل هناك الآن إمكانية للاقتراب من ذلك المكان؟ غير ممكّن بالطبع: فقد صارت القرية ميدان معركة منذ عدّة سنوات على الأقل. والشائعات تقول إنها قد تحولت إلى مقبرة هائلة. يقال إنه قد مات هناك أناس أكثر من مات في كل أنحاء البيرو مجتمعة. لن أستطيع إذن زيارة بعض الأماكن ذات الأهمية الحاسمة في القصة، التّقسي سيبقى مبتوراً، وحتى لو استطعت تجنب الخطوط العسكرية ومواقع رجال حرب العصابات، فإن ذلك لن يفيدني كثيراً. فالجميع في خواخا يؤكّدون أن تشونان وكذلك

ريكران قد اختفتا من الوجود. أجل، أجل: الأستاذ أوببيوث يعرف ذلك من مصدر حسن الإطلاع. فتشونان قد اختفت من الوجود منذ ستة شهور تقريباً. لقد كانت حصن المتمردين، وحتى إنهم كانوا يملكون هناك كما يبدو مدفعاً مضاداً للطائرات. ولهذا دمر الطيران تشونان بالنابالم ولم ينجُ من الموت هناك حتى النمل. وفي ريكران جرت كذلك مذبحة منذ حوالي شهرٍ. إنها قصة لم تتضح مطلقاً. أهل القرية أسرموا فصيلة من رجال العصابات، وقد شنقوهم هم أنفسهم حسب قول البعض، لأنهم كانوا يأكلون محاصيلهم ومواشيهم، بينما يقول آخرون إنهم سلموهم إلى الجيش الذي أعدّهم رميًا بالرصاص في الساحة، عند جدار الكنيسة. ثم جاءت بعد ذلك حملة تكيل، وخمسة إرهابيون أهالي ريكران. أنا أعرف كيف يمارسون التخمير، أليس كذلك؟ واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة، أنت.. آخر من الصدف! كل من كان رقمهم خمسة مزقوهم بالفؤوس، أو بالأحجار، أو بالسلاكين.. هناك في الساحة نفسها أيضاً. وريكران لم يعد لها وجود الآن كذلك. فمن بقوا على قيد الحياة انتقلوا إلى خاوحا، في حي المهاجرين هذا الذي انبثق في الشمال، أو أنهم يهيمون على وجوههم في الأدغال. يجب ألا تراودني الأوهام. يرفع الأستاذ كأسه إلى شفتيه ويتراجع في الكلام إلى حيث كنا. ويقول:

- الوصول إلى أوتشوباما كان من أمور الناس الفحول، ومن لا يخافون الثلج ولا الانهيارات الجبلية، أناس غير مصابين بداء الدوالى مثل هذا العجوز الذي صرّت إليه الآن. لقد كنتُ قوياً وصلباً آنذاك ووصلتُ إلى هناك في إحدى المرات. إنه مشهد لا

يمكن تصوره.. رؤية منطقة الانديز وقد تحولت إلى أدغال، تملؤها الخضرة، والحيوانات، والبخار. أنقاض في كل مكان. أوتشوبامبا، هذا هو اسمها. ألا تتذكر الاسم؟ اللعنة! ولكن رجال كمونة أوتشوبامبا كانوا حديث البيرو بأسرها.

لا، الاسم لا يعني لي أي شيء. ولكني أتذكر جيداً الظاهرة التي ذكرها الأستاذ أوببيوثر، بينما كنت أدفع بيدي كأس نبيذ البيسكيو الذي سكبه لي بحذر شديد (بيسكيو يسمى شيطان الأنديز، عينة متبقية من الأزمنة الطيبة كما يقول، عندما كان بالإمكان شراء أي شيء من الحوانيت، قبل هذا التقنين الذي يقتالنا جوعاً وظماً). فقد فوجئت البيرو الرسمية، والمدينية، والساخلية، في منتصف عقد الخمسينات ببدء عملياتاحتلال للأراضي في مناطق مختلفة من سلسلة الجبال في الجنوب والوسط. كنت آنذاك في باريس، وكنا مع جماعة من ثوريي المقاوي نتابع بهم تلك الأخبار النائية التي تصل مقتضبة إلى لوموند، وانطلاقاً منها، تشيد مخيلتنا المشهد المستحلب: قرى هندية، هناك في جبال الأنديز، مسلحة بالعصي والمقاليع والأحجار، بشيوخها ونسائهم وأطفالها وبهائمها في المقدمة، تتنقل في الفجر أو في منتصف الليل في جموع حاشدة إلى الأراضي الريفية التي يشعرون - وهم محقون في ذلك بكل تأكيد - بأنهم حرموا منها بسبب السيد الإقطاعي، ويحطمون علامات تقسيم الأرض ويعيدون ضمها إلى أراضي قراهم، ويسمون البهائم بعلاماتهم، وبينون بيوتهم ويدرُّون في اليوم التالي العمل في هذه الأرض الجديدة وكأنها أرضهم. وكنا نقول بأفواه مفتوحة

وسعادة: «أتكون هذه هي البداية؟ هل سيستيقظ البركان أخيراً؟»⁹
أجل، ربما كانت تلك هي البداية. في مقاهي باريس، تحت
أشجار الكستناء ذات الحفيف، كنا نستتجم من أربعة أسطر
اللوموند أن تلك الاحتلalات هي أعمال ثوريين، نارودنيين جدد
انقلوا إلى الريف ليقنعوا الهنود بأن يتولوا بأنفسهم تطبيق الإصلاح
الزراعي الذي تعد بتحقيقه كل الحكومات منذ سنوات طويلة
دون أن تتفذه أي منها. وعرفنا فيما بعد أن هذه الأعمال لم تكون
من صنع محرضين أرسلهم الحزب الشيوعي وليس من عمل
الجماعات التروتسكية، وأنها ليست ذات طابع سياسي في
الأصل، وإنما هي حركة عفوية، انبثقت بالكامل من الجماهير
الفللاحية التي نخستها حالة الاستغلال الأزلي وجouها إلى الأرض،
وكذلك - إلى حد ما - الأجراء المشحونة بشعارات ودعوات العدالة
الاجتماعية التي نشأت في بيرو منذ تتصعد دكتاتورية الجنرال
أودريا، فحسمت أمرها في أحد الأيام وانتقلت إلى الممارسة
العملية.

أوتشوبامبا؟ هناك أسماء قرى أخرى استولى أهلها على الأرض
ثم أجلوا عنها بعد سقوط قتل وجرح، أو تمكنا من الحفاظ
عليها، تدور في ذهني: الغولان في جبل باسكيو، وقرى وادي
كونفينشون في كوسكو. أما أوتشوبامبا في خاوخارا¹⁰
- أجل يا سيدى - قال باليخوس ذلك متحمساً، وسعیداً لأنه
استطاع أن يفاجئه، ثم أضاف: - أجل، هنود ذوو بشرة بيضاء
وعيون زرق، بل إنهم غرينغيون أكثر مني ومنك.
قال الأفطس أوببيوث بخطابية:

- غزاهم أول الأمر الإنكا وأجبروهم على العمل تحت مقرعة رقباء العمال . ثم انتزع منهم الإسبان بعد ذلك أفضل أراضيهم واقتادوهم للعمل في المناجم. أي للموت بعد زمن قصير بريئات منخورة. ومن بقي منهم في أوتشوبامبا وضعوهم تحت حماية أسرة تحمل لقب بيلاث ريوخا أدمتهم طوال ثلاثة قرون.

وأنهى باييخوس الكلام بالقول:

- ولكنك ترى أنهم لم يستطيعوا القضاء عليهم.

كانوا قد غادروا بيت أوببيوث لكي يقوموا بجولة ، وكانوا يجلسون الآن على مقعد في ساحة السلاح. وفوق رؤوسهم كان يخيم سكون رائع وآلاف النجوم. نسي مايتا البرد دوار الجبال. لقد كان منفعلاً بحماس. وكان يحاول أن يتذكر الانتقاضات الفلاحية الكبرى: توباك آمارو، خوان بوستامانتي، أوتسباريا. فعلى امتداد القرون، وبينما هم يستغلونهم ويدلونهم، كان هنود أوتشوبامبا ما يزالون يحلمون بالأرض التي انتزعوها منهم ويبتهلون من أجلها. في أول الأمر إلى الأفاعي والطيور، وبعد ذلك إلى العذراء الطاهرة والقديسين، ثم من بعد إلى كل المحاكم التي في متناول أيديهم، في محاكمات كانوا يخسرونها على الدوام. أما الآن، منذ بضعة شهور لا أكثر، إذا صح ما سمعته، فقد خطوا الخطوة الحاسمة وحطموا في إحدى الليالي أسيجة إقطاعية آينا ودخلوا هذه الأرضي مع خنازيرهم وكلابهم وأحصنتهم قائلين: «نريد أخذ ما هو لنا». هذا ما حدث، وأنت يا مايتا، ألم تكن تعرف شيئاً عن هذا؟

- ولا كلمة واحدة - دمدم مايتا وهو يفرك يديه المنملتين من

البرد - بل لم أسمع شيئاً، ففي ليما لم يُعرف شيء عن هذا كله. كان يتكلم ناظراً إلى السماء، مبهوراً ببهاء القبة السماوية المصبوغة بلون ثان والمتألقة، وبالصور التي يبعثها في رأسه ما يسمعه. قدم له أوببيوثر سيجارة وأشعلها الملزم.

- مثلما أقول لك - أكد له بايغوس - لقد استولوا على مزرعة آينا واضطربت الحكومة إلى إرسال الحرس الأهلي لإخراجهم منها. الفرقة الشرطية التي خرجت من هوانكابيو تأخرت أسبوعاً في الوصول إلى أوتشوبامبا. وقد أخرجتهم في النهاية بالرصاص. سقط عدد قتلى وجرحى بالطبع. ولكن العشيرة بقيت مؤرقة لا تستطيع النوم. وهم الآن يعرفون ما هو الطريق.

مررت أسرة أو جماعة من الهنود بدا أفرادها لمايتا أشباحاً في ظلال ساحة خاوحا: واحتفلوا صامتين، متخففين عند زاوية الكنيسة. وهم يحملون على رؤوسهم أحمالاً يمكن لها أن تكون أسفاطاً.

قال الأفطس أوببيوثر:

- ليست المسألة في أن فلاحي أوتشوبامبا مستعدون للذهاب إلى القتال، وإنما في أنهم يخوضون القتال فعلًا، فقد بدأوا الثورة. وأما ما سنقوم به فهو توجيهها وحسب.

كان البرد يذهب ويجيء، مثل داء المرتفعات. أخذ لمايتا نفسها طويلاً:

- أهي معلومات من مصادر حسنة الإطلاع؟
فضحك بايغوس:

- إنها مصادر في مثل حسن إطلاعي أنا بالذات. لقد كنت هناك. ورأيت الوضع بعيني هاتين.

وصحح له الأفطس أوببيوث بسينانه وراءاته المفخمة:
- بل كنا هناك. وقد رأينا الناس وتحدثنا معهم. لقد تركنا
كل شيء جاهزاً.

لم يدر مايتا ما يقول، فهو الآن متأكد من أن باييغوس ليس
صبياً عديم التجربة ومندفعاً مثلما ظنه في البدء، بل هو شخص
أكثر جدية وتماسكاً وتعقیداً بكثير، وأكثر احتراساً، وقدماه
راسختان تماماً في الأرض. فقد خططا خطوات أكثر مما كشف
له عنه في ليماء، فلديه مزيد من الناس، وخططه متسبة أكثر
بكثير من كل ما تصوره من قبل. من المؤسف أن أناطولي لم يأت
معه. من أجل تبادل الأفكار، والتأمل، والتعاون فيما بينهما من
أجل تنظيم فوضى هذه التخيلات وهذه الحماسة التي تهشه. من
المؤسف أن جميع الرفاق في حـٰثـٰ (ت) ليسوا موجودين ليروا أن
الأمر ليس وهمـٰ وإنما حقيقة ملتهبة. ومع أن الساعة لم تكن قد
أعلنت العاشرة ليلاً، فقد بدا الثلاثة وكأنهم الوحيدين في
خواخاً.

وعاد باييغوس إلى الضحك:

- هل أدركت الآن أنني لم أكن أبالغ عندما قلت لك إن جبال
الأنديز صارت ناضجة؟ مثلما قلت لك ومثلما أكرر يا أخي: إنها
بركان. ونحن سنجعله يثور.. يا للعنة.
- لأننا لم نذهب إلى أوتشومامبا خاليي الوفاص بالطبع - يقول
لي الأستاذ أوببيوث ذلك بصوت خافت وهو يتلفت فيما حوله
وكأنه ما زال يمكن لتلك الواقعة أن تورطه حتى الآن، ويضيف:-
لقد أخذنا معنا ثلاثة مسدسات رشاشة وبضع بنادق مازر حصل

عليها الملائم من مكان لا أعرف حقيقته. وأخذنا كذلك أدوية طوارئ. وخبأنا كل شيء جيداً بعد لفه بقمash مشمع. يصمت لكي يتذوق الشراب، ويتمتم بأن الأمور التي يرويها لي يمكن أن تؤدي إلى إعدامنا نحن الاثنين رمياً بالرصاص في أقل من صياح ديك.

ثم يضيف بعد أن يتلاشى صدى مرور الدبابة في الليل: وكنا نسمع مرورها قبلة البيت طوال المساء، في تناوب منتظم: - ها أنت ترى، لم تكن مسألة مرتجلة مثلاً يظن الجميع. لقد كان عملاً خطط له دون رومنسية، بعلمية، وكان يمكن له أن ينجح لو لم يرتكب باليخوس حماقة تقديم الموعد المقرر. لقد قمنا بعمل أشبه بعمل النمل، عمل دقيق حقاً. ألم يكن اختيارنا للمنطقة جيداً؟ أليس رجال حرب العصابات هم سادة هذه المنطقة الآن؟ إن الجيش لا يملك الجرأة على الذهاب إلى هناك. لا يمكن لفيتام أو السلفادور أن تقارنا بها. في صحتك! -

إن رجلاً، أو مجموعة رجال، أو فصيلة هناك، ستكون أشبه بإبرة وسط كومة من القش. وتحت دثار النجوم اللامعة رأى مايتا الموقع: إنها أدغال كثيفة، متشابكة، محكمة، ورأى نفسه إلى جانب باليخوس وأوببيوث وجيش من الأشباح يجتاز تلك الأدغال عبر دروب ملتوية. لم تكن بطاحاً أمازونية وإنما غابة متماوجة، منحدرات أدغال جبلية، وانكسارات وشروح ومضائق وممرات ضيقة وأفجاج، إنها تضاريس مثالية من أجل الضرب والهرب، وقطع طرق اتصالات العدو، وتدويخه، وبلبلته، وإيصاله إلى الجنون، والانقضاض عليه في المكان والزمان اللذين لا

يتوقعهما، ودفعه إلى اليأس، إلى الذوبان، إلى التفتت في المتأهة التي لا توصف. وتخيل نفسه وقد نمت لحيته، وصار نحيلًا، في عينيه تصميم جامح، وأصابعه قد تقرحت من كثرة الضغط على الزناد وإشعال الفتائل ورمي شحنات الديناميت. ويختفي أدنى أثر للقنوط واليأس حيال الالتحاق المؤكد لمناضلين جدد في كل يوم، فتنتسع الجبهة، وبيدا العمال والخدم والطلاب والموظرون والقراء هناك في المدينة بتفهم أن الثورة من أجلهم، ولهم. أحاس بحاجة ملحة إلى وجود أناتولييو معه، وإلى تبادل الحديث معه طوال الليل. وفكرة: «لو كنت معه لفارقني هذا الإحساس بالبرودة».

- هل تمانع في أن نتحدث قليلاً أيضاً عن ما ياتا يا أستاذ؟ فلتراجع إلى تلك الرحلة التي قام بها في آذار 1958. لقد عرّفته حضرتك على الفتيا، وعلم أنكم قد أقمتم علاقات مع فلاحي أوتشوبامبا، وأن باييغوس يفكر في بدء حرب العصابات من هناك. هل فعل شيئاً آخر، هل عرف شيئاً آخر في رحلته الأولى تلك؟

ينظر إلى بعينين فيهما خيبة الأمل بينما هو يرفع إلى شفتيه كأس البييسكو. يفرقع لسانه راضياً. ما الذي يفعله لكى يستمر النبض عنده طوال هذا الوقت؟ لا بد أنه لا يكاد يرشف منه أكثر من قطرة في كل مرة. ويدمم قاتلاً: «أعرف أنه عندما تنتهي هذه الزجاجة لن أعود إلى تناول أي جرعة من الخمر حتى مماتي، فالآمور تمضي نحو الأسوأ.. نحو الأسوأ». وبما أنني لم أكنأشرب بفواصل متباعدة، فقد شوش البييسكو ذهني. إنني مشوش ومضطرب، مثلما كانت حال ما ياتا بفعل داء المرتفعات.

- يا للمسكين! لقد كانت تلك مفاجأة حياته - يقول لي ذلك

أخيراً، بنبرة احتقار يستخدمها كلما تحدث عنه. أهـو حقد ضد مـا يـاـتـا بـالـذـاـتـا أمـأـمـرـأـكـثـرـعـمـومـيـةـ وـتـجـرـيـداـ؟.. حـقـدـ جـبـلـيـ وـرـيفـيـ مـوـجـهـ إـلـىـ كـلـ مـنـ فـيـ لـيـماـ، كـلـ مـنـ فـيـ الـعـاصـمـةـ، وـكـلـ شـيـءـ سـاحـلـيـ؟.. ثـمـ يـواـصـلـ قـائـلاـ:- جـاءـ إـلـىـ هـنـاـ بـتـجـرـيـتـهـ الثـورـيـةـ وـمـرـورـهـ فـيـ السـجـنـ، مـفـتـعـاـ بـأـنـهـ سـيـكـونـ الـأـكـبـرـهـنـاـ. فـوـجـدـ أـنـ كـلـ شـيـءـ كـانـ مـنـجـزاـ، وـعـلـىـ أـكـمـلـ وـجـهـ.

تـهـدـ بـتـشـاقـلـ، تـهـدـ عـلـىـ الـبـيـسـكـوـ الـذـيـ سـيـنـتـهـيـ، عـلـىـ الشـبـابـ الـذاـهـبـ، عـلـىـ ذـلـكـ السـاحـلـيـ الـذـيـ لـقـنـهـ هوـ وـالـمـلـازـمـ درـسـاـ، وـعـلـىـ الجـوـعـ الـذـيـ يـعـانـيـهـ وـالـقـلـقـ الـذـيـ يـعـيـشـ فـيـهـ. خـلـالـ الـوقـتـ القـصـيرـ الـذـيـ أـمـضـيـنـاهـ فـيـ تـبـادـلـ الـحـدـيـثـ أـدـرـكـتـ أـنـ رـجـلـ مـتـاقـضـ. يـصـعـبـ فـهـمـهـ. فـهـوـ يـطـلـقـ فـيـ بـعـضـ الـأـحـيـانـ صـرـخـاتـ مـنـ هـذـاـ النـوعـ: «يمـكـنـ لـلـإـرـهـابـيـينـ أـنـ يـأـتـواـ فـيـ أـيـ لـحـظـةـ، وـيـعـدـمـونـيـ وـيـلـصـقـواـ عـلـىـ جـثـيـ لـوـحـةـ تـقـوـلـ "كـلـ خـائـنـ"ـ. أوـ تـأـتـيـ إـحـدـيـ فـصـائـلـ الـحـرـيـةـ وـتـقـطـعـ خـصـيـتـيـ مـنـ جـثـيـ وـتـدـسـهـمـاـ فـيـ فـمـيـ. هـذـاـ مـاـ يـفـعـلـونـهـ هـنـاـ. هـلـ يـفـعـلـونـ ذـلـكـ فـيـ لـيـماـ أـيـضاـ؟ـ» وـفـيـ بـعـضـ الـأـحـيـانـ يـفـضـبـ مـنـيـ: «كـيـفـ يـمـكـنـ لـكـ كـتـابـةـ الـرـوـاـيـاتـ وـسـطـ هـذـاـ الـكـابـوـسـ؟ـ» أـتـرـاهـ سـيـعـودـ إـلـىـ الـحـدـيـثـ فـيـ مـاـ يـهـمـنـيـ؟ـ أـجـلـ، إـنـهـ يـعـودـ:

- يـمـكـنـيـ أـنـ أـحـدـثـكـ بـالـطـبـعـ عـنـ كـلـ مـاـ فـعـلـهـ، وـمـاـ قـالـهـ، وـمـاـ رـأـهـ وـمـاـ سـمـعـهـ فـيـ تـلـكـ الرـحـلـةـ الـأـوـلـىـ. لـقـدـ اـسـتـبـقـيـتـهـ مـعـلـقاـ بـيـ مـثـلـ بـقـرـةـ. نـظـمـنـاـ لـهـ اـجـتمـاعـيـنـ، أـوـلـاـ مـعـ الـفـتـيـانـ، ثـمـ مـعـ رـفـاقـ أـوـسـعـ تـجـربـةـ. عـمـالـ مـنـ مـنـاجـمـ أـورـوـبـوـ، وـكـاسـابـالـكـاـ، وـمـوـرـوـكـوـتـشاـ. إـنـهـ عـمـالـ مـنـ خـاـوـخـاـ ذـهـبـواـ لـلـعـلـمـ فـيـ مـنـاجـمـ أـكـبـرـ إـخـطـبـوـطـ إـمـبـرـيـالـيـ فـيـ ذـلـكـ الـحـينـ، شـرـكـةـ ثـيـرـوـ دـيـ باـسـكـوـ كـوـبـرـ

كُريوريشن. وكانوا يأتون من المناجم في الأعياد وفي نهاية الأسبوع أحياناً.

- وهل كان هؤلاء مشتركون في الخطة أيضاً؟

بایخوس وأوبیوٹ يقولان نعم، ولكن مايتا لم يكن ليضع يديه في النار ويراهن على المنجميين. لقد كان عددهم خمسة عمال، وكانوا قد تبادلوا الحديث معه في اليوم التالي، في بيت الأفطس كذلك، لمدة ساعتين تقريباً. وجد الاجتماع رائعاً والتواصل سهلاً معهم جميعاً - وخصوصاً مع لوريتو، أكثرهم تسيساً وقراءة -، ولكنهم لم يقولوا في أي لحظة إنهم مستعدون لمغادرة عملهم وبيوتهم لحمل السلاح. ولكن مايتا ما كان ليقسم كذلك بأنهم لن يفعلوا ذلك. وفكرا: «إنهم متكتمون». لقد كانوا عمالاً، يعرفون ما الذي يجازفون به. وكانوا يتلقون به للمرة الأولى. أليس من المنطق أن يُظهروا الحرص والحدّر؟ كانوا يبدون أصدقاء قدماء لأوبیوٹ. واحد منهم على الأقل، لوريتو، الذي تملاً فمه أسنان ذهبية، كان قد انضم سابقاً إلى البريستا. وهو يعلن الآن أنه اشتراكي. عندما يتحدثون عن أمريكيي شركة ثيرو دي باسكو، يبدون معادين حاسمين للإمبريالية؛ وعندما يتحدثون عن الأجور، وعن حوادث العمل، وعن الأمراض التي تسببها اتفاق المناجم، يبدون ثوريين مصممين. ولكن كلما حاول مايتا أن يعرف بالتحديد الطريقة التي سيشاركون بها في الانتفاضة، تأتي إجاباتهم غامضة. وعند الانتقال من العموميات إلى التفاصيل المحددة، يصبح تصميمهم الحاسم أضعف.

- ذهبنا كذلك إلى ريكاران - يضيف الأستاذ أوبیوٹ مفتاحاً

قليلًا قليلاً كنوزه من المعلومات .. أنا نفسي أخذته إلى هناك، في شاحنة ابن أخي لي، لأن باليخوس اضطر إلى البقاء في ذلك اليوم في السجن. ريكران... ريكران التي اختفت من الوجود. هل تعرف كم من القرى الصغيرة مثل ريكران قد دُمرت في هذه الحرب؟ لقد أخبرني قاض قبل أيام، بالاستاد إلى كولونيل في الأركان العامة، أن إحصاءات القوات المسلحة قد سجلت نصف مليون قتيل منذ بدء الأحداث. أجل، لقد أخذته إلى ريكران. أربع ساعات من القعقة في الصعود، حتى بلغنا فجأً على ارتفاع أربعة آلاف وخمسمئة متر. يا للتروتسكي المسكين! بدأ أنفه ينزف وبيل منديله. لم يكن قادرًا على تحمل المرتفعات. وكانت تخيفه الهاويات. وأقسم لك أنه كان يصاب بالدوار.

ظن أنه سيموت، سيهوي إلى القاع، وأن نزيف أنفه لن يتوقف أبداً. ومع ذلك، فإن تلك الرحلة التي دامت أربعاً وعشرين ساعة إلى قرية ريكران، هناك، في منعطفات سلسلة الجبال، كانت أكثر الأعمال التي قام بها في خاوحا إشارة. إنها أرض نسور الكوندور، والثلج، والسماء الندية، والقمم ذات اللون الأملغر. وقد فكر: «لا أكاد أصدق أنه يمكن العيش في هذه الارتفاعات، وترويض هذه الجبال، وزراعة وفلاحة هذه المنحدرات، وبناء حضارة في هذه القفار». الرجال الذين عرفه عليهم الأفطس أوبييوث - نحو عشرة أشخاص من المزارعين صغار الملاكين والحرفيين - كانوا متجمسين جداً. وقد استطاع التفاهم معهم، إذ إنهم جمياً يتكلمون الإسبانية. وجهوا إليه أسئلة كثيرة، ولشدة حماسه حيال اندفاعهم، أكد لهم - أكثر مما فعل مع الفتىان في

خواخا - على الدعم الذي سيلقونه من القطاعات التقنية في ليما. يا للحماس الذي تبعثه في النفس عفوية هؤلاء الرجال البائسين، وبعضهم ينتعلون الصنادل، وهم يتكلمون عن الثورة وكأنها شيء وشيك، محدد، لا جدال فيه ولا رجعة عنه. لم تكن هناك أي مواربة في الحوار: جرى الحديث عن الأسلحة، عن المخابئ، وعن مشاركتهم في العمليات منذ اليوم الأول. ولكن مايتا مر بالحظة حرج قاسية عندما سأله: ما هو الدعم الذي سيقدمه لهم الاتحاد السوفييتي؟ لم تواته الجرأة ليحدثهم عن الثورة المغدورة، وعن هيمنة البيروقراطية الستالينية، وعن تروتسكي. أحس بأنه من غير المناسب إحباطهم الآن بمثل هذه المسائل. فقال إن الاتحاد السوفييتي والبلدان الاشتراكية ستقدم المساعدة، ولكن فيما بعد، عندما تصبح الثورة البيروفية أمراً واقعاً. أما قبل ذلك، فسوف يقدمون لهم الدعم المعنوي فقط، بالكلام وحسب. فهذا ما يحدث مع بعض التقديرين الكريوليين. لا يضعون كتفهم إلا عندما يدفعهم كل شيء إلى عمل ذلك. ولكننا سندفعهم، لأن الثورة عندما تبدأ لن يكبحها أي شيء.

قال له باييغوس:

- وباختصار، لقد أدهشتني ريكران. كنت أعرف أن ذلك سيحدث يا أخي.

كانوا قبلة محطة القطار، في مطعم صغير طاولاته مغطاة بمشمع ضارب إلى الزرقة وستائره من قماش البروکار «مطعم الخالاباتو». ومن الطاولة التي يشغلونها كان بإمكان مايتا رؤية الجبال، في الجانب الآخر من سياج السكة الحديد، وهي تصير

رمادية وسوداء بعد أن كانت ذات لون أملغرو ذهبي. لقد أمضوا في المطعم عدة ساعات، منذ وقت الغداء. وقد تعرف صاحب المطعم على أوببيوث وبابي�وس وصار يدّنو منهم بين وقت وآخر لتبادل الحديث. وعندئذ كانوا يغيرون موضوع حديثهم، ويوجه مايتا أسئلة حول خاوحا. لماذا سمى المطعم «خالاباتو»؟ بسبب عادة يمارسونها في احتفالات العشرين من كانون الثاني في حي ياويوس: إذ يرقصون رقصة «العصابة» ويعلّقون بطة حية في الشارع ويحاول الفرسان والراقصون قطع رأسها وهم منطلقون بأقصى سرعة.

يزمجر الأستاذ أوببيوث:

- بوركت تلك الأزمنة التي كان يوجد فيها بط لقطع رؤوسه في حفلات الخالاباتو. كنا نظن أننا نلامس القاع. ولكن كان هناك مع ذلك بط في متّاول أي جيب، وكان الناس في خاوحا يأكلون وجبتين في اليوم، وهذا شيء لا يستطيع الأطفال اليوم أن يصدقوه. - وتهدى من جديد - لقد كانت احتفالات بدّيعة، بل إنها كانت أكثر مرحاً وشراباً من الكرنفالات.

قال بابي�وس:

- الشيء الوحيد الذي نطلب هو أن يقوم الحزب بواجبه عندما نبدأ العمل. إنهم ثوريون، أليس كذلك؟ لقد قرأتُ صوت العمال التي أعطيتني إياها من أولها إلى آخرها. الثورة هي الشغل الشاغل في كل مقال. حسن، فليكونوا منسجمين مع ما يكتبونه. أحس مايتا بشيء من الانزعاج: فهذه هي المرة الأولى التي يشعره فيها بابي�وس بأنه يحتفظ ببعض الشكوك حول دعم حزبه (ت). لم يكن قد أخبره كلمة واحدة مما دار في المناقشات الداخلية حول مشروعه وشخصه.

- الحزب سيفي بمسؤولياته. ولكنه يريد أن يتتأكد من أن هذا العمل جدي، ومخطط له، وأن له احتمالات في النجاح.
- ويعود الأستاذ أوببيوث إلى الموضوع قائلاً لي:
- حسن، في تلك الأيام لم يرَ ذاك التروتسكي أن هناك أي تسرع أو جنون. فرأسه لم يكن يستوعب أننا قد أعدنا كل شيء على أحسن وجه.
- صحيح، الأمر أكثر جدية مما كنت أعتقد - الفت مايتا إلى بايسخوس -. أتعرف أنك استطعت خداعي تماماً؟ لقد أقمت شبكة متكاملة للاقناعية، بما في ذلك الفلاحون والعمال والطلاب: إنني أخلع قبعتي احتراماً لك يا رفيق.
- أشعلوا الأنوار في المطعم. ورأى مايتا أن بعض الحشرات الطنانة بدأت ترتطم بالمصابيح التي تتأرجح معلقة على حبل طوبل جداً.
- لقد كان عليّ أنا أيضاً أن أتخذ بعض الاحتياطات، مثلاً فعلت أنت معي -. قال الملازم ذلك متكلماً بتلك الصرامة التي ما إن تظهر فيه حتى تحوله إلى شخص آخر -. لقد كان عليّ أن أتأكد أيضاً من أنه يمكنني الثقة بك.
- لقد تعلم الدرس جيداً -. قال له مايتا ذلك مبتسمًا. وتوقف عن الكلام ليلقط أنفاسه. لقد كان تأثير داء المرتفعات عليه اليوم أقل، فقد استطاع أن ينام بضع ساعات بعد يومين من الأرق.
- هل بدأت سلسلة الجبال تتقبّله؟ ثم أضاف: -. هناك رفيقان آخران، هما أناتولي وخارثينتو، سيأتيان الأسبوع القادم. وسيكون تقريرهما حاسماً في انغماس الحزب تماماً في العملية. وعندما يريان ما رأيته، سيدركان أنه ليست هناك أية مسوغات للتراجع.

هنا دون شك، خلال رحلته الأولى إلى خاوشا، خطرت لذهن مايتا تلك الفكرة التي جلبت له مشاكل كثيرة. هل أطلعهما عليها في الحالات؟ هل طرحها بصوت خافت، منتقياً الكلمات، كي لا يبللها بانقسامات ذلك اليسار الذي يظن أنه متجانساً؟ الأستاذ أوببيوث يؤكّد لي أن لا. «إذا كان جسدي قد ضعُف وتهلهل بفعل السنين، فإن ذاكرتي ما زالت سليمة ولم تضعف». ومايتا لم يطرح عليه مطلقاً نيته في الطلب من جماعات وأحزاب أخرى المشاركة في العملية. هل طرح هذه الفكرة إذن مع بايغوس وحده؟ مما لا شك فيه على أي حال أنه قد حسم أمر تلك المبادرة في خاوشا، ذلك أن مايتا لم يكن متھوراً. وإذا كان قد ذهب لدى رجوعه إلى ليما للقاء بلاكير، وربما التقى كذلك أناساً من حزبه الآخر، فلأنه كان قد قلب الأمر كثيراً أثناء وجوده في سلسلة الجبال في الأيام السابقة. لقد فعل ذلك في إحدى ليالي الأرق وتسرع النبض تلك، في نزل شارع تاراباكا، بينما هو يسمع في الظلام أنفاس صديقه الهدائة وطفرات قلبه بالذات. ألم يكن ما سيجري عظيم الشأن بحيث لا يمكن لحزب صغير مثل حزبه (ت) أن يتولى منفرداً مسؤولية الانتفاضة؟ الجو بارد، وهو ينكمش على نفسه تحت الدثار. يده على صدره، يستمع إلى نبضاته. المنطق العقلاني كان واضحاً جداً. فالانقسامات في صفوف اليسار سببها، إلى حد بعيد، غياب الممارسة العملية الحقيقة، والانشغال بأعمال عقيمة: وهذا يجعل قوى اليسار تتحدر وتلتهم ذاتها، أكثر مما تفعل ذلك الخلافات الأيديولوجية. ويمكن لخوض حرب العصابات أن يعدل الوضع وأن يوحد الثوريين

ال الحقيقيين مُظهراً لهم مدى بيزنطية اختلافاتهم. أجل، ستكون الممارسة العملية هي الدواء ضد الفوبيّة التي تتولد من العجز السياسي. العمل المباشر سيكسر الدائرة المغلقة، وسيفتح عيون الرفاق المتخاصمين. لا بد من الجرأة، ومن الوقوف على مستوى الظروف. «ما أهمية "البابلوبية" و "مناهضة البابلوبية" أيها الرفاق حين يتعلق الأمر بمصير الثورة؟» وتتصور في ليل خاوخا البارد، القبة السماوية الملطخة بالنجوم وفكراً: «هذا الهواء النقي أنار لك الطريق يا مايتا». أنزل يده من صدره إلى عضوه، وبدأ يداعبه بينما هو يفكر في أناتولييو.

وأسأله بإصرار:

– أولم يقل لكم إن الخطة على قدر من الأهمية بحيث لا يمكن لها أن تكون احتكاراً لفئة تروتسكية صغيرة؟ وإنه سيحاول الحصول على مشاركة حزب العمال الشوري الآخر، بل والحزب الشيوعي كذلك؟

فيجيب الأستاذ أوبيبيوث في الحال:

– لم يفعل ذلك بالطبع. لم يقل لنا أي شيء في هذا الشأن وحاول أن يخفى عنا أن اليسار منقسم على نفسه وأن حـ ث (ت) هو حزب لا قيمة له. لقد خدعنا بكل أشكال المراوغة المخاتلة. فقد كان يحدثنا عن الحزب. الحزب من هنا والحزب من هناك. وأنا كنت أفهم أن المقصود هو الحزب الشيوعي بالطبع، وأظن أن ذلك يعنيآلاف وآلاف العمال والطلاب.

تُسمع من بعيد زخة رصاص. أم تراه يكون رعداً؟ ثم تكرر مرة أخرى بعد ثوان قليلة، فيخيم علينا الصمت ونصيغ السمع.

وتسمع من بعيد أيضاً زخة أخرى فيتمت الأستاذ أوببيوث: «إنها مفرقات من الديناميت يفجرها رجال العصابات في الجبال لكي يحطموا أعصاب جنود الشكنة. حرب نفسية». لا: بل هي طيور بط، إنه سرب منها يطير وينعف فوق نباتات القصب. كانوا قد خرجوا للقيام بجولة وكان مايتا يحمل حقبته في يده. وبعد ساعة تقريباً سيركب القطار إلى ليما.

قال له باييخوس:

- هناك متسع للجميع بالطبع. وكلما كانوا أكثر يكون الوضع أفضل. وستكون هناك أسلحة لكل من يريد أن يطلق النار. الشيء الوحيد الذي أطلبه منك هو أن تقوم بمساعيك بسرعة. كانوا يمشيان على ضفاف المدينة وكانت تبدو من بعيد بعض السطوح ذات القرميد المائل إلى الحمرة. وكانت الريح تصفر بين أشجار الأوكالبتوس والصفصاف.

- لدينا كل الوقت الذي نحتاجه - قال مايتا - لا يوجد مبرر للتسرع في الأمور.

- بل يوجد مبرر - قال باييخوس ذلك بجفاء. وعاد ينظر إليه وكان في عينيه تصميم أعمى. ففكرا مايتا: «هناك شيء آخر، سأعرف شيئاً جديداً»، وواصل باييخوس قائلاً: - القائدان الرئيسيان في أوتشوباما، من قادا الاستيلاء على مزرعة آينا موجودان هنا.

فقال مايتا:

- هنا في خواخا؟ - قال مايتا - ولماذا لم تعرفي عليهما؟ كنت أود التحدث إليهما.

- إنهم في السجن ولا يمكن زيارتهم - ابتسם بابيغوس -. إنهم معتقلان، أجل.

كانت قد نقلتهم إلى السجن دورية من الحرس الأهلي الذي كلف بقمع عمليات الاستيلاء على الأرضي. إنما لم يكن من المؤكد أن يبقيا في السجن لوقت طويل. ففي أي لحظة يمكن أن تأتي أوامر بتحويلهما إلى هوانكايو أو إلى ليما. والخطة الموضوعة تعتمد في معظمها عليهما. فهما سيقودانهم من خاوشا إلى أوتشوبامبا بصورة سريعة ومضمونة، وهما من سيضمن مشاركة الفلاحين في الانتفاضة. فهل ترى كيف أن الوقت المتوفر محدود جداً؟

- إنما أليخاندرو كوندورى وشينون غونزالس - أقول له ذلك مستقبلاً نطقه بالاسمين. فيفتح أوببيوث فمه من الدهشة. وكان ضوء المصباح قد تضاءل كثيراً حتى صرنا وكأننا في الظلام. يقول متلثماً:

- أجل، هكذا يسميان. إنك واسع الإطلاع. أنا واسع الإطلاع؟ أظن أنني قرأت كل ما ظهر في الصحف والمجلات حول هذه القصة، وتحدثت مع عدد كبير من المشاركين والشهود. ولكنني كلما كنت أتقصد أكثر، أشعر بأنني أعرف أقل مما حدث فعلاً. فمع كل معلومة جديدة، يبرز مزيد من التناقضات، والتخمينات، والأسرار، والتآفرات. كيف يمكن أن ينتهي الأمر بهذين القائدين الفلاحيين اللذين ينتميان إلى جماعة عريقة من منطقة الأدغال في خونين، ليصلا إلى سجن خاوشا؟ وأوضح له بابيغوس:

- مصادفة رائعة. أنا لم أتدخل في هذا الأمر بأي حال. فقد كان هذا هو السجن الذي يجب إحضارهما إليه، لأنه يجب على القاضي أن يفتح التحقيق معهما هنا. لو كانت اختي معنا لقالت إن رب يساعدنا، أترى؟

- وهل كانا مرتبطين بكم قبل اعتقالهما؟
فيقول لي أوببيوث:

- بصورة عامة فقط. تحدثنا إليهما خلال الرحلة التي قمنا بها إلى أوتشوبامبا وساعدانا في إخفاء الأسلحة. ولكنهما لم يتزما معنا بالكامل إلا هنا، خلال الشهر الذي أمضياه في الاعتقال. فقد صارا صديقين حميمين لسجانهما، أي الملازم. وأنا أعرف أنه لم يطلعهما على التفاصيل إلى أن اندلعت الأحداث.

هذا الجزء من القصة، الجزء الأخير، يسبب قلقاً للأستاذ أوببيوث، على الرغم من الوقت الطويل الذي مضى على الأحداث. إنه يتحدث في هذا الجزء بحقد، ودوره في هذا الجزء موضع نقاش وشك. سمعنا دفقة أخرى من إطلاق النار، آتية من بعيد. فز默ج: «ربما هم يعدمون بعض المتواطئين مع الإرهابيين». فهذا هو الوقت الذي يخرجونهم فيه من بيوتهم، ويحملونهم في سيارة جيب أو في مصفحة، وياخذونهم إلى خارج المدينة. وتظهر الجثث في اليوم التالي على الدروب. ويسألني فجأة، دون أي تمهد: «وما مغزى كتابة الرواية بينما البيرو في هذه الحال التي هي عليها، حيث جميع البيرويين يعيشون حياة غير مضمونة؟ هل لهذا أي مغزى؟ وأقول له إنه لا بد أن يكون له مغزى بالتأكيد، ذلك أنني أكتب الرواية فعلاً. هنالك شيء محبط في الأستاذ أوببيوث:

فكل ما يقوله يسبب لي طعماً من الحزن. إنه حكم مسبق، ولكنني غير قادر على التخلص من الإحساس بأنه يتخذ على الدوام موقفاً دفاعياً وأن كل ما يرويه لي ليس له من هدف سوى تبرير موقفة. ولكن، ألا يفعل الجميع ذلك؟ من أين إذن يتولد ارتيابي به؟ هل من بقائه حياؤ أم من الأقاويل والهمسات الكثيرة التي سمعتُ بها ضده؟ ولكن، ألسْت أعرف أن هذه البلاد كانت، في مجال المشاحنات السياسية، مزبلة ضخمة قبل أن تتحول إلى المقبرة التي صارت إليها الآن؟ ألا أعرف الحقارات الكثيرة التي يمكن للخصوم أن ينسبوها إلى بعضهم البعض بالتبادل دون أن يكون لها أي أساس؟ لا، لا يمكن أن يكون هذا هو ما يبدو لي مدعاة للرثاء فيه، وإنما ببساطة انحداره، ومرارته، والحجر الذي يعيش فيه.

أقول له:

- أنت تعني، باختصار، أن مشاركة مايتا في خطة العمل كانت معودمة تماماً.

- لكي أكون عادلاً، أقول إنها كانت في الحدود الدنيا -
صحح لي وهو يهز كتفيه. ثم تضاءب فامتلاً وجهه بالتجاعيد قبل أن يضيق - ثم إن مشاركته أو عدم مشاركته ما كانت ستغير شيئاً في النتائج. لقد تقبلناه معتقدين أنه قائد سياسي ونقابي له بعض الوزن. كنا بحاجة إلى الدعم العمالي والثوري في بقية أرجاء البلاد. وكنا نتصور أن تلك ستكون مهمة مايتا. ولكن تبين أنه لم يكن يمثل حتى جماعته الصغيرة في حـعـثـ (ت). لقد كان، بعبارة سياسية، يتيمـاً كاماـلاً.

«يتيمًا كاملاً». بقيت العبارة ترن في مسامعي بينما أنا أودع الأستاذ أوببيوثر وأخرج إلى شوارع خاوخا المقرفة، متوجهاً إلى نزل باكا، تحت سماء متألقة بالنجوم. لقد قال لي الأستاذ إنه بإمكانني البقاء للنوم في صالة بيته الصغيرة إذا ما كنت أخشى اجتياز الطريق الطويل إلى النزل. ولكنني فضلت الانصراف: إنني بحاجة ماسة إلى الهواء والوحدة. إنني بحاجة إلى تهدئة طنين رأسي والابتعاد بعض الشيء عن شخص يُفقدني حضوره الحماس لعملي. لقد توقفت رشقات الرصاص وبدا كما لو أن هناك حظراً للتجوال لأنه لم يكن ثمة أحد في الشوارع. أسير في منتصف الشارع، وأخطو بقوة، باذلاً جهدي في أن أكون مرئياً حتى لا تظن أي دورية قد تظهر فجأة أبني أحاول التخفي. هناك ضياء يجعل السماء أكثر انخفاضاً، وأشد فراده بالنسبة إلى شخص يعيش في ليماء، حيث لا تكاد النجوم تظهر على الإطلاق، أو أنها تلمع منقطة بسبب الضباب. البرد يقصم الشفاه. لقد فارقني الجوع الذي كنتأشعر به في المساء. يتيم كامل. عادت العبارة إلى ذهني، فقد ناضل دوماً متنقلًا إلى فئات أصفر حجماً وأكثر راديكالية في كل مرة، بحثاً عن نقاط أيديولوجي لم يتوصّل إلى العثور عليه أبداً، وكان يتممه الأكبر في إلقاءه بنفسه وسط هذه المؤامرة الغريبة، من أجل بدء حرب في مرفقات خونين، مع ملازم سجان في الثانية والعشرين من عمره وأستاذ مدرسة عامة، كلاهما منفصل تماماً عن حركة اليسار البيروي. لقد كان ذلك مذهلاً، أجل. وما زال يذهلني بعد سنة أمضيتها في التحرير والبحث، مثلما ذهلت في ذلك اليوم في باريس عندما علمت بما حدث في

خواخا... الضوء الزنخ المنبعث من مصابيح الأعمدة المتبااعدة يلف بظلال سرية واجهات المباني القديمة، لبعضها بوابات ضخمة ومقارع، وأسيجة حديد مشغول وشرفات ذات ستائر معدنية، أتخيل أن وراءها دهاليز وباحات فيها أشجار ونباتات متسلقة، وحياة منظمة ومُضجرة منذ القدم انكمشت اليوم دون شك بفعل الخوف.

ولكن اليتيم الكامل كان يشعر دون شك في زيارته الأولى تلك إلى خواخا بالحماس والسعادة مثلما لم يشعر بذلك من قبل. فهو سيعمل فعلاً، والانتفاضة اتخذت شكلًا ملموساً: هناك وجوه، وأماكن، وحوارات، ووقائع محسوسة. وكأن كل حياته كمناضل، كمتامر، كتقدمي ومعتقل سياسي قد وجدت فجأة مبرر وجودها وانقذفت بقوة نحو الواقع أسمى. ثم إن ذلك يتوافق مع تحقيق ما كان يبدو له قبل أسبوع مجرد حلم هذيني. ألم يكن يحلم لا، إنها الحقيقة والواقع مثلما هي الانتفاضة الوشيكة: إنه يحتضن بين ذراعيه الفتى الذي رغب فيه سراً لسنوات طويلة. لقد أمتعه واستمتع معه، أحس به يئن تحت مداعباته. أحس بدغدغة في خصيته، بسابقة للانتصاف وفكـر: «هل أصبت بالجنون؟ أتفعل ذلك هنا؟ في وسط المحطة؟ هنا، أمام بايغوس؟» وفكـر: «إنها السعادة. فأنت لم تشعر قط بمثل هذا الشعور يا رفيق». لا وجود لأي شيء مفتوح، وأتذكر رحلة سابقة، منذ سنوات، قبل كل هذا، حين كانت دكاكين خواخا الصغيرة التي لا تنسى عند الفروب، مضاءة بِمصابيح كيروسين: محلات الخياطة، والشموع، والحلقة، وتصليح الساعات، ومتاجر الخبز، و محلات القبعات. وكان بإمكان المرء أن يرى على الشرفات أحياناً،

صفوفاً من الأرانب تجفف نفسها في العراء. يعاودني الجوع فجأة، ويمتلئ فمي باللعاب. أفكـر بمايتـا: متهـجاً، سـعيداً، وهو يستعد للعودة إلى ليـما، واثـقاً من أن رفـاقه فيـ حـ عـ ثـ (تـ) سيـؤـيدـون خـطةـ العمل دون تـرـددـ. وـفـكـرـ: «ـسـأـلـتـقـيـ بـأـنـاتـوليـوـ، وـسـنـقـضـيـ اللـيلـ فـيـ الـحـدـيـثـ، سـأـخـبـرـهـ بـكـلـ شـيءـ، سـنـضـحـكـ، وـسـيـسـاعـدـنـيـ فـيـ تـشـجـيعـهـمـ. وـبـعـدـ ذـلـكـ...» يـخـيمـ صـمـتـ مـطـبـقـ، يـقـطـعـهـ أـحـيـانـاـ نـعـيبـ طـائـرـ لـيـلـيـ، غـيرـ مـرـئـيـ تـحـتـ أـفـارـيزـ السـطـوـحـ القرـمـيـدـيـةـ. إـنـيـ أـخـرـجـ منـ الـبـلـدـ. هـنـاـ حدـثـ الـأـمـرـ، هـنـاـ فـعـلـواـ ذـلـكـ، فـيـ هـذـهـ الـأـزـقـةـ الـتـيـ كـانـتـ شـدـيـدـةـ الـهـدـوـءـ وـالـلـازـمـانـيـةـ فـيـ ذـلـكـ الـحـينـ، فـيـ هـذـهـ السـاحـةـ ذاتـ الـأـبعـادـ الـبـدـيـعـةـ وـالـتـيـ كـانـ فـيـهـاـ قـبـلـ خـمـسـ وـعـشـرـيـنـ سـنةـ شـجـرـةـ صـفـصـافـ وـدـائـرـةـ مـنـ أـشـجـارـ السـرـوـ. هـنـاـ، فـيـ هـذـهـ الـبـلـادـ الـتـيـ خـيـلـ إـلـيـهـ أـنـهـ لـاـ يـمـكـنـ أـنـ تـكـوـنـ فـيـ وـضـعـ أـسـوـاـ مـاـ كـانـ عـلـيـهـ، وـأـنـهـ لـاـ يـمـكـنـ لـلـمـجـاعـةـ وـالـمـجاـزـ وـخـطـرـ الـانـقـسـامـ أـنـ تـصـلـ إـلـىـ الـأـبعـادـ الـحـالـيـةـ. هـنـاـ، وـقـبـلـ أـنـ يـرـجـعـ إـلـىـ لـيـماـ، وـبـيـنـمـاـ هـمـاـ يـتـبـادـلـانـ الـوـدـاعـ فـيـ الـمـحـطةـ، أـشـارـ الـبـيـتـ الـكـامـلـ إـلـىـ الـمـلـازـمـ الـمـنـدـفـ بـأـنـهـ مـنـ أـجـلـ تـحـقـيقـ اـنـدـفـاعـةـ أـعـظـمـ فـيـ بـدـاـيـةـ الـانـفـاضـةـ، مـنـ الـمـنـاسـبـ التـفـكـيرـ بـعـضـ أـعـمـالـ الدـعـاـيـةـ الـمـسـلـحةـ.

فـقـالـ باـيـخـوسـ:

- وـمـاـ هـيـ هـذـهـ الدـعـاـيـةـ الـمـسـلـحةـ؟

كـانـ القـطـارـ عـلـىـ الرـصـيفـ وـالـنـاسـ يـصـعـدـونـ مـتـرـاحـمـينـ. وـكـانـاـ يـتـبـادـلـانـ الـحـدـيـثـ قـرـبـ السـلـمـ، مـسـتـغـلـيـنـ الـلـحظـاتـ الـأـخـيـرـةـ.

قـالـ ماـيـتاـ:

- إـذـاـ تـرـجـمـنـاـ هـذـاـ إـلـىـ الـلـغـةـ الـكـاثـولـيـكـيـةـ فـإـنـهـ يـعـنـيـ الـوـعظـ

بالمثال. القيام بأعمال لتنقيف الجماهير، تترسخ في مخيلتها، وتقدم لها أفكاراً، وتحل محل قوتها. إن عملاً من أعمال الدعاية المسليحة يساوي أكثر من مئات الأعداد من مجلة صوت العمال.
كانا يتكلمان بصوت خافت، ولكن لم يكن هناك خطر من أن يسمعهما أحد في صخب الهجوم على عربات القطار.
ـ وهل تريد دعاية مسلحة أكبر من احتلال سجن خاوأ خاوه والاستيلاء على الأسلحة؟ وأكبر من احتلال المفوضية ومركز الحرس الأهلي؟
فقال مايتا:

ـ أجل، أريد ما هو أكثر من ذلك.
فاحتلال هذه المواقع هو عمل عسكري، حربي، يشبه إلى حد ما أجواء الثكنة منذ أن يتزعمه ملازم. وهو غير واضح كفاية من الوجهة الأيديولوجية. يجب استغلال هذه الساعات الأولى إلى أقصى مدى. فالصحف والإذاعات ستتقلل الأخبار بتواتر. وكل ما سيفعلونه في هذه الساعات الأولى سيكون له صدى وسيبقى محفوراً بعمق في ذاكرة الشعب. يجب استغلال هذه الساعات جيداً، وتنفيذ أعمال ذات شحنة رمزية، وأن تصل رسالتها الثورية والطبقية إلى المناضلين الحزبيين، وإلى الطلاب والمثقفين، وإلى العمال والفلاحين.

فقال باييغوس:
ـ هل تعرف؟ أظن أنك على حق.
ـ المهم هو أن نعرف مقدار الوقت المتوفّر لدينا.
ـ سيكون لدينا عدة ساعات. وبعد قطع خطوط الهاتف

والتلغراف وتعطيل جهاز اللاسلكي، ستكون الطريقة الوحيدة لنقل الخبرهي في الذهاب إلى هوانكابيو. والذهاب والعودة وتبئنة رجال الشرطة يتطلب حوالي خمس ساعات.

فقال مايتا:

- هذا يكفي إذن من أجل بعض الأعمال التحقيقية. لتعريف الجماهير بأن حركتنا موجهة ضد السلطة البرجوازية، ضد الإمبريالية والرأسمالية.

ضحك بایيغوس وهو يعانقه:

- إنك تلقي خطاباً، أصعد، أصعد. وبما أنك عائد الآن، فلا تنس المفاجأة التي أهديتها إياها. ستحتاج إليها كثيراً.

«لقد كانت الخطة متكاملة»، قال ذلك الأستاذ أوبيسيو عده مرات خلال محادثنا معاً. أين كان العيب إذن يا أستاذ؟ العيب كان في تبديلها، في التسريع، في قلبها رأساً على عقب. ومن الذي قلب الخطة وتسرع بها؟ لا يمكنني تحديد ذلك بدقة. لقد كان بایيغوس بالطبع. ولكن، لا يمكنون قد فعل ذلك بتأثير ذلك التروتسكي. سأذهب إلى القبر وأنا أحمل هذا الشك». ويقول إن هذا الشك قد أكل حياته، وما زال يأكلها، أكثر من تلك الافتراطات التي تشاء ضده، بل وأكثر من كونه على القائمة السوداء لدى رجال حرب العصابات. لقد اجتذب نصف الطريق نحو النزل دون أن ألتقي بأية دوربة أو دبابية أو إنسان أو حيوان: لا شيء سوى نعيب غير مرئي. النجوم والقمر تتيح رؤية الحقول الهمائة بلونها المائل إلى الزرقة، والمزروعات، وأشجار الأكالبتوس والجبال، والبيوت الصغيرة على جانبي الطريق مسورة بالحجر

والطين مثل بيوت المدينة. لا بد أن مياه البحيرة تستحق الرؤية في ليلة مثل هذه. عندما أصل إلى النزل سأخرج لأراها. المسيرة أعادت إلى الحماسة لكتابي. سأطل على الشرفة وعلى المرسى، ولن تأتي أي رصاصة طائشة أو متهورة لتقطع علىّ متعتي. وسأفك، وأتذكر، وأتخيل إلى أن أتوصل قبل أن يبدأ النهار إلى إعطاء شكل لهذا الفصل من قصة مايتا. دوت صافرة وبدأ القطار يتحرك.

الفصل السادس

- كانت زيارته هي الأشد رعباً بين الزيارات التي أتتني - يقول لي بلاكير. لقد بقيت أرمش، وكأنني أريد ولا أريد التعرف عليه. أكان هو حقاً؟

- أجل، إنني أنا - قال له مايتا بسرعة - هل يمكنني الدخول؟ الأمر مستعجل.

- تصور! تروتسكي في بيتي - ابتسם بلاكير متذمراً القشعريرة التي أحس بها في ذلك الصباح، حين وجد نفسه أمام تلك الزيارة المفاجئة - لا أظن أن هناك حديثاً يمكن أن يجمع بيني وبينك يا مايتا.

- الأمر مهم، مستعجل، إنه فوق كل خلافاتنا - «كان يتكلم باحتمام، وكان بادياً عليه أنه لم ينم ولم يغسل، وبدا شديد الانفعال» - تخشى أن أورطك بمجيئي إلى بيتك؟ فلنذهب إلى أي مكان تشاء إذن.

ويضيف بلاكير:

- كنا قد التقينا ثلاثة مرات. المرتان الأولىان قبل اجتماع جع ث (ت) الذي طردوه فيه باعتباره خائناً. أي بسبب مجئه للقاء بي. أنا، الستالييني.

ويتسم من جديد بأسنانه الملوثة بالتبغ، ويتأملني للحظة من

وراء نظارة قصر البصر السميكة بفتور. إننا في مقهى هايتى في حي ميرافلوريس، والمقهى ما يزال في حالة النقاوه، لم يُنه بعد إصلاح الأضرار التي ألحقها به الانفجار؛ فتوافذه ما زالت دون زجاج، وطاولة الكونتوار والأرضية ما زالت مهشمة ومتتشظية. ولكن ذلك لا يظهر هنا في الشارع. فالجميع فيما حولنا يتكلمون في المسألة نفسها، وكأن زبائن العشرين طاولة التي على الرصيف يشاركون في محادثة واحدة: أيكون صحيحاً أن قوات كوبية قد اجتازت حدودنا مع بوليفيا؟ وأن المتمردين مع «المطوعين» الكوبيين والبوليفيين الذين يدعونهم يدفعون الجيش منذ ثلاثة أيام إلى التقهقر، وأن المجلس العسكري الحاكم قد نبه الولايات المتحدة إلى أن عدم تدخلها سيتيح للمتمردين احتلال مدينة آريكيبا خلال بضعة أيام والإعلان هناك عن قيام جمهورية البيرو المستقلة؟ ولكنني أنا وبلاكير تجنبنا الخوض في هذه الأحداث الكبرى وتحدثنا عن تلك الحادثة الضئيلة والمنسية منذ ربع قرن والتي تدور حولها روایتی.

- لقد كنتُ ستالينياً في الواقع - يضيف بلاكير بعد لحظة -
مثلاً كان الجميع في ذلك الحين. ألم تكن ستالينياً أنت أيضاً؟
ألم تكن تتفعل حماساً لسيرة ستالين المقدسة التي كتبها باربوس؟
ألم تكن تحفظ عن ظهر قلب قصيدة نيرودا في تمجيله؟ ألم
يكن لديك ملصق لرسمه الذي رسمه ييكاسو؟ ألم تبكه عندما
مات؟

لقد كان بلاكير أستاذي الماركسي الأول - قبل خمس
وثلاثين سنة - في حلقة دراسية سرية نظمتها الشبيبة الشيوعية،

في بيت صغير في بوبيلو ليري. صحيح أنه كان في ذلك الحين ستالينياً، مجرد آلة مبرمجة على ترديد البيانات، إنسان آلي يتكلم بنمطية مرسومة. أما الآن فهو رجل مسن، يعيش حياة بائسة بمزاولة أعمال مطبعية. أما زال عضواً في الحزب؟ ربما، ولكنه عضو تابع لن يتوصل مطلقاً إلى تسلق المراتب القيادية: والدليل على ذلك أنه هنا، معى، أمام العيان في وضح النهار، في هذا اليوم الرمادي بغيومه الملبدة التي تبدو وكأنها نذر خبيثة، تتفق تماماً مع الإشاعات حول التدويل النهائي للحرب في جنوب البلاد. ليس هناك من يطارده بينما أدنى قيادات الحزب الشيوعي - أو أي حزب آخر من أحزاب اليسار - قد توارت عن الأنظار، أو أنها اعتقلت أو قتلت. أعرف قصته المشوهة من بعض ما سمعته عنه فقط ولست أنوي التقصي عنها الآن. (لأنه إذا ما صحت الأخبار عن أن الحرب قد عمّت، فلن يكون لدى ما يكفي من الوقت إلا لإنجاز الرواية وحدها؛ وإذا ما وصلت الحرب إلى ليما، وإلى باب بيتي، فإننيأشك في إمكانية إنجازها). ما يهمني من بلاكير الآن هو شهادته حول تلك الاجتماعات الثلاثة التي عقدها مع مايته قبل خمس وعشرين سنة - اجتماعهما هما النقيضان معاً: التروتسكي والستاليني - عشية الانتفاضة في خاوشا. ولكنني كنت مأخذوا طوال الوقت لكون بلاكير الذي كان مهياً دون ريب للوصول إلى اللجنة المركزية وربما إلى زعامة الحزب الشيوعي، أصبح الآن السيد لا أحد. ما جرى له وقع في أحد بلدان وسط أوروبا، في هنغاريا أو تشيكوسلوفاكيا، حيث كان قد أُرسل إلى مدرسة للكوادر، وحيث وجد نفسه متورطاً في مشكلة. وحسب

الاتهامات التي شاعت همساً - الشائعات المعتادة: نشاطات انقسامية، فردية متطرفة، عجرفة برجوازية صفيرة، عدم انضباط، تخريب في خط الحزب - كان من المستحيل معرفة ما قاله أو فعله ليستحق الحرمان. أيكون قد اقترف الجريمة القصوى: أي انقاد الاتحاد السوفييتي؟ وإذا كان قد فعل ذلك، فلماذا انتقده؟ الشيء المؤكد هو أنه طرد من الحزب بضع سنوات، عاش خلالها في المطهر الكثيب للشيوعيين المتظاهرين - ليس هناك من هو أشد يتاماً من عضو مطرود من الحزب، حتى ولا الخوري الذي يخلع مسوح الكهنوت -، متربياً بكل المعانى، إلى أن تتمكن من الرجوع كما يبدو، بعد تقديم النقد الذاتي اللازم على ما أعتقد. ولكن عودته إلى الحظيرة لم تتفوه كثيراً، إذا حكمنا على ما صار إليه منذ ذلك الحين. فالحزب، حسب علمي، أوكل إليه مهمة تصحيح بروفات جريدة أونيداد وبعض الكراسات والمنشورات، إلى أن اتخذت الانتقاضة الأبعاد التي وصلت إليها، فأعثُر الشيوعيون خارجين على القانون وبذلت ملاحقتهم أو اغتیالهم على يد كتائب الحرية. ولكن من غير المحتمل أن يسجنا أو يقتالوا الرجل المحطم الذي صار إليه، اللهم إلا نتيجة خطأ أو حماقة هائلة. لا بد أن مرارة ذكريات الماضي قد وضعت حدأً لأوهامه. ففي كل المرات التي رأيته فيها خلال السنوات الأخيرة - ودائماً ضمن جماعة من الناس، وهذه هي المرة الأولى منذ عشر أو خمس عشرة سنة التي تتحدث فيها على انفراد - كان يبعث في الانطباع بأنه كائن مريض ودون فضول.

- لم يطردوا مايتا من حـث (ت). - أقول له مصححاً - وإنما

هو الذي استقال. في ذلك الاجتماع الأخير بالتحديد. رسالة استقالته نُشرت في صوت العمال (ت). ولدي قصاصة منها.
في صحيح لي هو بدوره مؤكداً:

– بل طردوه. أعرف ما جرى في جلسة التروتسكيين تلك كما لو أنني كنت معهم. لقد روى لي ما يتنافسه تفاصيلها في المرة الأخيرة التي التقينا بها. المرة الثالثة. سأطلب فنجان قهوة آخر، إذا كنت لا تمانع.

الشيء الوحيد الذي يمكن طلبه هو القهوة والمياه الغازية، فحتى قطع البسكويت أصبحت مقتنة الآن، ومن المفترض ألا يقدموا أكثر من فنجان قهوة واحد فقط لكل زبون. ولكن ترتيب لا يحترمه أحد. الناس منفعلون جداً، فالجميع على الطاولات المجاورة يتكلمون بصوت عال. وعلى الرغم مني أجد نفسي مشدوداً لسماع ما يقوله شاب يضع نظارة: في وزارة العلاقات الخارجية يقدرون أن عدد الأئميين الكوبيين والبوليفيين الذين عبروا الحدود «يصل إلى بضعة آلاف». وتفتح الفتاة التي معه عينيها: «أيكون فيدل كاسترو قد دخل أيضاً» فيخيب الشاب أملاها: «لقد كبر كثيراً على مثل هذه المشقات». الصبيان الحفاة ذوو الثياب الرثة في شارع دياغونال يتهافتون مثل النحل على كل سيارة تزيد التوقف، عارضين غسلها، حراستها، تنظيف زجاجها. وأخرون يتجلولون بين الطاولات، عارضين على زبائن مقهى هايتي مسح أحذياتهم وتحويلها إلى مرآة. (يقال إن القنبلة التي انفجرت هنا، وضعها أطفال مثل هؤلاء). وهناك أيضاً جماعات من النساء يقفزن بين المارة والساقيين – حين يتوقف هؤلاء عند إشارات المرور – عارضين عليهم سجائر مهرية. ففي ندرة المواد

الرهيبة التي تعيشها البلاد، ظلت السجائر هي الشيء الوحيد الذي لم يختف. لماذا لا يهربون كذلك معلبات أغذية محفوظة، وبسكويت، وشيئاً لقتل الجوع الذي ننام ونقوم عليه؟

- هذه هي المسألة - قال مايتا لاهثاً. وكان قد تكلم بهدوء، بترتيب، دون أن يقاطعه بلاكير. وقد قال ما أراد قوله. هل أحسن صنعاً بذلك أم أساء؟ لم يكن يعرف ذلك ولا يهمه أن يعرف: كان يشعر كما لو أن كل نعاس الليلة التي أمضتها ساهراً قد داهمه دفعة واحدة .. أترى، لقد كنت محقاً عندما طرقت بابك.

بقي بلاكير صامتاً، ينظر إليه والسيجارة تحترق بين أصابعه النحيلة المصفرة. الحجرة الضيقة كانت غرفة هجينه - فهي مكتب، وغرفة طعام، وغرفة استقبال -، مترعة بالمفروشات، والكراسي، وبعض الكتب، وكانت تبدو في ورق الجدران الباهت بقع من الرطوبة. وبينما كان مايتا يتكلم، سمع في الأعلى صوت امرأة وبكاء طفل. وقد بقي بلاكير جامداً دون حراك، ولولا عيناه المثبتتان عليه لظنه نائماً. لقد كان هذا القطاع من حي خيسوس ماريا هادئاً، ودون سيارات.

- لا يمكن أن يكون هناك استفزاز ضد الحزب أشد فظاظة من هذا - قال بلاكير أخيراً بصوته الخالي من التلونات. وسقط رماد سيجارته على الأرض فداسه بقدمه، وأضاف: كنت أظن التروتسكيين أكثر تهذباً في مكائدتهم. يمكنك أن توفر على نفسك هذه الزيارة يا مايتا.

لم يفاجأ: فقد قال بلاكير ما كان يجب عليه أن يقوله، ربما باستخدام كلمة أقل أو كلمة أكثر. وقد رأى بينه وبين نفسه أنه

على حق: فعلى المناضل أن يرتاتب وبلاكير مناضل جيد، وهذا أمر يعرفه عنه مذ كانا معتقلين معاً في تلك المرة. وقبل أن يرد عليه، أشعل سيجارة وتتاب. وعاد الطفل في الأعلى إلى البكاء. وكانت المرأة تهدئه هامسة.

قال له مايتا:

- تذكر أني لم آت لأطلب شيئاً من حزبك. وإنما لإطلاعك وحسب. وهذا أمر فوق كل خلافاتنا. إنه يخص جميع الثوريين.
فدمدم بلاكير:

- بمن في ذلك الستاليينيون الذين خانوا ثورة أكتوبر؟
- أجل، بمن في ذلك الستاليينيون الذين خانوا ثورة أكتوبر -
وافق مايتا، ثم بدل نبرة صوته قائلاً: لقد فكرتُ في الأمر طوال الليل، قبل أن أقوم بهذه الخطوة. إنني أرتاتب فيك بقدر ما ترتاتب أنت في. ألا تلاحظ ذلك؟ أظنني لا أدرك مدى مجازفتي؟ إنني أضع بين يديك ويدي حزبك سلاحاً رهيباً. ومع ذلك، ها أنا ذا هنا. فلا تتكلم عن استفزازات لست مؤمناً بها. فكر قليلاً.

هذا أحد الأمور التي لا أستطيع فهمها تماماً في هذه القصة، إنه الحدث الأكثر غرابة. ألم يكن من العبث كشف تفاصيل انتفاضة مسلحة أمام عدو سياسي لن يقترح عليه. وهذا هو الأسوأ - عقد تحالف، أو القيام بعمل مشترك، أو تقديم مساعدة محددة؟ ما هو معنى كل ذلك؟ ويقول أحدهم في المقهى: «صباح هذا اليوم، قالوا في إذاعة الثورة هذه، إن الرايات الحمراء ترفرف فوق مدینتي أريکيبيا وکوسکو». فيرد آخر «أوهام».

- وعندما جاء لرؤيتي، لم يَبْدُ لي أن للأمر أي معنى - يوافقني

بلاكير.. فقد ظنت أول الأمر أنها مكيدة. أو أنه قد تورط في أمر ما وندم عليه ويريد التملص منه بخلق تعقيدات ومصاعب... وفيما بعد، على ضوء الأحداث التي جرت، اتضح الأمر.

- الأمر الوحيد الواضح هو الخنجر المسدّد إلى الظهر - مجر الرفيق بيـاريـدي -. فتسول الدعم من الستاليـينـيينـ من أجل هذه المغامرة ليس عمـلـاـ يـنمـ عن عدم انضباطـ بلـ هوـ بـسـاطـةـ وـوضـوحـ خـيـانـةـ.

- سأشرح لك مجدداً إذا اقتضى الأمر - قاطعه مايتـاـ دون غضـبـ. وكان يجلس على رزمهـ منـ أـعـدـادـ صـوـتـ العـمـالـ وـيـسـنـدـ ظـهـرـهـ إـلـىـ مـلـصـقـ لـوـجـهـ تـرـوـتـسـكـيـ. وـخـلـالـ ثـوـانـ قـصـيـرـ سـيـطـرـ توـرـ مـكـهـرـبـ عـلـىـ الـكـرـاجـ فـيـ شـارـعـ ثـورـيـتوـسـ - وـلـكـنـ عـلـيـنـ أـيـهـاـ الرـفـاقـ أـنـ نـوـضـحـ أـمـرـاـ قـبـلـ كـلـ شـيءـ. فـهـلـ مـاـ تـعـنـيهـ هـوـ الـثـورـةـ عـنـدـمـ تـتـكـلـمـ عـنـ مـغـامـرـةـ؟

يتذوق بلاكير ببطء قهوته كثيرة الماء ويمر بطرف لسانه على شفتيه المزمومتين. يغمض عينيه ويبقى صامتاً، وكأنه يفكـرـ فيـ الحـوارـ الدـائـرـ عـلـىـ طـاـوـلـةـ مـجاـوـرـةـ: «إـذـاـ كـانـ الـخـبـرـ صـحـيـحاـ، فـقـدـأـ أوـ بـعـدـ غـدـ ستـكـونـ الـحـربـ هـنـاـ فـيـ ليـماـ». «أـتـعـقـدـ ذـلـكـ يـاـ بـاـتـشـوـ؟ـ آـهـ، كـيـفـ سـتـكـونـ الـحـربـ، أـلـيـسـ كـذـلـكـ؟ـ» يـتـقدـمـ المـسـاءـ، وـحـرـكـةـ مـرـورـ السـيـارـاتـ تـزـدـادـ كـثـافـةـ. شـارـعـ دـيـاغـوـنـالـ مـخـتـقـ. أـعـدـادـ الصـبـيـةـ الـمـتـسـوـلـينـ وـبـائـعـاتـ السـجـائـرـ قـدـ اـزـدـادـتـ أـيـضاـ. وـيـصـرـخـ شخصـ حـانـقـ: «يـسـعـدـنـيـ أـنـ يـدـخـلـ الـكـوـبـيـوـنـ وـالـبـولـيفـيـوـنـ. فـالـآنـ لـمـ يـعـدـ لـدـيـ "ـالـمـارـينـزـ"ـ الـذـيـنـ فـيـ الإـكـوـادـورـ ذـرـائـعـ لـعـدـمـ التـدـخـلـ. بلـ رـيـماـ يـكـوـنـونـ قـدـ أـصـبـحـواـ فـيـ بـيـورـاـ، فـيـ تـشـيكـلاـيوـ. فـلـيـقـتـلـوـ

كل من يجب قتلهم ويضعوا حداً لكل هذا، اللعنة»، أنا أكاد لا اسمعه، لأن تكهناته الدموية أقل حيوية في الحقيقة من ذلكما الاجتماعيين، في مدينة ليما نفسها، ولكنها ليما ذات سيارات أقل، وبائسين أقل، ومهربين أقل، ويبدو من المستحيل فيها وقوع الأحداث التي تجري الآن: مايتا يذهب في الاجتماع الأول ليشاطر أعداءه الستاليينيين أسراره التآمرية، ومايتا يتجادل في الاجتماع الثاني مع رفاقه في الجلسة الأخيرة للجنة المركزية لـ حزب العمال الثوري (التروتسكي).

- مجئه لرؤيتي هو التصرف العاقل الوحيد الذي قام به وسط الرعونة التي ورط نفسه بها - يضيف بلاكير. وكان قد خلع نظارته لينظفها فبدا وكأنه أعمى. إذا ما توطدت جماعة حرب العصابات، فسوف يحتاجون لدعم من المدينة. شبكات ترسل إليهم الأدوية والمعلومات، ويمكنها إخفاء ومعالجة الجرحى، وتجنيد مقاتلين جدد. شبكات تكون أجهزة إعلام وتشهير بالعمليات الانتقامية. من سيشكل هذه الشبكات؟ أيشكلاها العشرون تروتسكيياً الذين كانوا في بيرو؟

قال له مايتا محدداً:

- الواقع أننا سبعة فقط.

هل فهمه بلاكير؟ جموده كان مرة أخرى مثل تمثال. كان يقرب رأسه، شاعراً بأنه يتعرق، متبعاً الكلمات التي يحتلساها مني التعب والقلق، ساماً من حين لآخر، في هذه الأعلى المجهولة، صوت الطفل والمرأة. وقد أوضحت له مجدداً: لا أحد يطلب من أعضاء الحزب الشيوعي الذهاب إلى الجبال - وكان قد

احتاط ولم يأت على ذكر بایيغوس أو خاوخا أو أي موعد محدد -، ولا أن يتخلوا عن طروحتهم، وأفكارهم، وأحكامهم المسبقة، ومعتقداتهم الدوغماذية وأى شيء آخر. وإنما أن يعرفوا بالأمر فقط ويكونوا متاهبين. فعما قريب سينشأ وضع يجدون أنفسهم فيه أمام خيار تطبيق قناعاتهم عملياً أو التكر لها، عما قريب سيتوجب عليهم أن يبرهنو للجماهير ما إذا كانوا يريدون فعلاً إسقاط النظام المستفل واستبداله بنظام عمالي – فلاحي ثوري، أو أن كل ما كانوا يقولونه هو مجرد خطابية للعيش في خمول في ظل القوة العظمى الحليفـة التي تباهمـانـا بانتظارـ أنـ يـأتـيـ يوم تسقطـ الثـورـةـ فيهـ عـلـىـ الـبـيـرـوـ كـهـدـيـةـ منـ السـمـاءـ.

- عندما تهاجمـناـ تـبـدوـ أـنـكـ أـنـتـ نـفـسـكـ . قال بلاكـيرـ . ماـ الـذـيـ جـئـتـ تـطـلـبـهـ؟ـ حـدـدـ ماـ تـرـيـدـهـ قـلـيـلاـ .

- أن تكونـواـ جـاهـزـينـ . وـفـكـرـتـ:ـ «ـهـلـ سـيـنـقـطـ صـوتـيـ؟ـ»ـ فـأـنـاـ لمـ أـشـعـرـ مـطـلـقاـ بـمـثـلـ هـذـاـ الإـنـهـاكـ؛ـ كـانـ عـلـىـ أـبـذـلـ جـهـداـ كـبـيرـاـ كـيـ أـنـطـقـ كـلـ حـرـفـ.ـ وـفـيـ الأـعـلـىـ،ـ اـنـطـلـقـ الـطـفـلـ يـبـكـيـ صـارـخـاـ مـنـ جـدـيدـ .ـ لـأـنـاـ عـنـدـمـاـ نـبـدـأـ الـعـمـلـ،ـ سـيـكـونـ هـنـاكـ هـجـمـةـ مـضـادـةـ شـرـسـةـ.ـ وـأـنـتـ لـنـ تـجـوـجـواـ مـنـ القـمـعـ بـالـطـبـعـ .

- بـالـطـبـعـ .ـ تـلـعـمـ بـلـاـكـيرـ .ـ إـلـاـ إـذـاـ كـانـ مـاـ تـقـولـهـ مـجـرـدـ هـرـاءـ .ـ فـالـحـكـومـةـ وـالـصـحـافـةـ وـالـجـمـيعـ سـيـقـولـونـ إـنـاـ نـحـنـ مـنـ خـطـطـنـاـ لـلـأـمـرـ وـنـفـذـنـاهـ بـذـهـبـ مـوـسـكـوـ وـأـوـامـرـهـاـ .ـ أـلـيـسـ كـذـلـكـ؟ـ

- مـنـ الـمحـتمـلـ أـنـ يـكـونـ الـأـمـرـ كـذـلـكـ .ـ قـلـتـ موـافـقاـ .ـ وـكـانـ بـكـاءـ الـطـفـلـ يـزـدـادـ قـوـةـ وـبـكـاؤـهـ يـشـوـشـنـيـ .ـ وـلـكـنـ،ـ هـاـ أـنـتـ قدـ عـلـمـتـ الـآنـ .ـ يـمـكـنـكـمـ اـتـخـاذـ الـاحـتـيـاطـاتـ .ـ أـضـفـ إـلـىـ ذـلـكـ...ـ

بقيت مفتوح الفم وليس بي رغبة في إكمال كلامي، وللمرة الأولى منذ بداية دردشتني مع بلاكير أحسست بالتردد. كان وجهي مغطى بالعرق، والحدقتان متسعتين، ويداي ترتعشان. أمغامرة وخيانة؟

- إنهم الكلمتان المناسبتان وأنا أؤكد عليهما - قال الرفيق كارلوس بجفاء، ثم أضاف: - فالرفيق بيباردي لم يقل سوى الحقيقة.

فتبعه الأمين العام:

- يجب التركيز على بايخوس الآن. لقد اتفقنا على مناقشة مسألة خاوخا أولاً. أما مقابلة الرفيق مايتا مع بلاكير، فسنناقشهما فيما بعد.

- صحيح - أجاب الرفيق كارلوس، وفكر مايتا: «إنهم يقلبون لي كل شيء»، وتتابع كارلوس: - إنه ملازم يطرح ثورة على شكل «انقلاب»، دون دعم نقابي، دون مشاركة من جانب الجماهير. مادا يمكننا أن نطلق على هذا كله سوى أنه مغامرة؟

- يمكننا أن نسميه استفزازاً أو تهريجاً - تدخل الرفيق ميداردو. ثم نظر إلى مايتا دون رحمة وأضاف بحركة حاسمة: - لا يمكن للحزب أن يقدم على التضحية في سبيل أمر ليس له أدنى حظ من النجاح.

أحس مايتا بأن رزمه صوت العمال التي يجلس عليها أخذت تميل وفكربكم سيكون مضحكاً الانزلاق عنها والسقوط قاعداً على مؤخرته. نظر بطرف عينه إلى رفاقه وفهم سبب تحييهم له عن بعد عندما وصل، وسبب عدم تعجب أحد عن هذه الجلسة.

أيكونون جميعهم ضده؟ بمن في ذلك أعضاء فريق العمل؟
 وأناتوليوا أيضاً ضده؟ وبدلًا من اليأس أحسست بغيثان غضب.
- أضف إلى ذلك أي شيء؟ - شجعني بلاكير على مواصلة
الكلام.

- البنادق - قلت بطرف صوتي -. لدينا أكثر مما نحتاج إليه.
فإذا أراد الحزب الشيوعي أن يدافع عن نفسه عندما يبدأ إطلاق
النار، فسنعطيه أسلحة. وبالمجان طبعاً.

رأيت أن بلاكير، وبعد بضع ثوان من الصمت، قد أشعل
سيجارته ذات العدد غير المحدد في هذا الصباح. ولكن الثقب
انطفأ مررتين وحين سحب النفس الأول منها احتق. «هذه المرة
اقتتلت بأن الأمر جدي». رأيته ينهض واقفاً، ينفث الدخان من أنفه
وفمه، ويطل إلى الغرفة المجاورة ويصرخ: «خذيه للقيام بجولة. إنه لا
يتركنا نتكلم بيكمائه هذا». لم يأته أي جواب، ولكن الطفل
توقف عن البكاء فوراً. عاد بلاكير للجلوس. ليتأملني.. ليستعيد
هدوءه. ثم دمم:

- لست أدري إذا كانت هذه مكيدة يا مايتا. ولكنني أعرف
أمراً واحداً مؤكداً. لقد أصابك الجنون. هل تعتقد فعلاً أنه يمكن
أن تكون للحزب، في أي حال، ولأي سبب، قضية مشتركة مع
التروتسكيين؟

- مع الثورة، وليس مع التروتسكيين - أجبته -. أجل، أعتقد
بذلك. ولهذا جئت لمقابلتك.

- إنها مغامرة برجوازية صغيرة، إذا ما توحينا الدقة - قال ذلك
أناتوليوا، وبمجرد ملاحظتي أنه بدأ يتلعثم، عرفت ما الذي

سيضيفه، وعرفت أنه قد حفظ ما سيقوله: - الجماهير غير مدعوة وليس لها أي دور في الخطة. ومن جهة أخرى، ما هي الضمانة بأن قروبي أو تشوبيamba سينتفضون إذا ما ذهبنا إلى هناك؟ لا توجد أي ضمانة. ومن منا رأى هذين القائدين السجينين؟ لا أحد. ومن سيقود كل هذا؟ هل سنكون نحن؟ لا. من سيقود العمل هو ملازم ذو عقلية انقلابية ومحامر إلى أقصى الحدود. وما هو الدور الذي يقدمه لنا؟ أن تكون العربية الأخيرة في القطار، ولحم المدافع. - ثم التفت الآن وكانت لديه الجرأة على النظر إلى عيني مباشرة ليضيف: -

واجبني أن أقول ما أفكّر فيه يا رفيق.

«لم يكن هذا ما كنت تفكّر فيه ليلًا» أجبته في ذهني. أو ربما كان كذلك بينما لم يكن موقفه في العشية إلا مجرد تصريح تضليلي. ولكي أفعل شيئاً يشغلني، قمت بتسوية الصحف التي أجلس عليها بتأنٍ وأعدت الصاقها إلى الجدار. فعندما وصلت الأحوال إلى هذا المستوى، أصبح الأمر جلياً: لقد كان هناك اجتماع مسبق، اتفقت فيه اللجنة المركزية لـ«حـثـتـهـ» على ما يدور الآن. ولا بد أن أناتولي قد حضر ذلك الاجتماع. أحسست بطعم لاذع، وبتوشك في العظام. إنه تهريج مبالغ فيه. ألم نكن قد تحدثنا مطولاً في الليلة السابقة في غرفتي في شارع ثبيتا؟ ألم نراجع معاً خطة العمل؟ هل ستودع أحداً قبل أن تصعد إلى الجبال؟ سأودع أمي فقط. وماذا ستقول لها؟ سأقول لها إنني قد حصلت على منحة دراسية في المكسيك، وسأكتب إليك كل أسبوع يا أماه. وهل كان لديه آنذاك تردد، قلق، شكوك، تناقضات؟ ولا أي شيء من هذا، بل كان يبدو متحمساً وثابتاً

الجأش تماماً. كنا مستلقيين في الظلام، وكان السرير الضيق يصر بنفور جسده المجاور لجسدي كلما سمع ركض الجرذان في بطانة السقف. تلك الاهتزازات المفاجئة كانت تكشف لي لهنيهة أجزاء من بشرة أناستوليو، وكانت انتظرها بلهفة. وبينما فمِي قبالة فمه قلت له فجأة: «لا أريدك أن تموت أبداً». ثم قلت بعد لحظة من ذلك: «هل فكرت في أنك قد تموت؟». وبصوت جعلته الرغبة لزجاً وخافتاً، أجابني في الحال: «لقد فكرت في ذلك بالطبع. ولستُ أبالي» وبينما أنا متآلم وممزعن فوق رزمة صوت العمال التي تهدد بالانفراط ثانية، فكرت: «الواقع أنك تبالي».

- ظننت أنه يريد التظاهر، أو أنه يعاني مشاكل عصبية، ظننت أنه... - ويصمت بلاكير لأن الفتاة التي إلى المنضدة المجاورة أطلقت ضحكة. ثم يضيف: - قد يحدث للرفاق أحياناً مثلما يحدث للعسكريين الذين يظنون يوماً أنهم نابليون. وقد فكرت يومذاك: حين استيقظ مايتا صباح اليوم أحس أنه لينين عند وصوله إلى محطة فنلندا.

يصمت ثانية بسبب ضحكات الفتاة. وعلى طاولة أخرى هناك سيد يوجه تعليمات بملء حجرته: املؤوا مفاطس البانياو، والمغاسل، والدلاء، والبراميل، وضعواها في كل الغرف والأركان، املؤوها ولو بماء البحر. لأنه إذا دخل الشيوعيون، فالولايات المتحدة ستقصص، والحرائق ستكون عندي أخطر من القنابل. هذه هي الأولوية، صدقوني: يجب أن يكون الماء في متناول اليد لإطفاء الحرائق فور اشتعالها.

وواصل بلاكير:

- ولكن على الرغم من الواقع الخيالي لكلامه، فقد كان صحيحاً. كل ما قاله كان صحيحاً. كان لديهم فائض من البنادق. فالملازم كان قد سرق بعض الأسلحة من أحد مستودعات الجيش، هنا في ليما. وكان يخفيها في مكان ما. أنت تعرف أنه كان قد أهدي إلى مaita مسدساً رشاشاً، أليس كذلك؟ لقد كان من تلك الفنائيم المخبأة على ما يبدو. لا بد أن فكرة التمرد المسلح كانت متسلطة على عقل بابيغوس مذ كان تلميذ ضابط. لم يكن مجنوناً، فقد كان عرضه صريحاً. عرض أحمق، ولكنه صريح. طيف ابتسامة يكشف عن أسنانه الملوثة. وبحركة فظة يبعد صبياً يحاول أن يمسح له حذاءه، ويقول ساخراً:

- لم يكن لديهم من يعطونه السلاح، كانت تقصصهم الأيدي لحمل تلك البنادق.

- وماذا كانت ردة فعل الحزب؟

- لم يول أحد الأمر اهتماماً، ولم يصدق أحد كلمة واحدة من ذلك. لا شأن البنادق، ولا بخصوص حرب العصابات. ففي صيف 1958، وقبل شهور من دخول الملتحين إلى هافانا، من كان يصدق مثل هذه الأمور؟ وكان رد فعل الحزب مثلما هو متوقع منطقياً. لا بد من قطع الاتصال مع هذا التروتسكي، لأنة يحمل في يديه ألعوبة ما. وقد قطعتُ علاقتي به بالطبع.

هناك سيدة تتهم رجل دلاء الماء بالجهل. ففي مواجهة القنابل لا سبيل سوى تسليم الأمر لله! دلاء ماء لمواجهة القصف! أيظن هذا التعيس البائس أن الحرب كرنفالاً؟ فيز مجر الرجل: «مؤسف أنك لستَ رجلاً، وإلا كنتُ هشمت وجهك» فيرد عليه مرافق السيدة

بشهامة: «أنا رجل، هيا هشم وجهي لأرى». يبدو أنهم سيتشارجران.
- مكيدة أو جنون أو أي شيء آخر، لا نريد معرفة أي شيء
عن القضية - قال بلاكير لمايتا - ولا نريد رؤيتك أنت أيضاً.
- كنتأتوقع ذلك. فأنتم ما أنتم عليه وستظلون كذلك لوقت
طويل.

يفصلون بين الرجلين المتشاجرين، وبالسرعة التي اشتدت بها حميتهما عادت تهدأ من جديد. وقالت الفتاة: «لا تتشاجرا، علينا في هذه اللحظات أن نكون متحددين». وكان هناك رجل أحذب ينظر إلى ساقيها.

- لقد كانت صفعة قاسية بالنسبة إليه - يقول بلاكير ذلك وهو يبعد ماسح أحذية آخر كان يحاول إمساك حذائه - فمن أجل المجيء للقاء بي، كان عليه أن يحطم كوابح كثيرة. لا شك في أنه توصل إلى القناعة بأنه يمكن للانتفاضة أن تزيح الجبال التي تفصل ما بيننا. إنها السذاجة القصوى.

يرمي عقب السيجارة على الأرض، وفي الحال يرتمي شبح يرتدي ما يشبه ممسحة ملطخة بالسواد، فيحمل العقب ويحاول مصه، يحاول سحب نفس أخير من دخانه. أهكذا كنت عندما أقدمت على الخطوة التي لا تصدق بالذهاب إلى بلاكير؟ أهكذا كنت متلهفاً عندما أدركت أن ساعة الصفر قد أزفت ولسنا سوى حضنة نحن الذين سننتفض، وأتنا نفتقر إلى أدنى حد من تنظيمات الإسناد في المدينة؟

- وكان ما يزال بحاجة إلى طلقة الرحمة - يضيف بلاكير -
فقد طرده حزبه بتهمة الخيانة.

كان هذا ما قاله خاثينتو ثيفايوس حرفياً. فأن يقول ذلك المناضل المُجرب، العامل، لقية البيرو التروتسكية، كان الأمر الأكثر بللة في تلك الجلسة التي سمع فيها الكثير من العبارات المعادية. لقد كانت أقسى من بلهوانيات أناتولي. لأنه كان ينظر باحترام ومحبة إلى العجوز ثيفايوس. لقد تكلم الأمين العام سخط ولم يتحرك أحد:

- أجل يا رفيق، فطلب التعاون مع الستالينية المحلية في هذا المشروع، ومن وراء ظهرنا، مستخدماً اسم الحزب، هو أمر أكبر من أن يكون عملاً انشقاقياً. إنه الخيانة. وتوضيحتك تزيد الأمور سوءاً، فأنت تقدم التبريرات بدل أن تعرف بأخطائك. يجب على أن أطلب فصلك من الحزب يا مایتا.

أي توضيحة قدّمتُ إليهم؟ مع أن أيّاً من حضروا تلك الجلسة لا يوافق على أنها قد جرت، إلا أننيأشعر بالحاجة إلى أن تكون قد حدثت مثلما يرويها لي بلاكيير. ماذا يمكن أن يقال لهم لتبرير زيارتي للعدو اللدود؟ ولكن بالنظر إلى ما جاء فيما بعد، فإن هذا العدو لم يعد يبدو لدوداً جداً. فهو لاء «الحمر» الذين يمكن لهم أن يدخلوا إلى ليما غالاً أو بعد غد ينتمون إلى طيف واسع من الماركسيين، ومن يقاتلون الآن ظاهرياً تحت راية واحدة، فهناك بينهم موسكوبيون وتروتسكيون وماويون. فالثورة بالغة الأهمية والجدية والصعوبة بحيث لا يمكن لها أن تكون احتكاراً لأحد، أو امتيازاً لمنظمة بعينها، حتى وإن كانت هذه المنظمة قد حلت الواقع البيروي بصورة صحيحة أكثر من سواها. فالثورة لن تكون ممكناً مالم يستبعد جميع الثوريين خلافاتهم، ولكن دون أن يتخلوا في

المرحلة الأولى عن مبادئهم الخاصة، ويتوحدوا في عمل محدد ضد العدو الطبقي. سينه اللباس، أربعيني، متعرق، منفعل بإفراط، عيون ترمش بكثرة، كان يحاول أن يبيعهم هذه الدمية الغرائبية التي بدللت حياته وهو متأكد من أنه يمكن لها أن تبدل أيضاً حيواناتهم وحياة اليسار كله: الممارسة العملية، الممارسة المطهرة، الفادية، المُبرئَة. فهي التي ستهدب الفظاظة والعداوات وليدة الأنانية والشخصانية، وستوحد الجماعات والاتجاهات في تيار منيع سيجرف كل الثوريين، يا رفاق. ولهذا ذهب للتكلم مع بلاكير. لا ليكشف له أي عنصر حساس، لأنه لم يخرج من فمي أي اسم أو موعد محدد أو مكان، ولم أفعل ذلك لأورط حـ (ت)، لأن أول ما لفت نظر بلاكير إليه هو أنني أتكلم بصفتي الشخصية وأن أي اتفاق مستقبلي يجب أن يتم حزباً لحزب. وقد ذهبت للقائه دون طلب تفويض من أجل كسب الوقت يا رفاق. لا يستعد للذهاب إلى خواخا؟ وقد ذهب ببساطة لينبههم إلى أن الثورة ستبدأ، حتى يستخلصوا النتائج الالزامية إذا كانوا ثوريين وماركسيين، مثلما يدعون. لكي يكونوا مستعدين للدخول في النضال. لأن الرجعية ستدافع عن نفسها، وستضرب مثل وحش محاصر، ومن أجل مواجهة أننيابها ومخالبها لا بد من تشكيل جبهة موحدة... هل استمعوا إليه حتى النهاية؟ هل أجبروه على الصمت؟ هل طردوه بصفعات وشتائم من الكراج في شارع ثوريتوس؟

- تركوه يتكلم عدة مرات. - يؤكّد لي بلاكير. - كان الجو متوتراً جداً، وظهرت إلى العلن شؤون شخصية، وكاد مايتا وخواكين أن يتبدلا الضرب. وبعد أن صوتوا ضده، بعد أن قتلوه

وأجهزوا عليه، رفعوه عن الأرض، حيث كانوا قد حولوه إلى خرقه قذرة، وقدموا إليه مخرجاً نوع من الميلودrama التروتسكية. هذا الاجتماع الأخير لحزب العمال الثوري (التروتسكي) سيكون مفيداً جداً لك على ما أظن.

- أجل، أظن ذلك. ولكنني لم أفهم بعد، لماذا ينكر موسيس وأناتولي وبياريدي وخواكين إنكاراً حاسماً انعقاد هذا الاجتماع؟ إن روایاتهم تتعارض في موقع كثيرة، ولكنها تتفق تماماً في هذه النقطة: فهم يقولون إن استقالة مايتا قد وصلتهم بالبريد، استقال بمبادرته الشخصية عند ذهابه إلى خاوشا، حين قرر عـ ثـ (ت) عدم المشاركة في الانتفاضة. فهو ضعف ذاكرة جماعي؟

- بل ضعف ضمير جماعي - همس بلاكير -. لم يكن بإمكان مايتا أن يختلق هذه الجلسة. جاء ليروي ما جرى فيها بعد انعقادها بساعات. لقد كانت طلقة الرحمة ولا شك في أنه قد أزعجهم. لأنهم في وسط الحملة عليه، واجهوه بكل شيء، بما في ذلك عقب أخيه. أتصور مدى القسوة؟

- من الأفضل أن تقول إننا مقبلون على نهاية العالم يا صديقي -. هتف زيون ساير. وكانت الفتاة تضحك ضحكة مجونة وسعيدة، بينما الأطفال المسؤولون لا يتزكون لحظة تمر بهدوء، فقد راحوا يتقاذفون بأقدامهم علبة صفيح بين أرجل المارة في الشارع.

- وهل أخبرك بهذا الأمر أيضاً؟ - أقول له متفاجئاً - لقد كان موضوعاً لا يتطرق إليه مطلقاً، حتى مع أفضل أصدقائه. لماذا بحث عنك أنت بالذات في تلك اللحظة؟ لست أفهم ذلك.

- وأنا لم أفهم الأمر في البداية، أما الآن فأظن أنني أفهمه -

يقول بلاكير.. يجب ألا تنسى أنه كان ثورياً مئة بالمئة. وقد طردوه من حـعـثـ(ـتـ). ربما أمكن لذلك أن يدفعنا إلى إعادة النظر بـمـوقـفـنـاـ السـلـبـيـ. وربما نأخذ على محمل الجد خطة انتفاضته.

- لقد كان علينا في الواقع أن نطردك منذ زمن - يؤكـدـ الرـفـيقـ خـواـكـينـ، وـيـنـظـرـ مـجـدـداـ إـلـىـ ماـيـاتـاـ بـطـرـيـقـةـ دـفـعـتـنـيـ إـلـىـ التـفـكـيرـ: «ـلـمـاـذـاـ يـكـرـهـنـيـ؟ـ»ـ، ويـتـابـعـ:ـ سـأـقـولـ لـكـ دـوـنـ موـارـيـةـ،ـ كـمـارـكـسـيـ وـثـورـيـ.ـ آـنـاـ لـاـ أـسـتـغـرـبـ إـقـادـمـكـ عـلـىـ ماـأـقـدـمـتـ عـلـيـهـ،ـ هـذـهـ المـكـيـدـةـ،ـ وـذـهـابـكـ لـلـتـحدـثـ خـفـيـةـ مـعـ ذـلـكـ الشـرـطـيـ الـسـتـالـيـنـيـ المـدـعـوـ بـلـاكـيرـ.ـ لـسـتـ رـجـلـاـ سـوـيـاـ لـأـنـكـ بـكـلـ صـرـاحـةـ لـسـتـ رـجـلـاـ فـيـ الأـصـلـ يـاـ مـاـيـاتـاـ.

فـقـاطـعـهـ الـأـمـيـنـ الـعـامـ:

- غـيرـمـسـمـوحـ التـحدـثـ فـيـ الشـؤـونـ الشـخـصـيـةـ.ـ ماـقـالـهـ خـواـكـينـ فـاجـأـ مـاـيـاتـاـ فـلـمـ يـسـتـطـعـ قـوـلـ شـيـءـ:ـ سـوـىـ هـزـ كـتـفـيـهـ.ـ لـمـاـذـاـ فـوـجـئـتـ إـلـىـ هـذـاـ الحـدـ؟ـ أـلـيـسـ أـمـرـاـ فـيـ إـحـدـىـ شـايـاـ الدـمـاغـ السـرـيـةـ،ـ وـكـنـتـ أـخـشـىـ أـنـ يـرـزـ فـيـ كـلـ الـمـانـاظـرـاتـ،ـ ضـرـيـةـ مـفـاجـئـةـ إـلـىـ أـسـفـ تـمـنـعـ الـهـوـاءـ عـنـ وـتـرـكـهـ كـسـيـحـاـ طـوـالـ ماـتـبـقـيـ منـالـنـاقـشـةـ؟ـ كـانـ يـحـسـ تـشـنجـاـ فـيـ جـسـمـهـ كـلـهـ،ـ فـعـدـلـ مـنـ وـضـعـهـ فـوـقـ رـزـمـةـ الصـحـفـ،ـ وـفـكـرـ مـذـعـورـاـ:ـ «ـسـيـنـهـضـ أـنـاتـوليـوـ وـيـعـتـرـفـ بـأـنـنـاـ نـمـنـاـ مـعـاـ فـيـ الـلـيـلـةـ الـمـاضـيـةـ»ـ.ـ مـاـذـاـ سـيـقـولـ؟ـ مـاـذـاـ سـيـفـعـلـ؟ـ

- الـأـمـرـ لـيـسـ شـخـصـيـاـ،ـ بـلـ لـهـ عـلـاقـةـ بـمـاـ جـرـىـ -ـ ردـ الرـفـيقـ خـواـكـينـ،ـ وـوـسـطـ خـوـفـيـ وـتـشـوـشـيـ،ـ عـرـفـ مـاـيـاتـاـ أـنـ يـكـرـهـهـ فـعـلـاـ:ـ هـلـ فـعـلـتـ لـهـ شـيـئـاـ خـطـيرـاـ وـجـارـحـاـ فـيـ أـحـدـ الـأـيـامـ لـيـوـجـهـ إـلـىـ مـثـلـ هـذـاـ الـانتـقامـ؟ـ وـوـاـصـلـ الرـفـيقـ خـواـكـينـ:ـ هـذـهـ الطـرـيـقـةـ الـمـلـتوـيـةـ

والنزوية في التصرف، وهذا الذهاب بحثاً عن أعدائنا، هو تصرف مخنث يا رفاق. لم يقل قطّ من قبل بسبب بعض الاعتبارات أن مايتا لم يكن معنا. فهل يمكن للمرء أن يكون ثورياً مخلصاً ومثلياً في آن واحد؟ هذا هو جوهر المسألة يا رفاق.

وفكرت بسخف: «لماذا يقول مثلياً ولا يقول مخنث؟» أليسـتـ كلمة مخـنـثـ هي التـسـمـيـةـ الدـقـيقـةـ؟ـ وبينـماـ هوـ يـسـتعـيدـ السـيـطـرـةـ علىـ نـفـسـهـ رـفـعـ يـدـهـ مـشـيراـ إـلـىـ الرـفـيقـ خـاثـيـنـتوـ بـأـنـهـ يـرـيدـ الـكـلامـ.ـ

- هل أنت متأكد من أن مايتا نفسه هو الذي أخبرهم بأنه ذهب اللقاء بك؟

- أكـيدـ.ـ كـانـ يـظـنـ أـنـ يـفـعـلـ الصـوـابـ -ـ يـؤـكـدـ بلاـكـيرـ.ـ أـرـادـ أنـ يـقـومـ بـحـرـكـةـ نـاجـحةـ.ـ فـعـنـدـمـاـ يـذـهـبـ الثـلـاثـةـ الـذـهـابـ إـلـىـ خـاوـخـاـ،ـ يـحـاـوـلـ الآـخـرـونـ الـذـينـ سـيـبـقـونـ فـيـ لـيـماـ الـاتـفـاقـ مـعـنـاـ مـجـدـداـ.ـ لـقـدـ كـانـ ذـلـكـ التـصـرـفـ هـوـ تـمـادـيـهـ الأـكـبـرـ.ـ فـالـتـرـوـتـسـكـيـوـنـ الـذـينـ مـاـ كـانـوـ يـعـرـفـونـ كـيـفـ يـتـلـمـصـونـ مـنـ مـسـأـلـةـ خـاوـخـاـ الـتـيـ لـمـ يـؤـمـنـواـ بـهـاـ مـطـلـقاـ،ـ وـالـتـيـ رـأـواـ أـنـ مـاـيـتاـ قـدـ جـرـهـ إـلـيـهاـ،ـ وـجـدـواـ فـيـ تـصـرـفـهـ ذـلـكـ الذـرـعـةـ الـمـنـاسـبـةـ.ـ لـكـيـ يـتـخـلـصـواـ مـنـ الـالـتـزـامـ،ـ وـلـكـيـ يـتـخـلـصـواـ فـوـقـ ذـلـكـ مـنـهـ بـالـذـاتـ.ـ أـوـ بـكـلـمـةـ أـخـرىـ،ـ لـكـيـ يـنـقـسـمـواـ عـلـىـ أـنـفـسـهـمـ مـرـةـ أـخـرىـ.ـ فـهـذـهـ كـانـتـ عـلـىـ الدـوـامـ هـيـ الـرـياـضـةـ الـكـبـرـىـ لـلـتـرـوـتـسـكـيـيـنـ:ـ التـطـهـيرـ،ـ الـانـقـاسـمـ،ـ التـشـرـذـمـ،ـ الـطـرـدـ.ـ

ويـضـحـكـ كـاشـفـاـ لـيـ أـسـنـانـهـ الـنيـكـوـتـيـنـيـةـ.

- الـمـسـائـلـ الـشـخـصـيـةـ لـاـ عـلـاقـةـ لـهـاـ،ـ مـسـائـلـ الـجـنـسـ وـالـأـسـرـةـ الـشـخـصـيـةـ لـاـ عـلـاقـةـ لـهـاـ -ـ كـرـرـتـ ذـلـكـ دـوـنـ أـسـتـطـعـ رـفـعـ نـظـريـ عنـ رـقـبـةـ أـنـاتـوليـوـ الـذـيـ كـانـ يـجـلـسـ عـلـىـ أـحـدـ مـقـاعـدـ الـحـلـابـاتـ

وينظر بعناد إلى الأرض، وأضفتُ. ولهذا لن أرد على استفزازاتك.
ولهذا لن أرد عليك بما تستحق يا خواكين.

رفع الأمين العام صوته:

- ليس مسموحاً تحديد شخص بعينه، وغير مسموح توجيه التهديد.

وسمع الرفيق خواكين يقول له:

- هل أنت كذلك أم لا يا مایتا؟ - لاحظت أنه يطبق قبضته،
وأنه مستعد للدفاع عن نفسه أو للهجوم. - كن صريحاً بشأن
رذيلتك على الأقل.

- غير مسموح بالحوارات الشخصية - أصر الأمين العام -. وإذا
كنتما تريدان الشجار فاذهبا خارجاً.

- معك حق يا رفيق - قال مایتا ذلك متوجهاً إلى خاثينتو
ثيفايوس -. لا حوارات شخصية ولا مشاجرات، ولا أي شيء قد
يبعدنا عن الموضوع. هذه المناقشة ليست حول قضايا الجنس.
سنناقش ذلك في مرة أخرى إذا كان الرفيق خواكين يعتبره أمراً
مهماً. فلنعد إلى جدول أعمال اليوم. ولا تقاطعني على الأقل.

كنتُ قد استعدت توازني، وتركوني أتكلم بالفعل، ولكنني
وأنا أتكلم، كنت أقول في نفسي إن ذلك لن يفيد كثيراً: فقد
اتخذوا القرار، من وراء ظهري، بالانسحاب من التمرد المسلح، ولا
يمكن لأي حجة أن تبدل قرارهم. لم أسمح لتشاؤمي بالظهور حين
كنت أتكلم. وكررت عليهم بتأثير كل الحجج التي كنت قد
عرضتها عليهم، تلك المسوغات التي ما زالت حتى الآن، بالرغم من
المعارضات، ترن في مسمعي بطريقة لا يمكن دحضها. أليست
الظروف الموضوعية متوفرة؟ ألا يشكل ضحايا الإقطاع والسلط

والاستغلال الرأسمالي والإمبريالي قوة ثورية؟ حسن إذن، الظروف الذاتية تخلقها الطليعة، بعمليات دعائية مسلحة، بتوجيهه ضربات إلى العدو في عمليات تشفيرية تعنى الجماهير وتضمها تدريجياً إلى العمل. ألا توجد أمثلة كثيرة على ذلك؟ أمثلة الهند الصينية، الجزائر، كوبا موجودة ومثلة ثبت أنّه يمكن للطليعة المصممة أن تبدأ الثورة. وليس صحيحاً أن مسألة خاوخا هي مغامرة برجوازية صغيرة. إنها عملية متصلة تماماً وتعتمد على بنية تحتية صغيرة ولكنها كافية. وستتكلل بالنجاح إذا ما قمنا جميعنا بدورنا. وليس صحيحاً أيضاً أن ح ع ث (ت) سيكون في العربية الأخيرة: بل سيكون القيادة الأيديولوجية بينما يقتصر دور بايغوس على القيادة العسكرية. لا بد من رؤية واسعة الأفق، كريمة، ماركسية، تروتسكية، وليس نظرة فتوية أيها الرفاق. الدعم هنا في ليما ضعيف. ولهذا كان لا بد لنا من التساهل في أمر التعاون مع قوى يسارية أخرى، لأن النضال سيكون طويلاً وشاقاً و...

وذكر الرفيق بيباردي:

- هناك اقتراح يطالب بطرد مايتا وهذا هو ما نناقش.

قال بلاكير وهو يسدّ أمامه الطريق إلى بيته:

- ألم يكن واضحاً لك بأننا يجب ألا نلتقي ثانية؟

- إنها قصة طويلة - رد مايتا - لم يعد بإمكانني توريتك. فقد

طردوني من ح ع ث (ت) لأنني تحدثت إليك.

ويقول لي بلاكير بنبرته المشاكسة:

- وقد طردوني أنا لأنني استقبلته. فعلوا ذلك بعد عشر سنوات.

- هل كانت مشاكلك مع الحزب بسبب تلك المحادثات؟

كنا قد غادرنا مقهى هايتى ورحننا نتمشى في حديقة ميرافلوريس، باتجاه ناصية لا كرو حيث سيركب بلاكير الميكروباص. كان هناك حشد كثيف يحوم حول باعة البضائع الرخيصة المنتشرة على الأرض والتي تتشابك بأقدام المارة. الهياج بسبب أخبار الفزو صار عاماً، ومحادثتنا تتلاطخ بأصوات تقول «كوبيون»، «بوليفيون»، «قصف»، «مارينز»، «حرب»، «حمر».

- لا، ليس صحيحاً - يوضح لي بلاكير. مشاكلي مع الحزب بدأت لأنني بدأت أناقش خط القيادة. ولكنهم عاقبوني لأسباب ليست لها في الظاهر علاقة بانشقادي. وبين التهم العديدة، خرج إلى النور تقاربي المزعوم مع التروتسكية. قيل إنني كنت قد اقترحت على الحزب عملاً مشتركاً مع التروتسكيين. إنه الوضع المأثور: تسفيه الناقد أخلاقياً، بحيث يصبح كل ما يأتي منه قمامنة لمجرد أنه آت منه. لم يتتفوق علينا أحد في ذلك أبداً.

- أي أنك كنت أيضاً واحداً من ضحايا خواخا - أقول له.

- بطريقة ما.. - ويعيد النظر إلى يوجهه العجوز الذي له لون رق جلدي أكسبته ابتسامته ملماحاً إنسانياً، ويضيف: - كانت هناك أدلة أخرى على التواطؤ مع التروتسكيين، ولكنهم لم يكونوا يعرفونها. لأنني كنت قد ورثت كتب مايتا عندما ذهب إلى الجبال.

قال له مايتا بنبرة ساخرة:

- ليس هناك من أترك له كتبى. لقد صرت بلا رفاق. ومن الأفضل أن تأخذها أنت بدلاً أن تأخذها المخبرون. افهم الأمر على هذا النحو حتى لا تشعر بتأنيب الضمير. احتفظ بأورافي وتثقف.

- كان هناك قدر كبير من البراز التروتسكى الذي قرأته

خفية، مثلما كنا نقرأ فارغاس فيلا في المدرسة – يقول لي بلاكير ذلك ضاحكاً – أجل، خفية. انتزعت من الكتب الصفحات التي كتب عليها مايتا الحروف الأولى من اسمه، كيلا يبقى أي أثر للجريمة.

ويوضحك من جديد. هناك جوقة من الناس تقدم برؤوسها محاولة سماع نشرة أخبار من مذيع نقاش يحمله أحد المشاة عالياً. وتصل إلينا نهاية بيان رسمي: مجلس الإصلاح الوطني يشكّل لجنة الأمم غزو التراب الوطني من قبل قوات كوبية – بوليفية – سوفيتية، وأنها منذ صباح هذا اليوم قد خرقت حرمة تراب البيرو المقدس من ثلاث نقاط على الحدود، في مقاطعة بونا. وفي الساعة الثامنة ليلاً سيتوجه المجلس إلى البلاد عبر الإذاعة والتلفزيون لإطلاعها على أخبار هذه الإهانة التي هزت البيرويين، الذين اتحدوا الآن مثل قبضة واحدة للدفاع عن... الأمر صحيح إذن، لقد دخلوا. ومن المؤكد إذن أن «مارينز» سيأتون كذلك، من قواudem في الإكادور، هذا إذا لم يكونوا قد فعلوا ذلك. نواصل طريقنا بين أناس مذهولين أو مذعورين بسبب الأخبار.

ويقول لي بلاكير فجأة بنبرة ضجر أكثر مما هي خوف: – سيان من سيكسب، لأنني سأخرج خاسراً. فإذا كسب «مارينز»، فلا بد أن أكون وارداً في قوائمهم باعتباري عميلاً قدّيماً للشيوعية العالمية. وإذا انتصر المتمردون، سيعتبرونني تحريفياً، واشتراكياً – إمبرياليَا وخائناً سابقاً للقضية. لن أعمل بنصيحة ذلك الشخص الذي في مقهي هايتي. لن أضع دلاء ماء في غرفتي. فالحريق بالنسبة إلي قد يكون الحل.

في الموقف، قبلة محل تينديثيا بلانكا هناك ازدحام يستدعي انتظاراً طويلاً قبل التمكّن من صعود أحد الميكروباسات. ويقول لي إنه في السنوات التي أمضهاه في مطهر المطرودين من الحزب تفهم بصورة أفضل حال مايّتا في ذلك اليوم. وأننا أسمعه ولكنني أمشي منفصلاً عنه، مفكراً. فكون أحداث خاوحاً قد نفعت، بعد سنوات، وإن كان بصورة غير مباشرة، في تردي بلاكير إلى حافة العدم الذي عاش فيه، لهو دليل آخر على مدى غرابة وعدم توقع ما هي عليه تشعبات الأحداث، تلك الآلية المعقدة جداً لأسباب ونتائج، لأنعكاسات وحوادث، هي التاريخ البشري. وهو لا يحقد كما يبدو على مايّتا بسبب تلك الزيارات المفاجئة. بل يبدو أنه، مع مرور الزمن، قد بدأ يكن له التقدير.

- لا أحد يمتنع عن التصويت، يمكنك أن تعد الأيدي - قال خاينتو ثبيايوس - إنه إجماع يا مايّتا. لم تعد تتمني منذ الآن إلى حـعـث (ت). لقد طردت نفسك بنفسك.

كان يخيم صمت كصمت القبور ولم يتحرك أحد. هل يتوجب عليه أن ينصرف؟ هل يتوجب عليه أن يتكلم؟ أيترك الأبواب مفتوحة أم يلعن أمهاتهم؟

- قبل عشر دقائق كنا نعرف كلانا بأننا عدوان حتى الموت - قال بلاكير متذملاً بنزق قبلة كرسي مايّتا - وها أنت تتصرف الآن كما لو كنا رفاقاً منذ الأزل. هذا مضحك!

- لا تتصرفوا - قال الرفيق ميداردو بنعومة - لدى طلب لحفظ الاعتبار يا رفاق.

- إننا في خندقين مختلفين، ولكننا ثوريان كلانا - قال

مايتا بلاكير.. ونحن نتماثل في شيء آخر: فأنـت وأنا نرى أن الشؤون الشخصية تأتي بعد القضايا السياسية. ولهذا دعك من التـكـرـ ولـنـتـحـدـثـ بـصـراـحةـ.

حفظ اعتبار كل العيون اتجهـتـ نحوـ الرـفـيقـ مـيـدارـدوـ.ـ كانـ هناكـ دـخـانـ كـثـيرـ،ـ حتـىـ إنـ ماـيـتاـ منـ مـكـانـهـ إـلـىـ جـانـبـ رـزـمـ أـعـدـادـ صـوتـ العـمـالـ،ـ كـانـ يـرـىـ الـوـجـوهـ مـطـمـوـسـةـ.

- أـكـانـ يـائـساـ،ـ مـثـلاـ،ـ يـشـعـرـ بـأـنـ الـأـرـضـ تـشـقـ تـحـتـهـ؟

وـينـفيـ بلاـكـيرـ بـحـرـكـةـ منـ رـأـسـهـ:

- كـانـ وـاثـقاـ،ـ هـادـئـاـ بـلـ وـمـفـائـلـاـ،ـ أوـ أـنـهـ كـانـ يـظـاهـرـ بـذـلـكـ عـلـىـ أـحـسـنـ وـجـهـ.ـ كـانـ يـرـيدـ أـنـ يـُـظـهـرـ لـيـ أـنـ الـطـرـدـ لـمـ يـؤـثـرـ عـلـيـهـ.ـ وـرـبـماـ كـانـ ذـلـكـ صـحـيـحاـ.ـ هلـ تـعـرـفـ عـلـىـ أـوـلـئـكـ الرـجـالـ الـذـينـ يـكـتـشـفـونـ الـجـنـسـ أـوـ التـدـيـنـ وـهـمـ فـيـ سـنـ الشـيـخـوخـةـ؟ـ إـنـهـمـ يـصـبـحـونـ مـتـلـهـفـينـ،ـ مـتـوـقـدـيـنـ،ـ لـاـ يـمـلـوـنـ.ـ وـهـكـذـاـ كـانـ هوـ.ـ فـقـدـ اـكـتـشـفـ المـارـاسـةـ الـعـمـلـيـةـ وـصـارـ يـبـدـوـ مـثـلـ صـبـيـ صـغـيرـ.ـ لـقـدـ كـانـ يـشـرـ اـنـطـبـاعـاـ مـضـحـكـاـ،ـ مـثـلـ أـوـلـئـكـ الشـيـوخـ الـذـينـ يـحـاـولـونـ أـنـ يـرـقـصـواـ الرـقـصـاتـ الـحـدـيـثـةـ.ـ وـكـانـ مـنـ الصـعـبـ فـيـ الـوقـتـ نـفـسـهـ عـدـمـ الإـلـهـاسـ بـشـيءـ مـنـ الـحـسـدـ تـجـاهـهـ.

- لـقـدـ كـانـ أـعـدـاءـ لـأـسـبـابـ أـيـديـوـلـوـجـيـةـ،ـ وـلـهـذـهـ أـسـبـابـ نـفـسـهاـ يـمـكـنـنـاـ أـنـ نـكـونـ الـآنـ أـصـدـقـاءـ.ـ اـبـتـسـمـ مـاـيـتاـ وـهـوـ يـقـولـ لـهـ ذـلـكـ،ـ وـأـضـافـ:ـ الصـدـاقـةـ وـالـعـدـاءـ فـيـمـاـ بـيـنـنـاـ هـيـ مـسـأـلـةـ تـكـتـيـكـيـةـ مـحـضـةـ.

فـضـحـكـ بلاـكـيرـ أـخـيـراـ:

- هـلـ سـتـقـدـمـ نـقـدـكـ الذـاتـيـ وـتـطـلـبـ الـانـضـمامـ إـلـىـ الحـزـبـ الشـيـوعـيـ؟ـ الثـورـيـ المـجـربـ،ـ الـذـيـ صـارـ فـيـ طـورـ الـأـفـوـلـ،ـ وـيـكـتـشـفـ فـيـ

يوم طيب النضال العملي ويندفع فيه دون تحفظ، بتلهف، آملاً في أن المعارك والمسيرات ستتعوضه خلال أسابيع قليلة أو شهور عن سنوات العجز السابقة: إنه مايتا في تلك الأيام، الذي ألمحه بصورة أفضل من كل المآيات الآخرين. هل كانت الصدقة والحب من الأشياء التي يديرها وفق المصلحة السياسية؟ لا: إنها كلمات لكي يكسب بها بلاكير. فلو أنه تحكم بهذه الصورة بعواطفه وغرائزه، لما كان عاش الحياة المزدوجة التي عاشها، حياة التمزق التي كانت عليها دون شك ميول المناضل السري المستفرق تماماً في مهمة تغيير العالم، وحياة الموبوء الذي يبحث في الليل عن مخنثين. مما لا شك فيه أنه كان قادراً على اللجوء إلى أقصى الوسائل، وثبتت ذلك محاولته الأخيرة في التوصل إلى ما هو مستحيل، أي التحالف مع أحد أعدائه في سبيل حركة تمرد غير واضحة المعالم. مرت حافلتان، ثلاث حافلات ميكروباصات دون أن يتمكن بلاكير من ركوبها. فقررنا النزول عبر لاركو، فربما يكون الركوب أسهل في بينابيداس.

- ليكن معروفاً أن هذا لن يفيد أحداً سوى الرجعية، وسيضر بالمقابل بالحزب - أوضح الرفيق ميداردو بحساسية -. سيفرك أعداؤنا أيديهم، ومن في ذلك جماعة حـث الآخر. وسيقولون: هـم ينقسمون مرة أخرى في صراعاتهم الداخلية. لا تقاطعني يا خواكين، لن أطالب بسر الففران المسيحي أو أي شيء مماثل. أجل، سأوضح أي نوع من إعادة الاعتبار أعني.

كانت أجواء الكراج في شارع ثوريتا قد توترت؛ وكان الدخان كثيفاً حتى إن عيني مايتا توقتنا. ولاحظ أنهم يستمعون

إلى موسيس براحة تتفتح في وجوههم، وكأنهم بعد أن فوجئوا بأنهم قد هزموا بسهولة، سعدوا بوجود من يقدم لهم إثباتاً معاكساً يتيح لهم أن يغادروا من هناك بضمان مطمئنة.

- لقد تم إنزال العقوبة بالرفيق مايتا - أضاف الرفيق ميداردو -. وهذا أمر يعرفه هو ونعرفه نحن. ولن يعود إلى حديث (ت)، لا الآن ولا في الظروف الحالية. ولكن، أيها الرفاق، لقد قال لنا إن خطط بايغوس ما زالت قائمة. والتمرد المسلح سيقع سواء أشاركنا فيه أم لم نشارك. أي أنه سيحدث سواء شئنا أم أبيينا.

إلى أين يريد موسيس الوصول؟ لقد فوجئ مايتا بأنه ما زال يدعوه «رفيقاً» عند الحديث عنه. ارتاب إلى أين وتبدلت في لحظة اليأس والغضب للذين أحس بهما حين رأى كل الأيدي ترتفع مؤيدة الاقتراح: يجب انتهاز هذه الفرصة بسرعة.

- التروتسكية لن تدخل حرب العصابات - قال - فحزب العمال الثوري (التروتسكي) قرر بالإجماع أن يدير ظهره. وحده الآخر لا علم له بالقضية كلها. الخطة جدية، ومتمسكة. ألا ترى ذلك؟ لدى الحزب الشيوعي الآن فرصة عظيمة ملء الفراغ.

فزمجر بلاكيير:

- بوضع الرأس في المقصلة. يا للامتنان العظيم! تناول هذه القهوة وحدشي، إذا أردت، عن غرامياتك المأساوية مع التروتسكيين. أما عن التمرد فلا أريد سماع كلمة واحدة يا مايتا. فواصل مايتا دون أن يوليه اهتماماً:

- لا تحسموا هذه المسألة الآن، ولا خلال أسبوع، خذوا ما تحتاجونه من الوقت. العقبة الأساسية بالنسبة إليكم كانت تمثل

في ح ع ث (ت). وهو لم يعد موجوداً الآن. التمرد صار الآن لجماعة عمالية فلاحية من الثوريين المستقلين وحسب.

- أنت ثوري مستقل؟ - صفر بلاكير.

- اشتري العدد القادم من صوت العمال (ت) وستقتع - قال مايتا -

فهذا ما صرتُ إليه: ثوري بلا حزب. أترى؟ لديكم فرصة عظيمة. فرصة القيادة، فرصة أن تكونوا الرأس.

ويقول لي بلاكير:

- كانت تلك هي الاستقالة التي قرأتها أنت. - وخلع نظارته لينفخ عليها بخاراً من فمه ويمسحها بالمنديل. - مجرد تظاهر. لم يكن يؤمن بتلك الاستقالة من وقعاها ولا من نشروها. لماذا كانت هناك إذن؟ أمن أجل خداع القراء؟ أي قراء؟ وهل كان هناك قارئ واحد له صوت العمال (ت) باستثناء أولئك، كم قلت عددهم؟، سبعة؟، التروتسكيون السبعة؟ هكذا يكتب التاريخ يا رفيق.

جميع محلات شارع لاركو كانت مغلقة، بالرغم من أن الوقت كان ما يزال مبكراً. هل السبب هو أخبار الفزو في الجنوب؟ في هذا القطاع من المدينة هناك أناس أقل مما في دياغونال أو في باركي. وحتى جماعات المسؤولين التي تعج بها هذه المنطقة في العادة، ما بين السيارات، هي أقل من المعهود. تظهر على جدار البلدية كتابة هائلة بطلاء أحمر. «انتصار الحرب الشعبية يقترب» - ومعها المنجل والمطرقة. لم تكن هذه الكتابة موجودة عندما مررت من هنا، قبل ثلاث ساعات. أتكون جماعة ثورية قد جاءت حاملة الفراشي وعلب الطلاء وكتبتها أمام رجال الشرطة؟ ولكنني أنتبه إلى أنه لا وجود لشرطيين يحرسون المبنى.

وواصل الرفيق ميداردو بحذره:

- فليتجنب الحزب مزيداً من الأذى على الأقل. فليستقل. ولنشر استقالته في صوت العمال (ت). فيقدم دليلاً على الأقل على أن الحزب غير مسؤول عما يمكن أن يذهب لعمله في خاوخا. إنني أعني إعادة اعتبار من هذا النوع يا رفاق.

ورأى مايتا أن عدداً من أعضاء اللجنة المركزية لحزب العمال الثوري (ت) يهزون رؤوسهم موافقين. اقتراح موسيس/ميداردو يتمتع بإمكانات القبول. فكر في الأمر، قام بمراجعة سريعة للمنافع والمضار. أجل، إنه أهون الشروق. رفع يده: أيمكنه التكلم؟

هناك أناس كثيرون في بينافيديس ينتظرون الميكروباصات مثلما في تينديشيتا بلانكا. هز بلاكير كتفيه: الصبر. أقول له إنني سأبقى معه إلى أن يركب. أجل، ثمة عدد من الناس هنا يتكلمون عن الغزو.
ويقول بلاكير:

- مع مرور الوقت توصلت إلى ملاحظة أنه لم يكن أحمق تماماً. فلو تمكنت البؤرة الثورية من الاستمرار، وكانت الأمور جرت وفق حسابات مايتا. لو أن التمرد ترسخ، لوجد الحزب نفسه مضطراً إلى الدخول، إلى محاولة تولي القيادة. مثلما يجري مع هذا التمرد الآن. من يتذكر أنها كانت نعارض طوال السنتين الأوليين؟ ونحن الآن نتابع الماويين القيادة، أليس كذلك؟ ولكن الرفيق «تاريخ» لا يسامح. لقد أجرى حساباته قبل الوقت المحدد بخمس وعشرين سنة.

ولتشوشي من الطريقة التي يتكلّم بها عن الحزب، سأله إذا ما كان قد أعيد قوله أخيراً أم لا. فرد على بطريقة مشفرة: «بصورة

وسطية فقط». هناك سيدة تحمل طفلة بين ذراعيها بدت وكأنها تسمعه، قاطعتنا فجأة: «هل صحيح أن الروس قد دخلوا؟ ما الذي فعلناه لهم؟ ماذا سيحدث لابنتي الآن؟» وتصرخ الطفلة أيضاً فيواسيها بلاكير: «اهدئي، لن يحدث شيء، إنها مجرد إشاعات» ويشير في الوقت نفسه إلى حافلة ميكروباص مزدحمة تواصل طريقها دون توقف. وفي جو لا يشبه على الإطلاق الجو الذي كان مخيماً قبل دقائق، همس الأمين العام بأن اقتراح الرفيق ميداردو عقلاني: فهو يحرم منشقى حديث الآخر من استغلال الأمر. ونظر إليه: لا مانع من أن يتكلم صاحب الشأن. «الكلمة لك يا مaita».

- تحدثنا لوقت طويل. وعلى الرغم مما فعلوه به، كان يشعر بالغبطة وهو يتكلم عن التمرد - يقول بلاكير ذلك وهو يشعر بسيجارة -. لقد عرفت أن العمل سيبدأ خلال أيام، ولكنني لم أعرف المكان. ولم أكن أتصور على الإطلاق أن يكون خاوحا. فكرت بـكوسكو، حيث كانت قد جرت في ذلك الحين عمليات استيلاء على الأراضي. ولكن، من كان سيخطر بياله أن هناك ثورياً في سجن خاوحا؟

وأسمع من جديد ضحكته التي بلا طעם. ونواصل المشي، دون اتفاق مسبق، باتجاه موقف 28 تموز. تمر الساعات وهو ما يزال هناك، متعرقاً، ملابسه مجعدة ومتتسخة، وحول عينيه دوائر بنفسجية والشعر الموج مشعرث، على حافة المقعد، في الصالة الصفيرة المكتظة البائسة في بيت بلاكير: يتكلم، يومئ، يدعم كلماته بإيماءات حازمة وهناك في عينيه قناعة راسخة. «هل ترفضون دخول التاريخ، صنع التاريخ؟»، يقول مقرعاً بلاكير.

وأسمع هذا الأخير يقول لي، بعد أن مشينا نصف كواحد آخر:

- كل شيء صار إلى نقائه في تلك القضية، فحزب العمال الشوري (ت) نفسه الذي طرد مايتا لأنه أراد إدخاله في مسألة خواخا، اندفع بعد وقت قصير من ذلك إلى ما هو أشد عقماً: السطو على المصارف.

أيكون دخول فيديل كاسترو إلى هافانا، الذي جرى ما بين الأمرين، هو الذي حول حزب (ت) الحذر الذي تملص من مؤامرة مايتا إلى الجهاز المحارب الذي انهمك في سلب مصارف البرجوازية؟ لقد هاجموا هذا الفرع للبنك الدولي بالذات الذي تجاوزناه الآن. وقد جرى اعتقال خواكين في العملية -. ثم بعد أيام من ذلك، الهجوم على مصرف ويز في لافكتوريا، حيث سقط بيّاردي. هاتان العمليتان أدتا إلى انفراط عقد حزب (ت). أم أنه كان في ذلك شيء من تأنيب الضمير، نوع من الاندفاع لإثبات أنهم يستطيعون رغم تخلיהם عن مايتا وبابا يخوس، أن يقامروا بكل شيء؟

- لا تأنيب ضمير ولا أي شيء مشابه - قال بلا كير-. السبب هو كوبا. فالثورة الكوبية كسرت المحرمات. قتلت الأن الأعلى الذي كان يأمرنا بالإذعان إلى أن «الظروف لم تتضاع بعد»، وإلى أن الثورة هي تأمر بلا نهاية. فمع دخول فيديل إلى هافانا، بدت الثورة وكأنها في متداول يد جميع من يتجرؤون على خوض القتال.

- إذا لم تأخذها أنت فسوف يبيعها صاحب بيتي في مزاد لبارادا - ألح مايتا -. يمكنك أن تأخذها منذ يوم الاثنين. وهي ليست كتاباً كثيرة أيضاً.

– حسن – استسلم بلاكير –، سآخذ كتبك. ولنقل إنني
سأحفظها لك في أثاء غيابك.

في موقف 28 تموز هناك الازدحام نفسه الذي في الموقف السابقة. ثمة رجل بقبعة يحمل مذيعاً نقالاً، يبحث فيه – وسط لهفة الحاضرين – عن محطة تبث أخباراً. لا يجد ما يريد: جميع المحطات تبث موسيقى. أنتظر مع بلاكير حوالي نصف ساعة، وفي هذه الأثناء يمر ميكروبا صان ممثئان حتى الذروة، ولا يتوقفان، أودعه، فأنا أريد أن أصل إلى بيتي في الوقت المناسب لأسمع رسالة المجلس العسكري حول الفزو. عند زاوية شارع مانكو كاباك، ألتفت إلى الوراء وأرى بلاكير ما يزال هناك، يمكن تمييزه بهيئة المدمرة وسلوكه التائه، على حافة الشارع، وكأنه لا يعرف ما عليه عمله، أو إلى أين يذهب. لا بد أن مايتا كان في مثل هذا الوضع في ذلك اليوم، بعد تلك الجلسة. ومع ذلك فإن بلاكير يؤكد لي أنه بعد أن ورثه كتبه وأخبره أين يخبئ مفتاح غرفته، ودعه وهو ينضج تفاؤلاً. «لقد كبر بالعقاب»، هذا ما قاله لي. وهذا تعبير دقيق دون شك: فقدرته على الصمود، وتحديه، ازدادا من خلال المواجهة.

بالرغم من أن المتاجر مغلقة أيضاً في هذا الجزء من شارع لارcko، إلا أن الشوارع ما تزال ممتئلة بباعة المناظر الأنديزية، والصور، والرسوم الكاريكاتورية، والمشغولات اليدوية والتفاهات. أتقادي البسط المغطاة بأساور وعقود يحرسها شبان بشعور طويلة وصبايا يلبسن الساري. أشم هواء مفعماً بالبخور. في منطقة الحالين وأرقة المصوفين تلك لا تُلحظ حالة الاستفار، ولا

حتى الفضول، تجاه أحداث الجنوب. ويمكن القول إنهم لا يعرفون أن الحرب قد اتخذت، في الساعات الأخيرة، مظهراً أشد خطورة وأنها قد تصل إليهم في أية لحظة. عند ناصية شارع أوتشران أسمع نباح كلب: إنها ضجة غريبة، تبدو وكأنها آتية من الماضي، فمنذ بدأت المجاعة اختفت الحيوانات الأليفة من الشوارع. كيف كان يشعر مايتا في ذلك الصباح، بعد الليلة الطويلة التي بدأت في كراج شارع ثوريتوس، بطرده من حي ث (ت)، والاتفاق على تمويههطرد بالاستقالة، وانتهت بتلك المحادثة في بيت بلاكير الذي حولته الأحداث من عدو إلى موضع سره ومنديل دموعه؟ لقد كان يشعر بالنعاس، وبالجوع والإنهاك، ولكنه يحتفظ بالاستعداد الحماسي نفسه الذي رجع به من خاوحا وبالقناعة نفسها بأنه قد أحسن التصرف. لم يطردوه لأنه قابل بلاكير؛ إذ إنهم كانوا قد قرروا التراجع قبل ذلك. غضبهم المزعوم، والاتهامات بالخيانة، كانت وسيلة لإغلاق الطريق على أي محاولة لمراجعة ما تم إقراره. فهو الخوف من خوض القتال؟ لا، فالأصح أنه التشاور، فقدان الإرادة، العجز النفسي عن كسر الروتين والانتقال إلى العمل الحقيقي. كان قد ركب أونبوس، ومضى فيه واقفاً، يمسك بمسند الأيدي، محشراً ما بين زنجيتين تحملان سلاحاً. ألم يكن يعرف هذا السلوك؟ «ألم يكن سلوكه طوال سنوات؟» إنهم لا يؤمنون بالجماهير بسبب عدم اتصالهم بها، وهم يرتابون بالثورة وبأفكارهم نفسها لأن حياة التآمر بين الفئات جعلت قدرتهم على العمل تصاب بالضمور. أخذت إحدى الزنجيتين تضحك وهي تنظر إليه، وانتبه مايتا إلى أنه يكلم نفسه. فضحك أيضاً من الأفضل

أن يمتنعوا عن المشاركة وهم في مثل هذه الحالة المعنوية، لأنهم سيكونون عقبة. أجل، سيفتقدهم، ولن يجد في ليما مساندة مدنية. ولكن كلما تصاعد النضال، ستبدأ بالظهور منظمة مساندة، هنا وفي كل مكان. وعندما يرى الرفاق في حي ث (ت) أن الطليعة تكتسب السمعة وأن الجماهير تنظم، سيندمون على ترددتهم. وكذلك الفجليون. المسعى مع بلاكير كان قبلة موقوتة. عندما يرون أن الساقية قد تحولت إلى تيار جارف، سيذكرون أن الباب كان مفتوحاً لهم، وأنهم كانوا مدعيون. وسيأتون، سيدعون. كان مستغرقاً تماماً حتى إنه لم ينزل عند ناصية بيته وإنما بعد كواهاتين.

وصل إلى الرزاق منهوكاً. كان هناك في الفناء صف طويل من النساء يحملن دلاء، ويتدمرن لأن الأولى بينهن تبقى دهراً على الصنبور. دخل إلى غرفته وتمدد على السرير دون أن يخل حذاءه. لم يتحسن للنزو والوقوف في الصف. ولكن، كم سيكون رائعاً لو أنه يستطيع الآن تغطيس قدميه المتعبن في مغطس ماء بارد. أغمض عينيه، وبينما هو يصارع النعاس، بحث عن الكلمات من أجل الرسالة التي عليه أن يوصلها هذا المساء إلى خاثينتو ليضمها إلى عدد صوت العمال (ت) الذي يجري إعداده في المطبعة. إنه عدد يكاد لا يزيد عن أربع صفحات، ملزمة واحدة، وهو أصغر إلى حد أنني حين أمسكته - وأنا جالس قبالة جهاز التلفزيون الذي لم يظهر فيه جنرالات المجلس العسكري بعد رغم تجاوز الساعة للثانية - أحسست بأنه سيففت بين يدي. الاستقالة ليست في الصفحة الأولى المقسمة إلى مقالين طوilyin وذكرى صغيرة.

الافتتاحية، بخط أسود، تملأ العمود الأيسر: «توقفوا أيها الفاشست!» وهي تشير إلى بعض الأحداث التي وقعت في سلسلة الجبال الوسطى، على اثر إضراب في موقعين منجميين لشركة ثيرو دي باسكو كوربوريشن. فلدى إجلاء العمال المضربين، جرحت الشرطة عدداً منهم، وبيدو أن أحدهم قد مات. ليست صدفة، وإنما هو جزء من خطة تخويف وإضعاف الطبقة العاملة التي تتفذها الشرطة والجيش والرجعية وفق مخططات الپنتاغون والـ CIA لأميركا اللاتينية. ما هو المضمون في الحساب الأخير؟ لقد بدأت بعض المارشات العسكرية، وتلت صور الشعار والعلم الوطنيين، في التلفزيون، تماثيل وصور شخصيات بارزة. هل سيبدؤون أخيراً زحف الجماهير العمالية نحو الاشتراكية يتقدم، وهو في كل يوم أشد اندفاعاً ولا يمكن كبحه. وهذه الأساليب لا يمكنها أن تفاجئ من فهموا دروس التاريخ: فقد استخدمنا موسوليني في إيطاليا، وهتلر فيmania، وتطبقها واشنطن اليوم في أميركا اللاتينية. ولكنها لن تجد النجاح، وستأتي بناتج عكسيّة، وستكون سباداً مخصوصاً، لأن ضربات القمع، مثلاً كتب ليون تروتسكي، هي أشبه بالتقليم للنباتات. أجل، ها هم الآن: قادة البحرية والطيران والمشاة، ووراءهم الضباط المرافقون، والوزراء، وقادة الحاميات والفرق العسكرية لمنطقة ليماء. الوجوه المكفرة تبدو وكأنها تؤكد أسوأ الشائعات. افتتاحية صوت العمال تنتهي إلى حث العمال وال فلاحين والطلاب والفئات التقدمية على رص الصفوف في مواجهة المؤامرة النازية الفاشية. إنهم ينشدون الآن - في التلفزيون - النشيد الوطني.

المقال الآخر حول سيلان. صحيح، ففي تلك الفترة وصل مد التروتسكية إلى أقصاه هناك. والنص يؤكد أن التروتسكين هم القوة الثانية في البرلمان والقوة الأولى في النقابات السيلانية. ومن خلال استخدام أزمنة الأفعال، يبدو أنه مترجم عن الفرنسية. أيكون مايتا هو من ترجمته؟ والأسماء، ابتداء من السيدة باندرانيكا، رئيسة الوزراء، يصعب حفظها. ها قد انتهى النشيد الوطني وتقدم قائد الجيش، الناطق الرسمي المعهود باسم المجلس العسكري. وعلى غير عادة، بدلاً من أن يوغل كعادته في الخطابة الوطنية الرنانة، يدخل فوراً في الموضوع. رنة صوته أقل عسكرية وأكثر ارتعاشاً. ثلاث فرق عسكرية، من الكوبيين والبوليفيين، قد توغلت عميقاً في التراب الوطني، مدعومة بطائرات حربية تتصف من الليلة الماضية أهدافاً مدنية في أقاليم بونو وكوسكو وأريكيما، في خرق سافر لكل القوانين والمعاهدات الدولية؛ وقد تسببوا في وقوع أعداد من الضحايا وأضرار جسيمة، بما في ذلك في مدينة بونو نفسها حيث دمرت القنابل جزءاً من مستشفى الضمان الاجتماعي، وأوقعت عدداً لم يحصر بعد من القتلى. هل سيقول إذا ما كان «مارينز» قد اجتازوا الحدود مع الإيكوادور؟ المربع الصغير يعلن أن حـ ث (ت) سيُقيم قريباً جداً، في مقر نقابة البناء المدني، المهرجان المؤجل حول: «الثورة المغدورة: رؤية تروتسكية للاتحاد السوفييتي». ومن أجل العثور على الاستقالة لا بد من قلب الصفحة. ففي زاوية، تحت مقال طويل «فلتنشن السوفيات في الثكنات العسكرية!»، دون ترويسة أو حواش: «استقالة من حـ ث (ت)». قائد الجيش

يؤكد الآن أن قوات البيرو، بالرغم من أنها تقاتل في ظروف أدنى عددياً ولو جسرياً، فإنها تتصدى ببطولة للفزو الإجرامي الذي يقوم به الإرهاب الشيوعي الدولي، بدعم حاسم من جانب الأهالي المدنيين. والمجلس العسكري أصدر هذا المساء مرسوماً سامياً يدعو فيه إلى الالتحاق ثلاثة مستويات جديدة من قوات الاحتياط. هل سيقول إذا ما كانت هناك طائرات أمريكية تقصف الغزاة؟

الرفيق الأمين العام لـ حـ عـ ثـ (تـ)

المدينة

أيها الرفيق:

أعلمكم في هذه الرسالة باستقالتي النهائية من صفوف حزب العمال الثوري (التروتسكي) الذي أنا عضو فيه منذ أكثر من عشر سنوات. وقراري هذا هو نتيجة أسباب شخصية. إنني راغب في استرداد استقلاليتي لأنتمكن من العمل تحت مسؤوليتي المطلقة، دون أن يكون ما أقوله أو أفعله ملزماً بأي حال للحزب. إنني بحاجة إلى حرية في العمل في هذا الوقت الذي تشهد فيه بلادنا الجدل مرة أخرى حول الخيار القديم ما بين الثورة والرجعية. إن ابتعادي عن حـ عـ ثـ (تـ) بمحض إرادتي لا يعني قطعيتي مع الأفكار التي أوضحت طريق الاشتراكية الثورية لعمال العالم. وأريد منها الرفيق، أن أؤكد مرة أخرى على أن إيماني بالبروليتاريا البيروية هو أشد قوة من أي وقت مضى، وقناعتي بأن الثورة ستصبح واقعاً وستحطم نهائياً أغلال الاستغلال والظلمية التي تُنقل منذ قرون على شعبنا وأن عملية التحرر ستتحقق على

ضوء النظرية التي وضعها ماركس وانجلز وجسدها لينين وتروتسكي.

أطلب نشر استقالتي في صوت العمال (ت) بهدف إطلاع الرأي العام.

بكل ثورية.

آ. مايتا آبيندانيو

لقد قال قائد الجيش ذلك في النهاية فقط، وبسرعة كبيرة، وبنبرة أقل رسوخاً، كما لو أنه غير متأكد: باسم شعب البيرو الذي يقاتل قتالاً مجيناً للدفاع عن حضارة العالم الحر الغربية واليسوعية ضد هجمة الإلحاد الجماعي والشمولي، طلب المجلس العسكري وحصل من حكومة الولايات المتحدة الأمريكية على إرسال قوات إسناد ومواد لوجستية لصد الغزو الشيوعي الروسي - الكوبي - البوليفي الذي يرمي إلى استعباد وطننا. أي أن هذا صحيح أيضاً. لقد انتهى الأمر. فالحرب لم تعد بيروية، البيرو ليست إلا مسرحاً آخر للنزاع الذي تخوضه القوى العظمى، مباشرة ومن خلال أفلakkها وحلفائها. أيًّا يكن الرابع فإن مئات الألوف، وربما الملايين سيموتون، وستبقى بلادنا البيرو منهوكة مستنزفة، إذا بقيت على قيد الحياة. أحست بنعاس شديد لم أجده معه الحماسة لإطفاء التلفزيون. لقد اتضح فلق مايتا عندما التفت: كان أنا توليو يصوب نحوه مسدساً. لم يشعر بالخوف وإنما بالأسى: التأخير الذي سيعنيه ذلك! وماذا عن باييخوس؟ المواعيد يجب إنجازها بدقة ميلimetria، وقد كان الأمر واضحاً، فأنا توليو لا ينوي قتله وإنما

منعه من السفر إلى خاوشا. تقدم خطوات حازمة نحو الفتى، لجعله يتعقل، ولكن أناتولي مدّ ذراعه بقوة ورأى مايتا أنه سيضغط على الزناد. رفع ذراعيه مفكراً: «ساموت دون أن أكون قد قاتلت». وأحس بحزن جارح، فهو لن يكون معهم، هناك في الجلجلة، عندما سيبداً «عيد الغطاس». «لماذا تفعل هذا يا أناتولي؟» وأحس بالاستياء من صوته: فالثوري الحقيقي منطقى وبارد الأعصاب، وليس عاطفياً. «لأنك مخنث»، قال أناتولي ذلك بصوت هادئ، ثابت، حاسم، لا عودة عنه، أراد إظهاره في تلك اللحظة. «لأنك مخنث وهذا أمر يجب دفع ثمنه»، أكد ذلك الأمين العام وهو يطل برأسه الكئيب ذي الأذنين المدببتين. «لأنك مخنث وهذا يبعث على القرف»، أضاف الرفيق موسيس/ميداردو وهو يطل بيروفيله من فوق كتف الرفيق خاثينتو. اللجنة المركزية لـ جـعـث (ت) كلها كانت هناك، واحداً وراء الآخر وكانوا كلهم مسلحين بمسدسات. لقد حُوكم، وأدين وسينفذون به الحكم. ليس بسبب عدم الانضباط، أو الخطأ، أو الخيانة، وإنما - يا للبؤس، ويا للسخف - لأنه أدخل لسانه مثل خنجر ما بين أسنان أناتولي. وبفقدان كل اتزان، راح يصرخ مناديًّا بايغوس، وأوببيوث، ولوريتو، وفلاغي ريكاران، والفتیان التلاميذ: «أخرجوني من هذه المصيدة يا رفاق». استيقظ وظهره مبلل: ومن حافة السرير كان أناتولي يتأمله، وسمعه يهمس:

- لم يكن ما تقوله مفهوماً.

فتلعثم مايتا دون أن يكون قد خرج تماماً من الكابوس:

- ما الذي تفعله هنا؟

- لقد جئت - قال أناطولي. وكان ينظر إليه دون أن يرمش، ويو咪ض خبيث في حدقتيه - هل أنت غاضب مني؟

- الحقيقة أنك صفيق - دمدم مايتا دون أن يتحرك. كان يحس بالمرارة في فمه، وبأن عينيه مغمضتان، وبقشعريرة الخوف ما تزال تسري في جلده - الحقيقة أنك وقع يا أناطولي.

- أنت علمتني - قال الفتى بنعومة، وهو ينظر إلى عينيه مباشرة بتعبير غير محدد كان يستثير غضب مايتا ويسبب له الندم. بدأت حشرة طيارة تحوم حول بؤرة النور.

- أنا علمتك أن تتصرف كرجل، لا أن تكون منافقاً - قال مايتا وهو يبذل جهداً لكبح غضبه. وفكر: «اهدأ، لا تشتمه، لا تضريه، لا تناقش. أخرجه من هنا».

- مسألة خاوحا عمل جنوني. لقد ناقشنا الأمر وكنا جميعاً متفقين على وجوب وضع حد له - قال أناطولي بشيء من الجفاء، دون أن يتحرك - لم يكن هناك من يفكر بطردك. لماذا ذهبت إلى بلاكيير؟ لو لا ذلك ما كان أحد سيطردك.

وقال مايتا:

- لن أتناقش معك. كل هذا صار قصة قديمة. هيا، اصرف.

لكن الفتى لم يتحرك ولم يتوقف عن النظر إليه بتلك الطريقة التي تتطوى على استفزاز شيء من السخرية.

- لسنا رفقاء ولا أصدقاء، أي براز تريدي؟ - قال مايتا.

- أريدك أن تمصه لي - قال الفتى بتمهل، ناظراً إلى عينيه وملامساً ركبته بأصابعه الخمسة.

الفصل السابع

- ما الذي تفعله هنا يا مaita؟ - هتفت آديلايدا - لماذا جئت؟

يقع قصر روسبيغليوسي على الحد الفاصل بين لينشي وسانتا بياتريث، وهو حيّان لا يمكن التمييز بينهما الآن. أما في الزمن الذي تزوج فيه مaita من آديلايدا فكان هناك بين الحيين صراع طبقي. فقد كان لنشي حيّاً متواضعاً على الدوام، حي طبقة متوسطة تميل نحو البروليتاريا، فيه بيوت ضيقة وبلا دون، وأديرة وأزقة، ودورب متصدعة وحدائق صغيرة وعمرة. أما سانتا بياتريث بالمقابل، فكان حيّاً مزهواً، حيث شيدت بعض الأسر الثرية بيوتاً كبيرة على الطراز «الاستعماري» أو «الاشبيلي» أو «القوطي الحديث»، مثل نصب الشذوذ هذا الذي يمثله قصر روسبيغليوسي، قصر ذو شرفات وقنطر قوطية من الإسمنت المسلح. وكان أهالي لينشي ينظرون بحقد وحسد إلى أهالي سانتا بياتريث، لأن هؤلاء بدورهم كانوا ينظرون إليهم باستعلاء ويزدرونهم.

- أرغب في أن أتحدث إليك لحظة - قال لها مaita - وأن أرى ابني إذا كنت لا تمانعين.

لقد صار حيا سانتا بياتريث ولينشي الآن شيئاً واحداً؛ فقد انحدر الأول وتحسن الثاني إلى أن التقى في نقطة وسطية: حي بلا هوية، يسكنه موظفون وتجار وحرفيون ليسوا أثرياء ولا معدمين ولكنهم

يواجهون المشاكل للوصول إلى نهاية الشهر. وهذه الوسطية تبدو ممثة على أحسن وجه في زوج آديلايدا، دون خوان ثاراتيه، موظف البريد والبرق الذي لديه سنوات طويلة من الخدمة. صورته معلقة إلى جانب النافذة التي بلا ستارة والتي يمكن من خلالها رؤية قصر روسيغليوسي: وبسبب وجود هيئة تابعة لوزارة الطيران هناك، فقد أحيط القصر بأسلاك وأكياس رمل، تبرز من فوقها خوذات وبنادق الحراس. إحدى تلك الدوريات أوقفتني وأنا قادم إلى هنا، وفتحتني من قدمي حتى رأسي قبل السماح لي بالمرور. جنود سلاح الطيران كانوا عصبيين جداً، أصابعهم على الزناد. وهذا ليس كثيراً بالنظر إلى الأحداث. في الصورة، يظهر دون خوان ثاراتيه ببدلة وربطة عنق، وقوراً، وآديلايدا ممسكة بذراعه، وهي عابسة أيضاً.

هذه الصورة التقطت عندما تزوجنا، في كاندي. ذهبنا لقضاء ثلاثة أيام هناك في بيت شقيق لخوان. وكنتُ حبل في الشهر السابع. يكاد لا يظهر ذلك عليّ، أليس كذلك؟ بالفعل، لا يمكن لأحد أن يقول إنها امرأة بمثل ذلك الحمل المتقدم. لا بد أن عمر الصورة حوالي ثلاثين سنة. وهذه المرأة التي كانت، لوقت قصير، زوجة زميلي في مدرسة ساليسيانو ما زالت تحفظ بجمالها بصورة غريبة.

وتضيف آديلايدا:

- كنتُ حبل من مaita.

أسمع إليها باهتمام وأناملها. لم أخرج من المفاجأة التي سببتها لي رؤيتها، لدى الدخول إلى البيت الصغير الكئيب. كنتُ قد تحدثت معها قبل ذلك بالهاتف فقط، ولم أتصور مطلقاً أن صاحبة

ذلك الصوت هي امرأة ما تزال جذابة، على الرغم من سنوات عمرها. لها شعر رمادي متموج يصل حتى كتفيها، ووجه ناعم التقاطع، تبرز فيه شفتان ممتلئتان وعيينان عميقتان. إنها تُقاطع ساقيها: وهما ساقان ناعمتان، مسبوكتان، طوليتان، ثابتان. لا بد أنها كانت آية في الجمال عندما كانت زوجة مایتا.

- ها أنت تتذكر ابنك الآن - صرخت به آديلايدا.

- إنني أتذكرة دوماً - ردّ مایتا - . فعدم رؤيته شيءٍ وعدم التفكير فيه شيء آخر. لقد عقدنا اتفاقاً وأنا أتقيد به. ولكنني ألمح فيها شيئاً من الكآبة، من القنوط، ملمح هزيمة. ولا مبالغة شاملة: لا يبدو عليها أنها مهتمة بكون المتمردين قد استولوا على مدينة كوسكو وأقاموا هناك حكومة، ولا بأصوات الرصاص التي لا يمكن تفسيرها في شوارع ليما ليلاً، ولا بما إذا كان صحيحاً أو زائفاً نزول مئات «المارينز» في الساعات الأخيرة في قاعدة خويا، في آركيبا، لتعزيز الجيش الذي يبدو أنه قد انهار في الجبهة الجنوبية كلها. إنها لا تأتي ولو مرة واحدة على ذكر الأحداث التي تُقلق ليما بأسرها ويشد انتباهي للحظة عابرة - على الرغم من الانتصار الذي يمثله بالنسبة إلى التحدث معها - مشهد رايات حمراء، وبنادق مشهورة، وهتافات انتصار في شوارع كوسكو.

وقالت له آديلايدا وهي تزيع خصلة من شعرها عن جبهتها:

- ولكنك لا تقيد بالاتفاق عندما تصل بك الجرأة إلى الحضور إلى بيتي . ألا تدرك المشكلة التي قد تسببها لي مع زوجي؟ بينما أنا أسمعها تتحدث عن تعجيل زواجهما من خوان ثاراتيه

لكي يولد ابن مايتا بكنية أخرى وأب آخر، في بيته مستقر، أكرر لنفسي بأنني أسيء التصرف بعدم الانتباه؛ فقد بقي لي وقت قصير، فوجودي معها هناك هو مكافأة لثابرتي. لقد رفضت آديلايدا مرات كثيرة اللقاء بي، وفي المرة الثالثة أو الرابعة أغفلت الهاتف. فكان لا بد من الإلحاح، التسلل، والقسم لها بأنه لن يظهر اسمها ولا اسم خوان ثاراتيه ولا اسم ابنها أبداً في ما سأكتبه، ثم الاقتراح عليها أخيراً - وكأن الأمر يتعلق بعمل - أن تروي لي حياتها مع مايتا ولقاءها الأخير معه، قبل ساعات من ذهابه إلى خاوشا - وأن تحدد تعويضاً مالياً مقابل الوقت الذي ستضيعه معي. وافقت على منحني ساعة من الحديث مقابل مئتي ألف سول. وستلتزم الصمت عن كل ما يبدو لها «شديد الخصوصية».

- إنه ظرف خاص - ألح مايتا .. سأغادر الآن بالذات. أقسم لك.
وتقول آديلايدا :

- ظننت أنه بحاجة إلى مخبأ وليس لديه مكان يذهب إليه. شأنه في حياته كلها. لأنه منذ تعرفت عليه إلى أن انفصلنا، كان يعيش وهو يشعر بأنه مطارد. سواء أكانت هناك مبررات أم لم تكن. وكان ممتنعاً بالأسرار، يخفيها حتى عنى.

هل توصلت إلى حبه؟ لم يكن لديها سبب آخر للعيش معه. كيف تعرفت عليه؟ في سوق خيري، في ساحة سوكري. لقد راهنت هي على الرقم 17، وكان هو إلى جانبها وراهن على الرقم 15. وتوقف الدولاب على الرقم 15 بالضبط. فهتفت آديلايدا «آي، يا للحظ. إنه سحب على الدب الصغير». فقال لها جارها: «يمكنني أن أهديك إيه. أتسمحين لي بأن أهديك إيه؟ فلنعارف. أنا أدعى مايتا».

- حسن، أدخل، أفضل ألا تراني الجارة الحشرية التي قبالتنا معك هنا في الشارع - وفتحت له أخيراً الباب، وأضافت: - خمس دقائق فقط، أرجوك. إذا ما اكتشف خوان أنك هنا فسيغضب مني. لقد سببَ لي ما يكفي من أوجاع الرأس في الحياة.

ألم تُرتَّبْ بسبب اضطرابه وعصبيته بأن هذه الزيارة الفريدة تأتي عشية إقدامه على أمر استثنائي؟ ولا بأي شكل. لأنها فوق ذلك لم تلاحظ أنه كان عصبياً أو منفعلاً. كان كعادته وحسب: هادئاً، سيء الملابس، وأكثر نحواً بقليل. عندما أحساً ببعض الثقة، اعترف لها مaita بأن اللقاء في سوق ساحة سوكرى الخيري لم يكن صدفة: لقد كان قد رآها من قبل، وبعد ذلك كان قد طاف حولها باحثاً عن طريقة للتحدث معها.

- جعلني أعتقد بأنه قد أحبني من النظرة الأولى - أضافت آديلايدا ذلك بنبرة ساخرة. وفي كل مرة تذكر فيها اسمه تبدو كأنها تحس بشيء من المرارة. فعلى الرغم من مرور السنوات، ما زال هناك جرح ينزقيحاً، وتواصل قائلة: - إنها مهزلة عظيمة، وقعت فيها مثل بلها. لم يكن مغرياً بي على الإطلاق. وبسبب أناينته الكبيرة لم ينتبه حتى إلى الأذى الذي أحقه بي.

ألقى مaita نظرة فيما حوله: بحر من الرايات الحمراء، بحر من القبضات المرفوعة، غابة من البنادق المشرعة، وعشرة آلاف حنجرة مجرحة من كثرة الهتاف والصرخ. بدا له من غير المفهوم وجوده هنا، في بيت آديلايدا، وأنه بين هذه المقاعد ذات الأغطية البلاستيكية وهذه الجدران المقصورة يعيش طفل هو ابني على الرغم من أنه يحمل كنية أخرى. أحسستُ باستياء عميق. هل

أحسنت صنعاً بالمجيء؟ أهذا الذي ينشدونه هو النشيد الأممي بلغة الكيتشوا؟

- سأسافر ولا أعرف متى سأعود إلى البيرو - أوضح لها مايتا وهو يجلس على دراع أقرب مقعد - لم أشا الذهاب دون أن أتعرف عليه. هل يضايقك أن أراه لحظة؟

فقط اطعته آديلايدا بجفاء:

- يضايقني كثيراً بالطبع. إنه لا يحمل اسمك، وخوان هو أبوه الوحيد الذي يعرفه. لا تعرفكم تحملت من أجل الحصول له على بيت طبيعي وعلى أب حقيقي؟ ولن أسمح لك بأن تقوض كل هذا الآن.

- لا أريد تقويض أي شيء - قال مايتا - لقد احترمت طوال الوقت اتفاقنا. وأنا أريد ببساطة أن أتعرف عليه. لن أقول له من أنا، بل لن أكلمه إذا أنت رغبت.

لم يخبرها بكلمة واحدة عن نشاطاته الحقيقة في لقاءاتهما الأولى؛ بل قال لها فقط إنه يكسب عيشه من العمل كصحفي. لم يكن بالإمكان القول إنه كان شاباً رائعاً بطريقته تلك في المشي وكأنه يطاً بيضاً وبأسنانه المتباude، أو إنه في وضع مادي جيد بالنظر إلى ملابسه. ولكن هناك شيء أعجبها فيه على الرغم من كل ذلك. ما الذي أعجب الجميلة الموظفة في مصرف الاعتماد في لينشي بالشاب الشوري؟ جنود سلاح الطيران الذين يحرسون قصر روسبيغليوسي عصبيون جداً، أجل: إنهم ينقضون على أي عابر سبيل ويطلبون منه وثائقه ويفتشونه بإسهاب مهووس. هل حدث شيء جديد؟ أيعروفون شيئاً لم يُقل بعد من المذيع؟ لقد وجهوا ضربة بعقب بندقية إلى فتاة تحمل سلتين أبدت تمنعاً حين أرادوا تفتيشها.

- إلى جانبه كنت أشعر بأنني أتعلم شيئاً - تقول آديلايدا -. هذا لا يعني أنه كان عالماً. لقد كان يحدثني في أمور لم يكن يقربها الشبان الآخرون المعجبون بي. وبما أنني لم أكن أفهم شيئاً من ذلك، فقد كنت أبقى مثل العصفور الصغير أمام الثعبان.

وقد أثر فيها كذلك كونه وقوراً، أنيساً، متحكماً بنفسه. كان يقول لها أشياء جميلة. لماذا لم يكن يقبلها؟ لقد أخذها في أحد الأيام لزيارة خالة له في سوركيبو. وهي القريب الوحيد لمايتا الذي تعرفت عليه. وقد أعدت لها السيدة خوسيفا وجبة خفيفة، قطع حلوى، وعاملت آديلايدا بحنان. جلسوا يتبادلون الحديث، وفجأة اضطرت دونيا خوسيفا إلى الخروج. بقيا في الصالة الصغيرة يستمعان إلى المذيع، وفكرت آديلايدا: «الآن سيقبلني». كان مايتا إلى جوارها، على المقعد، وكانت هي تنتظر. ولكنه لم يحاول أن يمسك يدها وقالت لنفسها: «لا بد أنه مغرم بي جداً». كانت الفتاة ذات السلتين قد أذعنـت ووافقت على أن يفتشوها. عندئذ سمحوا لها بالمرور. وعندما مرـت قبالة النافذة لاحظـت أنها تحرك شفتيها، إنها تشتمـهم.

- أرجوكَ لا تلحـ - قالت آديلايدا -. ثم إنه الآن في المدرسة. لماذا تريد أن تراه، ما الهدف من ذلك؟ إذا ما أحس بشيء، فسيكون الأمر رهيباً.

وقال مايتا ساخراً:

- هل سيكتشف بمعجزة أنني أبوه عندما يرى وجهي؟

- إنـي خائفة، أحسـ بأنـي أستدعـي سـوءـ الطـالـعـ - تـلـعـمـتـ آـديـلاـيدـاـ.

وبالـفـعلـ، كانـ الخـوفـ البـالـعـ يـأـكـلـ صـوتـهاـ وـوجـهـهاـ. لاـ فـائـدةـ منـ

مواصلة الإلحاد. أليس عارضاً خبيثاً هذا النزوع العاطفي لرؤيه ابن نادرأ ما يتذكرة؟ إنه يضيع دقائق ثمينة، وقد كان مجئه تهوراً. إذا ما وجده خوان في البيت، سيقع في مشكلة. وأي فضيحة، مهما صغر شأنها، سيكون لها تأثير سلبي على الخطة. «انصرف، ودعها وانصرف». ولكنه كان ملتتصقاً بذراع المقدد.

- كان خوان مسؤولاً عن مركز البريد هنا في لينشي - تقول لي آديلايدا. وكان يأتي ليراني وأنا أدخل إلى مكان عملي، ويليراني وأنا أخرج. كان يلاحظني، ويوجه لي الدعوات، ويعرض علي الزواج كل أسبوع. وكان يتحمل صدي ورفضي له دون أن يستسلم.

- أكان هو من عرض عليك منح اسمه للطفل؟

- كان هذا هو الشرط الذي فرضته عليه لكي نتزوج. - ألمقيت نظرة على الصورة الملقطة في كانيتي وفهمت الآن لماذا رضيت الموظفة الجميلة الزواج من موظف البريد القبيح والمتقدم في السن. لا بد أن ابن مايتا قد تجاوز الآن الثلاثين من عمره. هل عاش الحياة الطبيعية التي أرادتها له أمها؟ أتراء يقف إلى جانب التمردين والأمميين أم إلى جانب الجيش و«المارينز»؟ أم تراه يعتقد مثل أنه بأن هذا الطرف أو ذاك ليس إلا قمامه؟ وأضافت آديلايدا: - ودون أن يكون قد قبلني، فاجأني في المرة الخامسة أو السادسة التي خرجنا فيها معاً.

- ماذا ستقولين إذا ما عرضت عليك الزواج يوماً؟

- فلننتظر ذلك اليوم وستعرف جوابي - قالت له بتغنج.

- ها أنذا أعرض الأمر عليك - قال مايتا - هل توافقين على الزواج مني يا آديلايدا؟

وتكرر وهي تهز رأسها:

- لم يكن قد قبّلني ولو قبلة واحدة. وعرض على الأمر دون مقدمات. ودون مقدمات كذلك وافقت على العرض. أنا من ورطت نفسي بنفسي، لا يمكنني أن ألقى اللوم على أحد.
- هذا دليل على أنك كنت واقعة في الحب.
- ليس الأمر هو أنني كنت أتلهم للزواج - أكدت ذلك وهي تقوم بالحركة التي لاحظت أنها قامت بها عدة مرات: دفع شعرها إلى الوراء. وأضافت: - لقد كان شاباً، على قدر من الوسامية. لم تكن تقصني الخيارات. ولم يكن خوان ثاراتيه هو المتقدم الوحيد لي. ولكنني وافقت على من لم يكن يملك مكاناً يموت فيه، على الثوري، والذي كان من كان فوق ذلك. أليس هذا جنونا؟
- حسن، لن أراه - دمم مايتا، ولكنه لم ينهض في هذه المرة أيضاً عن المقدّع - حدثني عنه على الأقل. وعن نفسها. هل أنت على ما يرام بهذا الزواج؟
- أفضل من زوجي منك - قالت آديلايدا بصبر. بل بكلمة - إنني أعيش مطمئنة، ودون أن أفكر بأن المخبرين قد يأتون في أي لحظة لينشروا الفوضى في أرجاء البيت ولیأخذوا زوجي. إنني أعرف وأنا مع خوان بأننا سنأكل كل يوم وبأنهم لن يطردونا لعدم دفع الإيجار.
- بالنظر إلى طريقة في الكلام، لا يبدو أنك سعيدة جداً - دمم مايتا. أليس من العبث الخوض في مثل هذا الحديث في هذه اللحظة بالذات؟ أما كان يتوجب عليه الآن أن يذهب لشراء المواد الازمة، وأن يقبض تصفية حسابه من فرانس برس، وأن يُعدّ حقيبته؟

- لست كذلك - قالت آديلايدا. وكانت تبدو مضيافة أكثر من أن وافق هو على عدم رؤية الطفل - لقد جعلني خوان أستقيل من المصرف. لو أنني واصلت العمل لكان بإمكاننا أن نعيش حياة أفضل ولكن التقيت بالناس، والشارع. إنني أقضى الوقت هنا في الكنس والفسل والطبع. وهذا لا يشجع على الشعور بسعادة كبيرة.

وقال مايتا وهو يلقي نظرة على الصالة الصغيرة:

- لا، لا يشجع. مع أنك تعيشين حياة جيدة يا آديلايدا بالمقارنة مع ملايين غيرك.

- هل ستحدثني في السياسة؟ - انتفضت - فلتصرف إذن. لقد صرت بسببك أكره السياسة أكثر من أي شيء آخر.

تزوجا بعد ثلاثة أسابيع من تعارفهما، وكان زواجهما مدنياً، في بلدية لينشي. وحينئذ بدأت تتعرف على مايتا الحقيقي: تحت السماء الصافية وفوق سطوح القرميد الأحمر في كوسكو تحقق مئات، بلآلاف الرأيارات الحمراء، وواجهات كنائسها وقصورها القديمة، وأحجار شوارعها المفرقة في القدم مضمخة بحمرة دماء المعارك الأخيرة. في البدء لم تفهم جيداً ما سمعته عن حزب العمال الثوري. لقد كانت تعرف أن هناك حزباً في بيرو، هو حزب أبرا، وأن الجنرال أودريا قد اعتبره حزباً خارجاً على القانون، وعندما صعد برادو إلى السلطة، سمح للحزب بالعمل من جديد. أما عن حزب يدعى حـعـث؟... مظاهرات صاحبة، إطلاق نار في الفضاء، خطابات حماسية تطالب بالبدء بعصر آخر، بقيادة الإنسان الجديد. بدأت اعدامات الخونة، الوشاة، الجلادين، المتعاونين مع النظام القديم في ساحة السلاح البديعة حيث مزقت

سلطات الفاتحين الاسبان الأوائل توباك آمارو؟ وشرح لها ما يaita الأمر بصورة تقريبية: حزب العمال الثوري ما يزال حزباً صغيراً.

وتقول لي وهي تبعد الشعر عن وجهها:

- لم أول الأمر أهمية، وبدأ لي لعبة ما. ولكن لم يكن قد انقضى شهر عندما طرقوا الباب في إحدى الليالي، وكانت وحدي. فتحت وكان هناك تحريران. وبحجة القيام بالتفتيش أخذنا حتى عبوة رز كنت أضعها في المطبخ. وهكذا بدأ الكابوس.

وكانت لا تكاد ترى زوجها، ولم تكن تعرف إذا ما كان في المجتمعات أم في المطبعة أو مختبراً. لم تكن حياة مايتا هي الفرنس برس، فقد كان يذهب إلى هناك بضع ساعات فقط، وكان يكسب أجراً بائساً ما كان له أن يكفيهما مطلقاً لو أنها لم تواصل العمل في المصرف. وسرعان ما اكتشفت أن الشيء الوحيد الذي يهم مايتا هو السياسة. وكان يأتي إلى البيت أحياناً مع أولئك الأشخاص ويستترنون في النقاش حتى الساعة ألف وخمسين. «أهذا يعني أن عـث هو حزب شيوعي؟» هكذا سألته يوماً. فقال لها: «نحن الشيوعيون الحقيقيون». وبدأت تسأل نفسها: من تزوجت؟

- كنت أظن أن خوان ثاراتيه يحبك وأنه سيُنهك نفسه ليوفر لك السعادة.

- كان يحبني قبل أن تظهر أنت - دمدمت -. ولا بد أنه كان يحبني عندما وافق على منح اسمه لابنك. ولكنه ما إن فعل ذلك حتى بدأ بإظهار الحقد تجاهي.

أهو يسيء معاملتها إذن؟ لا، إنه يعاملها جيداً، ولكنه

يُشعرها بأنه هو الذي كان كريماً. أما مع الصبي بالمقابل، فكان طيباً، وكان يهتم بتربيته. ما الذي تفعله هنا يا مaita؟ أتضيع ساعاتك الأخيرة في ليما في هذا الحديث؟ ولكن نوعاً من العطالة كان يمنعه من الانصراف. لقد كان يحبطني حديثهما عن المشاكل الزوجية في هذا اللقاء الأخير، في الوقت الذي كان فيه مaita يضع إحدى قدميه في خاوأة. كنت أتشوق، في هذه المحادثة الأخيرة، إلى شيء استعراضي، دراميكي، يلقي ضوءاً على التعارض حول ما كان يشعر ويشتم به Maita عشية الانتفاضة. ولكنني أرى، من خلال ما أسمعه، أنكما تحدثتما عنك أكثر مما تحدثتما عنه. أعدركم للمقاطعة، ولنواصل. أتعنين أن نشاطاته السياسية سببت لك آلاماً كثيرة؟

- ما آلمني أكثر هو كونه مخناً - أجبت، وتوردت حياءً ثم أضافت: - اكتشافي أنه قد تزوج بي للتغطية على ما كانه.

ها هي ذي تكشف عن شيء دراميكي أخيراً. ومع ذلك، ما زال اهتمامي موزعاً بين آديلايدا والرأيات، والدماء، والإعدامات وبهجة المتمردين والأمميين في مدينة كوسكو. هل ستصبح ليما هكذا أيضاً خلال بضعة أسابيع؟ في الحافلة التي جئت بها إلى لينشي كان السائق يؤكّد أن الجيش بدأ، منذ الليلة السابقة، إعدامات علنية لإرهابيين متهمين في فيينا السلفادور، وكوماس، وثيوداد دل نينيو وقرى فتيه أخرى. هل ستتجري عمليات شنق ومجازر مثل تلك التي جرت عندما دخل التشيليون في حرب الباسفيك؟ وأعود لأسمع بوضوح محاضرة أحد المؤرخين في لندن، وهو يروي شهادة القنصل الإنكليزي في تلك الحقبة: بينما كان المتقطعون البيروвиون يتمزقون

وهم يصدون الهجوم التشييلي في تشوربيوس وميرافلوريس، كان رعاع ليمما يقتلون الصينيين أصحاب الحانات، بشنقهم وطعنهم بالسكاكين وإضرام النار ب أجسادهم في الطريق العام، بتهمة أنهما متواطئون مع العدو، ثم راحوا ينهبون بعد ذلك بيوت الأغنياء، بينما السيدات والساسة المذعورون يستغفثون من المفوضيات الدبلوماسية التي التجؤوا إليها، ويطالعون بدخول الغزارة بسرعة، وقد اكتشفوا في تلك اللحظة أن خوفهم من الفرازة الأجنبية أقل من خوفهم من تلك الحشود المنفلترة من الهند والخلاسيين والزنج الذين سيطروا على المدينة. هل سيحدث شيء مماثل الآن؟ هل ستدخل جموع الجائعين لنهب بيوت أحياء سان إيسيدرو، وكاسواريناس، وميرافلوريس، وتشاكارياس، بينما آخر بقايا الجيش تتفكك أمام هجوم المتمردين الآخر؟ أيكون هناك هروب إلى السفارات والقنصليات بينما الجنرالات والأميرالات والموظرون والوزراء يتلقون بالطائرات والسفون ومعهم كل المجوهرات والدولارات والأوسمة التي ينبعشون عنها ويخرجونها بتعجل من مخابئها؟ وهل ستتحرق فيما مثلاً تحرق في هذه اللحظات مدينة الشموس الأربع؟

- يبدو أنك أنت أيضاً لم تغفر لي ذلك؟ - أقول لها.

وتتفاوض آديلايدا:

- أتذكر الأمر فيتجمد دمي.

أهي تعني تلك المرة؟ تلك الليلة، أو بكلمة أدق، في ذلك الفجر. حين سمعت صوت مكابح سيارة تتوقف، صوت انزلاق عجلات مقابل البيت، ولأنها كانت تعيش في خوف من الشرطة، فقد قفزت من السرير لترصد ما يجري. ورأت السيارة من خلال

النافذة: في ضوء الفجر المائل إلى الزقة كان شبح مايتا الذي بلا وجه ينزل من السيارة، ونزل السائق من الباب الآخر. وكانت سترجع إلى السرير عندما أثار قلقها شيء - شيء غريب، فريد، يصعب شرحه وتحديده.. أبكت وجهها ملتصقاً بالزجاج. لأن الآخر قام بحركة لوداع مايتا لم تبدُ لها طبيعية في حالة زوجها، فمثل تلك الألاعيب يمكن أن تحدث بين أنساب يحبون المزاح واللهو، أو بين سكارى. ولكن مايتا لم يكن من النوع اللاهي ولا منفتحاً على المزاح. كيف إذن؟ فقد كان الرجل قد أمسكه، على سبيل الوداع، من مقدمة سرواله. وكان ما يزال يمسك به عندما دنا مايتا منه بدل أن يزيح له يده - أبعد يدك أيها السكير! أفلت أيها المخمور! - وراح يعانقه. وأخذنا يتبادلان القبلات. في الوجه، في الفم. «أيكون الشخص الآخر امرأة»، رغبت، فكرت، توسلت أن يكون كذلك وهي تشعر بيديها وساقيها ترتجفان. امرأة بينطال وسترة؟ البريق الضبابي لم يكن يسمح لها أن ترى بوضوح مع من يتبادل زوجها القبلات ويحك جسده في ذلك الزقاق المفتر، ولكن لم يكن ثمة مجال للشك في أنه رجل - بسبب ضخامة جسده، وهيئته، ورأسه، وشعره.. أحست بداع يدفعها إلى الخروج، وهي شبه عارية مثلما كانت، لتصرخ بهما: «مخنثان، شاذان». ولكن بعد ثوان من ذلك، عندما انفصل الرجلان وتقدم مايتا باتجاه البيت، تظاهرت بالنوم. وفي الظلمة، بينما هي تموت خجلاً، راقبته خفية وهو يدخل. كان تتضرع بأن يكون في حالة من السكر يمكنه أن يقول معها: «لا أدرى ما الذي كنت أفعله ولا مع من كنت» ولكنه لم يكن قد شرب بالطبع، وهل تراه كان

يشرب؟ رأته يخلع ملابسه في الظلام، ويبقى بسرواله الداخلي الذي كان بيجامته، وينزلق إلى جانبها باحتراس، لكي لا يوقظها. وعندئذ داهم آديلايدا الفتى.

- لستُ أدرى لكم من الوقت - رد مايتا وكأن السؤال قد فاجأه - هذا يعتمد على الحالة التي ستسير عليها أموري. أريد أن أبدل حياتي. بل إنني لا أدرى إذا ما كنت سأرجع إلى بيرو. وسألته آديلايدا متفاجئة:

- وهل ستتخلى عن السياسة؟

- نوعاً ما - قال - سأذهب لسيير كنت تلاحقيني به على الدوام. لقد وجدتُ أخيراً أنك كنت على حق.

- من المؤسف أن يأتي ذلك متأخراً - قالت.

- أن تصل متأخراً خيراً من لا تصل أبداً - ابتسما معاً. كان يشعر بالعطش، وكأنه قد أكل سمكاً. ما الذي ينتظره ليذهب؟

أبدت آديلايدا تعبير الاستياء ذاك الذي يتذكره وظهرت الطائرات غير المتوقعة تماماً في السماء فلم تتمكن الحشود من فهم ما يحدث إلى أن انفجرت القنابل الأولى المدوية والكارثية. فبدأت تتهاوى أسقف، وجدران، وأبراج أجراس كوسكو، وتطاير الأنفاس، والأحجار، والطوب، وتخرق الناس الذين يتراكمون ويقطّعون بعضهم بعضاً مسببين فيما بينهم إصابات لا تقل عن تلك التي تسببها رشاشات الطائرات المنخفضة. في أزيز الأمس، رصاص وهدير، كان من يملكون بنادق يطلقون النار باتجاه السماء المتسخة بالدخان.

- لقد كنت الشخص الوحيد الذي ودعه مايتا - أقول لها

مؤكداً - فهو لم يودع حتى خالته خوسيفا. ألم تبد لك الزيارة
غريبة، بعد كل تلك السنوات؟
وترد آديلايدا:

- قال لي إنه سيسافر إلى الخارج، وأنه يريد أن يعرف شيئاً عن
ابنه. ولكنني عرفت كل شيء بالطبع فيما بعد، من الصحف.
هناك في الخارج هياج مفاجئ عند بوابة قصر روسبيغليوسي،
يبدو كأنهم يعززون الحراسة فيما وراء الأسلاك وأكياس الرمل.
وهناك بعيداً، لم يستطع حتى رعب القصف أن يلغى التجاوزات:
فشراذم الهاربين من موضوعيات الشرطة ومن السجن المائحة تسرب
وتتهب متاجر مركز المدينة. وقاده المتمردين يأمرنون بإعدام من
يُضبط متبسساً بالسلب برميه بالرصاص في عين المكان. وطيور
الرخمة ترسم دوائر فيما حول جثث المقتولين رميأ بالرصاص الذين
لا يعود بالإمكان تمييزهم بعد قليل عن ضحايا القصف. تنتشر
رائحة بارود وجيف وشواط.

- انتهز الفرصة إذن لكي يعالجوك - همست آديلايدا بصوت
خافت لم أكدر أسماعه. ولكن كان لكلماتها على تأثير ضرية
سوط.

- لست مريضاً - تلعم مايتا - حديثي عن الصغير قبل أن أذهب.
- بل أنت مريض - ألحت آديلايدا وهي تبحث عن عينيه - وهل
تراك شفيت؟

- ليس هذا مرضًا يا آديلايدا. - تلعمت. وكنت أشعر بيدي
مبلتين وبمزيد من العطش.
- بل هو مرض في حالتك - قالت، وفكرا مايتا، وقد انبعثت

في ذاكرته كل ضفينة ذلك الزمن: «أنت المذنب. ما الذي تفعله هنا، لماذا لا تتصرف». وأضافت هي:- إنه انحلال عند آخرين، أما أنت فلست فاسداً. أنا أعرف ذلك، لقد استشرت الطبيب. وقال إن شفاءك ممكّن، وأنت من لم تتوافق على العلاج بالصدمات الكهربائية. عرضت عليك الحصول على قرض من المصرف من أجل العلاج وأنت لا ولا ولا. والآن بعد أن مضت السنون، قل لي الحقيقة: لماذا لم تتوافق؟ هل بسبب الخوف؟

- الصدمات الكهربائية لا تفع في هذه الحالات - تلعم -. فلنترك الحديث في هذا الأمر. من الأفضل أن تقدمي لي كأس ماء. إلا يمكن أن يكون زواجه منك هو «العلاج» يا سيدتي؟ إلا يكون قد تزوج منها مفكراً بأن معاشرة امرأة شابة وجذابة قد يشفيه؟

- هذا ما حاول أن يقنعني به عندما تحدثا في الأمر أخيراً - ددمدت آديلايدا وهي تبعد بيدها خصلة الشعر -. إنها كذبة بالطبع. لو أنه أراد أن يشفى لبذل جهداً. لقد تزوج من أجل التغطية. وخاصة أمام أصدقائه الثوريين. وقد كنت أنا الستارة التي تخفي قدراته. - لا تجيبي على هذا السؤال إذا شئت - أقول لها -. هل كانت الحياة الجنسية بينكمما طبيعية؟

لم يجد عليها الانزعاج. بما أن هناك موتي كثرين ولم يكن من الممكن دفنهم، فقد أمر قادة المتمردين رشهم بأي مادة قابلة للاشتعال وإضرام النار فيهم. يجب الحيلولة دون أن تنشر الأشلاء المتعرضة المنتشرة في المدينة الأوئلة. الهواء كثيف وفاسد إلى حد لا يمكن معه التنفس. تقاطع آديلايدا ساقيها، تتخذ وضعاً مريحاً،

تفحصني؛ وفي الخارج ينفجر ضجيج مفاجئ؛ لقد أتت دبابة صفيرة لتقف أمام سياج الأسلاك وأصبح عدد الحراس أكبر، لا بد أن الأمور قد ساءت؛ يمكن القول إنهم يتهيؤون لشيء ما. وهمست آديلايدا وكأنها قد قرأت أفكاري: «إذا ما هاجموهم، فسنكون نحن أول من سيتلقى الرصاص». فرقعة الحرائق حيث تشتعل الجثث لا تُسكت أصوات الأقارب والأصدقاء الغاضبين وقادمي الصواب الذين يحاولون منع الحرق، مطالبين بدفع الضحايا وفق الطقوس المسيحية. ووسط الدخان، والنتانة، والهلع، والحزن، يحاول البعض اختطاف الجثث من الثوريين. ويخرج موكب من جمعية دينية، أو من كنيسة أو دير. يتقدم، شبحياً، وهو يرتل صلوات وأدعية، وسط الموت والدمار الذي صارت إليه مدينة كوسكو.

- لم أكن أعرف ما الذي تعنيه علاقات طبيعية وغير طبيعية - تدمدم وهي تُبعد الشعر بحركتها الطقوسية -. لم أكن قادرة على المقارنة. ففي ذلك الزمن لم تكن إحدانا تتحدث في هذه الأمور مع صديقاتها. ولهذا ظننت أنها علاقات طبيعية.

ولكنها لم تكن كذلك. لقد كانوا يعيشان معاً، وبين حين وأخر يمارسان الحب. وهذا يعني أنهما في بعض الليالي كانوا يتبدلان المداعبات، والقبلات، وينتهيان سريعاً وبناماً. شيء سطحي، روتيني، صحي، وهو شيء - مثلما أدركتْ فيما بعد - ناقص، أدنى من حاجاتهما ورغباتهما. ليست المسألة في أنه لم تكن تروقها مظاهر حرج مaita، مثل إطفائه النور مسبقاً على الدوام. ولكنها كانت تحس أنه مستجل، قلق، وتفكيره في مكان آخر بينما هو يداعبها. هل كان في مكان آخر؟ أجل:

كان يتساءل في أي لحظة بدأت تتراجع هذه الرغبة التي أيقظت جنسه بقوة التخيل والذكريات وتحرف، وتفرق في بئر القلق الذي كان يحاول الخروج منه متاعثماً ببعض التفسيرات التي كان يبدو على آديلابيدا، لحسن الحظ، أنها تصدقها. لقد كان تفكيره يتوجه إلى ليالٍ وأصبحاً أخرى، حيث لم تكن رغبته تتضاءل بل تشتد وكانت يده وفمه يجهدان، ليس مع آديلابيدا، وإنما مع واحد من أولئك المختفين الذين كان يتجرأ، بتrepid كبير، على الذهاب للبحث عنهم أحياناً إلى حانة بورينير أو كابياو. الحقيقة أنهما كانا يمارسان الحب مرة من كل مرتين أو ثلاث مرات، ولكن آديلابيدا لم تكن تعرف كيف تطلب منه ألا ينتهي بسرعة. وفيما بعد، عندما أحست بثقة أكبر، تجرأت على طلب ذلك. تجرأت على الطلب منه، على التوسل إليه بآلا يبعد عنها منها وكأنه في اللحظة التي تبدأ هي الإحساس فيها بالدغدغة، بالدوار. ولم يكن ذلك يحدث في معظم الأحيان، لأن مايتا كان يبدو فجأة وكأنه يشعر بالندم. وكانت هي شديدة البلاهة حتى تلك الليلة تعذب نفسها بالسؤال: أأكون أنا المذنبة؟ هل أنا باردة؟ ألا أعرف كيف أستثيره؟ - قدمي لي كأساً آخر من الماء - قال مايتا - فأنا سأنصرف الآن يا آديلابيدا.

نهضت هي، وحين عادت إلى الصالة كانت تحمل معها كذلك حفنة من الصور. قدمتها إليه دون أن تنطق بكلمة واحدة. صورة الطفل حديث الولادة؛ وحين كان عمره بضعة شهور، بالأقمعة، يحمله خوان ثاراتيه بين ذراعيه؛ في حفلة عيد ميلاد وإلى جانبه كعكة عليها شمعتان صغيرتان؛ وبسروال قصير وحذاء

وهو ينظر إلى المصور بوضعية التأهب. تفحصتُ الصور مرة بعد أخرى، وكان يتفحص نفسه في الوقت ذاته الذي يدقق النظر فيه بملامح، وأوضاع، وحركات، وملابس هذا الابن الذي لم يره ولن يراه أيضاً في المستقبل: هل سيتذكر هذه الصور غداً، في خاوخا؟ هل سأتذكرها، وهل ستراافقني، وتنمحي الحماسة في المسيرات عبر الجبال والأدغال، وفي الهجمات والكمائن؟ ما الذي أحس به عندما رأها؟ هل سيشعر عندما يتذكرها بأن النضال، والتضحيات، والملوت هي من أجله، ولوه؟ والآن بالذات، أتراه يشعر بالحنان، بالندم، بالغم، بالحب؟ لا: إنه لا يشعر إلا بالفضول وبالامتنان تجاه آديلايدا لأنها أرته الصور. وهذا هو السبب الذي دفعه للمجيء إلى هذا البيت قبل أن يغادر إلى خاوخا؟ أم أنه كان ي يريد، أكثر من التعرف على ابنه، أن يتقصى إذا ما كانت آديلايدا مازالت تشعر نحوه بالحقد نفسه لأنه كان دون شك شوكة في حياتها؟

- لست أدربي. - قالت آديلايدا - وإذا كان قد جاء من أجل ذلك، فقد انصرف وهو يعرف أنني، على الرغم من مرور السنوات، لم أغفر له أنه دمر حياتي.

- ولكنك على الرغم مما عرفته عنه، واصلت العيش معه لوقت لا بأس به. وإلى أن حبت.

- إنها العطالة - دمدمت آديلايدت -. وكان الحَبْل هو الذي منعني القوة لوضع حد للمهزلة.

كانت ترتتاب بذلك منذ أسابيع، لأن الحيض لم يتأخر عندها هكذا من قبل. ويوم قدموا إليها نتيجة التحليل انفجرت بالبكاء

متأثرة. ثم هيمنت عليها على الفور فكرة أن ابنها أو ابنته سيعرف عاجلاً أو آجلاً ما تعرفه هي. وكانوا في الأسابيع الأخيرة تحديدًا قد تجادلا عدة مرات حول العلاج بالصدمات الكهربائية. وقد قال لها بصوت خافت وهو ينظر إليها:

- لم يكن السبب هو الخوف. وإنما لأنني لا أريد أن أشفي يا آديلايدا.

أي إنكما في ذلك اللقاء الأخير تطرقتما إلى الموضوع يا سيدتي. أجل، وقد بدا مايتا أكثر صراحة مما كان عليه وهما يعيشان معاً. الموكب راح يتغاضم بانضمام أناس إليه من الشوارع التي يجتازها، رجال ونساء مسرنمون بالرعب، أطفال ومسنون مذهلون على آبائهم، أبنائهم، أخوتهم، أحفادهم المزقين بالشظايا أو المسحوقين تحت الانهيارات والمتفحمين في المحارق الوقائية. الموكب الأفعواني المنتصب والمرتل، المتراحم في أزقة كوسكو المدمرة، بدا وكأنه يعزي، يصالح، من بقوا على قيد الحياة. وفجأة، على مقرية مما كان فيما مضى ساحة الملك، اصطدم الموكب وجهاً لوجه مع مظاهرة حازمة لنشطاء ومقاتلين يحملون البنادق والرايات الحمراء يحاولون رفع معنويات الشعب والحلولة دون انتشار وهن العزيمة وضعف المعنويات. وتساقط وابل من الصرخات، والأحجار، والرصاص وعيوب الذعر.

قال لها مايتا وكأنه قد وجد الجملة الجاهزة:

- لو لم يكن ذلك مخالفًا لمبادئك، لطلبت منك الإجهاض. الأسباب أكثر من كافية. فالحياة التي أعيشها، التي نعيشها... هل يمكن تربية طفل في هذا النوع من الحياة؟ ما أفعله يتطلب تفرغاً

كاماً. لا يمكن لأحدنا أن يربط حزمة بعنقه. هذا إذا لم يكن الأمر مخالفًا لمبادئك، أما إذا كان كذلك، فسوف نتحمله. لم تبك ولم يتجادلا. «لست أدرى، سأرى، سوف أفكّر بالأمر.» وفي تلك اللحظة عرفت ما يتوجب عليها عمله، بمنتهى الوضوح ومنتها الحسم.

- لقد كنت تكذب عليّ إذن - ابتسمت آديلايدا بإحساس بالظفر - عندما كنت تقول لي إن ذلك يسبب لك الخجل، و يجعلك تشعر بأنك قمامه، وإنه نكبة حياتك. يسعدني أنك تعترف بحقيقةك أخيراً.

- إن ذلك يُخجلني، و يجعلني أشعر أحياناً بأنني قمامه - قال مaita. كان خدائي يتقدان وأشعر بـ لسانـ ثقيلاً، ولكنني لم أندم على التحدث في الأمر: - وما زال نكبة في حياتي.

- لماذا لا تزيد العلاج إذن؟ - كررت آديلايدا.

فتلعثمت:

- أريد أن أكون ما أنا عليه. إنني ثوري، لي قدمان مسطحتان. وأنا مخنث كذلك. ولا أريد أن أتخلى عن كوني كذلك. من الصعب أن أشرح لك الأمر. ففي هذا المجتمع هناك مجموعة من القواعد، مجموعة من الأحكام المسبقة، وكل من لا يقين نفسه بها يبدو غير طبيعي، ويعتبر تصرفه جريمة أو مرضًا. ولكن المجتمع متغصن، يغض بآفكار حمقاء. ولهذا لا بد من ثورة، ألا ترين ذلك؟

وتقول لي آديلايدا:

- ومع ذلك، فقد قال لي هو نفسه إنه لو كان في الاتحاد السوفييتي لـ كانوا أدخلوه إلى مشفى للمجانين، أو لـ كانوا أعدموه

رمياً بالرصاص في الصين، فهذا ما فعلوه بالمخنثين. أمن أجل هذا
تريد صنع الثورة؟

الاشتباك، وسط غبار الأنفاس، ودخان إحراق الجثث،
وصلوات المؤمنين، وأنين الجرحى، ويسأس المنكوبين السالمين، لم
يكد يستمر سوى ثوان، إذ تعالى فجأة هدير المحرّكات من جديد.
و قبل أن يتاح الوقت لمن كانوا يتداولون تراشق الأحجار والضرب
والشتائم لفهم ما يجري، تساقط المزيد من القنابل وصليات
الرشاشات فوق كوسكو.

- من أجل هذا أريد صنع ثورة أخرى. - همس مايتا وهو يمر
بمسانده على شفتيه الجافتتين: إنه يموت ظمآن ولكنه لا يجرؤ على
طلب كأس ماء ثالثة. - ليس نصف ثورة، وإنما ثورة حقيقة،
شاملة. ثورة تقضي على كل المظالم، ولا يشعر فيها أحد، لأي
سبب من الأسباب، بالخجل لكونه ما هو عليه.
ضحكـت آديلايدا:

- وهذه الثورة ستصنعها أنت مع أصدقائك في حـعـثـ؟

فابتسم لها مايتا:

- سيكونـ علىـ أـنـ أـصـنـعـهاـ بمـفـرـديـ. فـأـنـاـ لـمـ أـعـدـ فـيـ حـعـثـ.
لقد استقلـتـ فـيـ اللـيـلـةـ الـمـاضـيـةـ.

استيقظـتـ فـيـ صـبـاحـ الـيـومـ التـالـيـ وـكـانـتـ الفـكـرـةـ قدـ
اـكـتمـلـتـ فـيـ رـأـسـهـاـ خـلـالـ النـوـمـ. دـاعـبـتـهـاـ، قـلـبـتـهـاـ، وـأـعـادـتـ تـقـلـيـبـهـاـ
بـيـنـمـاـ هيـ تـرـتـديـ مـلـبـسـهـاـ، وـفيـ أـثـاءـ اـنـتـظـارـهـاـ الـامـبـوـسـ، وـبـيـنـمـاـ هيـ
هيـ تـمـشـيـ مـهـتـزـةـ بـاتـجـاهـ مـصـرـفـ الـاعـتمـادـ فـيـ لـيـنـشـيـ، وـبـيـنـمـاـ هيـ
تـضـبـطـ حـسـابـاتـ الصـندـوقـ عـلـىـ مـكـتـبـهـاـ الـقـزـمـ. وـعـنـدـ الـضـحـىـ،

طلبت إذنًا للذهاب إلى البريد. وكان خوان ثاراتيه ما يزال هناك، وراء الزجاج المحرز. تدبرت الأمر لكي يراها، وعندما حياها ردت على تحيته بابتسامة بالألوان. وبالطبع، نزع خوان ثاراتيه نظارته، ورتب وضع ربطة عنقه وخرج راكضًا ليصافحها. الفوضى شاملة: هناك مزيد من الموتى في الشوارع التي تحولت إلى أنقاض، وهناك بيوت أخرى تهدم، والبيوت التي ماتزال منتصبة تتعرض للسلب. وبين من يتأوهون أو يبكون أو يسرقون أو يحتضرون أو يبحثون عن موتاهم، هناك قلة فقط كانوا يسمعون الأوامر التي تصدرها على النواصي دوريات المتمردين: «الشعار هو مغادرة المدينة يا رفاق، مغادرة المدينة، مغادرة المدينة».

وتقول آديلايدا وهي تتأمل صورة شهر عسلها:

- يذهلني أنني تجرأت على ذلك.

هذا يعني أنه في ذلك اللقاء الأخير، في هذه الصالة الصغيرة، تحدث مaita مع من كانت زوجته عن أشياء حميمة ومثالية: الثورة الحقيقية، الشاملة، التي ستقتضي على كل أشكال الجور دون أن تسبب في ظهور أشكال أخرى جديدة. أي أنه على الرغم من العراقيل والمعوقات التي واجهته في الساعات الأخيرة، كان يشعر، مثلاً أكمل لي بلاكير، بالفبطة.. بل وبالفنائية:

- عسى أن تصيء ثورتنا الطريق لثورات أخرى. أجل يا

آديلايدا، عسى أن تكون بلادنا البيرو مثالاً يحتذى به العالم.

- الصراحة هي أفضل شيء وهكذا سأكلمك - لم يكن

بإمكان آديلايدا أن تصدق أن تلك الثقة وتلك الجرأة هي منها،

وأنها في الوقت الذي كانت تقول فيه هذا الكلام، كانت قادرة على الابتسام، وعلى الاستعراض وهز شعرها بطريقة جعلت مسؤول البريد في لينشي ينظر إليها بافتتان - أنت كنت تسعى بجنون للزواج مني، أليس هذا صحيحاً يا خوان؟

فاقترب خوان ثاراته فوق الطاولة في مقهى "بيت ثيواز" حيث كانوا يتawaلان شرابةً مرطباً:

- أنت قلت ذلك يا آديلايدا. إنني مجنون بك وأكثر من مجنون.

- انظر إليّ جيداً يا خوان وأجبني بصراحة. هل ما زلتُ أعجبك مثلما كنت قبل سنوات؟

ابتلع مسؤول بريد لينشي لعابه:

- بل تعجبيني أكثر. إنك الآن أجمل يا آديلايديتا!

- إذا أنت أردت إذن، يمكنك الزواج مني - صوتها الذي لم يكن قد خانها من قبل لن يخونها الآن - لا أريد أن أخدعك يا خوان. فأنا لست مغفرة بك. ولكنني سأحاول أن أحبك، وأن أقول نفسي وفق رغبتك، وسأحترمك وأفعل كل ما يمكنني عمله لأكون زوجة صالحة.

كان خوان ثاراته ينظر إليها وهو يرمي؛ وبدأت كأس المطلب التي هي يده ترتعش. وقال أخيراً:

- هل تتكلمين بجد يا آديلايدا؟

- إنني أتكلم بجد - لم تتردد الآن أيضاً - ولكنني أطلب منك شيئاً واحداً فقط. أن تمنعني اسمك إلى الابن الذي سأنجبه.

- أعطني كأساً أخرى من الماء - قال ذلك مايتا - هذا العطش لا يفارقني، لست أدرى ما الذي أصابني.

- ما أصابك هو أنك ألقيت خطاباً - قالت له وهي تنهض. ثم واصلت القول من المطبخ: - لم تغير قط. بل يمكن القول إنك أسوأ مما كنت عليه. فأنت الآن لا تريد أن تصنع ثورة للفقراء فقط، وإنما للمخنثين أيضاً. أقسم لك أنك تجعلني أضحك يا مaita.

وذكر: «ثورة للمخنثين أيضاً. أجل، ثورة للمخنثين البائسين». لم يشعر بأدنى قدر من الاستياء للقهقةة التي أطلقتها آديلايدا: ما بين الدخان والنتانة، تلمح أرطال الناس المغاربين من المدينة المدمرة، متعشرين بالأنقاض، مغلقين أفواههم وأنوفهم. لقد بقي بين الأنقاض القتلى والجرحى والمسنون والصفار جداً. والنهايون الذين يتحدون الاختناق والنار والقنابل المنشورة، ويدخلون إلى البيوت التي ما تزال منتصبة بحثاً عن أموال وطعام.

وأقول لها:

- وقد وافق. لا بد أن دون خوان ثاراتيه كان يحبك كثيراً يا سيدتي.

- تزوجنا في الكنيسة، ريثما يتم طلاقي من Maita - تهدت آديلايدا وهي تتظر إلى صورة كانيتي، وأضافت: تأخرت معاملة الطلاق سنتين. ثم سجلنا عقد زواجنا بعد ذلك على الطريقة المدنية كذلك.

كيف تعامل Maita مع هذه القصة؟ دون مفاجأة، وبشيء من الراحة دون شك. كان يتصرّف ليقول لها إنه قلق جداً لزواجهما بهذه الطريقة، دون حساب المشاعر.

- ألم يكن هذا هو ما فعلته أنت بي؟ مع الاختلاف. فأنت قد خدعتني، أما أنا فقلت لخوان كل شيء.

- ولكن حساباتك كانت خاطئة. - قال لها مایتا. وكان قد انتهى من تناول كأس الماء وبدأ يحس بالانتفاخ.. أتذكرين بأنني حذرتك؟ لقد نبهتك منذ البداية بأنه...
فقط اعطيه آديلايدا:

- لا تحاول إلقاء خطبة أخرى.

ظللت صامتة، تدق على ذراع المبعد، وأستطيع أن أقرأ في وجهها بأنها تقدر إذا ما كانت الساعة قد انقضت. ولكنني أنظر إلى ساعة معصمي وأرى أنه ما زال هناك خمس عشرة دقيقة. وفي هذه الأثناء، يسمع صوت إطلاق نار. طلقة معزولة، ثم اشتان آخران، ورشة. وبحركة واحدة نطلع أنا وآديلايدا من خلال النافذة: لقد اخفى الحراس، لا بد أنهم ينحون متوازين وراء الأسلاك وأكياس الرمل. ولكن هناك في الجهة اليسرى دورية من جنود سلاح الطيران تتقدم باتجاه قصر روسبيغليوسي دون أن تبدي قلقاً. صحيح أن الطلقات النارية دوت في مكان بعيد. أهي عمليات إعدام في الأحياء الهمشية؟ هل بدأت المعارك في محيط ليما؟

- وهل نفع ذلك حقاً؟ - أعود إلى حديثنا. فترفع هي بصرها عن النافذة وتنظر إلىّ: ملامح الذعر التي بدت عليها عندما سمعت إطلاق النار، تلاها مرة أخرى ذلك الوجه الفظ الذي يبدو أنه وجهها المألف، فأقول: - أعني مسألة الطفل.

- بقي نافعاً إلى أن عرف أن خوان ليس أباه - تقول ذلك. وتبقى شفتاها مفتوحتين، وتبدأ عيناه اللتان تظطران إلى بثبات بالتألق.
فأقول معذراً:

- حسن، هذا أمر لا يدخل في القصة، لا حاجة لأن نتحدث عن الآبن. من الأفضل أن نرجع إلى مايتا.

- لن ألقى أي خطبة أخرى - طمأنها. وشرب آخر رشفة في الكأس: وماذا إذا كان كل هذا العطش يعني أنك مصاب بالحمى يا مايتا؟ ثم أضاف: سأكون صريحاً معك يا آديلايدا. كنت أريد أن أعرف شيئاً عن ابني قبل أن أغادر، ولكنني كنت أريد أن أعرف أخبارك أيضاً. لم يسعدني المجيء. كنت أنتظر أن أجده سعيدة، مطمئنة. ولكنني أجده ممتهنة بالأحقاد ضدي ضد العالم بأسره.

- إذا كان هذا يعزيك فإيني أشعر نحوك بحقد أقل مما أشعر به نحو نفسي بالذات. لأنني أنا السبب في كل ما جرى لي في الحياة.

في البعيد، تدوي أصوات الرصاص من جديد. ومن الأفجاح، من السفوح، من القمم ومن النجود المحيطة، تبدو كوسكو دخاناً وتاؤهات.

وتهمس هي بطريقة منفصلة:

- لم يكن خوان هو الذي أخبره وإنما أنا. وخوان لن يغفر لي ذلك أبداً. لقد أحب خوانشيو دوماً كما لو كان ابنه. وتروي لي القصة القديمة التي لا بد أنها تفرض أيامها وليلاتها، قصة يختلط فيها الدين بالغيرة بالإحباط. فخوانشيو فضل منذ طفولته أباء المستعار على أمه، وكان يلتصق به أكثر مما يميل إليها ربما لأنه كان يشم بطريقة غامضة أن هناك كذبة كبيرة في حياته بسبب آديلايدا.

- هل هذا يعني أن زوجك يأخذه إلى القدس كل يوم أحد؟ -

فكرا مياها بصوت عالٍ. وأعادت إلى الذاكرة، في دوامة متزاحمة، صلوات وترتيلات ومناولات واعترافات الطفولة، مجموعات من الصور الملونة التي كان يخبيئها كأشياء ثمينة في دفتر الواجبات - حسن، ففي هذا الأمر على الأقل لديه شيء مشترك معي. فعندما كنتُ في مثل سنه، كنت أواظف على الصلاة يومياً.

وقالت آديلايدا:

- خوان كاثوليكي. وهو يقول مازحاً إنه كاثوليكي رسولي روماني وورع. ولكنها الحقيقة الحالصة. وهو يريد أن يكون خوانثيتو هكذا بالطبع.

- بالطبع - وافق مياها. ولكنـه كان يفكر، بالتداعي، في فتية مدرسة سان خوسـيه في خاوـخـا الذين استـمعـوا باهـتمـامـ، وهم شـبهـ مـذـهـولـينـ، إـلـىـ كـلـ ماـ قـالـهـ لـهـمـ عنـ المـارـكـسـيـةـ وـالـثـوـرـةـ. تـخيـلـهـمـ يـطـبـعـونـ بـآلـةـ طـبـاعـةـ بـدـائـيـةـ، مـخـبـأـةـ تـحـتـ جـلـودـ وـصـنـادـيقـ، الـبـلـاغـاتـ الـتـيـ تـرـسـلـهـاـ إـلـيـهـمـ الـقـيـادـةـ، وـيـوزـعـونـ مـنـشـورـاتـ عـنـ مـداـخـلـ الـمـصـانـعـ، الـمـدـارـسـ، وـفـيـ الـأـسـوـاقـ، وـفـيـ دـورـ السـيـنـماـ. رـآـهـمـ فـيـ مـخـيـلـاتـ يـتـكـاثـرـونـ مـثـلـ خـبـرـ الإـنـجـيلـ، وـيـجـنـدـونـ كـلـ يـوـمـ عـشـرـاتـ الـفـتـيـانـ الـبـائـسـينـ وـالـمـتـفـانـيـنـ مـثـلـهـمـ، يـذـهـبـونـ وـيـجـيـئـونـ عـلـىـ دـرـوبـ خـطـرـةـ وـقـمـ جـلـيدـيـةـ مـتـجمـدـةـ فـيـ سـلـسـلـةـ الـجـبـالـ، مـتـجـنـبـينـ حـوـاجـزـ الـجـيـشـ وـدـورـيـاتـهـ، مـتـسـلـلـينـ فـيـ الـلـيـالـيـ مـثـلـ القـطـطـ إـلـىـ سـطـوـحـ الـمـبـانـيـ الـعـامـةـ وـإـلـىـ ذـرـىـ الـجـبـالـ لـغـرـسـ رـايـاتـ حـمـراءـ مـرـسـومـ عـلـيـهـاـ الـمنـجـلـ وـالـمـطـرـفةـ، وـرـآـهـمـ يـأـتـونـ مـتـعـرـقـينـ، بـاسـمـيـنـ، مـهـيـبـيـنـ، إـلـىـ مـعـسـكـرـاتـ الـأـنـصارـ

النائية وهم يحملون الأدوية والمعلومات، الملابس والمؤن التي تحتاجها حرب العصابات. وتخيل ابنه واحداً منهم. إنهم فتية في الرابعة عشرة، في الخامسة عشرة، في السادسة عشرة من عمرهم. وبفضلهم يمكن لقوات حرب العصابات أن تكون واثقة من الانتصار. وفكرا: «واثقة من اقتحام السماء». سُتنزل الفردوس من السماء، ونقيمه على الأرض فتختلط السماء بالأرض في هذه الساعة الشفافية؛ سُحب الأعلى الرمادية تلتقي بسحب الرماد التي تطلقها الحرائق. وما هذه البقع السوداء الطيارة، الكثيرة، التي تأتي من الجهات الأربع نحو كوكبكم؟ إنها ليست رماداً وإنما هي طيور جارحة، نهمة، جائعة، ينخسها الجوع، فتشهدى الدخان واللهب، وتحدر منقضة على جثث الطرائد المشتهاة. ومن الأعلى يمكن للناجين، للأقارب، للجرحى، للمقاتلين، للأميين، بأدنى حد من المخيلة، أن يسمعوا الانهماك في الطحن، ووقع المنافير المحمومة، وخفق الأجنحة الخسيسة، وأن يشموا رائحة النتنة المرعبة.

- أيعني هذا أنه...؟ - أشجعها على مواصلة الكلام. لقد صار إطلاق النار يُسمع الآن في كل لحظة، يسمع بعيداً، ولكنني لم أعد أنا ولا آديلايدا إلى النظر إلى الشارع.

- هذا يعني أن الموضوع لم يكن يُطرق أبداً أمام خوانثيتو -
تقول مواصلة كلامها. وأستمع إليها وأنا أحاوِل جاهداً أن أهتم بقصتها، ولكنني أواصل رؤية المجزرة وشمها.

لقد كانت مسألة من المحرمات، تحت مثل حمض بطيء في أعماق علاقتها الزوجية. كان خوان ثاراتيه يحب الفتى، ولكنه لم يغفر لها ذلك الاتفاق، ذلك الثمن الذي جعلته يدفعه مقابل أن

تكون زوجة له. وقد اتخذت القصة أبعاداً غير متوقعة يوم اكتشف خوانثيو - وكان قد أنهى المدرسة الثانوية ودخل إلى الصيدلية - أن لأبيه عشيقة. دون خوان ثاراتيه لديه عشيقة؟ أجل، وقد فتح لها بيتاً منفصلاً. ولم تشعر آديلايدا بالغيرة، وإنما بالتجمد حين فكرت أنه يمكن أن تكون هناك عشيقة لذلك العجوز الذي يجر قدميه، وذي البصر التالف. كان الأمر يسبب لها الموت ضحكتاً. فالمرأة تشعر بالغيرة عندما تشاء وهي لم تحب خوان ثاراتيه مطلقاً، بل إنها كانت تتحمله بصدرها. وما أغضبها فقط هو أنه كان يستطيع فتح بيتهن بذلك الراتب الزيهد الذي يتقاده...

- ولكن الأمر بالمقابل استثار غضب ابني، جننه - تضييف وهي في حالة من التقويم المغناطيسي -. وبدأ يتمرّر، يتآكل. فوجود عشيقة لدى أبيه بدا له نهاية العالم. أيكون ذلك بسبب تربيته الورعه؟ كان يمكن لي أن أفهم ردة الفعل تلك لدى طفل صغير، ولكن كيف يمكن فهمها لدى شاب في العشرين من عمره، يعرف أمور الدنيا؟

فأقول لها :

- لقد كان الفتى يتآلم من أجلك.
- بل بسبب الدين - تصر آديلايدا -. لقد رياه خوان تلك التربية، جعله متدينًا ورعاً. لقد أصابه الجنون. فهو لم يكن يتقبل من أبيه الذي علمه كيف يكون كاثوليكيًا كاملاً أن يتحول إلى منافق. لقد كان يقول هذه الأشياء وكان عمره عشرين سنة. صمت لأن إطلاق النار سمع هذه المرة أقرب. نظرت من النافذة: يجب ألا يكون الأمر مثيراً للذعر لأن الحراس يبدون

مطمئنين، من فوق سياج الأسلاك. إنهم ينظرون باتجاه الجنوب، و كان تبادل إطلاق النار يأتي من جهة سان إيسيدرو أو ميرافلوريس.

أقول لها:

- ربما يكون قد ورث ذلك عن مايتا. فقد كان هكذا في صغره: مؤمن بصرامة، مقتنع بأنه عليه التصرف باستقامة في كل حين. لم يكن يتقبل التسويات. ولم يكن هناك ما يغضبه أكثر من شخص يؤمن بشيء ويمارس خلافه. ألم يحدثك عن إضرابه عن الطعام من أجل أن يتماثل مع القراء؟ الناس الذين على هذه الشاكلة لا يكونون سعداء في الحياة يا سيدتي.

فتدمدم آديلايدا بوجه ممتقن:

- لقد رأيت ابني يتعدب كثيراً فخطر لي أن أساعده بإخباره بالحقيقة. وأنا أيضاً أصبحت بالجنون، أليس كذلك؟

- أجل، سأذهب، ولكنني أطلب منك خدمةأخيرة - قال لها مايتا ذلك، وما كاد ينهض حتى ندم لأنه لم يغادر من قبل - لا تخبر أحداً بأنك قد رأيتني. مهما كان السبب.

لم تكن تقتنع أبداً بتلك الأسرار، والاحتياطات، والشكوك، والمخاوف، لم تكن قادرة على أخذها على محمل الجد على الإطلاق، بالرغم من أنها حين كانت تعيش معه، رأت الشرطة في مرات كثيرة تأتي إلى البيت. لقد كانت تشعر دوماً بأنها لعبة شيخ يظهرون بأنهم أطفال، وأنها إحساس بالاضطهاد يسمم الحياة. كيف يمكن الاستمتاع بالحياة في ظل الخوف من مؤامرة كونية ضد المرء يشارك فيها الوشاية، والجيش، والأبرا،

والرأسماليون، والستالينيون، والإمبرياليون، إلى آخره، إلى آخره؟
كلمات مايتا ذكرتها ب Kapoor التحذيرات التي كانت تسمعها من قبل، لا تكرري قول ذلك، لا تقوليه، يجب عدم معرفته، لا يمكن لأحد...، عدة مرات في اليوم. ولكنها لم تجادل: لا بأس، لن أخبر أحداً. هز مايتا رأسه، وودعها بنصف ابتسامة، وابتعد سرعاً بمشيته تلك، مشية رجل يعاني من دمامل في باطن قدميه. وتضيف آديلايدا ناظرة إلى الفراغ:

- لم يبيك، ولم تجر أي دراما. وجه إلى أسئلة قليلة، وكأنه يفعل ذلك بداعف الفضول فقط. كيف كان مايتا؟ ما سبب طلاقنا؟ ولا شيء غير ذلك. بدا مطمئناً إلى حد أنني فكرت: «لن يكون لإخبارك له بالأمر عواقب كبيرة».

ولكن الفتى اختفى في اليوم التالي. لقد مررت عشر سنوات ولم تعد آديلايدا خلالها إلى رؤيتها. ينقطع صوتها وأراها تعتص بديها وكأنها تريد أن تسلخ جلدhem. وتندمدم:

- وهذا تصرف كاثوليكيين؟ يقطع علاقته بأمه إلى الأبد بسبب ما يمكن اعتباره في أسوأ الحالات مجرد خطأ. أولم يكن كل ما فعلته من أجله يا ترى؟

لقد بحثا عنه حتى بمساعدة الشرطة، مع أن الفتى كان قد تجاوز سن الرشد. تحزنني رؤية عذابها وأدرك أنها أضافت هذه الحادثة إلى رصيد إهانات مايتا، ولكنني أشعر في الوقت نفسه بأنني أتحلل من عذابها، وبأنني قريب من مايتا، أفقني أثره في شوارع لينشي وهو يتجه نحو جادة أريكيبيا ليركب الحافلة. أكان يمضي متضايقاً بسبب جفاء هذه الزيارة لزوجته السابقة وإخفاقه

في رؤية ذلك الابن الذي لن يراه مطلقاً بكل تأكيد؟ هل كان قانطاً ومتملاً؟ بل كان منبسطاً، مفعماً بالنشاط، نافذ الصبر، يوزع في ذهنه الساعات المتبقية له في ليماء. لقد كان يعرف كيف يتجاوز المنفصالات بقفزة انتفالية، وكيف يستخلص منها قوة الإنجاز المهمة التالية. لقد كان خروجه من خمود الهمة والإشغال على الذات يتم في السابق بشغل نفسه في عمل بسيط، محدد، يومي، مهني، كأن ينهمك في طلاء الجدران، أو في الذهاب إلى مطبعة كوتشاركاس، أو في توزيع المنشورات في جادة الأرجنتين وفي ساحة الثاني من أيار(مايو)، أو تصحيح تجارب الطباعة، أو ترجمة مقال من الفرنسيية لنشرة صوت العمال. أما الآن، فإنها الثورة بلحمنها وعظمها وكل حروفها، الثورة الواقعية الحقيقية التي ستبدأ بين لحظة وأخرى. وفكراً: «التي ستبدؤها أنت». هل سيضيع الوقت في تعذيب نفسه بمشاكل بيته؟ فتشجعه، وأخرج منها القائمة، وأعاد قراءة الأشياء التي سيشتريها.

أتكون تصفية حسابه جاهزة في فرنس برس؟

ونقول آديلايدا وهي تفرك يديها بغضب:

ـ لقد فكرتُ في الأيام الأولى بأنه قد انتحر. وأنه على أن أقتل نفسي أنا أيضاً ثناً لموته.

لم يعرفا أي شيء عن الفتى خلال أسابيع، شهور، إلى أن تلقى خوان ثاراتيه رسالة منه في أحد الأيام. كانت رسالة هادئة، متروية ومكتوبة برصانة. يشكره فيها على ما فعله من أجله، ويقول له إنه يرجو أن يتمكن من ردّ جميله. ويعذر لأنه غادر البيت بتلك الطريقة الفظة، ولكن كان من الأفضل لکلیهما تجنب

الاضطرار إلى تقديم تفسير شاق. يجب ألا يقلق من أجله. أ يكون في أعلى المنطقة الجبلية التي بدأت تكنس الليل؟ أ هو واحد من الرجال الذين يقفزون، يذهبون، يجيئون ما بين الأحياء - والبندقية الرشاشة تتدلى من كتفه والمسدس على خاصرته - محاولاً إعادة تنظيم الفوضى؟

- كانت الرسالة مرسلة من بوبيكايابا - تقول آديلايدا -
ولكنه لم يذكرني فيها.

أجل، لقد كانت تصفيية حساباته في مكتب فرنس برس جاهزة، نقداً وليس شيئاً: إنها ثلاثة وأربعون ألف سول. تضخم قلبه. فقد كان يقدر المبلغ بخمسة وثلاثين ألف سول في أقصى الحدود. إنه الأمر الطيب الوحيد الذي جرى له في الأيام الأخيرة: ثمانية آلاف سول إضافية. سيشتري كل ما هو وارد في القائمة وسيفيض لديه بعض المال فوق ذلك. لم يودع بالطبع المحررين في فرنس برس. وعندما سأله المدير عما إذا كان يستطيع العمل في أيام الآحاد، رد عليه بأنه ذاهب إلى تشيكلابو. خرج متھماً، مستعجلًا، باتجاه جادة ابانكاي. لم يكن يطيق الخروج للتسوق من قبل أبداً، ولكنه جاب في هذه المرة عدة متاجر بحثاً عن أفضل بنطال رعاة بقر كاكى اللون، يتحمل قسوة المناخ، والأرض الوعرة والعمل النشط. اشتري بنطالين من متجرين مختلفين، ثم اشتري حذاء خفيفاً من بائع جوال على الرصيف. وقد قدم له البائع مقعده الصغير، فجلس مستنداً إلى جدار المكتبة الوطنية ليجرب الحذاء. ودخل إلى صيدلية في جادة لامبا. وكان على وشك أن يُخرج قائمة المشتريات ويقدمها للصيدلي، ولكنه كبح نفسه

مكرراً في دخيلته، مثلاً فعلآلاف المرات في حياته: «الاحتياطات لا تكتمل مطلقاً». قرر أن يشتري الضمادات الطبية، والمطهرات، وأدوية تخثر الجروح، والسلفات وبقية مواد الإسعافات الأولية التي أملأها عليه بابيغوس من عدة صيدليات.

- ولم تريةاً منذ ذلك الحين؟

- أنا لم أره - تقول آديلايدا.

أما خوان ثاراتيه فرأه. لقد كان يأتي إلى ليما بين حين وآخر، كان يأتي من بوكايابا أو من يوريماوغواس، حيث كان يعمل في مناشر الخشب، وكانا يتوالان الغداء معاً. ولكن منذ بدأ كل هذا - الاغتيالات، عمليات الاختطاف، القنابل، الحرب - توقف عن كتابة الرسائل وعن المجيء؛ إما أن يكون قد مات أو أنه صار واحداً منهم. لقد خيم الليل واستلقى المتبقون على قيد الحياة فوق بعضهم البعض ليتحملوا البرد في ظلمات كوسكو. وكانت الحشود تهذى في نومها، مستمعة إلى طائرات وقنابل شعبية تضاعف ما سمعوه في النهار. ولكن ابن مايتا لا ينام: فهو يجادل في مفارقة القيادة الصغيرة، محاولاً فرض وجهة نظره. يجب على الناس أن يرجعوا إلى كوسكو فور انقسام آخر عفونة الحرائق ويبعدوا بإعادة البناء. هناك قادة لديهم وجهة نظر أخرى: سيكونون هناك أهدافاً سهلة لعمليات قصف ومذابح جديدة تشتت صفوف الناس مثل التي جرت اليوم. من الأفضل أن يبقى الناس في العراء، موزعين في قطاعات وملحق في الأطراف، ومعسكرات أقل تأثيراً بالغارات الجوية. ويرد ابن مايتا، ويجادل، ويعرف صوته، وعلى بريق نار الوقود الصغير، يلمع وجهه مدبogaً، بقرود، وقوراً.

لم ينزع البنديقة الرشاشة عن كتفه ولا المسدس عن خاصرته. وكانت السيجارة بين أصابعه قد انطفأت دون أن ينتبه إليها. صوته صوت رجل هزم كل الشدائـد - البرد، الجوع، الإنهاك، الهرب، الرعب، الجريمة - وهو واثق من الانتصار المحتـم والوشـيك. وهو لم يخطئ حتى الآن، وكل شيء يؤكـد بأنه لن يخطئ كذلك في المستقبل.

وتكرر آديلـيدا:

- في المرات القليلة التي جاء فيها كان يبحث عن خوان ويخرجان معاً. أما أنا فلم يبحث عنـي أبداً، ولم يتصل بي ولم يكن يسمح لخوان حتى بطرح إمكانية اللقاء بي. أيمـكن لك أن تفهم حقدـأـ كـهـذا، غضـبـأـ كـهـذا؟ في الـبـدـء كـتـبـتـ إـلـيـه رسـائـلـ كـثـيرـةـ.

ثم انتهـيـتـ فيما بعد إلى الاستسلام.
أذـكـرـهاـ:

- لقد انتهـتـ السـاعـةـ المـتـقـقـ عـلـيـهاـ.

تلـقـىـ ماـيـاـ اللـفـافـةـ وـسـلـمـ الإـيـصالـ وـخـرـجـ. كان قد استـفـدـ كلـ ماـ فـيـ القـائـمـةـ بـشـرـاءـ السـلـفـاتـ والمـيرـكـورـكـرومـ منـ الصـيـدـلـيـةـ الأـخـيـرـةـ. كانت رـزـمـ المشـتـريـاتـ كـبـيرـةـ، ثـقـيـلـةـ، وـحـينـ وـصـلـ إـلـىـ بـيـتـهـ فـيـ شـارـعـ ثـبـيـتاـ كـانـ ذـرـاعـاهـ يـؤـلـمـانـهـ. لقدـ كـانـ الحـقـيـقـةـ جـاهـزـةـ: الـكـنـزـاتـ، الـقـمـصـانـ، وـفـيـ مـنـتـصـفـهـاـ المسـدـسـ الرـشاـشـ الذـيـ أـهـدـاهـ إـلـيـهـ بـاـيـخـوـسـ مـغـطـىـ بـحـذـرـ وـدـقـةـ. رـتـبـ الأـدوـيـةـ فـيـ الحـقـيـقـةـ وـأـلـقـىـ نـظـرـةـ عـلـىـ الـكـتـبـ الـمـعـثـرـةـ. هلـ سـيـأـتـيـ بـلـاكـيرـ لـيـأـخـذـهـاـ؟ خـرـجـ، خـبـأـ الـمـفـاتـحـ ماـ بـيـنـ دـفـتـيـ صـحـنـ الـدـرـجـ الـمـفـلـتـيـنـ. إـذـاـ هوـ لـمـ يـأـتـ فـسـوـفـ يـبـيـعـ صـاحـبـ الـبـيـتـ الـكـتـبـ لـيـحـصـلـ عـلـىـ الإـيـجارـ. وـمـاـ أـهـمـيـةـ

كل هذا الآن؟ ما أهمية غرفته، كتبه، آديلادا، ابنه، رفاقه السابقين الآن؟ وما أهمية ليما الآن؟ وأحس بقلبه يضطرب وهو يرى السائق يضع الحقيبة على الحمالة. الحالفة ستطلق إلى خاوحا خلال دقائق. وفكّر: «هذه رحلة دون عودة يا مaita».

أنهضُ واقفاً، أشكّرها وترافقني هي حتى الباب وتغلقها فور تجاوزي العتبة. وأشعر بالغرابة وأنا أرى، في المساء الذي يميل إلى الغروب، واجهة قصر روسيغليوسى المخادعة. يجب عليَّ أن أخضع مرة أخرى لتفتيش جنود الطيران. يسمحون لي بالمرور. وبينما أنا أتقدم ما بين بيوت مسورة بأحجار وطين، لم تعد الأصوات التي في الأمام والخلف وإلى اليمين واليسار هي أصوات تبادل رشقات نارية وحسب. بل أصوات انفجارات قنابل يدوية ومدافع كذلك.

الفصل الثامن

يبدو كأنه إحدى شخصيات آرسيمبولد: أنفه جزرة هزيلة، خداه سفرجلتان، ذقنه حبة بطاطا ناتئة وممتئنة بالعيون، ورقبته عنقود عنب نصف مسلوخ. يبدو قبحه لطيفاً لشدة استهتاره؛ ويمكن القول إن دون إلثكيل يُجْعَل قبحه بهذا الشعر الدهني الذي يتدلّى متهدلاً على كتفيه. ويبدو جسده أكثر ترهلاً وهو محشور في البنطال والمئزر والكنزة المرقعة. إحدى فرديتي حذائهما فقط لها رباط؛ أما الأخرى فتهدد بالإفلات من قدمه في كل خطوة. وهو مع ذلك ليس شحاذًا، بل صاحب متجر المفروشات والأدوات المنزلية، في ساحة السلاح في خاوخا، الملافق لمدرسة الكارمن وكنيسة الراهبات الفرanciscan. وتقول الألسنة في خاوخا إن هذا الذي يراه أحدهنا، هو أغنى تاجر في المدينة. لماذا لم يهرب مثلاً فعل آخرون؟ لقد اختطفه المتمردون قبل بضعة أشهر، وقد انتشرت إشاعة تقول إنه قد دفع لهم فدية كبيرة؛ فلم يعودوا إلى إزعاجه منذ ذلك الحين لأنّه، كما يقولون، قد دفع «الحصة الثورية».

أوقفني بجفاء فور إطلاالي على المتجر:

— أعرف من الذي أرسلك إلى هنا، أعرف أنه ابن العاهرة الأفطس أوببيوث. لا جدوى من مجيئك، فأنا لا أعرف شيئاً ولم أر شيئاً ولم أكن متورطاً في تلك النذالة البرازية. ليس هناك ما

يمكنا عمله. أعرف أنك تكتب عن باييغوس. لا تدخلني في هذه الأمور إلا عليك أن تحمل النتائج. أقول لك هذا دون أن أغضب، لكي يدخل بوضوح في دماغك.

والواقع أنه كان يقول لي ذلك بعينين متقدتين بالغضب. لقد كان يصرخ بطريقة جعلت إحدى الدوريات التي تجوب الساحة تقترب لتسأل إذا ما كان يحدث أي شيء. لا، لا شيء. وعندما انصرفوا، قمت بالدور المعمود: ليس هناك أي مبرر للذعر يا دون إثكيل، فأنا لا أفكّر في ذكر اسمك ولو مرة واحدة. ولن يظهر في قصتي كذلك اسم الملازم باييغوس ولا مaitا ولا أي واحد من شخصيات الواقع، ولن يتمكن أحد من أن يتعرف فيها على ما حدث في الواقع.

ف يريد علي وهو يهز أصابع أشبه بالخطافات:
- وأي براز جاء بك إلى خاوحا إذن؟ ولأي براز تقوم بتوجيهه الأسئلة في الشوارع والساحات حول ما جرى؟ ولماذا كل هذه التقولات البرازية؟

وأقول للمرة المئة في هذه السنة:

- لكي أكذب وأنا أعرف السبب. دعني أوضح لك الأمر على الأقل يا دون إثكيل. لن آخذ من وقتك أكثر من دقيقتين. هل تسمح لي؟ أيمكنني الدخول؟

الضوء الذي يحمم هواء خاوحا هو ضوء فجر: ضوء أولي، متلهم، مائل إلى السواد، وفيه يظهر شبح الكاتدرائية، والشرفات المحيطة، والحدائق الصغيرة المسورة بسياج حديدي والأشجار التي في وسط الساحة، وكلها تظهر وتحتفي. الهواء

القاطع يسبب قشعريرة في الجلد. هل الأعصاب هي السبب؟ أهوا الخوف؟ لم يكن عصبياً ولا خائفاً، إنه جزء بعض الشيء وحسب، ليس بسبب ما سيحدث وإنما بسبب الارتفاع اللعين الذي يذكره به قلبه في كل لحظة. كان قد نام بضع ساعات، على الرغم من البرد الذي كان يتسرّب من الزجاج المكسور، وعلى الرغم من أن كراسي محل الحلاقة لم تكن السرير المثالي. وقد أيقظه صباح ديك في الخامسة، وكان أول ما فكر فيه، قبل أن يفتح عينيه: «إنه اليوم». نهض، تمطى في الظلام، وتعثر بالأشياء وهو يتوجه نحو الطست المملوء بالماء. السائل الجليدي أيقظه تماماً. كان قد نام بملابس له ولم يكن عليه سوى انتعال جزمه، وإغلاق حقيبته والانتظار. جلس على أحد الكراسي حيث يحلق إشكيل لزيائته، وبينما هو يغمض عينيه، تذكر التعليمات. كان مطمئناً، هادئاً، وكان يمكن له أن يشعر بالسعادة لو لا هذا الضيق. بعد دقائق من ذلك سمع الباب يفتح، وعلى ضوء مصباح يدوبي، رأى إشكيل. لقد أحضر له قهوة ساخنة في فنجان من صفيح.

- هل كان نومك غير مريح؟

فقال مايتا:

- لقد نمت جيداً. هل صارت الساعة الخامسة والنصف؟

وهمس إشكيل:

- إلا قليلاً. اخرج من الباب الخلفي، ولا تحدث ضجة.

- شكراً على حسن ضيافتك. وحظاً طيباً - ودعه مايتا.

- بل حظاً خبيثاً. كل ما افترفته من ذنب هو أعني كنت رجلاً طيباً، مغفلاً كبيراً - وكان أنفه ينتفخ ويُبرز ما لا حصر له من

العروق الخمرية؛ وعيناه تتحرّكان باختدامـ. ذنبي الوحيد هو أنني أشفقت على غريب لا أعرفه وسمحت له بالنوم ليلة واحدة في دكان حلاقتي. ومن هو الذي جاءني بحكاية أنه ليس لهذا المسكين سقف ينام تحته ويسألني عما إذا كان لا يوجد لدى مانع من إيوائه؟ من هو سوى ابن العاهرة الأفطس أوبيبوت؟
وأحاول تهدئته:

ـ لقد مضت خمس وعشرون سنة يا دون إشكيل. إنها قصة قديمة، لم يعد هناك من يتذكرها. لا تغضب هكذا.
ويز默جر دون إشكيل:

ـ إنني أغضب لأنه لم يكتف بما فعله بي، وهذا هو هذا الكلب يشبع أنني قد بعثت نفسي للإلهائيينـ. يز默جر دون إشكيلـ. لعل الجيش يرمياني بالرصاص ويخلصه من وجودي. إنني أغضب لأن العقل المدبر لتلك الحماقة لم يصبه شيء. أما أنا الذي لم أكن أعرف شيئاً ولم أكن أفهم شيئاً ولم أر شيئاً، فقد زجوا بي في السجن، وكسرموا أضلاعي وجعلوني أتبول دمأً من الركلات التي وجهوها إلى كليتي وخصبتي.

ـ ولكنك خرجمت من السجن، وبدأت من جديد وصررت اليوم رجلاً تحسدك خاوحاً يا دون إشكيلـ. لا تغضب، انسـ ما حدثـ.
فيز默جر هو محركاً يديه وكأنه سيخمنيـ:

ـ لا يمكنني النسيانـ إذا كنتـ قد جئتـ ل تستندـ صيري طالباًـ
منيـ أن أرويـ لكـ أشياءـ لاـ أعرفـهاـ. أليسـ هذاـ هوـ أكثرـ الأمورـ
غرابةـ؟ـ منـ كـانـ أقلـ الجـمـيعـ إـطـلـاعـاًـ عـلـىـ ماـ حدـثـ هوـ الوحـيدـ الذـيـ
تخوزـقـ.

ذرع مایتا الممر، تأکد من أنه ليس هناك أحد في الشارع، فتح باب صالون الحلاقة الخلفي وخرج منه ثم أغلقه وراءه. لم تكن هناك نفس واحدة في الساحة، وكان الضوء الخجول لا يکاد يسمح له برؤية أكثر من موطن قدمه. ذهب إلى حيث المقعد. لم يصل بعد الرجال الذين سيأتون من ريكران. جلس. وضع الحقيقة بين قدميه، حمى فمه بياقة الكنزة ودس يديه في جيبه. يجب عليه أن يكون آلة. إنه أمر يتذکره من دروس التدريب العسكري في المدرسة: رجل آلي واع، لا يتأخر ولا يتقدم، ولا يخامره التردد أبداً بصورة خاصة، مقاتل يطبق ما هو مبرمج بدقة خلاطة أو مخرطة. فإذا ما تصرف الجميع على هذا النحو، فسوف يكون بالإمكان تجاوز أي اختبار، اختبار اليوم. وسيكون الاختبار الثاني أسهل، ويتخطي اختبار بعد آخر، سيصبح الانتصار في مجال الرؤية يوماً. كان يسمع ديوكاً غير مرئية؛ وبعيداً، فيما وراء أعشاب الحديقة الصغيرة، يُسمع نقيق ضفدع. هل سيتأخرون؟ شاحنة ريكران ستتوقف في ساحة سانتا إيسابيل، حيث تتلاقى السيارات التي تحمل البضائع إلى السوق. من هناك سيتوزعون في مجموعات، ويحتلون مواقعهم. لم يكن يعرف حتى أسمى الرفيقين اللذين سينضمان إليه للذهاب إلى السجن، ثم إلى مقر شركة الهاتف بعد ذلك. «ذكرى أي قديس هي اليوم؟» «إنه يوم القديس ادموندو دانتيس». أنزل ياقه الكنزة التي كانت تعطى نصف وجهه، وابتسم: لقد خطرت له كلمة السر وهو يتذکر الكونت دي مونت كريستو. وفي هذه الأثناء وصل الفتى، دققاً في موعده. كان يدعى فيليثو تابيا وكان يرتدي زيه المدرسي -

بنطلاً وقميصاً كأكي اللون وقبعة من اللون نفسه، وكنزة رمادية - ويحمل كتبه تحت إبطه. وفكرا: «سيساعدوننا في البدء بالثورة ثم يذهبون إلى المدرسة. يجب أن نسرع حتى لا نضيع عليهم الدرس الأول». لقد خُصص لكل جماعة فتى منهم كمراسل، فربما اضطررت إلى إيصال خبر طارئ. ولكن حين تبدأ كل جماعة بالانسحاب، يتوجب على الفتى الذي يرافقها أن يعود إلى حياته الطبيعية.

- لقد تأخرت جماعة ريكران - قال مايتا - . ألا يكون طريق سلسلة الجبال قد أغلق؟
تأمل الصبي الغيوم:
- لا، لم يهطل المطر.

من غير المحتمل أن تغلق الأمطار أو الانهيارات الطريق في هذه الفترة من السنة. ولو حدث ذلك، فقد تقرر مسبقاً أن ينطلق رجال ريكران إلى كيرو عبر سلسلة الجبال. كان الفتى ينظر إلى مايتا نظرة حسد. لقد كان فتياً جداً، له أسنان أربن وببداية زغب.

- هل كل زملائك دقيقون مثلك؟
- روبيرتو موجود عند ناصية ملجاً للأيتام، وقد رأيت ميلكيداس ذاهباً باتجاه ساحة سانتا إيسابيل.

أوضح ذلك بسرعة، وأحس مايتا بالأسف لأنه لم يتفحص المسدس الرشاش مرة أخرى. إنه في الحقيقة وهو لا يتوقف عن التفكير فيه. كان قد زيته في الليلة السابقة وهو في صالون الحلاقة، وقبل أن ينام فتح مسمار الأمان وأغلقه، متأكداً من امتلاء المخزن. ما الحاجة إلى تفحصه من جديد؟ كانت الساحة قد

بدأت تشهد بعض الحركة. إذ بدأ مرور نسوة يضعن مناديل على رؤوسهن ويتجهن إلى الكاتدرائية، وكانت تمر بين فينة وأخرى شاحنة صغيرة أو سيارة شحن كبيرة مملوءة بالأكياس أو البراميل. الساعة تشير إلى السادسة إلا خمس دقائق. نهض واقفاً وتداول الحقيقة وقال للفتى:

- أسرع إلى ساحة سانتا إيسابيل، وإذا كانت الشاحنة قد وصلت إلى هناك فقل للجماعة أن يذهبوا مباشرة إلى السجن. في السادسة والنصف سأفتح لهم الباب. مفهوم؟
يقول لي دون إثكيل وهو يحك جلد عنقه المتدرن بأظفاره السوداء ويلهث:

- ليس هناك ما يمنعني من الكلام وقول ما يجب أن يقال: المسؤول عن كل شيء لم يكن بایخوس وإنما أوببيوث. إنه المسؤول عن كل ما حدث وما لم يحدث في ذلك الصباح. وأنت تضيع الوقت في النم مع هؤلاء ومع أولئك. يكفيك التكلم معه. فذلك القمامنة هو الوحيد الذي يعرف بدقة وبتفصيل كل براز هذه القصة.
يطفى على صوته صوت مذيع يلعل عالياً باللغة الإنكليزية. إنها المحطة المخصصة لجنود «مارينز» والطيارين الأميركيين الذين وضعوا تحت تصرفهم أبنية مدرسة سان خوسيه.

ويزجر دون إثكيل وهو يغلق أذنيه:

- ها هي ذي إذاعة ملعوني الأم الغرينغيين اللعينة!
أقول له إنني قد فوجئت لأنني لم أر حتى الآن «مارينز» في الشوارع، وأن كل الدوريات التي تجتاز تقاطعات الشوارع مؤلفة من شرطة وجند بيروليين.

فيجأر وقد تحول وحشاً:

— لا بد أنهم ينامون من شدة السُّكْرُ أو يستريحون بعد المضاجعات الكثيرة. لقد أفسدوا خاوحا كلها، وحوّلوا حتى الراهبات إلى مومسات. وكيف لا يحدث ذلك إذا كنا جميعنا نموت جوعاً بينما هم يملكون دولارات؟ يقال إنهم يحضرون لهم حتى الماء بالطائرات. ليس صحيحاً أنهم يساعدون التجارة المحلية بأموالهم. فلم يدخل أي واحد منهم لشراء شيء من متجرى مثلًا. إنهم ينفقون المال فقط على الكوكايين، أجل.. إنهم يدفعون أي ثمن مقابل ذلك. والقول بأنهم جاؤوا لقتال الشيوعيين هو كذب. لقد جاؤوا لتعاطي الكوكايين ومضاجعة نساء خاوحا. بل إن هناك زوجاً بينهم، أي لعنة هي هذه.

ومع أنني أتابع غضب دون إثكييل، إلا أنني لا أسهو لحظة واحدة عن مايتا في ذلك الصباح، قبل ربع قرن، في خاوحا بلا ثوريين وبلا «مارينز»، يمشي في شارع ألفونسو أورغاريتي الصباغي، حاملاً حقيبة المسدس الرشاش. فهو قلق بسبب تأخر الشاحنة؟ بكل تأكيد. فمهما كان توقعه المسبق لإمكانية التأخير، إلا أنه شعر ببعض القلق لهذا العائق الأول، حتى قبل أن يبدأ تجسيد الخطة. وهي خطة أظن أنني أستطيع، وسط نسيج عنكبوت التحرير والأكاذيب أن أحدها بصورة مناسبة حتى اللحظة التي يتوجب فيها على الثوار، في ذلك الصباح، أن يخرجوا من خاوحا باتجاه جسر مولينوس. وابتداء من هناك، أضيع في الروايات المتناقضة. ويتأكد لي مرة أخرى أن نواة محدودة جداً - ربما تقتصر على باييخوس وأوببيوث، وربما عليهما وعلى مايتا

فقط، وربما على الملازم وحده - كانت تعرف بالضبط كل ما سيفعلونه: هذا القرار بعدم إطلاع الآخرين أضر بهم ضرراً رهيباً. بماذا كان يفكر مaita وهو يجتاز الكوادرا الأخيرة من شارع ألفونسو أوغارتي، حين رأى إلى يساره جدران السجن الطينية وأفاريزه القرمديّة؟ بأنه هناك إلى يمينه، وراء ستائر بيت أوبيبوت، ربما يراه وهو يمر الأفطسُ والرفاق الذين من أوروبا وكاسابالكا ومورووكوتشا المجتمعين هناك منذ اليوم السابق أو منذ ساعات. هل يتوجب عليه أن يخبرهم بأن الشاحنة لم تصل؟ لا، يجب عليه ألا يخالف التعليمات مهما كان السبب. ثم إنهم سيكونون قد أدركوا أن الشاحنة قد تأخرت حين رأوه وحيداً. إذا ما وصل جماعة ريكران خلال نصف الساعة التالية فسوف يتمكنون من المشاركة في العمليات، أما إذا لم يصلوا، فسيأتقون بهم في كيرو، حيث يتوجب على المتأخرین أن يذهبوا. وصل إلى واجهة السجن الحجرية، ولم يكن هناك حارس متلماً كان قد أخبره الملازم. ففتح الباب الحديدی الصدئ وظهر بايخوس. وبينما هو يضع إصبعه على شفتيه، أمسك بذراع مaita وأدخله ثم أغلق البوابة بعد أن تأكد من أنه ليس هناك من يرافقه. وأشار له بإيماءة من يده بأن يدخل إلى مكتب مدير السجن واختفى. تفحص مaita الدهليز المفتوح ذا الأعمدة، وكان على الغرفة المقابلة لوحة تقول مستودع الأسلحة، وفي الفناء أشجار كرز ذات أوراق طويلة ورفيعة مثقلة بالقطوف. في الغرفة التي دخل إليها كان يوجد شعار وسبورة وطاولة مكتب وكرسي ونافذة يظهر الشارع من خلال زجاجها الغيش. وكان ما يزال يحمل الحقيقة في يده، لا

يدري ما عليه أن يفعله عندما رجع بایخوس. وقال له هذه المرة بصوت خافت:

- أردت التأكد من أن أحداً لم يلحظ مجئك. ألم تصل الشاحنة؟
- يبدو أنها لم تصل. لقد أرسلت فيليثيو لينتظرها وليقول لجماعتي بأن يحضروا إلى هنا في الساعة السادسة والنصف. ألن تكون بحاجة إلى جماعة ريكاران؟
- ليست هناك مشكلة - قال بایخوس -. اختبئ هناك وانتظر دون إحداث ضجة.

هدوء الملائم وثقته عززا صلابة مaita. كان الملائم يرتدي بنطالاً وجزمة وكنزة سوداء ذات ياقة عالية بدل القميص العسكري النظامي. لا بد أن هذه الخزانة هي مستودع أسلحة، ولا بد أنهم يضعون البنادق في هذه الكوى. وعند إغلاق الباب بقي في الظلام. بذل مجهوداً لفتح الحقيقة، لأن قفلها كان قد تعطل. أخرج المسدس الرشاش ودس على الذخيرة في جيوبه. وانطفأ المذياع فجأة متلماً كان قد صدح فجأة. ما الذي جرى لشاحنة ريكاران؟

- لقد وصلت إلى ساحة سانتا إيسابيل، حيث كان عليها أن تصل - ينفجر دون إثكييل ضاحكاً ويبعدو كما لو أن سما ينبعس من عينيه وفمه وأذنيه وهو يضيف: - وعندما بدأت عملية السجن كانت الشاحنة قد غادرت. ولكن ليس إلى كيرو، حيث كان يفترض أن تذهب، وإنما إلى ليما. ولم تكن تحمل الشيوعيين أو الأسلحة المسروقة. لا شيء من هذا. ما الذي كانت تحمله الشاحنة؟ فول! أجل، اللعنة، انطلقت إلى ليما بحمولة من الفول. لا تسألني من كانت حمولة الفول؟

فأقول له:

- لن أسألك لأنك ستقول لي إنها كانت للأفطس أوببيوث.
ويطلق دون إشكيل ضحكة مروعة أخرى:
 - ألن تسألني من كان يقودها - رفع يديه الوسختين وكأنه يوجه لكمات، وأشار إلى الساحة - أنا رأيته يمر، وتعرفت على ذلك الخائن. أنا رأيته ممسكاً بالمقود، وبقبعة مخنث زرقاء. وأنا رأيت أكياس الفول. أي لعنة تجري؟ ما الذي سيحدث؟ لقد تمكّن هذا القواد من خوزقتنا أنا وبابيغوس والغريب.
 - أخبرني بأمر واحد آخر فقط وسأتركك بسلام يا دون إشكيل. لماذا لم تذهب أنت أيضاً في ذلك الصباح؟ لماذا بقيت مطمئناً في دكان حلاقتك؟ لماذا لم تخبئ على الأقل؟
بقي الوجه المتدرن يتفحصني بنظرة رهيبة عدة ثوانٍ، بغضب سفيه. أراه يحك أنفه، ويهرش بضراوة جلد رقبته. وعندما ردّ علي كان ما يزال يشعر بأنه مضطر إلى الكذب:
 - ومن أجل أي براز كان علي أن أختبئ طالما أني لم أكن متورطاً في شيء؟ من أجل أي براز؟
 - دون إشكيل، دون إشكيل - أقول له مؤنباً - لقد مررت خمس وعشرون سنة، والبيرو تنتهي الآن، والناس لا يفكرون إلا بالنجاة من حرب لم تعد حربنا، ويمكن لنا أنا وأنت أن نموت في الانفجار أو تبادل الرصاص التالي، فمن الذي يهمه الآن ما جرى في ذلك اليوم؟ أخبرني بالحقيقة، ساعدني في إنهاء قصتي قبل أن تلتهمك وتلتهمني أيضاً هذه الفوضى القاتلة التي صارت إليها بلادنا. لقد كان عليك أن تقطع خطوط الهاتف وأن تستأجر عدداً من سيارات

التکسي متدرعاً بحفلة شواء في مولينوس. هل تذكر في أي ساعة كان عليك التواجد في شركة الهاتف؟ لقد كان عليك أن تكون هناك بعد خمس دقائق من فتح المكاتب. وكان على سيارات التکسي أن تنتظر عند تقاطع شارعي ألفونسو وأغارتي ولamar، حيث تستولي عليها جماعة مايتا. ولكنك لم تستأجر سيارات التکسي ولم تذهب إلى شركة الهاتف، والفتى الذي جاء إلى هنا ليسألك عما جرى، أجبيه: «لم يجر أي شيء، لقد أخفر كل شيء، أسرع إلى مدرستك وانس أنك تعرفي». هذا الفتى هو تيليسفورو ساليناس، مدير التربية البدنية في الإقليم الآن يا دون إثکييل.

- سلسلة أکاذيب! إشاعات معيبة يطلقها أوبیبوت! - يزمرر محمراً من الاستياء - أنا لم أعرف شيئاً ولم يكن هناك ما يدعوني إلى الاختفاء أو الهرب. هيا انصرف، ابتعد، اختلف. يا للمفترى المعرف! يا لمروج الإشاعات البرازي!

وبينما هو في مستودع الأسلحة المظلم، والمسدس الرشاش بين يديه، لم يسمع مايتا أي صوت. ولم يكن يرى شيئاً كذلك، اللهم إلا شعاعي ضوء يمران من حافة الباب. ولكنه لم يجد صعوبة في أن يخمن، وبدقة، بأن باييخوس كان يدخل في تلك اللحظة إلى مهجع الأربعية عشر حارساً ويوقظهم بصوت راعد: «انتبه!» «إلى تنظيف البنادق!» لأن ضابط التسلیح في هوانکایو أبلغه للتو بأنه سيأتي للتفتيش في وقت مبكر من الصباح. «توخوا الحذر، وكونوا مهووسين بتنظيف البنادق من الخارج ومن الداخل، وخذار من أن تكون إحداها معطلة وتغفلوا عنها.» فالملازم باييخوس لا يريد تلقي المزيد من توبيخات ضابط التسلیح. يجب أن تُنقل البنادق

الصالحة وذخيرة كل حارس جمهوري - تسعون طلقة - إلى مستودع الأسلحة. «إلى الاصطفاف في الفناء!» وعندئذ يأتي دوره. ها قد بدأت الآلة تدور، الأجزاء تتحرك، هذه هي الممارسة العملية، هذه هي. أيكون رجال ريكران قد وصلوا؟ كان يراقب من خلال الستائر، منتظرًا ظهور أشباح الحراس وهم يحملون بنا دقهم وذخائركم إلى الغرفة المقابلة، واحداً وراء الآخر، وبينهم أنتولين توريس.

إنه حارس جمهوري متلاحد يعيش في شارع مانكو كاباك، في منتصف الطريق ما بين السجن ودكان دون إثكييل. واضطررت إلى الانصراف لكي أتجنب أن يوجه إليّ الحلاق السابق لكمة أو أتسبب له بداء السكتة. وبينما أنا جالس على مقعد في ساحة خاوشا المهيبة - والمشوهة الآن بالحواجز والأسلاك عند ناصيتي البلدية والمحافظة - أفكّر بانتولين توريس. لقد تبادلت الحديث معه هذا الصباح. إنه رجل سعيد منذ أن تعاقد معه «المارينز» ليكون دليلاً ومترجماً لهم (فهو يتكلم القشتالية جيداً مثلما يتكلم الكيتشاوا). وقد كان لديه من قبل قطعة أرض زراعية صغيرة، ولكن الحرب دمرتها وكان يموت جوعاً إلى أن جاء الغرينغيون. أما عمله معهم فيتلخص في مرافقة الدوريات التي تخرج لتجوب المناطق المجاورة. إنه يعرف أنه يمكن لهذا العمل أن يكافله حياته؛ وهناك كثيرون من أهالي خاوشا قد أداروا له ظهرهم وأمتلأت واجهة بيته بكتابات تقول: «خائن» و«العدالة الثورية حكمت عليك بالموت». وحسب ما قاله لي أنتولين وحسب ثرثرات دون إثكييل، فإن العلاقات بين «المارينز» وأهالي خاوشا

سيئة أو أسوأ من سيئة. بل إن الناس المعادين للمتمردين يشعرون بالحقد على هؤلاء الأجانب الذين لا يفهمونهم، وخصوصاً أنهم يأكلون ويدخنون ولا يعانون أي حرمان في بلدة يعاني فيها العوز حتى الأغنياء السابقون. إنه ستيني له عنق ثور وكرش ضخم، وهو إياك وتشي من كانغايوا أمضى حياته في خاوحا، ويتكلم أنتولين توريس قشتالية عذبة، تتدفق وفق أساليب التعبير بالكريتشوا. «فليقتلوني، إذن، الشيوعيون قالوا لي. ولكنهم سيقتلوني وأنا آكل جيداً وأشرب جيداً وأدخن سجائر فاخرة». إنه راوٍ يتقن تدرج المؤثرات من خلال التوقفات والهتافات. في ذلك اليوم، قبل خمس وعشرين سنة، كان عليه أن يدخل الخدمة في الساعة الثامنة، بأن يتولى الحراسة على البوابة بعد الحارس هواسكار توليدو. ولكن هواسكار لم يكن في كشك الحراسة وإنما في الداخل، مع الآخرين، يقوم بتشحيم البندقية من أجل زيارة ضابط التسلیح. كان الملائم بایخوس يستعجلهم وكان أنتولين توريس يرتتاب من شيء ما.

- ولكن، لماذا الريبة يا سيد توريس؟ ما هو الغريب في تفتيش على السلاح؟

- الغريب هو أن الملائم كان يتقل والمسدس الرشاش معلق في كتفه. لماذا كان مسلحاً إذن؟ ولماذا علينا أن نترك البنادق في مستودع الأسلحة؟ هذا غريب جداً يا رقيبي. منذ متى بدأت «موضة» تخلي الخفير عن بندقيته من أجل التفتيش؟ لا تفكّر كثيراً يا أنتولين، فهذا غير مناسب للترقية، هكذا قال لي الرقيب. وانصعت.. نظفت بندقيتي الماوزر وتركتها في مستودع

الأسلحة مع رصاصاتي التسعين. وخرجت للاصطدام في الفناء.
ولكنني كنت أشم شيئاً غريباً. ليس ما سيحدث. بل شيء من
السجناء. كان هناك حوالي خمسين سجينًا في الزنازين. محاولة
هروب، لست أدري، شيء ما.

«الآن»، ويدفع مaita الباب. لقد تشنجت ساقاه لكثرة ما بقي
جامداً. كان قلبه ط بلاً وكان يسيطر عليه إحساس بالإقدام على
شيء نهائياً لا رجعة عنه، عندما ظهر في البابا بمسدسه الرشاش
المغطى بالشحم، أمام الحراس المصطفين، وانتصب بينهم وبين
مستودع الأسلحة. وقال ما كان عليه أن يقوله:

- آمل ألا يضطرني أحد إلى إطلاق النار، لأنني لا أريد قتل أحد.
ووجه باييغوس مسدسه الرشاش أيضاً إلى مرؤوسيه. وراحت
عيون الأربع عشر حارساً الفمضاء تتinos متقللة منه إلى الملازم ومن
الملازم إليه، دون أن يفهموا: هل نحن مستيقظون أم أنا نحلم؟ هل
ما يجري حقيقة أم كابوس؟

- وعندئذ تحدث إليكم الملازم، أليس كذلك يا سيد توريس؟
هل تذكر ما قاله لكم؟

- لا أريد توريطكم، أنا سأتحول إلى متمرد، إلى ثوري
اشتراكي - يقلده انتولين توريس ويومئ بينما حنجرته تصعد وتنزل
بجموح في عنقه -. إذا كان هناك من يريد أن يتبعني بمشيئته،
فليأت. إنني أفعل هذا من أجل الفقراء، من أجل الشعب المعنّب
ولأن القادة قد خذلتنا. وأنت أيها الرقيب المحاسب، اشترب من راتبي
بيرة لكل العناصر يوم الأحد. وبينما الملازم يلقي خطبته كان
العدو الآخر، القادر من ليما، يبقينا محتجزين بمسدسه الرشاش،

مغلقاً أمامنا الطريق إلى بنادقنا. لقد وقعنَا مثل حمقى. وقد عاقبنا
القيادة العليا بعد ذلك بأسابيع تأديبيين.

كان ماتا قد سمعه ولكن دون أن يتتابع ما قاله لهم
بأبيخوس، لأن الإثارة كانت تطفى عليه. «مثل آلة، مثل جندي.»
اقتاد الملازم الحراس إلى المهجع وانصاعوا له بوداعة، دون أن
يفهمواحقيقة الوضع. ورأى الملازم يضع سلسلة على باب المهجع بعد
أن حبسهم فيه. ثم قام بعد ذلك، وبحركات سريعة ودقيقة،
والمسدس الرشاش في يده اليسرى، بفتح بوابة حديدية. هل كان
هناك سجيننا أوتشوباما؟ لا بد أنهما رأيا وسمعا ما حدث. أما
السجناء الآخرون بال مقابل، الذين هم في زنازين تقع وراء فناء
أشجار الكرز، ف كانوا بعيدين. ومن موقعه إلى جانب مستودع
الأسلحة، رأى ظهور رجلين وراء أبيخوس. أجل، إنهم الرفيقان
اللذان لم يكن يعرف حتى الآن سوى اسميهما. من منهم هو
كوندوري وأيهما ثنيون غونثاليس؟ وقبل أن يعرف ذلك نشب جدال
بين أبيخوس وأصغرهما سنًا، وهو شاب أبيض ذو شعر طويل. ومع
أنه قد قيل لمايتا إن لفلاхи المنطقة الشرقية في العادة بشرة وشعراء
فاتحين، إلا أنه تحير: فالمحرضان الهنديان اللذان قادا الاستيلاء
على مزرعة آينا يبدوان أشبه بالغرينغفين. وكان أحدهما ينتعل
صنداً.

سمع أبيخوس يقول وهو يقرب وجهه من أحدهما:
- هل ستتراجع الآن أيها النذل؟ الآن وقد بدأ الأمر، الآن وقد
صرنا في النار، هل تتوى الانسحاب؟
- لستُ أنيوي الانسحاب - تتمم الآخر متراجعاً - المسألة... المسألة...

- المسألة هي أنك أصفر يا ثينون - صرخ بابيغوس - وهذا أسوأ بالنسبة إليك. ارجع إلى زنزانتك. فليحاكموك، وليسجنوك، ولتتعفن في سجن فرونتون. اللعنة، لا أعرف كيف لا أرميك برصاصه.

- انتظر، توقف، فلنكلم دون شجار - قال كوندورى متدخلاً بينهما. وكان هو من ينتمل الصندل، وقد ابتهج مايتا وهو يكتشف وجود شخص هناك في مثل سنه .. لا تتفعل يا بابيغوس. دعني لحظة على انفراد مع ثينون.

خطا الملازم ثلاث خطوات واسعة أوصلته إلى جانب مايتا.

- لقد تخت - قال ذلك دون الغضب الذي كان عليه قبل لحظة، ولكن بخيبة أمل فقط - في الليل كان موافقاً. وبأتأتي الآن ليقول لي إن لديه شكوكاً، وإنه من الأفضل أن يبقى هنا وبعد ذلك سيرى ما يفعله. هذا اسمه خوف، وليس شكوكاً.

ما هي الشكوك التي راودت قائد اتشوبامبا الفلاحى الشاب وجعلته يتسبب بهذا الحادث؟ هل فكر وهم على عتبة التمرد بأن عددهم قليل جداً؟ هل خامره الشك بقدرتة هو وكوندورى على اجتذاب بقية أهالى قريته إلى التمرد؟ هل تراه تباً بالهزيمة؟ أم أنه تردد ببساطة أمام إمكانية اضطراره إلى أن يقتل أو يُقتل؟

كان حوار كوندورى وغونثاليس يجري بصوت خافت. وكان مايتا يسمع كلمات متفرقة، ويراهما يومئان بين لحظة وأخرى. وفي إحدى اللحظات أمسك كوندورى رفيقه من ذراعه. لا بد أن له شيئاً من السلطة على هذا الرفيق الذي كان يحتفظ، على الرغم من مجادلته، بسلوك ينم عن الاحترام. وبعد لحظة من ذلك تقدما معاً، وقال كوندورى:

- لقد قضي الأمر يا بابيغوس. انتهى الأمر. كل شيء على ما يرام. لم يحدث أي شيء.
فمد بابيغوس يده إليه:

- حسن يا ثينون. اعذرني لأنني انفعلت. ألا توجد أحقاد؟
هز الشاب رأسه موافقاً. وكرر بابيغوس وهو يصافحه: «بلا
أحقاد ول يكن كل شيء في سبيل البيرو يا ثينون». وكان يبدو
على وجه غونثاليس أنه مستسلم أكثر مما هو مقتطع. التفت
بابيغوس إلى مايتا:

- انقلوا الأسلحة إلى سيارات التكسي. سأذهب لأرى السجناء.
ابتعد باتجاه أشجار الكرز وركض مايتا باتجاه المدخل.
وتفحص الشارع من خلال كوة الحراسة في البوابة. وبدلاً من أن
يرى سيارات التكسي وأوببيوث ومنجمي أوروبيا، رأى جماعة من
اللاميد الفتيا، يقودهم كورديرو اسبينوشا، البرغادير.

- مادا تفعلون هنا؟ مادا لستم في موقعكم؟ - سألهم.
ويقول لي كورديرو اسبينوشا بتثاؤب يخفف من ابتسامته:
- لأنه لم يكن هناك أحد في موقعه، لأن الجميع كانوا قد
اختفوا. لأننا كنا قد تعينا من الانتظار. ولم يكن هناك من نخدمه
كمراسلين. لقد كان مركز الشرطة من نصبي. وقد ذهبت إلى
هناك مبكراً ولم يحدث أي شيء. وبعد قليل جاء هيرناندو
هواساسكيتشي ليقول لي إن الأستاذ أوببيوث ليس موجوداً في
بيته ولا في أي مكان. وإن هناك من رآه يقود شاحنته على الطريق
العام، وبعد ذلك بقليل علمنا أن جماعة ريكاران قد تبخرت، وأن
جماعة أوروبيا لم يحضروا أو أنهم رجعوا. إنه الذعر العام! اجتمعنا

في الساحة. كان الحزن والخذلان يادين على وجوهنا، وكنا ننتظر مرور الوقت لنذهب إلى دروسنا. لقد سخروا منا، لقد جعلونا نلعب لعبة المسلسات. وفي أثناء ذلك جاء فيليثيو تابيا. قال لنا إن القادم من ليما قد ذهب إلى السجن بعد أن انتظر جماعة ريكاران دون طائل. وهكذا ذهينا جميعنا إلى السجن لنرى ما الذي يحدث. كان بابيغوس ومايتا قد حبسوا الحراس، واستوليا على البنادق وأطلقا سراح كوندوري وغونثاليس. هل تتصور وضعًا مضحكًا أكثر من هذا؟

ولم يكن الدكتور كورديرو اسبينوشا يفتقر إلى مبررات. وكيف لا يسميه وضعًا مضحكًا؟ لقد استولوا على السجن، وصار لديهم أربع عشرة بندقية وألف ومئتا طلقة. ولكنهم بقوا دون ثوريين، لأنه لم يأت ولو شخص واحد فقط من الثلاثين أو الأربعين شخصاً المتواطئين. أكان هذا هو ما فكر فيه مايتا حين نظر من الكوة ووجد نفسه وحيداً مع سبعةأطفال بالزي المدرسي فقط؟

- ألم يأت أحد؟ ولا واحد منهم؟ لا أحد؟

- لقد جئنا نحن - قال الصغير ذو الرأس شبه الحليق، في ذهوله. وتذكر مايتا ما قاله عنه أوببيوث حين قدمه إليه: «كورديرو اسبينوشا، البريفادير، والأول في صفة، إنه دماغ» - أما الآخرون فيبدو أنهم قد تراجعوا.

أكان الذهول، الغضب، هاجس الكارثة هو الذي أثقل عليه؟ أم أنه اليقين الهادئ بشيء كان يخشاه في أعماقه، دون تحديده تماماً، منذ الفجر، حين لم يصل رجال ريكاران، أو ربما منذ أن كان في ليما وقرر رفاقه في حجـعـثـ(ـتـ) الابتعاد، أو منذ أن

أدرك أن محاولته مع بلاكير لإشراك الحزب الشيوعي في التمرد كانت غير مجديّة؟ أكان ينتظر رصاصة الرحمة منذ واحدة من تلك اللحظات دون أن يقول ذلك بوضوح لنفسه؟ ألن تبدأ الثورة يا ترى؟ بل، ها هي ذي قد بدأت يا مايتا، ألا ترى ذلك، لقد بدأت.

- ولهذا نحن هنا، لهذا جئنا. ألا نستطيع أن نحل نحن محلهم؟ ورأى مايتا أن الفتياًن قد تزاحموا حول البريفادير وهم يهزوون رؤوسهم موافقين ومؤيدّين. وكان الشيء الوحيد الذي تمكّن من التفكير فيه هو أنه يمكن لهذه الجماعة من التلاميذ عند بوابة السجن أن تلتفت انتباها أحد المارة أو أحد الجيران.

ويتذكّر الدكتور كورديرو اسبينيو ثا:

- لقد خطر لي أن نتقدم كمتطوعين في تلك اللحظة، هناك بالذات، دون أن أكون قد تشاورت في الأمر مع زملائي. لقد خطرت لي الفكرة فجأة، حين رأيت وجه المسكين مايتا بعد أن عرف بأن الآخرين لم يحضروا.

إننا في مكتبه في شارع خونين، وهو شارع تتكاثر فيه مكاتب المحامين. فالمحاماة مازالت هي المهنة المفضلة في خاوخا بالرغم من أن الحرب والکوارث في هذه الأزمنة الأخيرة قد قلصت النشاط القضائي المحلي. فإلى ما قبل زمن قليل، كان واحد أو اثنان من مواليد كل أسرة في خاوخا يأتي إلى الدنيا وهو يحمل ملف محام تحت إبطه. فرفع الدعاوى هو رياضة متعددة الطبقات في المقاطعة، واسعة الشعبية والانتشار مثل كرة القدم والكرنفالات. وبين حشد محامي خاوخا، فإن البريفادير والتلميذ المثالى السابق في مدرسة سان خوسيه - حيث كان يلقي دروس الاقتصاد

السياسي مرتين في الأسبوع، إلى أن توقفت الدروس بسبب الحرب - ما زال هو النجم. إنه رجل واسع الحيلة ومرح. مكتبه يتألق بدبلومات من مؤتمرات حضرها ، وبشهادات تقدير أحزرها كعضو في المجلس البلدي، ورئيس نادي ليونيز في خاوأxa ، ورئيس مجلس مؤيدي شق الطريق العام الشرقي وعدد من المهام التمدنية الأخرى. وهو، بين جميع الأشخاص الذين تحدثت معهم، من يذكر تلك الأحداث بأكبر قدر من الحياد، والدقة، وخفة الظل ومن الموضوعية كذلك - كما يبدو لي -. حُسن ترتيب مكتبه ونظافته يتناقض مع ممر المدخل، حيث توجد حفرة في الأرض ونصف جدار منهار. وحين دعاني للدخول قال لي وهو يشير إليهما : «لقد كانت مفرقة من الإرهابيين. وقد تركتها هكذا لكي أتذكر الاحتياطات التي علي اتخاذها كل يوم إذا أردت الحفاظ على رأسى في موقعه». وبروح الاستخفاف نفسها روى لي بعد ذلك أن الإرهابيين كانوا أكثر فعالية في الاعتداء على بيته: فقد احترق البيت كله بشحنتي الديناميت اللتين استخدما. «لقد قتلوا طاهيتي، وهي عجوز في الستين من عمرها. أما زوجتي وأولادي فكانوا لحسن الحظ قد غادروا خاوأxa ». إنهم يعيشون في ليما ، وعما قريب سيفادرون إلى خارج البلاد. وهذا ما سيفعله هو نفسه أيضاً بعد أن يصفي أعماله. ففي ظل هذه الظروف، حسب قوله، ما معنى أن يواصل المرء المجازفة بحياته؟ ألم يتحسين الوضع الأمني في خاوأxa مع مجيء «المارينز»؟ بل ساء أكثر. لأن الحقد الذي يعيشه وجود قوات أجنبية في نفوس الناس، يدفع كثيرين منهم إلى مساعدة الإرهابيين بالعمل أو بالتهاون معهم - بإخفاهم، والتستر عليهم، وبالصمت -

«ويقال إن هناك شيئاً مشابهاً يحدث ما بين رجال حرب العصابات البيرويين والأمميين الكوبيين والبوليفيين. فثمة اشتباكات تقع ما بينهم. الحس القومي أقوى من أي أيديولوجية أخرى، وهذا معروف». لا أستطيع إلا أنأشعر بالتعاطف مع البريفادير السابق: إنه يقول كل هذه الأشياء بتلقائية، دون أدنى قدر من الحساسية المتكاففة أو العجرفة، بل وبشيء من الفكاهة.

ويواصل قائلاً:

- ما إن سمعوني أقترح مشاركتهم كمتطوعين حتى تحمسوا كلهم. والحقيقة أننا نحن السبعة كنا مثل ظفر ولحمته. أي لعبة أطفال كانت تلك بالمقارنة مع ما يجري الآن، أليس كذلك؟

- أجل، أجل، سنحل محلهم.

- افتح لنا الباب، دعنا ندخل، أجل، بإمكاننا أن نحل محلهم.

- إننا قادرون يا مaita، إننا قادرون!

- نحن ثوريون وسنحل محلهم.

كان مايتا يراهم، يسمعهم، وكان رأسه فرقعة... فوضى.

- كم كانت أعماركم آنذاك؟

فيقول لي كورديرو اسبينوza:

- أنا وهواسكيسكي كنا في السابعة عشرة. وكان الآخرون في الخامسة أو السادسة عشرة. وكان ذلك من حسن حظنا. إذ لم يستطعوا محاكمتنا، لأننا لم نكن نتحمل مسؤولية قانونية. فأرسلونا إلى قاضي الأحداث، حيث لم يكن الأمر على قدر كبير من الجدية. أليس غريباً أن أكون أنا - رائد الكفاحسلح في بيرو - هدفاً عسكرياً للإرهابيين الآن؟

وهز كتفيه. فقلت له:

- أعتقد أنه لم يعد أمام مايتا وبابيغوس حينئذ أي قدرة على التراجع بعد أن وصلت الأمور إلى ذلك الحد.

- بل كانت هناك إمكانية للتراجع. فقد كان بمقدور بابيغوس أن يخرج الحراس من المهجع الذي جبسهم فيه وأن يقول لهم مؤنباً: «لقد أثبتتم أنكم لا تتفعون في شيء، وأنكم مجرد نساء، في حال تعرض السجن لهجوم من قبل المتمردين. لم يستطع أي منكم أن يجتاز الاختبار الذي أخضعتكم له أياها الخصيـان». - وقدم لي الدكتور كورديرو أسبينوث سجارة، ووضع سيجارته في مبسم قبل أن يشعـلها، وأضاف: - وأنا واثق من أن الحراس كانوا سيبـلغون القصة. وكان بإمكانهما أيضاً أن يرسلـانا إلى المدرسة وأن يعيـدا غونـثاليس وكـونـدورـي إلى الـزنـزانـة ويفـراـ. لقد كان بإمكانـهما عمل ذلك. ولكنـهما لم يـفـعـلاـ أيـاـ منـ الأمـرـينـ بالـطـبعـ. لأنـ ماـيـتاـ وبـابـيـغـوسـ عـلـىـ السـوـاءـ لمـ يـكـونـاـ مـمـنـ يـسـمـحـانـ بـلـيـ ذـرـاعـهـمـ. وـفيـ هـذـاـ المـجـالـ، وـعـلـىـ الرـغـمـ مـنـ أـحـدـهـماـ أـرـبعـيـنـ وـالـآـخـرـ تـجاـوزـ العـشـرـينـ، فـقـدـ كـانـاـ أـكـثـرـ صـبـيـانـةـ مـنـاـ.

هـذاـ يـعـنـيـ أـنـ ماـيـتاـ هوـ الـذـيـ وـافـقـ أـولـاـ عـلـىـ تـلـكـ الفـكـرةـ الروـمـانـسـيـةـ التـيـ لـأـسـاسـ لـهـ. لـقـدـ اـسـتـمـرـ تـرـددـهـ وـحـيـرـتـهـ لـثـوانـ قـلـيلـةـ فـقـطـ. ثـمـ حـسـمـ الـأـمـرـ فـجـأـةـ. فـتـحـ الـبـوـاـبـةـ وـقـالـ لـلـفـتـيـانـ :ـ «ـبـسـرـعـةـ»ـ وـبـيـنـمـاـ هـمـ يـنـدـفـعـونـ إـلـىـ الـفـنـاءـ، أـلـقـىـ نـظـرـةـ عـلـىـ الشـارـعـ:ـ «ـكـانـ خـاـوـيـاـ مـنـ السـيـارـاتـ وـمـنـ النـاسـ، وـكـانـ الـبـيـوتـ مـفـلـقـةـ. لـقـدـ اـسـتـعـادـ قـواـهـ، وـأـخـذـتـ الدـمـاءـ تـسـرـيـ فـيـ عـرـوـقـهـ، لـمـ يـكـنـ هـنـاكـ مـبـرـ لـلـيـأـسـ. وـبـعـدـ دـخـولـ آـخـرـ الـفـتـيـانـ، أـغـلـقـ الـبـوـاـبـةـ. إـنـهـمـ هـنـاكـ:

سبعة وجوه متلهفة ومنفعلة. وكان كل من كوندورى وغونثاليس يحمل الآن بندقية ماوزر في يده وينظران إلى الصبية مبهوتين. ظهر باييغوس من وراء أشجار الكرز بعد أن انتهى من جولته التفتيسية على السجناء. وتقدم مايتا للقائه.

— أوببيوث والآخرون لم يحضروا. ولكن لدينا متظوعين للحلول محلهم.

هل توقف باييغوس متقائجاً؟ هل لاحظ مايتا أن وجهه ينقلب إلى تكشيرة؟ هل رأى أن الملازم الشاب يجاهد لإبداء المدوء؟ هل سمعه يقول بصوت خافت، لامس وجهه برفق، «الم يحضر أوببيوث؟ وكذلك إشكيل؟ وكذلك لوريتو؟»؟ وهزه مايتا من ذراعه:

— لا يمكننا التراجع يا رفيق. لقد علمتك ذلك، لقد نبهتك إلى أنه سيحدث: الممارسة العملية تصفي. لم يعد بالإمكان التراجع بعد أن وصل الأمر إلى هذا الحد. ليس باستطاعتنا ذلك. وافق على قبول الفتيان. لقد تصلبوا بمجيئهم إلى هنا. هل سنتراجع يا أخي؟ كان يقطع بينما هو يتكلم، وكانت تتكلر، كما في مرة ثانية، تعويذة في مواجهة الوعي: «مثل آلة، مثل جندي.» وكان باييغوس يستمع إليه صامتاً، أكان متربداً؟ أكان يحاول التأكد من أن ما يقوله هو ما يفكر فيه؟ ولكن عندما صمت مايتا، كان الملازم قد تحول ثانية إلى حزمة الأعصاب المنضبطة والقرارات الفورية. دنا من الفتيان الذين سمعوا الحوار. وقال لهم وهو يدخل بينهم:

— يسعدني أن هذا قد حدث. يسعدني ذلك لأنني بفضله عرفت

أن هناك شجاعاناً مثلكم. أهلاً بكم في النضال أيها الشبان. أريد أن أصافحكم فرداً فرداً.

والواقع أنه بدأ بمعانقتهم، بضمهم إلى صدره. ووجد مايتس نفسه في وسط الجماعة يوزع ويتقى المعانقات، وكان يرى كذلك، بصورة ضبابية، ثينون غونثاليس وكوندورى وسط الجمع. لقد باعاته تأثير عميق. كانت هناك عقدة في حلقه. كان عدد من الفتيا ي يكون والدموع تسيل على وجوههم المتوجهة بينما هم يعانون الملازم ومايتسا، وغونثاليس وكوندورى، أو يعانون بعضهم بعضاً. صرخ أحدهم: «تحيا الثورة»، وصرخ آخر: «تحيا الاشتراكية». وطلب منهم بابيغوس أن يصمتوا.

- ربما لم أشعر بالسعادة مثلاً شعرت بها في تلك اللحظة -
يقول لي الدكتور كورديرو إسبينوشا - لقد كان موقفاً بديعاً.. كل تلك السذاجة.. كل تلك المثالية. لقد شعرنا وكأن شعر شوارينا ولحاننا قد نما، وكما لو أننا قد صرنا أطول قامة وأكثر قوة. هل تعلم أنه من المحتمل أن أيّاً منا لم يكن قد دخل الماخور؟ فأنا على الأقل كنت ما أزال بكرأ. وبدا لي كما لو أنني أفقد عذرتي.

- وهل كان أي واحد منكم يعرف كيف يستخدم السلاح؟
- في التدريب العسكري المدرسي أعطونا بعض دروس الرماية. وربما كان هناك من أطلق النار من بندقية صيد. ولكننا عالجنا مسألة هذا القصور هناك بالذات. فأول شيء خطر لبابيغوس بعد المعانقات هو تعليمنا ما هي بندقية الماوزر.
بينما كان الملازم يقدم للفتيا درساً حول استخدام البندقية،

أوضح مايتا ما جرى لـ كل من كوندوري وثينون غونثاليس. لم يحتجا حين علما أنه، كما يبدو، لا وجود لأي شخص آخر سينضم إليهم؛ ولم يظروا السخط حين علما أنهم قد يكونون الثوريين الوحدين مع هذه الجماعة من الصبية المُرُد. استمعا إليه بوقار، دون توجيه أي سؤال. أمر بـايغوس اثنين من الفتياـن بإحضار سيارتي تكسيـ. فانطلق فيليثيو تابياـ وهوأسـاسـكيـتـشي راكضـينـ. عندـئـذـ جـمعـ بـايـغـوسـ ماـيتـاـ والـفـلاـحـيـنـ. لقدـ عـدـلـ خـطـةـ العملـ. سـيـنـقـسـمـونـ إـلـىـ مـجـمـوعـتـيـنـ، وـسيـسـتـولـونـ عـلـىـ الـمـفـوـضـيـةـ وـمـرـكـزـ الـحـرسـ الـأـهـلـيـ. كانـ ماـيتـاـ يـسـتـمعـ، وـيـتـابـعـ بـطـرـفـ عـيـنـهـ ردـودـ فعلـ الـفـلاـحـيـنـ. هلـ سـيـقـولـ غـونـثـالـيسـ: «أتـرىـ كـيـفـ أـنـيـ كـنـتـ عـلـىـ حـقـ حـيـنـ تـرـدـدـتـ؟ لاـ، لمـ يـقـلـ شـيـئـاـ؛ لقدـ كـانـ يـسـتـمعـ إـلـىـ الـلـازـمـ، وـالـبـندـقـيـةـ فـيـ يـدـهـ، باـسـتـفـرـاقـ لـاـ يـمـكـنـ سـبـرـأـغـوارـهـ.

وـصـرـخـ بـيـرـيـكـوـ تـيمـوـشـيـ مـنـ الـبـوـاـبـةـ:

ـ هـاـ قـدـ وـصـلـتـ سـيـارـتـاـ التـكـسـيـ!

ـ لمـ أـكـنـ سـائـقـ تـكـسـيـ حـقـيقـيـاـ عـلـىـ الإـطـلاقــ. يـؤـكـدـ لـيـ ذلكـ السـيـدـ أـونـاـكـاـ وـهـوـ يـعـرـضـ عـلـىـ بـإـيـمـاءـاتـ مـحـزـنـةـ رـفـوفـ دـكـانـهـ الـخـاوـيـةـ الـتـيـ تـكـوـنـ فـيـ الـعـادـةـ مـتـرـعـةـ بـالـمـوـادـ الـفـذـائـيـةـ وـالـأـدـوـاتـ الـمـنـزـلـيـةـ، وـيـضـيـفــ. لـقـدـ كـنـتـ عـلـىـ الدـوـامـ صـاحـبـ هـذـاـ المـتـجـرـ وـالـبـائـعـ فـيـهـ. وـكـانـ يـضـمـ أـفـضـلـ تـشـكـيلـةـ مـنـ الـبـضـائـعـ فـيـ خـاوـخـاـ كـلـهـاـ، حـتـىـ وـإـنـ كـنـتـ لـاـ تـصـدـقـ ذـلـكـ.

الـمـراـرـةـ تـلـويـ وـجـهـهـ الـأـصـفـرـ. لـقـدـ كـانـ السـيـدـ أـونـاـكـاـ ضـحـيـةـ مـفـضـلـةـ لـلـمـتـرـدـيـنـ الـذـيـنـ دـاهـمـواـ محلـهـ مـرـاتـ عـدـيدـةـ، وـيـحدـدـ لـيـ: «ـثـمـانـ مـرـاتـ. وـالـمـرـةـ الـأـخـيـرـةـ كـانـتـ قـبـلـ ثـلـاثـةـ أـسـابـيعـ، بـعـدـ أـنـ كـانـ

"مارينز" قد جاؤوا إلى هنا. أي أن الأمور بقيت هي نفسها سواء بوجود الغرينفو أو عدم وجودهم. حضر المتمردون إلى المتجر في الساعة السادسة، وكانوا مقنعين. أغلقوا الباب وقالوا: أين تخبئ المؤن إليها الكلب؟ أتقولون أخبي؟ ابحثوا وخذوا ما تجدونه. لقد صرت عارياً بسببكم. لم يجدوا شيئاً بالطبع. ألا تريدون أن تأخذوا امرأتي؟ إنها الشيء الوحيد الذي تبقى لي. لم أعد أخافهم، أترى؟ في المرة الأخيرة قلت لهم: لماذا لا تقتلوني؟ استمتعوا بذلك، أجهزوا على هذا الرجل الذي سممتم حياته. فقال لي واحد منهم: نحن لا نهدر البارود على طيور الرخمة العفنة. وكل ذلك جرى في الساعة السادسة مساء، بوجود شرطة وجند، و"مارينز" في شوارع خاوية. أليس هذا دليلاً على أنهم جميعهم من طغمة اللصوص نفسها؟ يزفر، يأخذ نفساً ويلقي نظرة إلى زوجته التي تنحني على طاولة الكونتور محاولة أن تقرأ الصحيفة، ملصقة عينيها بالصفحات. كلاهما عجوز هرم جداً.

ويواصل السيد أوناكا قائلاً:

- بما أنها كانت قادرة وحدها في ذلك الحين على تسخير شؤون المتجر، فقد كنت أقوم بتلبية بعض الطلبات باستخدام سيارتي الفورد كتكسي. وكان هذا هو سوء الطالع الذي ورطني في مسألة باييخوس. وهكذا أتلفت السيارة وكان عليّ أن أنفق ثروة في إصلاحها. ونزلت من أجل ذلك ضريرة على رأسي شقت حاجبي هذا وسُجنت ريثما قاموا بالتحقيقات واكتشفوا أنني لم أكن متواطئاً وإنما ضحية.

إننا في ركن من متجره المفلس، نقف على أقدامنا، كل

واحد منا على أحد جانبي الكونتوار. وفي الطرف الآخر، ترفع السيدة أوناكا نظرها عن جريتها كلما دخل زبون ليشتري شمعاً أو سجائر، وهما الشيئان الوحيدان المتوفران بكثرة كما يبدو في الدكان. الزوجان أوناكا من أصل ياباني – إنهم حفيد وحفيدة مهاجرين – ولكن الناس في خواخا يدعونهما «الصينيين»، وهو خطأ لا يوليه السيد أوناكا أي اهتمام. كما أنه على عكس الدكتور كورديرو إسبينوشا، لا يأخذ مصائبه على محمل الهزل والفلسفة. يلاحظ عليه أنه قاطن، وحاذد على الدنيا. وهو وكورديرو إسبينوشا الشخصان الوحيدان بين العشرات من تحدث إليهم في خواخا، اللذان يتكلمان على المكشوف عن «الإرهابيين». أما الآخرون، فمن فيهم أولئك الذين كانوا ضحايا اعتداءات، فإنهم يحتفظون بصمت مطبق حول الثورتين.

– كنت قد فتحت المتجر للتو عندما ظهر لي ابن آل تابيا، الذين يسكنون في شارع بيباريال. لدينا مشوار مستعجل يا سيد أوناكا. يجب نقل سيدة مريضة إلى المستشفى. أدرت محرك السيارة، وجلس ابن آل تابيا الصغير إلى جانبي، وكان ذلك المسرحي الصغير يقول: «أسرع، وإلا فإن السيدة ستموت». وكانت هناك أمام السجن سيارة تكسي أخرى، محملة ببعض البنادق. توقفت وراءها. وسألتُ الملازم باليخوس: من هي المغنى عليها؟ فلم يرد عليّ. وفي أثناء ذلك، تقدم الآخر، الذي من ليما، أسمه مايتا، أليس كذلك؟ ووجه مسدسه الرشاش إلى صدري: أطع ما تؤمر به إذا كنت لا تريد أن يحدث لك شيء. أحسستُ بأن البراز يخرج مني، واعذرني لهذا التعبير. لقد شعرت عندئذ بالخوف حقاً. كم

كنت غبياً. لقد كان لدى آنذاك الكثير من المال. وكان بإمكانني أن أذهب مع زوجتي. لو فعلت ذلك لكنا نمضي الآن شيخوخة هادئة.

صعد كوندورى، ومايتا، وفيليثيو تابيا، وكورديرو اسبينوثا وتيوفيلو بويرتاس إلى السيارة بعد أن حملوا نصف الذخائر والأسلحة. وأصدر مايتا الأمر إلى أوناكا بالانطلاق: «لدى أدنى محاولة منك للفت الأنظار سأطلق عليك النار». كان يجلس في المقعد الخلفي، وكان فمه جافاً تماماً. ولكن يديه كانتا تتعرقان. وإلى جانبه كان البريفادير بويرتاس يجلسان محشورين فوق البنادق. بينما جلس في المقدمة فيليثيو تابيا مع كوندورى.

- لست أدرى كيف لم أصطدم، وكيف لم أدهس أحداً -
يهمس فم السيد أوناكا الذي بلا أسنان. - ظننت أنهم لصوص، قتلة، هاربون من السجن. ولكن كيف يمكن أن يكون الملازم معهم؟ وما الذي يفعله مع القتلة ابن آل تابيا وابن ذلك السيد المتألق، الدكتور كورديرو؟ قالوا لي إنها الثورة ولست أدرى أية أشياء. ما هو هذا؟ كيف يؤكل هذا؟ أمروني بأن آخذهم إلى مركز الحرس الأهلي، في شارع مانكو كاباك. وهناك نزل الذي من ليما وكوندورى والصغرى تابيا. وتركوا الاثنين الآخرين لحراستي، وقال لها مايتا: إذا ما حاول الفرار، اقتلاه. وفيما بعد أقسم الصبيان إن ذلك كله كان تمثيلاً، وإنهما ما كانوا سيطلقاً النار على أحداً. ولكننا صرنا نعرف أن الأطفال يمارسون القتل الآن بالفؤوس وبالأحجار وبالسكاكين، أليس كذلك؟ وباختصار، نحن الآن نعرف أشياء كثيرة لم يكن يعرفها أحد في

ذلك الحين. اهدؤوا يا شباب، انتبهوا كي لا ينطلق الرصاص، أنتم تعرفونني، فأنا لا أستطيع قتل ذبابة، وقد بعثكم بالدين مرات كثيرة. لماذا تفعلون بي هذا؟ ثم ما الذي سيحدث هناك في الداخل؟ ما الذي سيفعله هؤلاء في المركز؟ إنها الثورة الاشتراكية يا سيد أوناكا، ذلك ما قاله لي كورديرو الصغير، هذا الذي أحرقوا بيته ولولا قليل لكانوا نسفاً مكتب المحاما الذي يخصه. الثورة الاشتراكية؟ لماذا؟ أي شيء هو هذا؟ أظن أنها كانت المرة الأولى التي أسمع فيها هذه الكلمة. وهناك علمتُ بأن أربعة بالغين وسبعة صبيان قد استولوا على سيارتي الفورد المسكينة من أجل القيام بالثورة الاشتراكية. آي، يا للعنة!

لم يكن هناك حراس عند بوابة المركز، وقد أومأ مايتا إلى كوندوري وفيليثيو تابيا: سيدخل هو أولاً، وعليهمما أن يغطيا تحركه. بدا كوندوري هادئاً، أما تابيا فكان شاحباً جداً، ولاحظ مايتا أن يديه صارت داكنتين بالزرقة بسبب القوة التي يشد بها على البن دقية. دخل إلى الغرفة منحنياً وقد نزع مسمار أمان المسدس الرشاش، وصرخ:

- ارفعوا أيديكم وإلا سأطلق النار!

كان في الغرفة شبه المظلمة رجل يرتدي سروالاً وقميصاً داخليين، وقد فوجئ بظهور مايتا وهو يتثاءب، فتجمد تثاؤبه في تعبير أبله. بقي ينظر إليه، ولم يرفع يديه إلا عندما رأى، وراء مايتا، ظهور كوندوري وفيليثيو تابيا وهما يوجهان بندقيتيهما نحوه.

- احرساه - قال مايتا ذلك وركض إلى الداخل. اجتاز ممراً

ضيقاً يؤدي إلى فناء ترابي: كان هناك شرطيان يرتديان بنطالاً وجزمة الخدمة ولكن دون القميص، وكانا يغسلان وجهيهما وأذرعهما من صفيحة ماء يخالطه الصابون. ابتسם له أحدهما وكأنه يرى فيه أحد زملائهما.

- ارفعوا أيديكم وإلا سأطلق النار! - قال مايتا دون أن يصرخ هذه المرة - ارفعوا أيديكم، اللعنة!

انصاع الاثنان، وقلب أحدهما صفيحة الماء على الأرض بحركته المفاجئة، فحول الماء المنسكب التراب قاتماً. وسمع احتجاج صوت حالم: «يا للصخب الشديد، اللعنة». كم شخصاً هناك في الداخل؟ وكان كوندورى إلى جانب مايتا الذي همس له: «خذ هؤلاء»، ودون أن يرفع بصره عن الغرفة التي خرج منها صوت الاحتجاج. اجتاز الفنان الضيق راكضاً ومنحنياً، ومرّ تحت عريشة نبات متسلق، وعند عتبة الحجرة كبح مايتا عبارة «ارفعوا أيديكم!» التي كان سيطلقها. لقد كانت الغرفة مهجعة الحراس. وكان هناك صfan من الأسرة الضيقة الملتصقة بالجدار، وفي ثلاثة منها رجال مستلقون، اثنان نائمان والثالث يدخن وهو مستلق على ظهره. وكانت تصدر من مذيع إلى جانبه ألحان هواینیتو. حين رأى الرجل مايتا ارتعب وقفز ناهضاً وهو يحدق بالمسدس الرشاش.

- ظنت الأمر مزاحاً - تلعم بذلك وهو يفلت السيجارة ويرفع يديه فوق رأسه.

فقال له مايتا وهو يشير إلى الآخرين النائمين: - أيقظ هذين. ولا تضطرني إلى إطلاق النار لأنني لا أريد أن أقتلك.

ودون أن يدير الشرطي ظهره أو يرفع عينيه عن السلاح، بدأ يتحرك مجانبة، مثل سرطان، إلى حيث ينام رفيقاه. وهزهما بيده:
- استيقظا، استيقظا، لست أدرى ما الذي يحدث.

ويقول لي السيد أوناكا:

- كنت أتوقع حدوث إطلاق نار، وصخب عظيم. ورؤية مايتا وكوندوري وابن آل تابيا ينزفون دماً، وأن تطلق فصيلة الشرطة النار على معتقدين أنني مع المهاجمين. ولكن لم تطلق رصاصة واحدة. وقبل أن نعرف ما الذي يحدث في الداخل، جاء التكسي الذي فيه بایخوس. وكان قد سيطر على مفوضية الشرطة في شارع بوليفار وحبس الملازم الأول دونغو وثلاثة شرطيين في الزنزانة. سأل الصبيين: هل كل شيء على ما يرام. لا نdry. فتوسلت إليه: دعني أذهب إليها الملازم، فزوجتي مريضة جداً. لا تخف يا سيد أوناكا، إننا بحاجة إليك لأنه لا يوجد بيننا من يحسن قيادة السيارة. وانظر إلى حجم الحماقة: يريدون أن يصنعوا الثورة وهم لا يعرفون حتى كيفية قيادة سيارة.

عندما دخل بایخوس وثنينون غونثاليس إلى المركز، كان مايتا وكوندوري وتابيا قد أنهوا من حبس الحراس في المهجع مقيدين إلى الأسرة. وكانت البنادق والمسدسات مكونة عند المدخل.

قال مايتا براحة حين رآهم يصلون:

- لم تقع أية مشكلة. وماذا عن المفوضية؟
- لا مشاكل - أجابه بایخوس - حسن جداً، أهنتكم. لقد صار لدينا عشر بنادق أخرى.

قال مaita :

- ستفتقر إلى أيد لحمل كل هذه البنادق.

ورد الملازم بينما هو يتفحص البنادق الجديدة:

- لن نفتقر إلى أفراد. سيكون لدينا فائض منهم في

أوتشوبامبا، أليس كذلك يا كوندوري؟

إنه لأمر لا يُصدق أن يجري كل شيء بهذه السهولة يا مaita.

ويتهجد السيد أوناكا:

- حملوا كومة أخرى من البنادق في سيارتي الفورد. وأمروني

بالتوجه إلى مكتب الهاتف وبأن أبقى هناك ولا أغادر.

وتروي لي السيدة أدريانا تبيو، وهي عجوز مجعدة وضئيلة،

ذات صوت متamasك ويدين معقدتين:

- حين وصلت إلى عملي في ذلك اليوم كانت هناك سيارتان

وقد تعرفت في إحداهما على الصيني صاحب المتجزء، ذاك الذي

يدعى أوناكا، سائق السيارة. وكانت تبدو على وجهه أمارات

ظننتُ معها أنه قد استيقظ بقدمه اليسرى أولاً أو أنه صيني مصاب

بالعصاب. وما إن رأوني قادمة حتى نزل بعض الأشخاص ودخلوا

معي إلى المكتب. ولماذا سيفلت ذلك انتباهي؟ فحتى السرقات لم

تكن تحدث في تلك الأزمنة في خاوحا، فما بالك بالثورات،

ولماذا سأنتبه إلى ذلك؟ انتظروا، فالوقت لم يحن بعد. ولكن،

وكما لو أنهم سمعوا هطول مطر، ففروا على حاجز الكونتوار

وقلب أحدهم طاولة أسومنتيتا آسيس، فلترقد روحها بسلام. ما هذا

الذي يحدث؟ ماذا تفعلون؟ ماذا تريدون؟ نريد تعطيل التغريف

والهاتف. انقلعوا خارجاً، ستبقونني بلا عمل. هاها، أقسم لك إن

هذا هو ما فكرت فيه. لا أدرى كيف ما زالت لدى روح الدعاية بالرغم من هذه الأحداث التي تقع الآن. هل رأيت قلة حياء هؤلاء الغرينغو الذين يقولون إنهم جاؤوا لمساعدتنا؟ إنهم لا يعرفون حتى التكلم بلغة المسيحية، وهم يتجلبون ببنادقهم ويدخلون إلى البيوت، يا للعنجهية! كما لو أننا مستعمرتهم. لم يعد هناك وطنيون في بلادنا البيرو ما دمنا نتحمل هذا الإذلال.

حين رأت مaita وبايباخوس يدخلان حجرة عاملة مقسم الهاتف وبيدأن بتحريب لوحة المفاتيح بعقبي بندقيتيهما الرشاشتين وانتزاع كابلات الخطوط، حاولت السيدة أدريانا تبيو الخروج إلى الشارع. ولكن كوندوري وثينون غونزاليس أمسكا بها ريثما ينهي الملازم ومايتا التكسير.

- الآن يمكننا الاطمئنان - قال بايباخوس -. فبعد حبس حراس الشرطة وقطع الهاتف لم يعد هناك خطر مباشر. لم يعد من الضروري الانفصال عن بعضنا البعض.

وفكر مايتا بصوت عالٍ:

أيكون الآخرون قد ذهبوا إلى كيرو على الخيول؟

هز بايباخوس كتفيه: بمن يمكن للمرء أن يثق الآن.

- بالفالحين - دمم مايتا مشيراً إلى كوندوري وثينون غونزاليس اللذين كانا قد أفلتا المرأة بناء على إيماءة من الملازم، فخرجت إلى الشارع وأضاف مايتا - إذا ما وصلنا إلى أوتشوبامبا، فأنا واثق من أن الفلاحين لن يخذلونا.

- سنصل طبعاً - ابتسם بايباخوس -. ولن يخذلوننا بالطبع.

توجهوا إلى الساحة يا رفاق، أصدر بايباخوس الأمر إلى

غوالبيرو برابو وبيريكو تيموتشي بأن يأخذنا سيارتي التكسي إلى ناصية اللقاء ساحة السلاح وشارع بولوغنيري. فهناك ستكون نقطة الاجتماع. ثم وقف على رأس المتبقين وأصدر أمراً كان له وقع في جسد مايتا: «أمام سرّا». لا بد أن أولئك البالغين الأربع والللاميد الخمسة المسلحين الذين يسيرون في مشية عسكرية على الشوارع المرصوفة بالأحجار متوجهين إلى ساحة السلاح كانوا يشكلون جماعة غريبة، لا يمكن وصفها، لا يمكن حدس هدفها، تثير البلبلة. لقد كانوا يلفتون الأنظار، يجعلون الناس يتوقفون في الشوارع، ويخرجون إلى النوافذ والأبواب. ما الذي فكر فيه أهالي خواخا الذين رأوه يمرؤون؟

- كنت أحلق ذقني، لأنني في ذلك الحين كنت أستيقظ متأخراً - يقول لي دون خواكين ثاموديو، صانع القبعات السابق، والتاجر السابق الذي تحول الآن إلى بائع يانصيب على أبواب خواخا، ويضيف: رأيتم من غرفتي وفكرت في أنهم يتدرّبون من أجل الاحتفالات بالعيد الوطني. منذ الآن؟ أخرجت رأسي من النافذة وسألت: ما هذا الاستعراض؟ وبدلاً من أن يرد الملازم على سؤالي، صرخ قائلاً: «تحيا الثورة». ورد عليه الجميع كجوقة: «تحيا، تحيا». أي ثورة هذه؟ سألتهم ذلك وأنا أظن بأن هناك لعبة تلعبها. فرد علي كورديرو الصغير: «إنها الثورة التي نصنعها.. الثورة الاشتراكية». وبعد ذلك عرفت أنهم في تلك الحال التي رأيتم بها، بمشيّتهم وهتافاتهم، كانوا ذاهبين للسيطرة على مصرفين. وصلوا إلى ساحة السلاح، ورأى مايتا أن المارة قليلون. وأنهم يلتقطون للنظر إليهم دون مبالاة. وكانت هناك جماعة من الهنود

بعاءات بونتشو وحزم يجلسون على أحد المقاعد، فهزوا رؤوسهم وهم يتبعونهم. لم يكن هناك بعد ما يكفي من الناس للقيام بمظاهرة. وكان من المضحك المشي بخطوات منتظمة، ليس كثوريين وإنما كصبية الكشافة. ولكن باييخوس كان قد قدم المثل، وهذا حذوه الفتىان وكوندورى وغونثاليس، بحيث لم يعد ثمة مفر من مجازاة إيقاع خطواتهم. كان يشعر بإحساس غامض، مزيد من الحماس والجزع، فعلى الرغم من أن رجال الشرطة محبوسون، ومن أن الأسلحة صارت بحوزتهم، وخطوط الهاتف والتلفراف مقطوعة، أليس من الممكن النيل بسهولة من جماعتهم الصغيرة؟ هل يمكن البدء بثورة هكذا؟ ضغط أسنانه. أجل. هذا ممكن. يجب أن يكون ممكناً.

ويقول لي دون إرنستو دوران هواركايا، المدير السابق للمصرف الدولي، الذي يستلقي الآن في سريره في مصح أولافيفويا، شاحباً من داء السرطان الذي ينخر جسمه كله:

– دخلوا من الباب الرئيسي، وهم يغدون تقربياً.رأيتهم من النافذة وفكرت بأنهم غير قادرين حتى على ضبط إيقاع خطواتهم، لقد كانت مشيّتهم العسكرية سيئة. وبما أنهم كانوا يتوجهون مباشرة إلى المصرف، فقد قلت لنفسي ها قد جاء متطفلاً آخر بحجّة الاحتفال الخيري، أو الاستعراض أو التمثيل. خرجت بدافع الفضول ولكنهم ما إن دخلوا حتى وجهوا إلينا الأسلحة وصرخ باييخوس: «لقد جئنا لأنأخذ الأموال التي هي ملك الشعب وليس ملكاً للإمبرياليين». آه، هذا أمر لا أتحمله. آه، وقد وقفت في وجههم.

- بل زحف على أربع تحت طاولته - تقول لي أديليتا كامبوس، موظفة المصرف المتقاعدة التي تتبع الآن أشربة أعشاب مغالية - لقد كان فحلاً جداً حين يصرخ علينا مؤيناً بسبب تأخر بسيط، أو حين يمد يده عندما تمر إحدانا بجانبه. أما عندما رأى البنادق، زاس، انحنى على أربع واحتباً تحت طاولته، دون أي خجل. هل كان المدير يفعل ذلك، هل كان يلمسنا نحن الموظفين؟ كانا خائفين بالطبع. وكان خوفنا من الصغار أكثر من خوفنا من الكبار. لأنهم كانوا يصرخون مثل خنازير: «تحيا البيرو»، «تحيا الثورة» ولشدة حماسهم كان يمكن أن تفلت منهم رصاصة. أما من خطرت له الفكرة العظيمة فكان أمين الصندوق، العجوز روخاس. ما الذي حلّ به. أظنه قد مات، أو أنه قُتل بكلمة أصح، لأن الناس في هذه الحياة التي تجري في خواخا، لم يعودوا يموتون، وإنما يقتلونهم. ولا أحد يعرف من هم القتلة مطلقاً.

ويقول العجوز روخاس، أمين الصندوق السابق في المصرف الدولي، وهو في جحر احتضاره في ملجأ العجزة في خواخا:

- عندما رأيتهم يقتربون من كوتني، فتحت الصندوق الذي إلى اليسار. وكنت أضع فيه إيداعات ذلك الصباح، ومبرغاً بسيطاً من أجل ردّ الفراطة.. مبلغ تافه. رفعت ذراعي وتضرعت بيني وبين نفسي: «فليبتلعوا الطعم أيتها العذراء المقدسة». وقد ابتلعواه. فقد توجهوا مباشرة إلى الصندوق المفتوح وأخرجوا ما كان فيه: أكثر قليلاً من خمسين ألف سول. إنه الآن مبلغ تافه جداً، ولكنه كان لا يأس به في ذلك الحين، وهو مع ذلك مجرد فتات بالمقارنة مع ما كان موجوداً في الصندوق الذي إلى اليمين: ما يقارب مليون سول

لم تكن قد أدخلت بعد إلى الخزنة الرئيسية. لقد كانوا مبتدئين، وليس مثل من بدؤوا يأتون فيما بعد. هس، هس، لا تكرر ما قلته لك يا سيدي.

- أهذا هو كل شيء؟

- أجل، أجل، هذا هو كل شيء - ارتجف أمين الصندوق -
الوقت لا يزال مبكراً، وليست هناك حركة تعامل بعد.
فقطاطعه مايتا:

- هذا المال ليس لنا وإنما هو للثورة. - ثم توجه إلى وجوه الموظفين غير المصدقة: - إنه من أجل الشعب، من أجل من بذلوا عرقهم مقابل هذا المال. هذه ليست عملية سطوة، وإنما هي مصادرة. ليس هناك ما يدعوكم أنتم إلى الخوف. فأعداء الشعب هم أصحاب المصارف والأوليغارشية والإمبرياليون. وأنتم أيضاً مستغلون من قبلهم.

فارتجف أمين الصندوق:

- أجل، بالطبع. هذا الذي تقوله صحيح يا سيدي.
لدى الخروج إلى الساحة، واصل الفتيان إطلاق الهتافات. ودنا مايتا الذي كان يحمل كيس النقود من باييغوس: فلنذهب أولاً إلى مصرف الريخيونال، إذ ليس هناك ما يكفي من الناس بعد من أجل إقامة مهرجان دعائي. وكان يرى مارة قليلاً ينظرون إليهم بفضول، دون أن يقتربوا منهم.

فوافق باييغوس:

- ولكن علينا الذهاب بالخطوة السريعة، قبل أن يغلقوا الباب في وجهنا.

انطلق يعدو وتبعه الجميع مصطفين بالترتيب نفسه الذي جاؤوا به. وبعد ثوان قليلة، عطل الجري قدرة مايتا على التفكير. لقد عاوده الاختناق والضغط في الصدغين والغثيان، بالرغم من أنهم لم يكونوا يركضون مسرعين، وإنما ما يشبه التحمية قبل المبارزة. وعندما توقفوا بعد كواترين أمام مصرف ريخيونال كان يشعر بأن هناك نجوماً تطفو حول رأسه، وكان فمه مفتوحاً على مصراعيه. لا يمكنك أن تصاب بالإغماء الآن يا مايتا. دخل مع الجماعة، ومثلاً في حلم، رأى وهو يستند إلى الكونتوار وجه المرأة التي مقابلته، وسمع باليخوس يوضح: «هذه عملية ثورية، لقد جئنا لنسترد الأموال المسروقة من الشعب» وسمع أن هناك من يحتاج. ودفع الملازم رجلاً وصفعه. يجب عليه أن يساعد، أن يتحرك، ولكنه لم يفعل ذلك لأنه كان يعرف بأنه سيسقط أرضاً إذا ما أفلت ذلك المسند. كان يسند مرفقيه إلى الكونتوار ويوجه مسدسه الرشاش إلى جماعة الموظفين - كان بعضهم يصرخون ويبدو على بعضهم أنهم يوشكون على التحرك للدفاع عن ذاك الذي احتاج - رأى كوندوري وثينون غونثاليس يثبتان ذراعي رجل طاولة المكتب الكبيرة الذي كان باليخوس قد ضربه. وكان الملازم يقرب مسدسه الرشاش منه بحركة متوعدة. وأخيراً وافق الرجل على فتح صندوق الخزنة الذي كان بجوار طاولته. وعندما أنهى كوندوري من نقل الأموال إلى الحقيقة، بدأ مايتا يتنفس بصورة أفضل. كان عليك أن تأتي قبل أسبوع، لكي يعتاد جسدك شيئاً فشيئاً على المرتفعات، إنك لا تحسن عمل الأشياء.

وسأله باليخوس لدى خروجهم:

- هل تشعر بالمرض؟

- قليل من دوار المرتفعات، بسبب الركض. فلنُقم المهرجان
الدعائي بمن هم موجودون. يجب علينا إقامته.

- تحيا الثورة - صرخ أحد الفتىان بحماسة.

و Zimmerman: آخر

- تحيا!

وسدد أحدهم بندقيته نحو السماء ودوى صوت طلقة. إنها
الرصاصة الأولى في هذا اليوم. فهذا الأربعة الآخرون حذوه. ثم
داهموا الساحة وهم يهتفون بحياة الثورة، ويطلقون الرصاص نحو
السماء ويصرخون بالناس أن يقتربوا.

- الجميع قالوا لك إنه لم يكن هناك اجتماع دعائي، لأن أحداً
منهم لم يشأ الاستماع إليه. لقد استدعوا الناس الذين كانوا
يسيرون في الميدان، وفي محيطه، وعند البوابات، ولم يستجب
إليهم أحد - يقول لي ذلك Antiero Hoyomo، المصور الجوال السابق
الذي هو الآن أعمى يبيع أدعية وصور قدسيين ومسابح منذ الثامنة
صباحاً حتى الثامنة ليلاً عند بوابة الكاتدرائية. ويضيف قائلاً - بل
إنهم كانوا يتسلون إلى سائقي الشاحنات العابرة «توقفوا»،
«انزلوا»، «تعالوا». فكان هؤلاء يزيدون من سرعتهم مرتدين.
ولكن المهرجان الدعائي أقيم. وكنتُ هناك، رأيته وسمعته. وكان
ذلك الزمن سابقاً للقنبلة المسيلة للدموع التي شاءت إرادة الرب أن
تحرق وجهي. لو أنه جرى الآن لما كان بإمكانني رؤيته، أما في
ذلك الحين فقد رأيته. والحقيقة أنه كان مهرجاناً لي وحدي.
أهو المؤشر الأول إلى أن الحسابات لم تكن خاطئة فيما يتعلق

بالمشاركين في المؤامرة وحسب، وإنما كذلك بشأن أهالي خاوخا أيضاً؟ لقد كانت وظيفة الاجتماع الدعائي واضحة تماماً في رأسه: إطلاع رجل الشارع على أحداث الصباح، وتوضيح مغزاها التاريخي والاجتماعي للنضال الطبقي، وإظهار العزيمة التي انتقضوا بها ، وربما قاموا كذلك بتوزيع جزء من المال على الفقراء. ولكن لم يكن هناك أحد أمام عريشة الساحة التي تسلقها مايتا سوى المصور الجوال، وجماعة البنود الصغيرة المتحجرة على أحد المقاعد متتجنبة النظر إليهم، والفتيان الخمسة. ودون طائل كانوا يستدعون بأيديهم وصرخاتهم جماعات الفضوليين الواقفين عند ناصية الكاتدرائية ومدرسة الكارمن. والذين كانوا يركضون هاربين إذا ما حاول الفتيان التوجه نحوهم. أتكون العبارات النارية قد أخافتهم؟ أيكون الخبر قد شاع وصاروا يخافون أن يجدوا أنفسهم متورطين، أو يخشون أن تظهر الشرطة في أي لحظة؟ وهل هناك أي معنى لمواصلة الانتظار؟ ووضع مايتا يديه حول فمه وصاح:
— لقد انتقضنا ضد النظام البرجوازي لكي يحطم الشعب أغلاله! من أجل وضع حد لاستغلال الجماهير! من أجل توزيع الأرض على من يستغلون فيها! من أجل وضع حد للنهب الإمبريالي بلادنا!

فقال له باييحسوس وهو يقفز عن سور العريشة:

— لا حاجة لأن تمزق حنجرتك. إنهم بعيدون ولن يسمعواك. إننا نضيع الوقت.

انصاع مايتا، ومشى إلى جانبه باتجاه ناصية بولوغنيسي، حيث تنتظر سيارتا التكسي تحت حراسة غوالبيرتو برابو وبيريكو

تيموتشي. حسن، لم يكن هناك اجتماع دعائي، ولكنه تخلص على الأقل من دوار المرتفعات. هل سيتمكنون من الوصول إلى كيرو؟ وهل سيكون هناك من سينتظرونهم ومعهم الخيول والبغال؟ وسمع بابيغوس يقول له، كما لو أن هناك تخاطراً بين الاثنين:

– إذا لم نجد رجال ريكران في كيرو فلن تكون ثمة مشكلة أيضاً. فهناك يوجد الكثير من البهائم. إنها قرية ل التربية المعاشي.

– سنشتري الخيول والبغال إذن – قال مايتا ذلك وهو يلمس الكيس الذي يحمله في يده اليمنى. ثم التفت إلى كوندورى الذي كان يمشي وراءه: كيف هي الطريق إلى أوتشوبامبا؟

فرد كوندورى:

– عندما لا يكون هناك مطر، يكون الطريق سهلاً. لقد سلكته ألف مرة. إنه صعب في الليل فقط، بسبب البرد. ولكن ما إن تصل الغابة حتى يصبح مثل الخبز الجاهز للأكل.

غوالبيرتو برابو وبيري كوتيموتشي اللذان كانوا يجلسان إلى جانب سائق التكسي، نزلوا لاستقبالهم. كانوا يشعران بالحسد لأنهما لم يرافقاهم في مداهمة المصرفين، وقالا: «أخبرونا، أخبرونا». ولكن بابيغوس أصدر الأمر بالانطلاق فوراً.

– يجب ألا نفترق مهما كان السبب – قال بابيغوس ذلك وهو يدنو من مايتا الذي كان قد ركب في تكسي السيد أوناكا مع كوندورى والفتیان الثلاثة. لا حاجة إلى الإسراع كثيراً. وإلى اللقاء في مولينوس.

مضى نحو سيارة التكسي الأخرى، وفكر مaita: «سنصل إلى كيرو ونحمل البنادق على الدواب، ثم نجتاز سلسلة الجبال، ونزول إلى الغابة حيث سيسقطنا الفلاحون في أوتشوبامبا بأذرع مفتوحة. فنسلحهم ونجعل منها قاعدتنا الأولى». لا بد له من أن يكون متفائلاً. فعلى الرغم من حدوث انشقاقات، وعلى الرغم من أن جماعة ريكران لم يظهروا في كيرو، إلا أنه لا يستطيع الارتياب. أولم يجر كل شيء على أحسن حال هذا الصباح؟

- هذا ما كنا نظنه - يقول لي الكولونيل فيليثيو تابيا، وهو الآن طبيب منتب إلى الجيش، متزوج وله أربعة أبناء، أحدهم معوق وأخر عسكري جرح في أثناء الخدمة في منطقة آثانفارو؛ إنه في زيارة عابرة إلى خاوشا، ذلك أنه يجول باستمرار على المراكز الصحية في كل أرجاء خاوشا، ويضيف: كنا نظن أن الحراس والملازم الأول الذين تركناهم محبوسين سيتأخرون في الخروج، وحيث إن الاتصالات مقطوعة، فإنه سيكون عليهم أن يذهبوا إلى هوانكايو لطلب التعزيزات. وهذا يتطلب خمس أو ست ساعات على الأقل. وفي أثناء ذلك سنكون قد بدأنا النزول باتجاه الأدغال. ومن الذي سيجدنا عندئذ؟ لقد أحسن باليخوس على خير وجه اختيار المنطقة. إنها مثالية للكمانين. الحمر موجودون هناك، في جحورهم، والطريقة الوحيدة للتعامل معهم هي القصف العشوائي، ذلك كل شيء، أو الذهاب للبحث عنهم ومواجهتهم بالحراب، والتضحية بآعداد كبيرة من الجنود. لو عُرف كم من الرجال فقدنا في تلك المنطقة وحدها، لأصاب الناس الذهول. حسن، أظن

أنه لم يعد هناك من يصاب بالذهول لأي سبب في البيرو. ماداً كنا نقول؟ أجل، كنا نظن ذلك. ولكن الملائم أول دونغو خرج من زنزانته على الفور. ذهب إلى مكتب التلفراف ورأى كل شيء مخرباً. فهرع إلى المحطة، ووجد التلفراف هناك سليماً معافياً. أُبرق وانطلقت حافلة الشرطة من هوانكابيو عندما كنا نغادر خاوأxa تقريباً. وبدلاً من خمس ساعات، كنا نقدمهم ب ساعتين فقط على أبعد تقدير. يا للبلاهة! لأن تعطيل تلفراف محطة القطار لم يكن ليستغرق أكثر من ثانية واحدة.

- ولماذا لم تعطلوه إذن؟

يهز كتفيه وينفث الدخان من فمه وأنفه. إنه رجل شائخ، له شاريان ملطخان بالنيكوتين، لاهث. كنا نتكلم في عيادة ثكنا خاوأxa، وبين الحين والآخر كان الكولونيل تابيا يلقي نظرة على الصالة المزدحمة بالمرضى والجرحى والذين تتجول بينهم المرضات.

- أتدرى أنني لا أعرف؟ أعتقد أنه التخلف. ففي الخطة الأصلية، الخطة التي كان سيشارك فيها حوالي أربعين شخصاً على ما أظن، دونأخذنا نحن الفتياN في الحساب، كانت هناك جماعة تستولى احتلال المحطة. هذا ما أظن أنني أتذكره على الأقل. وفيما بعد، في فوضى تبديل الخطط، لم يخطر الأمر لباليغوس. أو ربما أن أحداً لم يتذكر أن هناك جهاز تلفراف في محطة القطار. وما حدث هو أننا انطلقتنا مطمئنين ومعتقدين أن لدينا كل الوقت الذي في الدنيا.

الحقيقة أنهم لم يكنوا مطمئنين جداً. فعندما انطلق السيد أوناكا بالسيارة (متباكيًّا وقائلاً إنه لا يستطيع الذهاب حتى

مولينوس بينما زوجته مريضة، وإن محرك السيارة بحاجة إلى مزيد من البنزين من أجل الوصول إلى هناك)، وقعت حادثة الساعاتي. لقد رأه مايتا ييرز فجأة وهو يرغى ويزيبد مثل ثور هائج من البوابة الزجاجية الصغيرة المكتوب عليها بحروف قوطية: «ساعات ومجوهرات بيذرو باوتيستا لوثادا». كان رجلاً مسنًا، نحيلًا، يضع نظارة، وكان وجهه محمراً من الغضب ويحمل في يده بندقية صيد. هيأ مايتا مسدسه الرشاش، ولكن امتلك ما يكفي من برود الأعصاب لكي لا يطلق النار، ذلك أنه على الرغم من أن الرجل كان يز مجر كمن به مس من الجنون، إلا أنه لم يكن يصوب بندقيته نحوهم. بل كان يهزها وكأنها عكا:

- لن تخيفوني أنا يا شيوعيي البراز - كان يتعرّى على رصيف الشارع، ونظراته تتقاذف على أنفه - يا شيوعيي البراز، ترجلوا إذا كنتم تملكون خصي، اللعنة!

- تابع، لا تتوقف - أمر مايتا السائق وهو يربت على كتفه. لحسن الحظ أن أحداً لم يوجه رصاصة إلى هذا النزق. «هذا الإسباني»، ويضحك فيليشيو تابيا: «ما الذي تعنيه كلمة ترجلوا؟»

- جميع أهالي خاوخا يقولون إنك أكثر شخص مسامِل في الدنيا يا دون بيذرو، شخص لا يتدخل مع أحد. فلماذا خرجت في ذلك الصباح لتشتم الثوريين؟

- لا أدرى ما الذي أصابني - يخن دون بيذرو باوتيستا لوثادا بفمه اللعابي الذي بلا أسنان، وهو تحت دثار من وبر الفيكونيا، على كرسي محل الساعات الذي أمضى فيه أكثر من أربعين سنة منذ مجئه إلى خاوخا، ويضيف قائلاً: أو أن الأمر أثار غضبي

بكلمة أصح. لقد رأيتم يدخلون إلى المصرف الدولي ويأخذون النقود في كيس. ولكن ذلك لم يهمني. ثم سمعتهم بعد ذلك يطلقون الهتافات الشيوعية والعيارات النارية، دون أن يفكروا بأنه يمكن للرصاصات الطائشة أن تسبب نكبات. أي جنون هذا؟ وهكذا تناولت بندقية الصيد، هذه التي أضعها ما بين ساقي تحسباً للزيارات الخبيثة. وقد اكتشفت فيما بعد بأنني لم أكن قد حشوتها.

إن الغبار في المحل، وال موجودات التافهة، والفوضى، وشيخوخة الرجل التي لا تصدق، تذكرني كلها بفيلم رأيته في طفولتي: الساحر العجيب. فوجه دون بيورو هو حبة زبيب وحاجباه كثان وهائلان. لقد أخبرني بأنه يعيش وحيداً وأنه يُعد طعامه بنفسه، لأن مبادئه تمنعه من استخدام الخدم.

- أخبرني أمراً آخر يا دون بيورو. عندما وصل رجال الشرطة من هونكاي و معهم الملائم أول دونغو بدؤوا يبحثون عن أدلة لكي يقتدوا أثر المتمردين، فرفضت أنت الذهاب معهم. أو لم تكن غاضباً جداً منهم؟ أم أنك لم تكن تعرف شعاب سلسلة جبال خاوشا؟

- إنني أعرفها أفضل من أي شخص آخر، بحكم كوني صياد غزلان جيداً - يريل ويتعلثم، ويمسح الماء الذي يسيل من عينيه . ولكن على الرغم من أنني لا أحب الشيوعيين، فإنني لا أحب الشرطة أيضاً. وأنا أتكلم عن الماضي، لأنني وأنا في هذه السن، لم أعد أعرف بوضوح ما يعجبني يا صاحبي. لم يبق لدى سوى عدد قليل من الساعات وهذا اللعب الذي يسيل بسبب افتقاري إلى الأسنان. إنني فوضوي وساموت على ذلك. إذا ما اجتاز أحدهم هذا

الباب بنوايا خبيثة، سواء أكان إرهابياً أو مخبراً، فستتطلق عليه بندقية الصيد هذه. فلتسقط الشيوعية، اللعنة. والموت للشرطة.

مررت سيارتا التكسي إحداها ملتصقة بالأخرى، من ساحة سانتا إيسابيل، حيث كان يفترض أن ينقلوا إلى شاحنة ريكران الأسلحة التي استولوا عليها من السجن والمفوضية ومركز الحرس الأهلي. ولكن أحداً لم يتسرّ على ذلك التبدل ممن هم حول مايتا، في السيارة المزدحمة التي لا يكادون يستطيعون التحرك فيها. لم يتوقف الفتى عن تبادل المعانقات وإطلاق الهاتفات. وكان كوندوري يراقبهم بتحفظ، دون أن يشارك في الحماس. وبقي مايتا صامتاً. ولكن تلك السعادة والحماس كانوا يهزانه. وقد كان هناك في سيارة التكسي الأخرى مشهد مماثل دون شك.

ولكنه كان في الوقت ذاته متبعاً إلى عصبية السائق، وقفماً للرعونة التي يقود بها السيارة. لقد كانت السيارة تتقدّم وتتهازّ، وكان السيد أوناكا يدخل في كل الحضر وبهجم على كل الأحجار ويبدو مصمماً على صدم كل الكلاب أو الحمير أو الخيول أو الأشخاص الذين يمر بهم. أهو الخوف أم أنه تكتيك مدبر؟ أكان يهينهم لما حدث بعد ذلك؟ عندما خرجت السيارة فجأة عن الطريق، وهم على بعد بضع مئات من الأمتار فقط عن خاوحا، وأصطدمت بحاجز حجري محاذ للمنخفض، فسحقت واقية العجلات، وجعلت الركاب يرتطمون ببعضهم البعض وبال أبواب والزجاج، وظنوا أن السيد أوناكا قد فعل ذلك متعمداً.

أنبوه، وشتموه، ووجه إليه كوندوري لکمة شقت حاجبه. ولدى الخروج من السيارة، شمّ مايتا شذى أكاليبتوس يحمله نسيم بارد

من الجبال المجاورة. وكانت سيارة بابيغوس تقترب منهم متراجعة وهي تشير سحابة من الغبار المائل إلى الحمراء.

- تلك المزحة كلفتا تبديد ربع ساعة، وربما أكثر. - يقول لي خوان روساس المقاول، وسائق الشاحنة، وصاحب قطعة أرض لزراعة الفول ودرنات الأويوكو، والذي يُمضي الآن فترة نقاوه في بيت صهره في وسط خاوخا بعد عملية فتاق أجريت له. - انتظرنا مرور سيارة أخرى لتحل محل سيارة الصيني. ولكن لم يمر ولا حتى حمار. إنه سوء حظ صافٍ، لأن ذلك الطريق لا يخلو عادة من الشاحنات الذهابية إلى مولينوس أو كيرو أو بوينا بيستا. أما في ذلك اليوم، فلا شيء. فقال مايتا لبابيغوس: «واصل التقدم مع جماعتك. - وكنت أنا في تلك الجماعة - واشتري الخيول». لأن أحداً لم يعد يعتقد بأننا سنجد رجال ريكران ينتظروننا في كيرو. ولم يوافق بابيغوس على ذلك، وبقينا جميعنا. وأخيراً ظهرت شاحنة. كانت جديدة تقريباً، وخزانها ممتلئ بالوقود، وإطاراتها متجددة. لحسن الحظ. أوقفناها، وجرى جدل، فالسائق لم يوافق، وكان علينا أن نخيفه. وأخيراً صادرنا الشاحنة. جلس الملازم وكوندورى وغونثاليس في المقدمة. وتسلق مايتا إلى القسم الخلفي مع العامة، أي معنا، ومع كل البنادق. كان الانتظار قد ألقانا، ولكننا ما إن انطلقنا حتى عدنا من جديد إلى الغماء.

كانت السيارة تتراقص في الدرب الممتلئ بالحفر بينما الفتياش بشعورهم المشعثة وقبضاتهم المرفوعة يطلقون الهتافات بحياة البيرو والثورة الاشتراكية. وكان مايتا يجلس على حافة صندوق الشاحنة، ينظر إليهم. وفجأة خطر له أن يقول:

- ولماذا لا ننشد النشيد الأممي يا رفاق؟

وافتقت الوجوه الصغيرة المعرفة بغيار الطريق، وقال بعضهم:
«أجل، أجل، فلننشده». ثم فهم الوضع في الحال: ليس هناك بينهم من يعرف الكلمات، أو من سمع من قبل بالنشيد الأممي. لقد كانوا هناك، تحت سماء سلسلة الجبال النقية، بزيم المدرسي المبعد، ينظرون إليه وينظرون إلى بعضهم بعضاً، وكل واحد منهم يتمنى أن يبدأ الآخرون الغناء. أحس بدفقة حنان تجاه الصبيان السبعة. ما زالت أمامهم سنوات ليصبحوا رجالاً، ولكنهم تخرجوا كثوريين. إنهم يجاذفون بكل شيء في هذا اللاوعي الرائع لسنوات عمرهم الخمس عشرة أو الست عشرة أو السبع عشرة، بالرغم من أنهم يفتقرن إلى التجربة السياسية ولأي شكل من أشكال التكوين الأيديولوجي. أوليسوا أئمّن من ثوريٍّ حـ عـ ثـ (تـ) المجريين الذين بقوا هناك في ليمـا، أو من مدعـيـ المعرفـةـ الـدـكـتورـ أوـ بـيـسـوـثـ وـفـرـقـهـ العـمـالـيـةـ الـفـلاـحـيـةـ الـتـيـ تـبـخـرـتـ صـبـاحـ هـذـاـ الـيـوـمـ باـلـذـاتـ؟ـ أـجـلـ،ـ فـقـدـ اـخـتـارـوـاـ الـمـارـسـةـ الـعـمـلـيـةـ.ـ وأـحـسـ بـرـغـبـةـ فـيـ معـانـقـتـهـمـ.

— أنا سأعلمكم كلمات النشيد — قال وهو ينهض في الشاحنة المتأرجحة .. فلنغن، غنو معـيـ.ـ يـحـياـ قـرـاءـ الـعـالـمـ ...
صارخـونـ،ـ زـاعـقـونـ،ـ هـائـجـونـ،ـ منـفـجـرـونـ بـالـضـحـكـ لـلـأـخـطـاءـ
وـالـنـشـازـ،ـ مـحـيـيـنـ بـالـقـبـضـةـ الـيـسـرىـ الـمـرـفـوعـةـ عـالـىـ،ـ وـهـاتـفـيـنـ لـلـثـورـةـ،ـ
وـالـاشـتـراكـيـةـ،ـ وـالـبـيـرـوـ،ـ رـأـىـ مـرـورـهـ الـبـغـالـوـنـ وـالـفـلاـحـوـنـ فـيـ
الـمـنـاطـقـ الـمـحـيـطـةـ بـخـاـوـخـاـ،ـ وـالـمـسـافـرـوـنـ الـقـلـيلـوـنـ الـذـيـنـ كـانـوـنـ يـنـزـلـوـنـ
نـحـوـ الـمـدـيـنـةـ مـاـ بـيـنـ شـلـالـاتـ وـأـشـجـارـ تـشـاغـوـالـ وـارـفةـ،ـ عـبـرـذـلـكـ

الاختناق الصخري الرطب الذي ينزل من كيرو إلى عاصمة المقاطعة. حاولوا إنشاد النشيد الأممي لوقت لا بأس به، ولكنهم لم يتمكنوا من التقاط الإيقاع الموسيقي بسبب سمع مايتا. وأخيراً تخلوا عن ذلك. وانتهى بهم الأمر إلى ترتيل النشيد الوطني ونشيد مدرسة سان خوسيه دي خاواخا الوطنية. وهكذا وصلوا إلى جسر مولينوس. ولكن الشاحنة لم تتوقف. فأوقفها مايتا بالطرق على سطح قمرة القيادة.

- ماذا هناك؟ - قال باييخوس وهو يطل برأسه من الباب الموارب.

- ألم يكن علينا أن ننسف هذا الجسر؟

فقال الملازم بإيماءة كوميدية:

- أنسفه بأيديينا؟ لقد بقي الديناميت مع أوببيوث. وتذكر مايتا أن باييخوس كان يصر في كل المحادثات التي جرت على ضرورة نسف الجسر؛ فبقطعه يتوجب على رجال الشرطة أن يصعدوا إلى كيرو مشياً على الأقدام أو على الخيول، مما سيوفر لهم مزيداً من الفرص.

- لا تقلق. إننا متقدمون كفاية - طمأنه باييخوس. - واصلوا الغناء، لأنه يبهج الرحلة.

انطلقت الشاحنة من جديد، وعاد الفتيان السبعة إلى أناشيدهم ومداعباتهم. ولكن مايتا لم يشاركهم. جلس على سطح قمرة القيادة، وبينما كان يرى مرور مشهد الأشجار الضخمة، سمع خرير الشلالات وتغريد عصافير الخيلغويرو ، وأحس بالهواء النقي يملأ رئتيه بالأوكسجين. المرتفعات لم تعد تزعجه. وعلى

هددهة سعادة أولئك المراهقين، بدأ يتخيل: كيف ستصبح البيرو خلال بضع سنوات؟ ستكون مثل خلية نحل تعج بالشغل، وستتعكس، على مستوى البلاد، أجواء هذه الشاحنة المهترزة بمثالية هؤلاء الفتىـان. فمثـهم سيـشعر الفلاحـون الذين سيـصـبحـون أسيـاد أرـضـهمـ، والـعـمالـ الـذـينـ سـيـكـوـنـونـ سـادـةـ مـصـانـعـهمـ، والـمـوـظـفـونـ الـذـينـ سـيـعـونـ بـأـنـهـمـ يـخـدـمـونـ الـجـمـعـمـ كـلـهـ وـلـيـسـ الإـمـبـرـيـاـلـيـةـ وـلـاـ المـلـيـونـيـرـيـنـ وـلـاـ الزـعـمـاءـ أوـ الأـحـزـابـ الـمـلـحـلـيـةـ. وـبـإـلـفـاءـ أـشـكـالـ التـمـيـزـ وـالـاسـتـغـلالـ، وـتـرـسـيـخـ دـعـائـمـ الـمـساـواـةـ بـإـلـفـاءـ الـورـاثـةـ، وـاسـتـبـدـالـ الجـيـشـ الـكـلاـسيـكـيـ بـالـمـيـلـيـشـياتـ الـشـعـبـيـةـ، وـتـأـمـيمـ الـمـدـارـسـ الـخـاصـةـ وـمـصـادـرـ كـلـ الـشـرـكـاتـ وـالـمـصـارـفـ وـالـمـتـاجـرـ وـالـعـقـارـاتـ الـمـدـيـنـيـةـ، سـيـشـعـرـ مـلـيـينـ الـبـيـرـوـيـنـ بـأـنـهـمـ يـتـقـدـمـونـ حـقـاـ، وـأـشـدـهـمـ فـقـرـاـ أـوـلـاـ وـقـبـلـ الـجـمـيـعـ. وـسـيـشـفـلـ الـوـظـائـفـ الـعـامـةـ منـ يـبـذـلـونـ جـهـداـ أـكـبـرـ، وـمـنـ هـمـ أـكـثـرـ مـوـهـبـةـ وـثـورـيـةـ، وـلـيـسـ مـنـ هـمـ أـكـثـرـ ثـرـاءـ وـأـوـسـعـ اـتـصـالـاتـ، وـفـيـ كـلـ يـوـمـ سـتـضـيـقـ أـكـثـرـ فـأـكـثـرـ الـهـوـةـ الـتـيـ تـقـصـلـ مـاـ بـيـنـ الـبـرـولـيـتـارـيـنـ وـالـبـرـجـواـزـيـنـ، وـمـاـ بـيـنـ الـبـيـضـ وـالـهـنـودـ وـالـزـنـوجـ وـالـآـسـيـوـيـنـ، وـمـاـ بـيـنـ السـاحـلـيـنـ وـالـجـبـلـيـنـ وـسـكـانـ مـنـطـقـةـ الـأـدـغـالـ، وـمـاـ بـيـنـ النـاطـقـيـنـ بـالـإـسـبـانـيـةـ وـالـنـاطـقـيـنـ بـالـكـيـتـشـوـ، وـسـيـشـارـكـ الـجـمـيـعـ، باـسـتـثـاءـ الـجـمـاعـةـ الصـفـيـرـةـ التـافـهـةـ مـمـنـ هـرـبـواـ إـلـىـ الـوـلـاـيـاتـ الـمـتـحـدـةـ أـوـ مـمـنـ مـاتـواـ وـهـمـ يـدـافـعـونـ عـنـ اـمـتـياـزـهـمـ، سـيـشـارـكـوـنـ فـيـ الـجـهـدـ الـإـنـتـاجـيـ الـعـظـيمـ مـنـ أـجـلـ تـطـوـيرـ الـبـلـادـ وـالـقـضـاءـ عـلـىـ الـأـمـيـةـ وـالـمـرـكـزـيـةـ الـخـانـقـةـ. وـسـتـأـخـذـ ضـبـابـيـةـ الـدـيـنـ بـالـانـقـشـاعـ مـعـ التـامـيـيـ المـنـهـجـيـ لـلـعـلـمـ. وـسـتـحـوـلـ الـمـحـالـسـ الـعـمـالـيـةـ الـفـلـاحـيـةـ عـلـىـ مـسـتـوـيـ الـمـصـانـعـ وـالـمـزارـعـ الـجـمـاعـيـةـ وـالـوزـارـاتـ

دون النمو غير المحسوب وما يتبعه من تبلور بيروقراطية تجمد الثورة وتبدأ بمصادرتها لصلحتها الخاصة. ما الذي سيفعله هو في ذلك المجتمع الجديد إذا ما قيض له أن يبقى على قيد الحياة؟ لن يقبل أي منصب مهم، لن يقبل وزارة ولا قيادة عسكرية ولا منصباً دبلوماسياً. وإنما سيوافق في أبعد الحدود على تولي مسؤولية سياسية، في القاعدة، وربما في الريف، في مزرعة جماعية في جبال الأنديز أو مشروع إعمار في منطقة الأمازون. وستبدأ بالاختفاء شيئاً فشيئاً الأحكام المسبقة الاجتماعية والأخلاقية والجنسية، وفي بوتقة العمل والإيمان بالمستقبل تلك التي ستتحول إليها بيرو، لن يهتم به أحد إذا ما عاش مع أناتوليو - ذلك أنهما سيكونان قد تصالحا - وسيكون واضحًا تقريرًا أنهم متحابان ومستمتعان كل منهما مع الآخر، على انفراد، ومحترران من النظارات الفضولية، مع بعض التكتم اللازم. وليس مقدمة سرواله خفية بقبضة سلاحه. إنه لأمر بديع، أليس كذلك يا مaita؟ بديع جداً. ولكن، كم يبدو بعيداً...

الفصل التاسع

قرية كيرو هي واحدة من أقدم قرى خونين، وهي مثلاً كانت قبل خمس وعشرين سنة، ومثلاً كانت منذ قرون، تزرع البطاطا، والأويكا، والفول والكوكا وترعى مواشيهَا في القمم التي يتم الصعود إليها من خواخا عبر درب شديد الوعورة. فإذا لم تكن الأمطار قد غمرت الطريق بمستنقعات، فإن الرحلة تستغرق نحو ساعتين. الحفر والمطبات تحول الشاحنة إلى بغلة شرسّة، ولكن المشهد يعيش عن ذلك: فج صخري ضيق، تحيط به جبال توائم، موازية لنهر مزيد متواذب يسمى أولاً مولينوس، ثم يصبح اسمه كيرو بالقرب من القرية. أشجار كينغوالى ذات أغصان وارفة وأوراق تجعلها رطوبة النهار أشد خضرّة تخطّط الطريق نحو القرية الصغيرة المتطاولة التي دخلناها عند الضحى.

لقد سمعتُ في خواخا روايات متناقضّة حول ما سأجده في كيرو. إنها في منطقة متأثرة مباشرة بالحرب التي شهدت في هذه السنوات اغتيالات وإعدامات متواصلة، وعمليات تمدد سواء من جانب المتمردين أو من جانب القوى المناهضة للتمرد. فكيرو حسب قول البعض تخضع لسيطرة الثوار الذين حصنوا الساحة. بينما يقول آخرون إن الجيش قد نشر فيها كتيبة مدفعة، بل وأقام فيها كذلك معسكراً للتدريب يعمل فيه مستشارون أمريكيون

شماليون. وقد أكد لي أحدهم بأنهم لن يسمحوا لي مطلقاً بالدخول إلى كيرو، لأن الجيش يستخدم المكان كمعسكر اعتقال ومركز تعذيب. «إنهم يأخذون إلى هناك المعتقلين من كل أنحاء وادي مانتارو لإجبارهم على الكلام باستخدام أكثر أساليب التعذيب تطوراً، ومن هناك تتطلق بهم طائرات الهليكوبتر، بعد عصرهم بالتعذيب، لتلقي بهم أحياء في الأدغال، ليكونوا عبرة للحمر الذين هم، حسب تقديرهم، ينظرون من أسفل». إنها خرافات. فليس هناك في كيرو أي أثر للمتمردين أو الجنود. ولم يفاجئني كذلك هذا التكذيب الواقعي الجديد للإشعارات: فالمعلومات في البلاد لم تعد أمراً موضوعياً، بل تحولت إلى خيال، سواء في الصحف والإذاعة والتلفزيون أو في أفواه الناس. «الإعلام» بيننا الآن صار يعني تفسير الواقع وفق الرغبات والمخاوف والمصالح، إنه شيء يصبو إلى ملء الجهل حول ما يجري، ونحن نقبله في دخيلتنا كأمر نهائي ولا مفر منه. وحيث إنه من المستحيل معرفة ما يجري حقاً، فإن البيروفيين يكذبون، يختلقون، يحلمون، يتلجون إلى الوهم. لقد تحولت الحياة في البيرو، حيث قلة هم الذين يقرؤون، إلى حياة أدبية عبر أقل الدروب توقعاً. فكيرو الواقع التي أطأها الآن لا تتفق مع الروايات المتخيلة التي سمعتها عنها. فليس هناك من أثر للحرب أو للمقاتلين من هذا الفريق أو ذاك. لماذا القرية مقفرة هكذا؟ يفترض أن يكون جميع الرجال الذين هم في سن مناسبة للقتال قد انضموا إلى الجيش أو إلى حرب العصابات، ولكن ليس هناك من وجود حتى للشيوخ والأطفال. لا بد أنهم يعملون في الحقول أو أنهم في بيوتهم؛ لا شك في أن كل غريب يأتي يخيفهم. وبينما

أنا أجتاز الكنيسة الصغيرة المشيدة في عام 1946، ببرجهما الحجري وسقفها القرميدي، وعرشة الساحة المستديرة المحاطة بأشجار سرو وأكاليبتوس، أحس بأنها قرية شبحية. أتكون هذه هي صورة كيرو التي وصلها الثوبيون في ذلك اليوم؟

- كانت هناك شمس مشرقة، وكانت الساحة تغص بالناس بسبب العمل العام - يؤكد لي ذلك دون أوخينيو فيرناندث كريستوبال، وهو يشير بعказه إلى السماء المشحونة بغيمون رمادية: - وكنتُ أقف هنا، في هذه الفسحة. وقد ظهروا من تلك الناصية. في مثل هذه الساعة تقريباً.

كان دون أوخينيو في ذلك الحين يشغل وظيفة قاضي سلام كيرو. وهو الآن متلازد. والأمر العجيب هو أنه، بعد الأحداث التي كان متورطاً فيها حتى الرقبة - على الأقل منذ مجيء بايخوس ومايتا وكوندوري وثينون غونثاليس ومعيthem من الأطفال السبعة -، قد عاد إلى ممارسة مهماته القضائية وعاش عدة سنوات في كيرو إلى أن بلغ سن التقاعد. إنه يسكن الآن في محيط خاوخا. وهو لم يضطرني إلى التوسل إليه من أجل مرافقتني، على الرغم من الإشاعات الكارثية حول أوضاع المنطقة. بل قال لي: «لقد كنتَ محباً للمغامرات على الدوام». وهو لم يضطرني إلى التوسل كذلك من أجل الإشارة إلى ذكرياته عن ذلك اليوم، أهم يوم في حياته المديدة. إنه يجب على أسئلتي بسرعة وبثقة تامة، حتى في التفاصيل التافهة. وهو لا يبدي التردد، ولا التناقض، ولا يترك خيوطاً مفلترة يمكن لها أن توقع الشكوك حول ذاكرته. وهذه ليست بالتأثير الضئيلة لثمانيني لا يراودني أدنى شك كذلك في

أنه يخفي أو يحرّف أشياء مهمة. ماذا كان دوره بالضبط في تلك المغامرة؟ لا أحد يعرف ذلك بصورة مؤكدة. وهل يعرف هو نفسه ذلك أم أنه انتهى إلى الاقتتال أيضاً بالرواية التي صاغها هو نفسه؟

- لم يلفت وصولهم انتباхи، لأنه لم يكن مستغرباً مجيء شاحنات إلى كيرو محملة بأناس من خواوها. نزلوا هناك، بالقرب من بيت تاديyo كانتشيس. وسألوا أين يمكنهم أن يأكلوا. لقد كانوا جائعين جداً.

- أولم يلفت انتباھك أنهم مسلحون يا دون أوخيينيو؟ وأنهم أحضروا معهم في الشاحنة أسلحة كثيرة، فضلاً عن أن كل واحد منهم يحمل بندقية؟

- سألهما عما إذا كانوا ذاهبين إلى الصيد - يرد على دون أوخيينيو: لأن هذا الوقت غير مناسب لصيد الغزلان أيها الملائم. ويقول إن باييغوس قد قال له:

- نحن ذاهبون للتدريب على الرماية أيها القاضي. هناك في الأعلى، في البامبا.

ويتسائل دون أوخيينيو:

- ألم يكن من الطبيعي أن يأتي بعض فتيان مدرسة سان خوسيه لإجراء تدريبات حربية؟ أليس لديهم دروس في التدريب العسكري؟ أليس الملائم عسكرياً؟ وقد بدا لي الجواب أكثر من مُرضٍ.

- أتريد أن أخبرك أمراً؟ حتى هنا لم أكن قد فقدت الأمل.

فابتسم باييغوس:

- الأمل بأن يكون رجال ريكاران بانتظارنا هنا على خيولهم؟

- وكذلك الأفطس أوبيو و المنجميون - اعترف مايتا .. أجل ،
لم أكن قد فقدت الأمل.

كان يتفحص مرة بعد أخرى ساحة كيرو الصغيرة الخضراء
كمالاً لو أنه يريد ، بقوة الإرادة ، أن يجسد الفائبين . كان جبينه
مقطباً و فمه يرتعش . وبعيداً عنه بعض الشيء كان كوندورى
وغونثاليس يتبدلان الحديث مع جماعة من الفلاحين . أما الفتيا ن
فبقوا إلى جانب الشاحنة لحراسة البنا دق .

- لقد غرسوا الخنجر في ظهرنا إذن . - أضاف ذلك بصوت لا
يكاد يكون مسموعاً .

قال قاضي السلام بجانبه :

- إلا إذا كان هناك عائق آخر لهم في الطريق .

وقال مايتا :

- ليست هناك أي عقبات ، إنهم غير موجودين لأنهم لم يشاوروا
المجيء . ولم يكن علينا انتظار شيء آخر منهم أيضاً . لماذا نضيع
الوقت في التحسر . لم يحضروا وكفى ، ما أهمية ذلك .

- هذا الكلام يعجبني - ربت بايغوس على كتفه . - فمن
الأفضل أن نكون وحدنا من أن نكون مع رفاق سوء ، اللعنة .

بذل مايتا جهداً . لا بد من تجاوز هذا القنوط . يجب البدء
بالعمل . من أجل الحصول على البهائم ، وشراء المؤن ، ومواصلة
الطريق . فكرة واحدة يجب أن تكون في الرأس يامايتا : اجتياز
سلسلة الجبال والوصول إلى أوتشوبامبا . حين يصلون إلى هناك
سيكونون في أمان ، وسيتمكنون من تعزيز كواردهم ، ومراجعة
إستراتيجيتهم بهدوء . لقد كان دوار المرتفعات قد تلاشى حين كان

جالساً دون حراك في الشاحنة، ولكنه عندما بدأ التحرك الآن في كيرو، عاد يشعر بالضغط في الصدغين، وبالتسارع في القلب، وبعدم الاستقرار والدوار. حاول إخفاء ذلك وهو يجوب بيوت كيرو ما بين باييغوس وقاضي السلام، للقصي عنمن يمكنه أن يؤجرهم بعض الدواب. أما كوندورى وثينون غونثاليس اللذان كان لهما معارف في القرية، فذهبا ليوصيا على بعض الطعام ولشراء المؤن. نقداً بالطبع.

كان عليه أن يعقد اجتماعاً دعائياً هنا، لكي يشرح عملية التمرد لل فلاحين. ولكنها استبعد الفكرة دون الحاجة إلى تبادل أي كلمة حول الموضوع مع باييغوس. فهو لا يريد تذكير الملازم بهذا الأمر بعد الإخفاق الذي لقيه في الصباح. لماذا هذا القنوط؟ لم تكن هناك وسيلة ليزيحه عن كاهله. كانت بهجة الطريق قد حررته من التفكير. وها هو يعود الآن، مرة بعد أخرى، إلى التفكير في وضعهم: أربعة راشدين وسبعة مراهقين مصرین على السير قدماً في تنفيذ خطط تهار في كل خطوة. هذه انهزامية يا مایتا، وهي طريق الإخفاق. يجب أن تكون مثل آلة، تذكر ذلك. ابتسم وأبدى وجهه امارات فهم ما يقوله بالكيتشوا قاضي السلام والمرأة صاحبة البيت الذي توقفوا أمامه. كان عليه أن يتعلم الكيتشوا قبل الفرنسية.

يعب دون أوخينيو نفساً أخيراً من عقب سيجارته ويقول:
- لقد أصرروا على البقاء وقتاً طويلاً هنا. كم من الوقت؟ ساعتان على الأقل. وصلوا في حوالي الساعة العاشرة وغادروا بعد منتصف النهار.

كان عليه أن يقول «غادرنا». أ ولم يذهب معهم؟ ولكن دون أوخينيو، وعلى الرغم من تجاوزه الثمانين، لا يقترب مطلقاً أدنى زلة لسان يمكن أن تؤدي بأنه كان متورطاً مع المتمردين. إننا تحت العريشة في الساحة، يحاصرنا مطر متواصل تسکبه على القرية السحب الرصاصية المدببة. وابل كثيف وسريع، تلاه قوس قزح بديع. عندما تصحو السماء، يتواصل هطول مطر خفيف، غير مرئي، أشبه برذاذ ليما يُلمع أعشاش ساحة كيرو الصغيرة. وشيئاً فشيئاً ينبعث الفلاحون الذين مازالوا يعيشون في القرية. يطأطئون من البيوت، مثل صور غير واقية: هنديات ضائعات تحت تنانيرهن المتعددة، صبية يضعون قبعات، فلااحون عريقون جداً ينتعلون الصنادل. يقتربون ليحيوا دون أوخينيو، ويعانقوه. ويبتعد بعضهم بعد أن يتداولوا بعض كلمات معه، ويبقى آخرون معنا. يسمعونه يتذكر ذلك الحدث بعيد، فيهزون رؤوسهم أحياناً بصورة طفيفة؛ ويدلون في أحياناً أخرى بتعليقات قصيرة. ولكن عند محاولة الاستفسار عن أمر حول الوضع الحالي، يلزمون جميعهم الصمت المطبق. أو أنهم يعمدون إلى الكذب: لم يروا جنوداً ولا رجال حرب عصابات، ولا يعرفون شيئاً عن الحرب. وعلى حد تقديرني، ليس هناك بينهم أي رجل أو امرأة في سن مناسبة للقتال. أما قاضي سلام كيرو السابق، بصدريته المشدودة جيداً، وقبعته القماشية الغاطسة حتى عينيه، وكففي ستنته اللامعة والواسعة كثيراً، فيبدو مثل شخصية من الحكايات، مثل جني أفرزته هذه الجبال الأنديزية. لصوته رنة معدنية، وكأنه يخرج من نفق منجمي.

- لماذا تأخرتوا طويلاً في كيرو؟ - يتساءل، وإبهاماه محشوران

في عروتي الصدرية وهو يتأمل السماء وكأن الجواب على سؤاله موجود في السحب .. لأنه لم يكن من السهل عليهم الحصول على الدواب. فالناس هنا لا يمكنهم التخلص عن وسيلة عملهم. لا أحد يريد تأجير البهائم، حتى ولو عرضت عليهم مبالغ جيدة. وأخيراً أقنعوا دونيا تيوفراسيا؟ - تسمع دمدمه وعبارات بالكتيشوا، وترسم النساء إشارة الصليب .. آه، ماتت. في القصف؟ لقد كان رجال حرب العصابات هنا إذن يا أماه. كانوا قد ذهبوا؟ هل مات كثيرون؟ ولماذا أعدمت الميليشيا ابن دونيا تيوفراسيا؟

وبفضل هوامش دون أوخينيو بالاسبانية على حواره بالكتيشوا مع الفلاحين أخذت أفهم الحدث الذي يدخله الحاضر على قصة مايتا. لقد كان رجال حرب العصابات في كيرو وقد «أعدموا» عدة أشخاص، من بينهم ابن دونيا تيوفراسيا. ولكنهم غادروا عندما حلقت طائرة فوق القرية، وأطلقت زخات من الرصاص. وبين الضحايا سقطت دونيا تيوفراسيا التي خرجت لترى ما يحدث عندما سمعت صوت الطائرة. لقد ماتت عند بوابة الكنيسة.

- أي أن تلك المسكونة قد انتهت نهاية سيئة - يعلق دون أوخينيو .. لقد كانت تعيش في هذا الزقاق. وكانت حدباء وساحرة إلى حد ما، مثلما تقول الإشاعات. حسن، هي التي وافقت على تأجيرهم الدواب، بعد أن توسلوا إليها. ولكن بهائمها كانت في الحقل وبينما ذهبت لإحضارها انقضت أكثر من ساعة. وقد أخرهم الطعام من جهة أخرى. لقد قلت لك من قبل إنهم كانوا جائعين، فأوصوا بإعداد الغداء عند خيرتروديس سابوياكو التي كان لديها مطعمها الصغير، وكانت توفر مكاناً من يريده النوم.

- لقد كانوا مطمئنين تماماً إذن.

ووافق دون أوخينيو:

- لم يكن قد تبقى سوى وقت قصير لكي تنقض عليهم

الشرطه بينما هم منهمكون في توزيع مرق الدجاجة.

هذا التركيب للوقت واضح جداً فالجميع متافقون: قبل ساعة

من وقوع الأحداث، كانت حافلة هوانكا يو تصل إلى خاواخا

محملة بفرقة من الحرس الأهلي بقيادة ملازم أول لقيه سيلفا

وعريف يدعى ليتما. توافروا وقت قصير جداً في المدينة لكي

يجدوا دليلاً يرشدهم في الجبال ولكي ينضم إليهم الملازم الأول

دونغو والحراس الآخرون الذين تحت أمرته. وبدأت المطاردة فوراً.

- وكيف ذهبت أنت معهم يا دكتور ثيتو؟ - أسأله وأنا أضع

راحتي حول فمي، لأرى إذا كان سيرمش.

حاول الملازم باييخوس أن يبقيه في كيرو. وأيده مايتا في

ذلك: فهم بحاجة إلى أحد يكون جسر اتصال ما بين الريف

والمدينة، وخصوصاً بعد الذي حدث؛ إنهم بحاجة إلى إقامة

شبكات للمساعدة، ولتجنيد الناس، والحصول على معلومات.

وكان هو الشخص المناسب لهذه المهمة. ولكن محاولتهما لم تثمر.

وتحولت أوامر باييخوس وحجج مايتا إلى هشيم أمام إصرار

القاضي: لا يا سادة، إنه ليس مجنوناً، فهو لن يبقى هنا ليستقبل

الشرطه ويدفع ثمن الأطباق المحطمة. بل سيذهب معهم في كل

الأحوال. وما بدأ كتبادل للأراء تحول إلى جدال. وارتفع صوتاً

باييخوس وقاضي السلام، وفي الحجرة الظليلة المشبعة برائحة

الدهن والثوم، انتبه مايتا إلى أن كوندوروي وثنينون غونزاليس

والفتیان قد توقفوا عن الأكل ليستمعوا. لم يكن من المناسب أن يتسم الجدال. فلديهم ما يكفي من المشاكل وهم قليلاً العدد جداً بحيث لا يمكن لهم الاختلاف فيما بينهم.

- ليس هناك ما يستحق مواصلة الجدال يا رفاق. إذا كان القاضي مصمماً إلى هذا الحد، فليأت معنا.

خشى أن يعارضه الملازم، ولكن بايغوس اختار التركيز على طبقه. وهذا حذوه القاضي، فانفوج الجو بعد قليل. كان بايغوس قد أوقف البريفادير كورديرو اسبينوشا على مرتفع ليراقب الطريق بينما هم يأكلون. طالت الاستراحة في كيرو، وبينما كان مايتا بعض قطع لحم الدجاج الملطخة بالباب، قال إنه من التهور التأخر على هذا النحو.

- علينا أن نغادر بسرعة.

وافق بايغوس وهو يلقي نظرة إلى ساعة معصميه. ولكنه واصل الأكل دون إسراع. وقد وجده على حق في دخلة نفسه. أجل، فكم هو ثقيل النهوض، شد الساقين، تتشيط العضلات، الاندفاع إلى الجبال، المشي. كم ساعة سيمشون؟ وماذا لو أغمي عليه بسبب دوار المرتفعات؟ سيحملونه على إحدى البهائم مثل كيس. لقد كان من المضحك المعاناة من دوار المرتفعات. وأحس كما لو أن دوار الجبال هو ترف غير مسموح به في الثورة. ومع ذلك، كان الإنهاك الجسدي حقيقياً جداً: ارتعاشات قشعريرة، ألم في الرأس، انحلال عام. وفوق كل ذلك، هذا القلب المدوى في صدره. أحس بالراحة حين رأى بايغوس وقاضي السلام يتبدلان الحديث بحماسة. كيف يمكن تفسير ذعر جماعة

ريكران؟ أتراهم قرروا عدم المجيء في اجتماع عقدوه يوم أمس بالذات؟ أتراهم تلقوا أمراً مخالفًا من الأفطس أوبيوث؟ سيكون توافقاً غريباً أن يتراجع أوبيوث، والنجميون، وجماعة ريكران كل منهم بقرار منفصل، ودون أن يبلغ الآخرين بذلك. وهل لهذا آية أهمية الآن يا مaita؟ ليس له آية أهمية. ولكنه سيكون ذا أهمية فيما بعد، عندما تراجع القصة الحسابات وتقر الحقيقة (ولكنني أعرف، أنا الذي أ مثل القصة في هذه الحالة، بأن الأمر ليس سهلاً، فالزمن لا يتكلف بإبراز الحقيقة على الدوام؛ وفي هذه القضية، في إلحاح اللحظة الأخيرة، ليست هناك طريقة لنعلم علم اليقين إذا ما كان المتخلفو عن الحضور قد انشقوا أم أنهم قد استبقوا الموعد المتقرر عليه أم أن كل شيء حدث بسبب عدم تنسيق في الأيام وال ساعات. وليس هناك طريقة لمعرفة ذلك لأن شخصيات الأحداث أنفسهم لا يعرفونه). ابتلع آخر لقمة ونظف يديه بمندبليه. لقد أخذت عنه عتمة الغرفة الذباب في أول الأمر، ولكنه الآن يراه: لقد كان الذباب يملأ الجدران والسقف، ويتمشى بوقاحة على أطباق الطعام وأصابع الآكلين. لا بد أن كل بيوت كيرو على هذا النحو: لا نور، ولا ماء شرب، ولا مغارير، ولا حمامات. والذباب والقمل وألف نوع من الحشرات تشكل جزءاً من الأثاث التافه، أصحاب وسادة الأواني المصنوعة من ثمار القرع، والجلود، والفراش الخشن المركون بجانب جدران الطين والقصب، وصور السيدة العذراء والقديسين المعلقة على الجدران. إذا ما أحسوا بالرغبة في التبول ليلاً، ولم يكن لديهم الحماس للنهوض والخروج خارجاً، فإنهم يتبولون هناك بالذات، إلى جوار

الفراش الذي ينامون عليه والموقد الذي يطبخون عليه. فالأرضية في نهاية المطاف ترابية، والتراب يمتص البول ولا يبقى منه أثر. والرائحة لا لهم كثيراً أيضاً لأنها تختفي، فهي تختلط بروائح القمامه والوساخة المتعددة التي تكون جو البيت وتزيدها كثافة. وماذا إذا ما رغبوا في التغوّط في منتصف الليل؟ أيجدون الحماسة للخروج إلى الظلام والبرد، إلى الريح والمطر؟ إنهم يتغوطون هناك أيضاً، مابين الفراش والموقد. عندما دخلوا، قامت صاحبة البيت، وهي هندية عجوز، ذات تجاعيد وغمص في عينيها، ولها جديتان تصفعن ظهرها حين تمشي، بزرب بعض أرانب الكويه التي كانت تتنقل في الغرفة، وراء الصندوق. هل تمام معها هذه الحيوانات، ملتصقة بجسدها الهرم بحثاً عن الدفء؟ كم من الشهور، كم من السنوات مضت دون أن تبدل هذه السيدة التنانير التي تلبسها والتي قد هرمـت معها، فوقها، دون ريب؟ منذ متى لم تقم بغسل كامل لجسدها، بالصابون؟ منذ شهور، سنوات؟ أتراها فعلت ذلك ولو مرة واحدة في حياتها؟ لقد تلاشـى توعك داء المرتفعات، وحلـت محلـه الكآبة. أجل يا مaita، في هذه القذارة، في هذا الهجران يعيش ملـايين البيروبيـن، ما بين البول والبراز، دون ضوء ودون ماء، يعيشـون هذه الحياة النباتية نفسها، هذا الروتين الذي يعيشهـ هذه المرأة التي لم يستطـع، على الرغم من جهودهما، أن يتـبادلـ معها إلا بضعـ كلمـات قـليلـة، إذـ أنـ قـشتـاليـتهاـ كانـتـ بدـائـيةـ جداـ. ألاـ يـكـفـيـ أنـ يـفـتحـ المرءـ عـينـيهـ قـليـلاـ لـكـيـ يـجـدـ مـبـراـ لماـ قـامـواـ بـهـ، وـماـ سـيـقـومـونـ بـهـ؟ـ عـندـماـ يـدرـكـ

البيرويون الذين يعيشون مثل هذه المرأة بأنهم يملكون القوة - لأنه يكفيهم أن يعوا قوتهم ويستخدموها - سينهار هرم الاستغلال والعبودية والرعب الذي تشكله البيرو مثل سقف منخور. عندما يدركون أنه بتمردتهم ستبدأ إنسانية حيواتهم غير الإنسانية، فإن الثورة ستصبح قوة لا تُهزم.

- جاهزون، فلننطلق - قال بايسخوس ذلك وهو ينهض واقفاً، وأضاف: - فلنحمل الأسلحة.

سارع الجميع في الخروج إلى الشارع. وأحس مايتا بالحماس من جديد، بالانتقال من الظلمة إلى النور. ذهب لمساعدة الفتىان الذين كانوا يخرجون البنادق من الشاحنة ويشتبونها على البغال. وكان الهندو ما يزالون يتاجرون في ساحة كيرو الصغيرة، غير مبالين بهم.

ويقول دون أوخينيyo باستغراب، مشفقاً على سذاجته وسرعة تصديقه:

- لقد أقنعني ببساط الطريق. فقد شرح لي الملازم بايسخوس أنه، إضافة إلى تدريب الفتىان، سيقوم بتسليم مزرعة آينا إلى قرية أوتشوباما. وهي القرية التي كان رئيسها، كما تذكر، كوندوري ونائب رئيسها ثينون غونثاليس. ولماذا لا أصدقه؟ فمنذ شهور كانت هناك مشاكل في آينا. وكان فلاحو أوتشوباما قد احتلوا جزءاً من أراضي المزرعة وكانوا يطالبون بها متعللين بسكوك من العهد الاستعماري. أولم يكن الملازم سلطة عسكرية في المقاطعة؟ فكان علي أن أقوم بواجبي، فلسبب ما كنت قاضياً يا سيدى. وهكذا رافقهم بطيبة نية، على الرغم من

أن المسيرة لم تكن مزاحاً - فقد كنت قد تجاوزت الستين آنذاك -.
ألم يكن ذلك هو أكثر التصرفات طبيعية في الدنيا؟
ولا أجد ما أقوله سوى ذلك، للطريقة الطبيعية التي يروي بها
الأمر. لقد طلعت الشمس. وبدا وجه دون أوخينيو متألقاً.
- يا للمفاجأة التي سيطرت عليك إذاً عندما بدأ تبادل إطلاق
الرصاص.

- كانت مفاجأة ربي ومولاي - يرد دون تردد - . لقد بدأ تبادل
إطلاق النار بعد وقت غير طويل من مغادرتنا، لدى دخولنا في
صَدْع هوايَاخاكو الصخري.

يفرك عينيه قليلاً - فقد كانت جفونه تتجمد وحاجبه
يتغضنان - فصارت نظراتهما سائلة. لا بد أن السبب في ذلك هو
وهج الشمس؛ لا يمكنني أن أصدق أن عيني قاضي سلام كيرو
السابق تدمعن حنيناً لما جرى في ذلك المساء، حتى ولو كان كل
شيء من الماضي، في مثل سنه، يوقظ مشاعر الحنين، بما في
ذلك أشد الأحداث إيلاماً.

ويمددم:

- لقد كانوا مستعجلين لدرجة أنني لم أتمكن من إعداد
حقيقة للضروريات التي لا بد منها. خرجت مثلما تراني الآن، بربطة
عنق، وصدرية وقبعة. انطلقنا في المسير وبعد ساعة أو ساعتين
ونصف بدأت الحفلة.

يطلق ضحكة، فيضحك على الفور كذلك الأشخاص الذين
يحيطون بنا. إنهم ستة: أربعة رجال وامرأتان، وجميعهم متقدمون
في السن. وهناك أيضاً عدة أطفال على شرفة العريشة الصدئة.

أسأل الشیوخ عما إذا كانوا موجودین عندما وصل رجال الشرطة. وبعد أن ينظروا بطرف أعينهم إلى القاضی، وكأنهم يطلبون منه الإذن بالكلام، يومئون مؤكدين وجودهم. فألحُّ وأنا أنظر إلى أكبر الفلاحين سناً: كيف حدث ذلك.. ما الذي جرى بعد ذهاب الثوريين. فيشير إلى زاوية الساحة حيث ينتهي الطريق: لقد جاؤوا من هناك. وكم كان عددهم؟ كانوا كثیرین. كم تعنى بكثیرین؟ ربما حوالي خمسين شرطیاً. ويتحمس الآخرون ويبدؤون بالتكلم أيضاً، وفي الحال يأخذون بمقارنة ذكرياتهم معاً. وأجد مشقة في متابعة خيط الكلام في تلك المتأهله التي تختلط فيها الكيتشوا بالإسبانية ويتدخل فيها فجأة الحدث الذي جرى قبل خمس وعشرين سنة مع القصف الذي وقع قبل أيام أو أسابيع - وهذا أمر غير واضح أيضاً - ومع «إعدامات» رجال حرب العصابات. وتجري في أذهان أولئك الشیوخ بالطبع مشارکة تکلفت جهداً غير قليل في فهمها ولا يراها إلا القليل من مواطنی. وما أخرج به في النهاية بوضوح هو أن الخمسين أو الستين شرطیاً كانوا يظنون أن المتمردين مازالوا مختبئین في کیرو، فقد أمضوا حوالي نصف ساعة في تفتيش القرية، يدخلون إلى البيوت ويخرجون منها، ويسألون هؤلاء وأولئك أين اختبؤوا. هل كانوا يسألون عن الثوريين؟ عن الشیوعیین؟ لا، لم يستخدموا هذه المفردات. بل كانوا يقولون عنهم: اللصوص، حرامیة الماشی، قطاع الطرق. أأنتم متأكدون من ذلك؟

- إنهم متأكدون بالطبع - يمثلهم دون أوخینیو في الرد - . يجب أن تتتبه إلى أنها كانت أزمنة أخرى، فمن سيخطر له أن تلك

كانت ثورة. وتذكر أيضاً أنهم كانوا قد سطوا على مصريين
قبل أن يغادروا خاوحا...

يضحك ويعودون جميعهم إلى الضحك. وهل وقع خلال نصف الساعة تلك التي أمضوها هنا أي حادث بين رجال الشرطة والفلاحين؟ لا، لم يقع أي حادث، فقد اقتصر الشرطيون هناك بالذات بأن «اللصوص» قد غادروا وأنه ليس لأهالي كيرو أي علاقة بهم، وأنهم لا يعرفون بما جرى في خاوحا. لقد كانت أزمنة أخرى، لا شك في ذلك: فرجال الشرطة لم يكونوا يعتبرون أي شخص يضع عباءة بونتشو وطاقة أو خوتا متواطئاً مع التمردين - ما لم يثبت العكس - . ولم يكن عالم الأنديز قد استقطب إلى الحدود الحالية حيث لم يعد بإمكان سكانه إلا أن يكونوا متواطئين مع التمردين أو متواطئين مع قامعيهم.

ويقول قاضي السلام، وقد صارت نظرته سائلة من جديد: - وفي أثناء ذلك، كنا نحن نبتل على أحسن ما يكون الحال. لقد انفلت وابل المطر بعد ربع ساعة من مغادرتهم كيرو. مطر قوي، قطراته كبيرة، تبدو للحظات وكأنها حبات بَرَّة. فكرروا في البحث عن ملجاً ريثما يتوقف المطر، ولكن لم يكن هناك مكان يأون إليه. وكان مايتا يقول: «كم تغير المشهد». وربما كان الوحيد الذي لم يكن وابل المطر يضايقه. كان الماء يسيل على بشرته، يتغلغل في شعره، ينزلق ما بين شفتيه ويدو له بلسمًا. ابتداء من تجاوز أراضي كيرو الزراعية، كانت الأرض انحداراً متواصلاً. ولم تكن للمشهد أية علاقة بذلك الذي يفصل ما بين خاوحا وكيرو، فكانوا كما لو أنهم قد انتقلوا إلى منطقة

أخرى، إلى بلد آخر. فقد اختفت أشجار الكينفوال الكثيفة، والنباتات العشبية، والطيور، وهدير الشلال، والأزهار البرية، وعيдан القصب المتمايلة إلى جانب الطريق. في هذا المنحدر الأجرد، حيث لا أثر لطريق، كان النبات الوحيد الذي يظهر بين حين وآخر هو نباتات صبار عملاقة، ذات أذرع ثخينة مغطاة بالشوك، لها شكل شمعدانات. صارت الأرض تميل إلى السواد وتحدب بأحجار وصخور ذات مظهر مشؤوم. وكانوا يتقدمون منقسمين إلى ثلاثة جماعات. البهائم والأسلحة في المقدمة، مع كوندورى وثلاثة فتیان. يليهم بقية الفتیان على بعد حوالي مئة متر، ومعهم ثینون غونثالیس كقائد للجماعة. ويختتم المسيرة، لتغطية الآخرين، كلُّ من الملازم ومايتا وقااضي السلام الذي كان يعرف كذلك الطريق إلى مزرعة آينا، ليدلهم إذا ما فقدوا الاتصال بالآخرين. ولكن مايتا مازال يرى الجماعتين الآخرين، هناك في المقدمة، في مكان أكثر ارتفاعاً، عند سفوح الجبال، إنما بقعتان تظهران وتختفيان حسب ارتفاع وانخفاض الأرض وكثافة المطر. لا بد أن الوقت هو منتصف ما بعد الظهر، مع أن السماء الرمادية توحى بالغروب. «كم الساعة؟» توجه بالسؤال إلى بایيخوس. «إنها الثانية والنصف.» وحين سمعه تذكر طرفة كان يتداولها تلاميذ مدرسة ساليسيانو حين يسألهم أحد عن الساعة. «عcriها واقف، انظر إليه» ويشيرون إلى سروالهم. ابتسם، وبسبب هذا السهو كاد أن يقع. وقال له بایيخوس: «وجه البندقية نحو أسفل، حتى لا يدخل إليها ماء كثير»، كان المطر قد أوحل الأرض فكان مايتا يحاول أن يدوس على الأحجار، ولكن تلك

الأحجار التي خلخلها وابل المطر كانت تتقلقل وتترزق بكثرة. وإلى جانبه بالمقابل، كان قاضي سلام كيرو - ضئيلاً، مستغرقاً في التفكير، قبعته مبللة، يغطي أنفه وفمه بمنديل ملون، وتبدو جزmetه الدهرية موحلة - يمشي في الوعورة الجبلية وكأنه يمشي على درب مستٍ. وبابا يخوس أيضاً كان يتقدم بيسر ويسقطهما بعض الشيء، بينما المسدس الرشاش يتدلّى من كتفه ورأسه منحن لكي يرى أين يضع قدميه. وكان طوال الوقت يسبق مايتا دون أوكينيو فيضطران إلى الركض قليلاً للحاق به. لم يتبدلاوا الكلام منذ خروجهم من كيرو تقريباً. لقد كان هدفهم هو الوصول إلى شعب جبلي يدعى «بيتا»، على السفح الشرقي، مناخه أكثر لطفاً. وكان كوندوري وشينون غونثاليس يريان أنه يمكن الوصول إلى هناك قبل الغروب إذا ما أسرعوا. إذ لم يكن من الملائم قضاء الليل في أعلى الجبال، حيث خطر الثلوج والعواصف. وبالرغم من الإرهاق، ومن إحساسه بالاضطراب بسبب المرتفعات أحياناً، إلا أن مايتا كان يشعر بالراحة. هل ستتقبله جبال الأنديز أخيراً بعد معاداتها له؟ أیكون قد تجاوز مرحلة التعميد؟ ولكنه على الرغم من ذلك، وعندما أشار بابا يخوس بعد قليل إلى أنه يمكنهم التوقف للراحة، ألقى بنفسه على الأرض الموحلة، مستخدماً. كان المطر قد توقف، والسماء بدأت تصفو ولم تعد تظهر لهم الجماعتان الآخريان. إنهمما في منخفض عميق، محاطين بجدران من الصخر تبرز منها خصل من أعشاب الإيتشو. جاء بابا يخوس للجلوس بجانبه وطلب منه مسدسه الرشاش، فتفحصه باهتمام، فاتحاً ومغلقاً الأمان. وأعاده إليه دون أن يقول

شيئاً ثم أشعل سيجارة. كان وجه الملازم الشاب ممتئاً بقطرات صغيرة، ورآه مايتا من وراء دفقة الدخان متوتراً بالقلق. فقال:

- أنت من لا يفقد التفاؤل أبداً.

فرد بايغوس وهو يمجد نفساً من السيجارة ويطلق الدخان من أنفه وفمه:

- ولم أفقده. كل ما هنالك...

- كل ما هنالك أن رأسك لا يتسع لما تحقق هذا الصباح - قال مايتا -. لقد فقدت الآن عذرتك السياسية حقاً. فالثورة أكثر تعقيداً من حكاية حوريات يا أخي.

- لا أريد التحدث بما حدث في الصباح - قاطعه بايغوس -. هناك أمور أكثر أهمية الآن.

سمعاً شخيراً. وكان قاضي السلام قد استلقى على ظهره على الأرض، واضعاً القبعة فوق وجهه، وبيدو أنه قد غفا.

نظر بايغوس إلى ساعته:

- إذا كانت حساباتي صحيحة، فلا بد أنهم قد بدؤوا الآن بالوصول إلى خاوحا. إننا نسبقهم بنحو أربع ساعات. ونحن في هذا القفر مثل إبرة في كومة قش. لقد صرنا خارج الخطر على ما أظن. حسن، فلنوقف القاضي ونواصل المسير.

ما كاد دون أوخينيو يسمع كلمات بايغوس الأخيرة حتى نهض واقفاً. واعتبر على الفور القبعة المبللة. ثم قال وهو يؤدي تحية عسكرية:

- أنا جاهز على الدوام يا سيدى الملازم. إننى بومه، أنام بعين واحدة فقط.

- يذهلني وجودك معنا أيها القاضي - قال مايتا -. ففي مثل سنك ووظيفتك، لديك أسبابك حقاً لتؤخني الحذر.

فأعترف قاضي السلام دون أي مواربة:

- بصراحة، لو أن أحداً كان قد أخبرني، فإنني كنت أنا أيضاً سأتبخر على الأغلب. ولكنهم لم يتذكروني، لقد أهملوني. فماذا تبقى لي، أنتظر هناك مجيء الشرطة لأكون نعجة التكفير؟ ولا بأي حال يا سادتي.

انفجر مايتا ضاحكاً. وكانوا قد عادوا إلى المسير وراحوا يتسلقون المنحدر منزقين، عندما رأى مايتا أن باييغوس يقف ساكناً، متلبداً. لقد كان يتلفت من جهة إلى أخرى ويصيخ السمع. وسمعه مايتا يقول بصوت خافت جداً:

- إطلاق نار.

- بل رعد يا رجل - قال مايتا -. أأنت متأكد من أنه إطلاق نار؟

وقال باييغوس وهو يبتعد:

- سأذهب لأرى من أين يأتي الصوت. ابقيا هادئين هنا.

- وهل صدقت الشرطة كل هذا الذي قلته يا دون أوخينيو؟

- لقد صدقوني بالطبع. أليست الحقيقة؟ ولكنهم قبل ذلك جعلوني أمر بوقت عصيب.

بينما إبهاماه في الصدرية ووجهه الداوى يتوجه نحو السماء، يخبرني - هناك الآن في عريشة كيرو حوالي عشرين شيخاً وطفلاً يحيطون بنا - بأنهم قد أوقفوه ثلاثة أيام في مفوضية خاوخا ثم أسبوعين في قيادة الحرس الأهلي في هوانكايو، وكانوا يطالبونه بأن يعترف بأنه متواطئ مع الثوريين. ولكنه عنيد بالطبع،

ولا يكل، فكان يكرر بأنه قد ذهب معهم مخدوعاً، معتقداً أنهم بحاجة إلى قاضي سلام من أجل تسليم مزرعة آينا لفلاحي أوتشوبامبا وأنهم كانوا يحملون الأسلحة من أجل تدريب الفتى عسكرياً. وكان عليهم أن يتقبلوا روایته، أجل يا سيدي: وبعد ثلاثة أسابيع رجع ثانية إلى كيرو ليمارس وظيفة قاضي السلام، نظيفاً من التراب والقش ولديه حكاية جيدة للسخرية. لقد صار الهواء جافاً الآن، وفي بيوت القرية، والأراضي، والجبال المجاورة، يلتقي اللون الأمفر والكلاسي والذهبي مع بعض الخضراء. ويقول دون أوخينيو متحسراً: «كم هو محزن مرأى هذه الأرضي شبه الميتة. كلها كانت فيما مضى أراض زراعية رائعة. يا للحرب اللعينة! إنها تقتل كيرو، وهذا غير عادل. ولو فكرنا فإن القرية قبل خمس وعشرين سنة كانت تبدو فقيرة. ولكن يمكن للأوضاع أن تسوء دوماً، فليس هناك من قرار للنكبات». لا أتركه يسهو في أمور الحاضر وأعيده إلى الماضي وإلى الخيال الروائي. وما الذي فعلته أنت خلال تبادل إطلاق الرصاص؟ وكم استمر إطلاق النار؟ وهل توصلت إلى الخروج من صدع هوايحاكوه؟ أخبرني بكل ما جرى منذ بدء إطلاق النار وحتى انتهائه دون أن تغفل عن أي تفصيل يا دون أوخينيو.

إنه إطلاق رصاص، لا شك في ذلك. كان مايتا يستند بإحدى ركبيه على الأرض، ويمسك بالمسدس الرشاش ويراقب في كل الاتجاهات. ولكن مجال رؤيته في المنخفض كان محدوداً إلى أدنى الحدود: يتوقف عند الأفق المسنن ببعض القمم. مر ظل يخفق بأجنحته. أ يكون نسر كوندور؟ لا يتذكر أنه رأى نسر كوندور

حياً، وإنما في صور فقط. انتبه إلى أن قاضي السلام يرسم إشارة الصليب، وإلى أنه أخذ يصلي وهو يغمض عينيه ويضم راحتيه. ثم سمع زخة رصاص آخر، من الاتجاه السابق نفسه. متى سيعود بـ**بـايـخـوس**؟ وكما لو أن الملازم قد استجاب لرغبتـهـ، فأطلـ فيـ تلكـ اللحظـةـ منـ فوقـ حـافـةـ المـرـتـقـعـ. ومنـ وـرـائـهـ بـرـزـ وجـهـ أحـدـ فـتـيـانـ الجـمـاعـةـ الـوـسـطـيـ: إنهـ بـيرـيكـوـ تـيمـوـتشـيـ. انـزلـقاـ علىـ السـفـحـ بـاتـجـاهـهـماـ. كـانـ وجـهـ تـيمـوـتشـيـ شـاحـباـ وـيدـاهـ وأـخـمـصـ بـنـدـقـيـتـهـ مـلـوـثـةـ بالـوـحـلـ، كـماـ لوـ أـنـ كـانـ قدـ وـقـعـ أـرـضاـ.

قال **بـايـخـوس**:

ـ إنـهـمـ يـطـلـقـونـ النـارـ عـلـىـ جـمـاعـةـ الطـلـيعـةـ. وـلـكـنـهـمـ بـعـيـدـوـنـ، فـالـجـمـاعـةـ الثـانـيـةـ لـمـ تـرـهـمـ.
ـ وـمـاـذـاـ سـنـفـعـ؟ـ قـالـ ماـيـتاـ.

ورد **بـايـخـوس** بـحمـاسـ:

ـ سـنـتـقدـمـ. فـالـجـمـاعـةـ الـأـلـيـةـ هـيـ الأـهـمـ، يـجـبـ إـنـقـاذـ تـلـكـ الأـسـلـحـةـ. سـنـحاـوـلـ مـنـاوـشـتـهـمـ وـإـلـهـاءـهـمـ رـيـثـماـ تـمـكـنـ جـمـاعـةـ الطـلـيعـةـ مـنـ الـابـتـاعـادـ. هـيـاـ بـناـ بـسـرـعـةـ. وـلـيـتـعـدـ كـلـ وـاحـدـ مـنـاـ مـسـافـةـ كـافـيةـ عـنـ الـآـخـرـ.

وـبـيـنـمـاـ هـمـ يـتـسلـقـونـ جـدارـ المـنـحدـرـ، تـسـاءـلـ ماـيـتاـ لـمـ يـخـطـرـ بـيـالـ أحدـ أـنـ يـعـطـيـ بـنـدـقـيـةـ لـدـونـ أـوـخـيـنـيوـ وـلـمـ يـخـطـرـ لـهـ هـوـ نـفـسـهـ أـنـ يـطـلـبـ وـاحـدـةـ. إـذـاـ مـاـ كـانـتـ هـنـاكـ ضـرـورةـ لـلـقـتـالـ، فـسـوـفـ يـواـجـهـ القـاضـيـ مـصـيـراـ أـسـوـدـ. لـمـ يـكـنـ يـشـعـرـ بـالـاضـطـرـابـ، وـلـاـ بـالـخـوـفـ. وـكـانـتـ قـدـ سـيـطـرـتـ عـلـيـهـ جـديـةـ عـظـيـمـةـ. لـمـ يـفـاجـأـ بـأـصـوـاتـ الرـصـاصـ. لـقـدـ كـانـ يـنـتـظـرـهـاـ مـنـذـ خـروـجـهـمـ مـنـ خـاوـخـاـ، إـذـ لـمـ

يُكَنْ مُقْتَعًا بِأَنَّهُمْ يَسْبِقُونَهُمْ بِوْقَتٍ طَوِيلٍ مُثْلِمًا يَقُولُ الْمَلَازِمْ. يَا لِحَمَّاقَةَ تَأْخِرُهُمْ فِي كِيرَوْ.

عِنْدَمَا أَصْبَحُوا فِي أَعْلَى الْمُنْحدِرِ، كَمْنَوْ لِلْمَراقبَةِ. لَمْ يَكُنْ يَظْهِرَ أَيْ شَيْءٍ: لَا شَيْءٌ سَوْيَ الْأَرْضِ الرَّمَادِيَّةِ الْمُتَعَرِّجَةِ، تَرْفَعُ دَوْمًا، مَعَ بَعْضِ الْأَجْمَاتِ وَالصَّخْورِ الطَّارِئَةِ، حِيثُ يَمْكُنُهُمْ، مُثْلِمًا فَكَرْ، أَنْ يَخْتَبِئُوا إِذَا مَا ظَهَرَ الْمَطَارِدُونَ مِنْ وَرَاءِ إِحْدَى الْقَمَمِ.

— احْتَمُوا بِالصَّخْورِ — قَالَ بَايِخُوسْ. وَكَانَ يَحْمِلُ مَسْدِسَهُ الرَّشَاشِ فِي يَدِهِ الْيُسْرَى وَيُشَيرُ لَهُمْ بِالْيَمْنَى أَنْ يَتَفَرَّقُوا أَكْثَرًا عَنْ بَعْضِهِمْ. كَانَ يَرْكَضُ تَقْرِيبًا وَهُوَ مِنْهُنْ، وَيَنْتَظِرُ فِيمَا حَوْلَهُ وَوَرَاءِهِ كَانَ يَمْضِي الْقَاضِي، وَبَعْدَهُ بِقَلِيلٍ مَا يَتَأْتِي وَبِرِيكُو تِيمُوتِشِي جَاثِيَنْ. لَمْ تَعْدْ تُسْمِعَ أَصْوَاتَ طَلَقَاتِ نَارِيَّةٍ. وَكَانَتِ السَّمَاءُ تَصْفُو: فَقَدْ صَارَتِ الْغَيْوَمُ أَقْلَى وَلَمْ تَعْدْ رَصَاصِيَّةُ الْلَّوْنِ وَحْبَلِيَّةُ بَعَاصِفَةٍ وَإِنَّمَا يَبْضَأُ وَاسْفَنْجِيَّةً. وَفَكَرَ: «يَا لِسُوءِ الْحَظِّ، مِنَ الْمَنَسِبِ الْآنَ أَنْ يَهْطِلَ الْمَطَرُ». رَاحَ يَتَقَدِّمُ مَصْفَيَا إِلَى قَلْبِهِ، وَهُوَ يَخْشِيُ أَنْ يَدَاهِمَهُ الْآنُ الْاِخْتَاقُ وَتَسْرُعُ النَّبْضِ وَالْإِنْهَاكِ. وَلَكِنْ لَا، إِنَّهُ يَشْعُرُ بِأَنَّهُ عَلَى مَا يَرَامُ بِالرَّغْمِ مِنْ بَعْضِ الْبَرْدِ. حَدَقَ بِبَصَرِهِ مُحَاوِلًا أَنْ يَرَى الْمَجْمُوعَيْنِ الْمُتَقْدِمَيْنِ. كَانَ ذَلِكَ مُسْتَحِيلًا بِسَبَبِ طَبَيْعَةِ الْأَرْضِ وَكَثْرَةِ الزَّوَالِيَا الْمَيْتَةِ. وَخَلَلَ إِلَيْهِ فِي إِحْدَى الْلَّهَظَاتِ أَنَّهُ يَمْيِيزُ نَقَاطًا مُتَحَرِّكَةً بَيْنَ مَرْتَعَيْنِ صَفَرَيْنِ. فَاسْتَدَعَ بِرِيكُو تِيمُوتِشِي بِحَرْكَةِ مِنْ يَدِهِ:

— هَلْ أُولَئِكَ هُمْ جَمَاعَتِكِ؟

فَأَوْمَأَ الْفَتَى بِرَأْسِهِ عَدَةَ مَرَاتٍ، دُونَ أَنْ يَتَكَلَّمَ. لَقَدْ بَدَا أَكْثَرُ طَفُولَةَ بِوْجَهِهِ الْمُتَقْعِدِ. كَانَ يَتَشَبَّثُ بِبَنْدِقِيَّتِهِ وَكَأْنَ هُنَاكَ مِنْ يَحَاوِلُ اِنْتَزَاعَهَا مِنْهُ وَبَدَا كَمَا لَوْ أَنَّهُ فَقَدَ صَوْتَهِ.

حاوِلْ مَا يَتَأْتِي أَنْ يَشْجُعَهُ:

- لم تعد تُسمع أصوات الرصاص، ربما كان إنذاراً زائفاً.

فتعظم بيريوكو تيموتشي:

- لا، لم يكن إنذاراً كاذباً. لقد كان حقيقياً.

ثم بدأ يتكلّم بصوت خافت جداً، محاولاً استعادة تمسكه، وأخبره بأنهم حين سمعوا الرصاصات الأولى، تمكّن جميع أفراد جماعته من رؤية جماعة الطليعة التي أمامهم تفرق، بينما رفع أحدهم - وهو كوندورى في الغالب - بندقيته ليرد على الهجوم. عندئذ صرخ بهم ثينون غونزاليس: «انبطحوا أرضاً، انبطحوا أرضاً». وبقوا منبطحين إلى أن ظهر بابيغوس وأمرهم بمواصلة التقدّم. وقد أحضره معه ليكون مراسلاً. فابتسم له مايتا:

- أعرف لماذا اختارك أنت بالذات. لأنك أسرع الجميع. أولست الأشد جرأة كذلك؟

ابتسم الفتى ابتسامة خفيفة، دون أن يفتح فمه. وواصل السير معه وهما ينظران من جهة إلى أخرى. كان بابيغوس والقاضي قد سبقاهم حوالي عشرين متراً. وبعد بضع دقائق سمعوا زخة أخرى من الرصاص.

ويقول لي دون أوخينيو:

- الطريق في الأمر هو أنني أصبحت بالرشح في أوج إطلاق النار. كان قد هطل مطر غزير وكانت مبللاً بالكامل، أترى؟
أجل، فالرجل الضئيل الذي يمضي بيده وقبعه ما بين محاري حرب العصابات، وتحت نيران الحراس الذين يطلقون الرصاص عليهم من القمم، بدأ يعطس. وأنحاواه أن أجعله يسرع في روايته، فأسألة في أي لحظة أدرك أن أولئك الرجال هم متمردون وأن

مسألة تدريب الفتيان وتسلیم مزرعة آينا هي مجرد أكاذيب. فلا يتململ، بل يقول بقناعة مطلقة:

ـ عندما بدأ إطلاق الرصاص، اتضح كل شيء من تلقاء نفسه. يا للعنة، تصور الوضع الذي وجدت نفسي فيه. فقد وجدت نفسي دون أن أعرف السبب وسط أزيز الرصاص.

يتوقف قليلاً، وتنخلع عيناه من جديد فتعيدني الذاكرة إلى عصر ذلك اليوم، في باريس، بعد يومين أو ثلاثة أيام على اليوم الذي نتذكره. لقد كانت تلك هي الساعة التي أتوقف فيها عن الكتابة بانتظام صارم وأخرج لأشتري صحيفة ليموند وأقرأها بينما أنا أتناول فنجان قهوة اكسبريس في مقهى تورنون، عند ناصية بيتي. لقد كان ثمة خطأ في كتابة اسم مايتا، فقد استبدلوا حرف *ع* بحرف *إ*، ولكن لم يراودني أدنى قدر من الشك: فالملصود هو زميلي في مدرسة ساليسيانو. لقد ظهر الاسم في خبر عن البيرو، خبراً لا يكاد يكون مرئياً لصفره، لا يتجاوز ستة أو سبعة سطور، وليس أكثر من مئة كلمة. تحت عنوان «إحباط محاولة تمرد» أو شيء من هذا القبيل، ولم يكن واضحًا إذا ما كان للحركة تفرعات، ولكن الواضح هو أن قادتها قد قتلوا أو اعتقلوا. هل كان مايتا معتقلًا أم ميتاً؟ كان هذا هو أول ما فكرت فيه، بينما كانت تفلت من فمي سيجارة الجولواز وأنا أقرأ وأعيد قراءة الخبر دون أن أتمكن من تقبل حدوث أمر كهذا في بلادي النائية، وأن يكون زميلاً في قراءة الكونت دي مونت كريستو هو بطل الأحداث. ولكنني كنت موقتاً منذ اللحظة الأولى من أن مايتا المكتوب دون *ع* في ليموند هو زميلي نفسه.

– في أي ساعة بدأ وصول الأسرى إلى هنا؟ – يكرر دون أوخينيو السؤال الذي وجهته، كما لو أتني كنت أسئلته هو. لقد وجهتُ السؤال في الواقع إلى شيخٍ كثيرو، ولكن من المناسب أن يكون قاضي السلام، الرجل الموثوق به من الأهالي، هو الذي يبدي اهتماماً بمعرفة ذلك.. لا بد أن ذلك حدث في الليل، أليس كذلك؟ هناك موجة من اللاءات، من الرؤوس النافذية، من الأصوات التي تتنازع الكلام. لم يكن الليل قد حل بعد؛ وإنما كان الوقت مساء. وقد رجع حرس الشرطة في جماعتين؛ الجماعة الأولى أحضرت رئيس قرية أوتشوبامبا محمولاً على إحدى البهائم. هل كان كوندوري ميتاً عند وصوله؟ كان يحضر. فقد أصيب برصاصتين، في ظهره وفي رقبته، وكان ملطخاً بالدم. وقد أحضروا كذلك عدداً من الفتياً موثوقي الأيدي. في ذلك الزمن كانوا يأخذون أسرى. أما الآن، فمن الأفضل أن يموت المرء وهو يقاتل لأن من يمسكون به، بعد أن يستخلصوا منه كل ما يعرفه، سيأمرون بقتله في كل الأحوال، أليس كذلك يا سيد؟ وباختصار، كانوا قد نزعوا أربطة أحذية الفتيا حتى لا يحاولوا الهرب. فكانوا يمشون وكأنهم يطوفون بيضاً، وبالرغم من أنهم كانوا يجر جررون أقدامهم، فقد كان بعضهم يتفادى ضربات السوط. أخذوا كوندوري إلى بيت الحاكم العسكري وقدموا له بعض الإسعافات، ولكن دون جدوٍ، فقد مات في الحال. وبعد حوالي نصف ساعة وصل الآخرون. كان باييخوس يشير إليهم بأن يسرعوا.

وسمعه مايتا يصرخ:

- بسرعة أكبر، بسرعة أكبر.

حاول مايتا أن يسرع ولكنه لم يستطع. لقد سبقه بيريكيو تيموتشي الآن أيضاً بضعة أمتار. سمعت طلقات متفرقة ولم يستطع تحديد مصدرها ولا إذا كانت أقرب أم أبعد من الطلقات السابقة. لقد كان يرتجف، ولكن ليس من داء المرتفعات وإنما من البرد. وعندئذ رأى باييخوس يرفع مسدسه الرشاش: ودلت الطلقة في طبلتي إذنيه. نظر إلى القمة التي أطلق الملازم النار باتجاهها، ولم يرسو صخور، وأرض، وأعشاب إيشو، وقمم انكسارية، وسماء زرقاء، وغيوم بيضاء. سدد هو أيضاً سلاحه بذلك الاتجاه، وكان بصيغة على الزناد.

وصرخ بهم باييخوس من جديد:

- لماذا تتوقفون، يا للعنة. واصلوا التقدم، واصلوا. انصاع له مايتا، مشى بسرعة لبعض الوقت، راكضاً أحياناً، ومتعرضاً، وشاعراً بأن البرد ينخر عظامه وبأن قلبه يجن. سمع صوت طلقات جديدة، وكان واثقاً للحظة من أن إحدى الرصاصات قد فتت بعض الأحجار على مقربة منه. ولكنمهما تطلع إلى القمم، لم يكن يرى أي مهاجم. لقد صار في النهاية آلة لا تفك، لا تتردد، لا تتذكر، إنه جسد يركز على مهمة مواصلة الجري كي لا يتخلل. وفجأة تراحت ركبته وتوقف لاهثاً. تقدم بضع خطوات وهو يتزنج وانكمش على نفسه وراء بعض الصخور المغطاة بالطحالب. كان قاضي السلام وباييخوس وبيريكيو تيموتشي يواصلون التقدم بسرعة. لم يعد بإمكانك أن تلحق بهم يا مايتا. التفت الملازم، فأشار له مايتا بأن يواصل تقدمه. وبينما هو يقوم

بهذه الإشارات، أحس هذه المرة دون أي مجال للشك برصاصة تتفجر على بعد خطوات منه: لقد فتحت ثقباً صغيراً في الأرض وأثارت بعض الدخان الخفيف. انكمش على نفسه بأقصى ما يستطيع، نظر، بحث، وعندئذ رأى بوضوح رأس أحد الحراس يطل من فوق ساتر صخري إلى يمينه وبنادية مصوبة إليه. إنه يحتمن في الجهة الخاطئة. التف حول الأحجار زاحفاً، ثم انبطح على الأرض وأحس بالرصاصات تمر فوق رأسه. وعندما تمكّن في النهاية من التسديد وإطلاق النار، محاولاً تطبيق تعليمات باييغوس - الهدف يجب أن يتطابق مع الشعيرة - كان الشرطي قد اختفى من فوق الساتر الصخري. وجعلته زخة الرصاص التي أطلقها يهتز ويضطرب. ورأى رصاصاته تكشط الصخر على بعد متراً إلى أسفل الموقع الذي كان الشرطي قد أطل منه.

وسمع باييغوس يقول له:

- اركض، اركض وأنا سأغطيك.

وكان الملائم يصوب سلاحه باتجاه الساتر الصخري. نهض مایتا وركض. كان البرد يخدره، وبدت عظامه كما لو أنها تصطك تحت جلده. لقد كان ببرداً جليداً وملتهباً يجعله يتعرق، مثلما تفعل الحمى. عندما وصل إلى جوار باييغوس جثا على ركبتيه وصوب سلاحه أيضاً باتجاه الصخور.

قال الملائم وهو يشير بيده:

- ثمة ثلاثة أو أربعة هناك. فلنقدم في وثبات متسلسلة. يجب إلا نبقى ساكنين لأنهم سيحاصرتنا. علينا ألا نسمح لهم بالفصل بيننا وبين الآخرين. غطني.

ودون أن ينتظر رده، نهض وانطلق يعدو. واصل مايتا مراقبة الصخور التي إلى اليمين وإصبعه على زناد مسدسه الرشاش، ولكن لم يظهر من هناك أي شبح. وبحث أخيراً عن باييغوس ورآه.. بعيداً، يشير إليه بأن يتقدم وبأنه سيغطي تقدمه. ينطلق راكضاً، وبعد خطوات قليلة يسمع صوت الرصاص من جديد، ولكنه لم يتوقف، بل واصل تقدمه ثم تبين له على الفور أن الملازم هو الذي يطلق النار. وعندما وصل إليه وجد إلى جانبه بيريوكو تيموتشي وقاضي التحقيق. كان الفتى يذخر بندقيته بمخزن سعة خمس طلقات أخرى من جعبة مثبتة على خصره. لقد كان يطلق النار إذن.

- وماذا عن أفراد الجماعتين الآخرين؟ - سأله مايتا. وكان أمامهم حاجز صخري يمنعهم من الرؤية.

- لقد أضعناهم، ولكنهم يعرفون بأنه لا يمكنهم التوقف - قال ذلك باييغوس بحدة دون أن يتوقف عن التجول بيصراه في محيط المكان. ثم أضاف بعد صمت قصير: - إذا ما حاصرونا سنتهي. يجب أن نواصل التقدم إلى أن يخيم الظلام. ففي الليل لن يكون ثمة خطر. لأنه ليست هناك مطاردة مجدية في الليل.

وفكر مايتا: «إلى أن يخيم الظلام». كم من الوقت بقي لذلك؟ ثلاثة، خمس، ست ساعات؟ ولم يسأل باييغوس عن الساعة. بل دس يده في جعبته وتأكد مرة أخرى - لقد فعل ذلك عشرات المرات خلال اليوم - من أن لديه الكثير من مخازن الذخيرة الاحتياطية.

- لنتقدم أشان اشان - أمرهم باييغوس - أنا والقاضي، وأنت

مع بيريكيو. ونعطي تقدم بعضنا البعض. كانوا على حذر، ولا تهانوا، ول يكن الركض مع الانحناء. هيا بنا إليها القاضي.

انطلق راكضاً، ولا حظ مايتا الآن أن قاضي السلام يحمل مسدساً في يده. من أين جاء به؟ لا بد أنه مسدس الملازم، لهذا السبب كان قراب مسدسه مفتوحاً. وعندئذ رأى ظهور شبحين بشريين فوق رأسه، ما بين سبطانات البنادق. وسمع صرحة: «استسلموا، عليكم اللعنة». فأطلق هو وبيريكيو النار في الوقت نفسه.

ويقول لي دون أوخينيو:

- لم يقبحوا عليهم جمياً في ذلك اليوم نفسه. لقد أفلت منهم اثنان من الفتياـن: تيوفيلو بويرتاس وفيليـثيو تابـاـ.

إنـي أعرف هذه القصـة من لسان بـطـلـيهـا، ولـكـنـي لا أـقـاطـعـهـ لـكـيـ أـرـىـ نقاطـ التـوـافـقـ وـنقـاطـ الـخـلـافـ. هـنـاكـ بـعـضـ التـفـاصـيلـ الزـائـدـ وـبعـضـ التـفـاصـيلـ النـاقـصـةـ، ولـكـنـ روـاـيـةـ قـاضـيـ سـلامـ كـيـروـ تـشـبـهـ إـلـىـ حدـ كـبـيرـ الروـاـيـةـ التـيـ سـمعـتـهاـ مـسـبـقاـ. فـقـدـ كـانـ بوـيرـتـاسـ وـفـيلـيـثـيوـ فـيـ جـمـاعـةـ الطـلـيـعـةـ، تـحـتـ قـيـادـةـ كـونـدـورـيـ، وهـيـ الجـمـاعـةـ الـأـوـلـىـ التـيـ اـكـتـشـفـتـهاـ إـحـدـىـ الدـورـيـاتـ التـيـ انـقـسمـ إـلـيـهاـ رـجـالـ الشـرـطةـ لـتـمـشـيـطـ الـمـنـطـقـةـ. وـعـمـلاـ بـتـعـلـيمـاتـ باـيـخـوسـ، حـاـولـ كـونـدـورـيـ أـنـ يـواـصـلـ التـقـدـمـ، وـأـنـ يـصـدـ الـهـجـومـ فـيـ الـوقـتـ ذـاتـهـ، وـلـكـنـهـ سـقـطـ جـريـحاـ بـعـدـ قـلـيلـ. فـأـثـارـ ذـلـكـ الـهـلـعـ. وـانـطـلـقـ الـفـتـيـانـ يـرـكـضـونـ تـارـكـينـ الـبـهـائـمـ مـعـ حـمـولـتـهاـ مـنـ الـأـسـلـحـةـ. وـاختـبـأـ بوـيرـتـاسـ وـتـابـاـ فـيـ مـغـارـةـ فـيـسـكـاشـ. وـبـقـيـاـ هـنـاكـ طـوـالـ اللـيـلـ، وـكـادـاـ أـنـ يـتـجمـداـ مـنـ الـبـرـدـ. وـفـيـ الـيـوـمـ التـالـيـ اـجـتـازـ الـطـرـيقـ وـهـماـ

جائعاً، مضطرباً، ومصاباً بالرشح، ووصل إلى خاوحا دون أن يكتشفهما أحد. وقد حضرا كلاهما إلى مفوضية الشرطة برفقة أبوهما.

ويؤكد القاضي:

- كان فيليثيو متورماً من الضرب المبرح الذي تلقاه في البيت لأنه يريد أن يكون ثورياً.

لم يبق الآن من أهالي كيرو الذين كانوا معنا تحت العريشة سوى اثنين من الشيوخ. وكلاهما يتذكراً دخول ثينون غونثاليس مربوطاً إلى حصان، حافي القدمين، وقميصه ممزق، كما لو أنه قد تعامل بعنف مع رجال الشرطة، ووراءه كان البقية، وكانوا مقيداً الأيدي أيضاً، وأخذتهم دون أربطة. وكان واحد منهم يبكي - لا أحد يتذكر أيهم - يقولون إنه أسمر، وإنه واحد من الصغار. أكان يبكي لأنهم ضربوه؟ أم لأنه جريح، أو خائف؟ من يدري. ربما بسبب سوء حظ الملازم المسكين.

وهكذا واصلوا التسلق، والتسلق، اثنان اثنان، وبقوا على تلك الحال وقتاً بدا لمايتا ساعات، ولكنه لا يمكن أن يكون كذلك لأن ضوء النهار لم يتراجع ولو في أدنى الحدود. في الثنائيين اللذين انقسم إليهما بایيخوس مع رجل القانون ومايتا مع بيريکو تيموتشي، أو بایيخوس مع الفتى ومايتا مع القاضي، كان اثنان يركضان بينما يغطيهما الآخران، وكانوا يتقدون معاً بما يكفي لبث الحماسة واسترداد الأنفاس، ثم يواصلون الجري. وكانوا يرون وجوه الجنود في كل لحظة ويتبادلون إطلاق رصاص يبدو أنه لم يكن يصيب الهدف مطلقاً. لم يكن هناك ثلاثة أو أربعة مهاجمين

مثلاً اعتقد بایخوس، وإنما أكثر بكثير، إذ لا يمكنهم أن ينتشروا بحيث يبدون وكأنهم في أماكن مختلفة. لقد كانوا يطلون من الأجزاء العلوية، وهم يظهرون الآن من الجانبين، مع أن الجانب الأخطر هو الأيمن، حيث الحاجز الصخري القريب جداً من الأرض التي يركضون فيها. لقد كانوا يلاحقونهم من حافة القمة، ومع أن مaita كان يعتقد أحياناً بأنهم قد تجاوزوهم وخلفوهم وراءهم، إلا أنهم كانوا يعودون إلى الظهور دوماً. لم يكن يشعر بالمرض؛ إنه يشعر بالبرد، أجل.. ولكن جسده كان يستجيب للجهود الهائلة، وللركض في مثل هذا الارتفاع. وفكراً: كيف لم يُجرح أحد؟ فقد أطلقوا عليهم كثيراً من الرصاص. المسألة هي في أن الحراس يتصرفون بحذر، يطلون برؤوسهم قليلاً ويطلقون النار بعشوائية مجرد تنفيذ الأوامر، دون أن يتمهلوا ليسددوا جيداً، خوفاً من أن يتحولوا إلى هدف سهل للمتمردين. راوده إحساس بأنها لعبة، وأنها طقوس صاحبة ولكنها غير مؤدية. هل ستستمر على هذا النحو إلى أن يخيم الظلم؟ هل سيتمكنون من الإفلات من رجال الشرطة؟ يبدو أنه من المستحيل مجيء الليل، وإطباقي الظلم على هذه السماء المنيرة. لم يكن يشعر بخmod العزمي. وفكراً دون عجرفة ودون شجون: «مهما يكن من أمر، فإنك تقوم بما كنت تريده يا مaita».

- جاهز يا دون أوخينيو. فلنركض. إنهم يغطياننا.

فرد عليه قاضي السلام ببطء شديد:

- اذهب أنت وحدك، ساقاي لم تعودا قادرتين على الجري. أنا سأبقى هنا. وخذ هذا معك أيضاً.

وبدلاً من أن يعطيه المسدس، رمى به إليه، فكان على مايتا أن ينحني ويلقطه. وكان دون أوخينيو قد جلس مباعداً ما بين ساقيه. لقد كان يتعرق بفرازة وكان فمه معوجاً في تكشيرة جزعة، وكأنه يفتقد الهواء. وكان وضعه وهيئته كوضع وهيئة رجل وصل إلى أقصى حدود الصمود ولم يعد الإنهاك يؤثر فيه. فأدرك مايتا أنه لم تعد ثمة فائدة من الجدال معه.

- حظاً طيباً يا دون أوخينيو - قال له ذلك وانطلق يعدو. اجتاز بسرعة الثلاثين أو الأربعين متراً التي تفصله عن باييغوس وبيريكو تيموتسي، دون أن يسمع إطلاق نار. وعندما وصل إلى حيث هما، وجدهما جاثيين ويطلقان النار. حاول أن يوضح لهما ما جرى لقاضي السلام، ولكنه كان يلهث بطريقة لم يخرج معها صوته. حاول وهو على الأرض أن يطلق النار فلم يستطع؛ لقد استعصى رشاشه. فأطلق الرصاصات الثلاث الأخيرة من المسدس، وهو يشعر بأنه يفعل ذلك مجرد إطلاق النار. لقد كان الساتر الصخري قريباً جداً وكان هناك صف من البنادق المصوبة نحوهم: وكانت القبعات العسكرية تظهر وتختفي. سمع صرخات تهديد حملتها الريح إليهم بوضوح: «استسلموا، عليكم اللعنة»، «استسلموا يا أبناء العاهرة»، «شركاؤكم قد استسلموا جميعهم»، «صلوا على أرواحكم يا كلاب». وخظر له: «لديهم أوامر باعتقالنا أحياء». لهذا السبب لم يُحرج أحد. إنهم يطلقون النار لتخويفهم فقط. أیكون صحيحاً أن جماعة الطليعة قد استسلمت؟ أحس باطمئنان أكبر وحاول أن يحدث باييغوس عن دون أوخينيو. ولكن الملائم قاطعه بحركة متجمسة:

— اركضا، وأنا سأغطيكما — وأدرك مايتا، من صوته
وملامح وجهه أنه يشعر بالخطر حقاً هذه المرة، وأضاف الملازم: —
بسرعة، هذا مكان سيئ، إنهم يحاصروننا. اركضا، اركضا.
وربت على ذراع مايتا. انطلق بيريكيو تيموتشي يعدو، ونهض
هو وركض أيضاً، وسمع على الفور أزيز رصاصات فيما حوله.
ولكنه لم يتوقف، وبينما هو يختنق، أحس بالجليد يخترق
عضلاته، عظامه، دمه، وواصل الجري، وبالرغم من أنه تعثر
وسقط مرتين، وقد في إداحهما المسدس الذي كان يحمله في
يده اليسرى، إلا أنه نهض مستدلاً على كلتا يديه وواصل الركض
باذلاً جهوداً تفوق طاقة البشر، إلى أن تراحت ساقاه وسقط على
ركبتيه. انكمش على نفسه على الأرض. وسمع بيريكيو تيموتشي
يقول له:

— لقد تجاوزناهم. أين هو باييغوس؟ هل تراه أنت — وكان
صمت طويل، يتخلله اللهاث قبل أن يقول الفتى: — مايتا، مايتا،
أظن أن أبناء العاهرة هؤلاء قد أصابوهم.

ومن خلال العرق الذي يغشى بصره بسحابة ضبابية، لمح هناك
في الأسفل، حيث بقي الملازم لتفطيتهم — وكان قد ركضا
حوالى مئتي متر. تحرك عدد من الأشباح المائلة إلى الخضراء.

— فلنركض، فلنركض — لمث وهو يحاول النهوض. ولكن
ذراعاه وساقاه لم تسفعه، فزمجر عندئذ: — أركض أنت يا
بيريكيو. أنا سأغطيك. أركض، أركض.

— لقد أحضروا باييغوس في الليل، وأنا نفسيرأيته، أولم
تروه أنتم؟ — يقول ذلك قاضي السلام. ويؤيد المسنان الآخران في

العرشة ما يقوله بتحريرك رأسيهما. ويشير دون أوخينيو مجدداً إلى البناء الذي يحمل رسم شعار البلاد، مقر الحاكم، ويضيف:-
رأيته من هناك. فقد كانوا يحتجزوننا نحن الأسرى في تلك الغرفة ذات الشرفة. لقد أحضروه على حصن، وكان مفطى بحرام تكلفو مشقة في نزعه لأنه كان ملتصقاً بالدم الذي أحدهته الطلقات. وقد كان ميتاً تماماً لدى الوصول إلى كيرو.

أسمعه يتكلم حول كيف قُتل ومن الذي قتل بایخوس. إنه موضوع سمعت الكثير عنه من كثرين في خواخا وفي ليما، حتى صرت أعرف جداً أنه لم يعد هناك من يمكنه أن يقدم لي تفاصيل لا أعرفها. وقاضي سلام كيرو لا يساعدني في توضيح أي واحدة هي الصحيحة بين كل الفرضيات. أ يكون قد مات في أثناء تبادل إطلاق النار ما بين المتمردين وحراس الشرطة. أم أنه جُرح فقط ثم أجهز عليه الملازم أول دونغو، انتقاماً للإذلال الذي عرضه له عندما استولى على مفوضيته وحبسه في زنزانتها. أم أنهم قبضوا عليه سليماً وأعدموه، بناء على أوامر عليا، هناك في أعلى جبال هوایخاکو، ليكون عبرة لغيره من الضباط ذوي الميول الثورية. لقد أورد قاضي السلام كل هذه الاحتمالات في منولوجه التذكري، وإن يكن قد أوحى إليّ بشيء من الحذر - بأنه يميل إلى نظرية أن الملازم الشاب قد أُعدم على يد الملازم الأول دونغو. إنه الانتقام الشخصي.. المواجهة بين المثالى والمتواافق مع النظام، بين المتمرد والسلطة: إنها صور توافق مع الشهية الرومانسية لشعبنا. وهذا لا يعني بالطبع أنه لا يمكن لذلك الاحتمال أن يكون صحيحاً. المؤكد هو أن هذه النقطة من القصة - نقطة الظروف التي مات

فيها بابيغوس - لن تتضح أيضاً. ولن يتضح كذلك عدد الرصاصات التي تلقاها: إذ لم يجر تشريح للجثة، وتقرير الوفاة لا يذكر ذلك. أما الشهود فيقدمون أشد الروايات تباعداً: ابتداء من رصاصة وحيدة في العنق وحتى الحديث عن جسد أشبه بمصفاة. الشيء الوحيد المؤكد هو أنهم أحضروه إلى كيلو جنة هامدة، على صهوة جواد، وأنهم نقلوه من هنا إلى خاوحا حيث تسلمت الأسرة الجثمان في اليوم التالي لنقله إلى ليما. وقد دفن في مقبرة سوروكو القديمة، وهي مقبرة لم تعد تُستخدم اليوم، على قبورها لوحات حجرية مخرية، وقد غزت الأعشاب ممراتها. وفيما حول قبر الملازم الذي لا يحمل سوى اسمه وتاريخ وفاته، نمت أجمة من الأعشاب البرية.

- وهل رأيت مايتا عندما أحضروه كذلك يا دون أوخينيو؟

مايتا الذي لم يكن يرفع بصره عن الحراس المجتمعين هناك في الأسفل، حيث بقي بابيغوس، كان يسترد أنفاسه.. وحياته. وكان ما يزال على الأرض، يسدد مسدسه الرشاش المستعصي إلى الفراغ. لقد كان يحاول عدم التفكير في بابيغوس، وبما يمكن أن يكون قد حدث له، وإنما في استعادة قواه، والنهوض والوصول إلى حيث بيريكيو تيموتسي. عب الهواء، ونهض، وانطلق يجري وهو منعن على نفسه، إلى أن اضطر إلى التوقف. ارتمى على الأرض وهو يغمض عينيه، منتظرًا أن يخترق الرصاص جسده. ستموت يا مايتا، هذا هو ما يعنيه أن تكون ميتاً.

- ماذا سنفعل، ماذا سنفعل؟ - تلعم الفتى بجانبه.

- أنا سأغطيك. - لم يث مايتا محاولاً أن يشهر مسدسه الرشاش ويصوبه.

وأجهش الفتى:

- إننا محاصران. سيفقلاوننا.

ومن خلال العرق الذي يقطر من جبهته، رأى مايتا حراس الشرطة في كل مكان، بعضهم ينبطحون أرضاً وبعضهم يجثون، وبنادقهم موجهة إليهما. وكانوا يحركون أفواههم وتوصل إلى سماع بعض الأصوات غير المفهومة. ولكنه لم يكن بحاجة إلى الفهم ليعرف ما الذي يصرخون به: «استسلاما! ألقيا سلاحيكما» الاستسلام؟ سيفقلاونهما في كل الأحوال؛ أو أنهم سيغضبونهما للتعذيب. وشد بكل قواه على الزناد، ولكن المسدس الرشاش ما زال مستعصياً. حاول معالجة أكترته لبضع ثوان دون جدوٍ وهو يسمع بيريكو تيموتشي يبكي.

وزمرة صوت قريب جداً:

- ألقيا سلاحيكما! ارفعوا أيديكم إلى رأسيكما! وإنما ميتان.

فقال مايتا للفتى:

- لا تبك، لا تمنحهم هذه المتعة. هيا يا بيريكو، ألق بندقيتك. ألقى مسدسه الرشاش بعيداً، وهذا حذو بيريكو تيموتشي، فنهض وهو يضع يديه على رأسه.

- أيها العريف ليتوما! - بدا الصوت كأنه يخرج من مكبر للصوت .. فتشهما. ولدى أول حركة يقومان بها ساحرهما.

- حاضر يا سيدى الملائم الأول.

أشباح بالزي العسكري تحمل بنادق راحت تقترب راكضة من كل الجهات. انتظر دون حراك أن يصلوا إليه - كان التعب والبرد

يزدادان في كل ثانية -، وكان موقفناً من أنهم سيضربونه. ولكنه لم يشعر إلا بالدفء بينما هم يفتشونه من قدميه إلى رأسه. انزعوا منه الجعبة التي على خصره، وكانوا يسمونه «لص مواش» و«حرامي»، وأمروه بأن ينزع رباط حذائه. ثم ربطوا يديه وراء ظهره بحبال. كانوا يفعلون الشيء نفسه مع بيريوكو تيموتشي، وسمع صوت العريف ليتوما يوبخ الفتى، ويسأله عما إذا كان لا يشعر بالخجل من التحول إلى «لص مواش» وهو ما يزال «جرواً صغيراً». لصوص مواش؟ أهـم يظلونهم لصوص مواش؟ غالب رغبته في الضحك من معتقليه. وفي هذه اللحظة بالذات وجهوا إلى ظهره ضربة بعقب بندقية وأمروه بأن يتحرك. فعل ذلك، مجرجاً قدميه اللتين كانتا ترافقان في حذائه المفلت. لقد بدأ يفقد وضع الآلة التي كان قد تحول إليها؛ وصار يفكر، يتذكر، يتذكرة، ويستجوب نفسه. أحس بأنه يرتعش. ألم يكن من الأفضل له أن يكون ميتاً على أن يتجرع كؤوس المرارة التي تتنتظره؟ لا يا مaita ، لا .

ويقول لي قاضي السلام:

- التأخر في العودة إلى خاوشا لم يكن بسبب القتيلين اللذين سقطا. بل بسبب الأموال. أين ذهب النقود؟ لقد جن جنونهم وهم يبحثون عنها دون أن يجدوا لها أثراً. كان مaita وثنين غونثاليس والفتيان يقسمون بأن النقود كانت محملة على البهائم، باستثناء المبلغ الصغير الذي أعطوه للسيدة تيوفراسيا سوتو، أرملة المارات، مقابل البغال التي استأجروها منها ، ولخيرتروديس سابوبياكو مقابل الفداء. وكان الجنود الذين اعتقلوا كوندوروي يقسمون بأنهم لم يجدوا شيئاً على ظهور البهائم، اللهم إلا البنادق

والرصاص وبعض قذور الطعام، وانقضى وقت طويل في الاستجواب، محاولين معرفة ما جرى للنقود. ولهذا السبب وصلوا إلى خاوخا عند الفجر.

نحن أيضاً سنصل متآخرين أكثر مما هو مقدر. لقد تسربت منا الساعات ونحن في عريشة ساحة كيرو،وها قد بدأ الغروب يخيم بسرعة. تضيء الشاحنة مصابيحها: لا تميز في المشهد الوارف سوى جذوع أشجار شاحبة متملصة وصخور وأحجار لامعة تقافز فوقها في الشاحنة. وأفكر بالتباس في إمكانية الوقع صدفة في كمين عند أحد منعطفات الدرب، أو في انفجار لغم، أو في الوصول إلى خاوخا بعد موعد حظر التجوال وتعرضنا للاعتقال.

ويتساءل دون أوخينيو دون أن يتوقف عن تذكر تلك الواقائع:
ـ ما الذي جرى للنقود التي استولوا عليها إذن؟ هل تقاسمها رجال الشرطة فيما بينهم؟

هذا لغز آخر من الألغاز التي بقيت طافية دون حل. ولكن لدى في هذه الحالة على الأقل رؤية متماسكة. فكثرة الأكاديب تغطي على القضية. كم كان المبلغ الذي استولى عليه المتمردون في خاوخا؟ لدى انتطاع بأن موظفي المصرفين قد ضخموا الأرقام وأن الثوريين لم يعرفوا مقدار الأموال التي أخذوها، لأنه لم يتح لهم الوقت لعدّ الغنيمة. وكان المال موضوعاً في أكياس على ظهور البغال. هل هناك من يعرف كمية النقود التي كانت في الأكياس؟ ربما لا. وربما دس بعض من شاركوا في القبض على المتمردين، شيئاً من المال في جيوبهم، ولهذا فإن المبلغ الذي أعيد

إلى المصرفين يكاد لا يتجاوز الخمسة عشر ألف سول، وهو مبلغ أقل بكثير مما أعلن المصرفان عن فقدانه.
وأفكِّرْ بصوت عالٍ:

- ربما كان هذا هو أشد الأمور حزناً في القضية. فما بدأ على أنه ثورة - وأعرف أنها ثورة بلا أساس ولا رأس، ولكنها ثورة على أي حال - انتهى إلى خلاف حول المبلغ الذي سرقوه ومن الذي احتفظ بالأموال المسروقة.

- إنها شؤون الحياة - فلسف دون أوخينيو الأمر.
كان مايتا يتصور ما الذي ستقوله صحف ليما غالا وبعد وبيده، وما الذي سيقوله رفاقه في جمع ث (ت) وخصومهم في الحزب الشيوعي حين يقرؤون الروايات المبالغ فيها، والمتخلية، والحسية، والصفراء التي ستشرها الصحف حول ما حدث. وتتصور الجلسة التي سيعقدها جمع ث (ت) ويكرسها لاستخلاص الدروس الثورية من الحدث، وكاد أن يسمع تقريراً كل واحد من رفاقه القدماء يؤكّد بنبرته ولهجته التحليل العلمي، الماركسي، التروتسكي الذي توصل إليه الحزب والذي يبرر تماماً عدم ثقة الحزب ورفضه المشاركة في مغامرة برجوازية صغيرة محكومة بالإخفاق. هل سيلمّح أحدهم إلى أن ذلك الرفض وعدم الثقة قد ساهمما في الكارثة؟ لن يخطر مثل ذلك لأذهانهم. وهل كانت ستغير نتيجة التمرد لو أن كل كنوار جمع ث (ت) قد ساهموا فيه بصورة حاسمة؟ وفكّر: أجل. لأنهم كانوا سيجرون معهم العمال المنجميين والأستاذ أبيبيوث وجماعة ريكران الذين تختلفوا، ولكن كل شيء قد جرى بتخطيط وتنفيذ أفضل، ولكنوا الآن بالذات

يتوجهون نحو مزرعة آينا واثقين وآمنين. هل أنت نزيه فيما تفكّر فيه يا مایتا؟ أتحاول التفكير بصفاء؟ لا. فالوقت مبكر على ذلك لأن كل شيء ما يزال قريباً جداً. حين ينقضى كل هذا، سيكون لا بد من تحليل ما جرى منذ البداية، وبهدوء ورأس بارد، وتحديد إذا ما كان التمرد سيكُون أوفر حظاً بمشاركة الرفاق في حـث (ت)، أم أن ذلك ما كان سيؤدي إلا إلى تأخير الهزيمة لبعض الوقت وجعلها أكثر دموية. أحس بالأسى وبالرغبة في إسناد رأس أناتوليـو إلى صدره، وسماع ذلك التنفس المنقطع، المتـاسـقـ، وشبه الموسيـقيـ، حين يغفو منهـوكـا فوق جـسـدهـ. أفلـتـ منهـ زـفـرةـ وـانتـبهـ إلىـ أنـ أـسـنـانـهـ تـصـطـكـ. أـحـسـ بـضـرـبةـ منـ عـقـبـ بـنـدقـيـةـ فـيـ ظـهـرـهـ: «أـسـرعـ». كـلـماـ ظـهـرـتـ صـورـةـ باـيـخـوسـ فـيـ ذـهـنـهـ، يـصـبـ الـبرـدـ غـيرـ مـحـتمـلـ وـيـذـلـ جـهـداًـ لـاستـبعـادـهـ. إـنـهـ لـاـ يـرـيدـ التـفـكـيرـ فـيـهـ، وـلـاـ التـسـاؤـلـ إـذـاـ مـاـ كـانـ مـعـقـلـاًـ أوـ جـرـحاًـ أوـ مـيـتاًـ، إـذـاـ مـاـ كـانـواـ يـضـرـبـونـهـ أـوـ يـجـهزـونـ عـلـيـهـ، لـأـنـهـ يـعـرـفـ أـنـ الحـزـنـ سـيـقـدـهـ قـوـاهـ وـقـدـرـتـهـ عـلـىـ تـحـمـلـ مـاـ هـوـ آـتـ. سـيـحـتـاجـ إـلـىـ قـدـرـ مـنـ الشـجـاعـةـ أـكـبـرـ مـنـ تـلـكـ الـلـازـمـةـ لـتـحـمـلـ الـرـيـحـ الـصـرـصـرـ الـتـصـفـعـ وـجـهـهـ. إـلـىـ أـينـ أـخـذـواـ بـيـرـيكـوـ تـيمـوـتـشـيـ؟ أـيـنـ هـمـ الـآـخـرـونـ؟ أـيـكـونـ بـعـضـهـمـ قـدـ تـمـكـنـ مـنـ الفـرـارـ؟ كـانـ يـمـضـيـ وـحـيدـاًـ، مـاـ بـيـنـ فـصـيـلـةـ مـنـ شـرـطةـ الـحـرسـ الـأـهـلـيـ. وـكـانـواـ يـنـظـرـونـ إـلـيـهـ أـحـيـاـنـاًـ بـطـرـفـ عـيـونـهـ مـثـلـاـ يـنـظـرـونـ إـلـىـ حـيـوانـ نـادـرـ، ثـمـ يـنـسـونـ مـاـ حـدـثـ لـلـتوـ، وـيـسـلـوـنـ أـنـفـسـهـمـ بـتـبـادـلـ الـحـدـيثـ، وـالـتـدـخـينـ وـأـيـدـيـهـمـ فـيـ جـيـوبـهـمـ، مـثـلـ مـنـ هـمـ عـائـدـونـ مـنـ نـزـهـةـ. وـفـكـرـ: «لـنـ أـصـابـ بـدـوـارـ الـمـرـتـفـعـاتـ مـطـلـقاًـ بـعـدـ الـيـوـمـ». حـاـوـلـ التـعـرـفـ عـلـىـ الـمـكـانـ بـتـذـكـرـ الطـرـيقـ الـذـيـ كـانـواـ قدـ

احتازوه صعوداً، ولكن المطر لم يكن يهطل الآن، وبدا المشهد مختلفاً: فالألوان أشد تبانياً، والخطوط أقل حدة. كانت الأرض موجلة وكان حذاؤه يفلت من قدمه بكثرة، فيضطر إلى التوقف لانتعاله، وفي كل مرة يدفعه الحارس الذي يسير وراءه. هل أنت نادم يا مaitا؟ هل تصرفت بتسرع؟ هل كنت متھوراً لا، لا، لا. بل على العكس. فعلى الرغم من الإخفاق، ومن الأخطاء، ومن عدم الحذر والتبصر، فهو يشعر بالفخر. فللمرة الأولى يشعر بأنه قد فعل شيئاً يستحق الذكر، وبأنه قد دفع الثورة - وإن يكن بصورة طفيفة - إلى الأمام. ولن يعذبه، مثلاً كان يعذبه في كل مرة يُسجن فيها، الإحساس بأنه قمامنة. لقد أخفقوا، ولكن الدليل أصبح موجوداً: فأربعة رجال مصممين وحفلة من التلاميذ تمكناوا من السيطرة على مدينة، وتجريد قوات النظام من أسلحتها، والاستيلاء على مصريين، والهرب إلى الجبال. إن الثورة ممكنة، وقد أثبتوا ذلك. سيكون على اليسار من الآن فصاعداً أن يأخذ هذه السابقة بعين الاعتبار: فهناك في البلاد من لم يكتف بالتبشير بالثورة، بل حاول صنعها. وفكرا: «ها أنت ذا تعرف ما هي» وأفلتت في الوقت نفسه إحدى فردي حذائه، وبينما هو يحاول انتعالها تلقى ضربة عقب أخرى.

أيقظت دون أوخينيو الذي استغرق في النوم منذ منتصف الطريق، وأنزلته عند بيته على مشارف خاواخا وأناأشكره على مرافقته لي، وعلى ذكرياته. ثم واصلت بعد ذلك إلى نزل باكا. ما يزال المطبخ مفتوحاً ويمكني أن آكل شيئاً، ولكنني أكتفي بزجاجة بيرة. وأخرج لأشربها على الشرفة الصغيرة فوق البحيرة.

تبعد المياه صافية لامعة وأيائل الضفة مشعة تحت القمر الذي يبدو مستديراً وأبيض في سماء مفعمة بالنجوم. في الليل تسمع في باكا كل أنواع الصخب: صفير الريح، نقيق الضفادع، شدو الطيور الليلية. ولكن لا شيء الآن. فالحيوانات صامتة في هذه الليلة. وزبونا النزل الوحيدان هما وكيلام بيعات متوجلان، يبيعان صنفأً من البيرة، وأننا أسمعهما يتحدثان في الجانب الآخر من الزجاج، في قاعة الطعام.

هذه هي نهاية الحدث المركزي في تلك القصة، وعقدتها الدرامية. إنه لم يدم اثنين عشرة ساعة. فقد بدأ عند الفجر، بالاستيلاء على السجن، وانتهى قبل الغسق، بموت بابيغوس وكوندوري واعتقال البقية. أحضروهم إلى مفوضية خاوخا، حيث استبقوهم مدة أسبوع ثم نقلوهم بعد ذلك إلى سجن هوانكابيو، وبقوا فيه شهراً. وهناك بدؤوا بإطلاق سراح الفتیان بتحفظ بناء على أحكام قاضي الأحداث الذي كان يعهد بهم إلى مسؤولية أسرهم، في نوع من الإقامة الجبرية. أما قاضي سلام كيرو فقد عاد بعد ثلاثة شهور إلى منصبه «نظيفاً من الغبار والقش» فعلاً. ونقل مايتا وثينون غونثاليس إلى ليما، وسُجنا في سجن سيسو، ثم في سجن فرونتون ثم أعيدا مرة أخرى إلى سجن سيسو. وأفرج عن كليهما في عفو عام – دون أن تجري لهما محاكمة على الإطلاق –، بعد بضع سنوات، حين تولى رئيس جديد منصبه في البيرو. ومازال ثينون غونثاليس يدير مزرعة آتيا منذ إعلان الإصلاح الزراعي عام 1971، وهو ينتمي إلى حزب العمل الشعبي وصار قائداً له في المنطقة كلها.

في الأيام الأولى، اهتمت الصحف كثيراً بالأحداث وكرست صفحات أولى وعنوانين كبيرة وافتتاحيات ومقالات لما اعتبر محاولة تمرد شيوعية، وذلك بسبب سوابق مايتسا. ظهرت في جريدة لا برسا صورة له، لا يمكن التعرف عليه فيها، وهو وراء قضبان زنزانة. ولكن الحديث حول الموضوع توقف عملياً بعد أسبوع. وفيما بعد، عندما ظهرت في سلسلة الجبال وفي الأدغال بؤر حرب عصابات متأثرة بالثورة الكوبية في أعوام 1963، 1964، 1965، 1966، لم تذكر أي صحفية أن السابقة الأولى لتلك المحاولات لدفع الشعب إلى انتفاضة مسلحة من أجل إقامة الاشتراكية في بيرو قد جرت في محافظة خاوشا، وليس هناك من يتذكر اليوم أبطالها.

عندما توجهت للنوم، سمعت أخيراً صوتاً إيقاعياً. لا، ليست أصوات طيور ليلية؛ إنه صوت الريح التي تدفع مياه بحيرة باكا إلى شرفة النزل. هذه الموسيقى الناعمة وسماء ليل خاوشا ذات النجوم البدعة توحى ببلاد وديعة، أناسها متصالحون وسعداء. ولكنها تكذب، مثلما تكذب الروايات المتخيلة.

الفصل العاشر

أول مرة جئت فيها إلى سجن لوريفانتشو كانت منذ خمس سنوات. فسجناه العنبر الثاني دعوني لافتتاح مكتبة في العنبر، إذ خطرت لأحدهم فكرة إطلاق اسمي عليها، وقبلت الدعوة يدفعني الفضول إلى التأكد من صحة ما كنت قد سمعته عن الأوضاع في سجن ليما.

من أجل الوصول إلى هناك لا بد من المرور قبالة ميدان مصارعة الثيران، واجتياز حي ثاراتي، ثم المرور في ضواح هامشية فقيرة، وأخيراً المزابل التي تتغذى عليها الخنازير في ما يسمى «زرائب الخنازير السرية». الطريق تفقد الإسفلت وتمتلئ بالحفر. في ذلك الصباح الرطب، بدت عناير السجن الإسمنتية المطموسة بالضباب، دون لون محدد مثل الرمال المحيطة بها. بل كان يظهر من بعيد جداً أن عدداً كبيراً من النوافذ قد فقدت كل زجاجها، هذا إذا كان لها زجاج في يوم من الأيام، وأن مبعث حيوية تلك المريعات المتناظرة هي الوجوه، والعيون التي تتطلع إلى الخارج.

ما أتذكره من تلك الزيارة الأولى هو الازدحام، أولئك السجناء الستة آلاف الذين يختنقون في أماكن مشيدة لاستيعاب ألف وخمسين، والقدارة التي لا توصف، وأجواء العنف الرائد الذي يوشك أن ينفجر تحت أي ذريعة في اشتباكات وجرائم. وبين تلك

الكتلة منزوعة التفرد التي هي أقرب إلى عصابة رعاع أو قطيع ضوار منها إلى الجماعة البشرية، كان مaitا آنذاك، وأنا متأكد من ذلك الآن. وربما أكون قد نظرت إليه، بل ربما تبادلت معه عبارة ما. هل كان حينذاك في العنبر الثاني؟ هل حضر افتتاح المكتبة؟

العنابر تصطف في صفين، العنابر ذات الأرقام الفردية في المقدمة وذات الأرقام الزوجية في الخلف. وبكسر التناسب عنبر منفرد، يستند إلى الأسيجة والأسوار الغريبة، حيث يعزلون المختفين. العنابر الزوجية مخصصة للسجناء أصحاب السوابق أو مرتكبي الجنايات الكبرى، بينما يشغل العنابر الفردية السجناء المستجدون، ممن لم يحكم عليهم بعد أو من يقضون أحكاماً خفيفة. وهذا يعني أن مaita في السنوات الأخيرة كان من ساكني أحد العنابر الزوجية. والسجناء موزعون في العنابر حسب الأحياء التي ينحدرون منها: حي أغوسطينو، فيينا إل سلفادور، لافكتوريا، حي المستقبل. في أي حي صنعوا مaita؟

السيارة تتقدم ببطء وأنتبه إلى أنني أخفف السرعة في كل لحظة، دون وعي مني، محاولاً أن أؤخر قدر الإمكان هذه الزيارة الثانية إلى لوريغانتشو. أترعبني فكرة المواجهة في النهاية مع الشخص الذي كنت أستقصي أخباره، وأستجوب الناس عنه، وأتخيل وأكتب عنه منذ سنة؟ أم أن اشمئزاري من هذا المكان يفوق فضولي في التعرف على مaita؟ عند انتهاء زيارتي الأولى تلك، فكرت: «ليس صحيحاً ما يقال عن أن السجناء يعيشون مثل حيوانات: الحيوانات لديها مجال أوسع للحركة؛ وحظائر

الكلاب، والمداجن، والإسطبلات فيها شروط صحية أفضل من لوريغانتشو».

ما بين العناير يوجد ما يسمى، بسخرية، جادة أونيون، وهو ممر ضيق ومزدحم يكاد يكون مظلماً في النهار وضبابياً في الليل، وفيه تحدث أشد الصدامات دموية بين عصابات السجن وقتله، وهناك يزيد القوادون على مخنثיהם. لقد كان ماثلاً في ذهني ما كان يمثله ممر الكوايس ذاك، بين مملكة حيوانات المصائب المسرئنة، من زنوج شبه عراة ومولدين موشومين، وخلاصيين بشعور مجده، وببيض محبولين وملتحين، وأجانب ذوي عيون زرق وقروه، وصينيين ضامرين وهنود متکورين إلى جانب الجدران ومجانين يكلمون أنفسهم. أعرف أن مايتا يدير منذ سنوات كشكًا للأطعمة والمشروبات في جادة أونيون. ومهما بحثت، لا تتوصل ذاكرتي إلى تذكر كشك البيع في المر الخانق. أتراني كنت مضطرباً جداً فلم أنتبه؟ أم أن الكشك كان مجرد بطانية على الأرض، يعرض عليها مايتا بضاعته من العصير والفواكه والسجائر والملياه الغازية؟

من أجل الوصول إلى العنبر الثاني كان علي أن أمر حول العناير ذات الأرقام الفردية وأجتاز حاجز من الأسلاك. وقد قال لي مدير السجن وهو يودعني عند الحاجز الأول إنني سأواصل التقدم على مسؤوليتي من هناك إلى الأمام، لأن الحراس الجمهوريين لا يدخلون ذلك القطاع كما لا يدخله أي شخص يحمل سلاحاً نارياً. وما كدت أجتاز سور القصبة الحديدية حتى انقض علي حشد كبير، وكانوا كلهم يومئون ويتكلمون معاً. فأحاط

بي أفراد الوفد الذين دعوني، وتقىمنا هكذا: أنا في وسط الحلقة، وفي خارجها حشد من السجناء الذين ظنوا أنني أحد المسؤولين، فراحوا يعرضون قضيابهم، وبهذرون، ويبحجون على إجراءات التعسف، ويصرخون ويطالبون بالاهتمام بهم. كان بعضهم يعبر عما يريده بتماسك، ولكن معظمهم يفعلون ذلك بصورة مشوّشة. لاحظت أنهم جميعهم هائجون، عنيفون، طائشون. وبينما نحن نمشي، وجدت إلى يساري، تفسيراً للننانة الراسخة وسحب الذباب: فقد كانت هناك مزيلة يبلغ ارتفاعها متراً حيث تراكمت دون شك فضلات السجن على امتداد شهور وسنوات. وكان هناك سجين ينام دون اهتمام بين الفضلات. لقد كان أحد المجانين الذين يُؤرّعون عادة على العناير الأقل خطورة، أي العناير ذات الأرقام الفردية. أتذكر أنني قلت بعد زيارتي الأولى تلك، ليس الغريب هو وجود مجانين في سجن لوريغانتشو، وإنما الغريب هو أن يكون عددهم قليلاً إلى ذلك الحد، وأن الستة آلاف سجين لم يتحولوا جميعهم إلى الجنون في هذا العار المذل. وماذا لو أن مايتا قد جنَّ في هذه السنوات؟

لقد عاد مرتين آخرين إلى السجن بعد أن أمضى أربع سنوات بسبب أحداث خاوخا، المرة الأولى بعد سبعة شهور من إطلاق سراحه في عفو عام. ومن الصعب جداً إعادة بناء قصته منذ ذلك الحين - إنها قصة بوليسية وجزائية -، لأنه على العكس من تلك الواقعة، لم يكن ثمة وثائق تقريراً حول الأعمال التي اتهم بالمشاركة فيها، ولا شهود يرغبون في فتح أفواههم. والنبذ الصحفية التي تمكنت من العثور عليها، في قسم أرشيف

الصحف في المكتبة الوطنية، هي موجزة إلى حد من المستحيل معه معرفة الدور الذي لعبه في عمليات السطوة تلك التي كان بطلها كما يبدو. ومن المستحيل كذلك معرفة إذا ما كانت تلك العمليات سياسية، أم مجرد جنح عادية. ومن معرفتي بما ياتا يمكنني أن أفكّر بأنه من غير المحتمل ألا تكون عمليات سياسية، ولكن ما الذي أعنيه بـ «معرفتي بما ياتا»؟ فما ياتا الذي استقصيته عنه كان عمره حوالي أربعين سنة، وعمر من هو ما ياتا اليوم يزيد على الستين. أيكون هو نفسه؟

في أي عنبر من عنابر سجن لوريفانتشو أمضى يا ترى هذه السنوات العشر الأخيرة؟ فهو العنبر الرابع، أم السادس، أم الثامن؟ لا بد أن هذه العناير جميعها مماثلة تقريباً لذلك العنبر الذي عرفته: إنها حجرات منخفضة السقف، باهتة الضوء (عندما لا يكون التيار الكهربائي مقطوعاً)، باردة ورطبة، لها نوافذ مزودة بقضبان حديدية وفيها حفرة تشبه البالوعة، دون أثر لراحيل، حيث امتلاك فسحة للالستقاء والنوم، مابين البراز والحشرات والفضلات، هو حرب يومية. وخلال احتفال افتتاح المكتبة - مجرد صندوق مطلي، فيه حفنة من الكتب المستعملة - رأيت عدداً من السكارى يتربخون. وعندما سكبوا في علب من الصفيح شراباً للنخب، عرفت أنهم يسکرون بخمر من اليكة الخمرة، وهي خمرة قوية جداً، تصنع في العناير نفسها. هل يسکر بهذه الخمرة أيضاً زميل دراستي المزعوم في لحظات الاكتئاب أو الانشراح؟ الواقعه التي أعادت مايata إلى السجن، بعد حادثة خاوحا، منذ إحدى وعشرين سنة، جرت في حي لافيكتوريا، بالقرب من

الشارع الذي كان مصدر عار للحي، لأنه وكر يقع بالموسمات: إنه شارع هواتيكا. وتقول صحيفة لا كرونيكا، وهي الصحيفة الوحيدة التي تحدثت عن القضية، إن ثلاثة أوغاد استولوا على كراج يستخدم كورشة للميكانيكي تيودورو رويث كانديا. وعندما وصل هذا الأخير إلى المكان، في الساعة الثامنة صباحاً، وجد ثلاثة أشخاص ينتظرون في الداخل وهم يحملون المسدسات. وبالطريقة نفسها وقع أسيراً في أيديهم كذلك صانعه المتدرب إليسيو كارابياس لوبيث. وكان هدف المهاجمين هو المصرف الشعبي. ففي عمق الكراج ثمة نافذة تفتح على أرض خلاء تطل عليها من الجهة الأخرى البوابة الخلفية لذلك الفرع المغربي. وقد كانت هناك شاحنة صغيرة تدخل إلى تلك الأرض الخلاء عند الظهيرة كل يوم، فيخرجون من البوابة الخلفية الأموال التي تودع في المصرف لنقلها إلى المكتب المركزي، أو يدخلون إلى المصرف النقود التي يرسلها إليه المصرف الأم من أجل معاملاته. وقد بقوا حتى ذلك الموعد في الورشة مع أسيرיהם. وكانوا يراقبون من خلال النافذة ويدخنون. وقد كانوا يغطون وجوههم، ولكن صاحب المحل وصانعه أكدوا أن أحد المهاجمين هو مايتا. بل قالوا أكثر من ذلك: إنه هو من كان يصدر الأوامر.

عندما سمع صوت محرك سيارة، قفزوا من النافذة إلى الأرض الخلاء، والحقيقة أنه لم يحدث إطلاق نار. فقد فاجأ المهاجمون السائق والحارس وجروهما من الأسلحة حين كان موظفو المصرف قد وضعوا في الشاحنة كيساً مختوماً يضم مبلغ ثلاثة ملايين سول. وبعد أن أجبروهما على التمدد على الأرض، فتح أحد

الأوغاد بوابة الأرض الخلاء المؤدية إلى جادة 28 تموز وتعلق راكضاً بالشاحنة التي كان رفيقاًه قد صعدا إليها مع الغنيمة. خرجنوا مسرعين. وبسبب العصبية أو بسبب خراقة السائق، صدمت الشاحنة مجلخ سكاكين وانحرفت لتصطدم بسيارة تكسي. وقد انقلبت الشاحنة، كما تقول جريدة لا كرونيكا، واستقرت مقلوبة وعجلاتها إلى أعلى. ولكن اللصوص تمكنا من الخروج منها والهرب. تم إلقاء القبض على مايتا بعد ساعات من ذلك. ولكن الخبر لا يقول إذا ما جرى استرداد النقود، كما أني لم أستطع أن أستقصي إذا ما تم اعتقال الشريكين الآخرين فيما بعد. ولم أتمكن كذلك من معرفة إذا ما كان مايتا قد حُوكِم بسبب عملية السطو. وثمة تقرير بوليسي حصلت عليه من مخفر شرطة لافكتوريا يورد، مع بعض التفاصيل الزائدة وبعض التفاصيل الناقصة، ما أورده خبر لا كرونيكا (وقد أتلفت الرطوبة ورقة التقرير بحيث صار من الصعب فك حروفه). ليس هناك أي أثر لمذكرة تحقيق قضائي. وفي ملفات وزارة العدل، حيث يُحتفظ بإحصاء المتهمين واستطلاعهم، تبدو القضية في ملف مايتا مشوشة جداً. ولكن هناك تاريخ مثبت - 16 نيسان 1963 - يجب أن يكون اليوم الذي نُقل فيه من مركز الشرطة إلى السجن، ثم تلي ذلك إشارة تقول: «محاولة سطو على مؤسسة مصرافية، مع وقوع جرحى ومصابين برضوض، إضافة إلى اختطاف، وحادث مروري وصدم عابر سبيل»، وأخيراً ذكر القاضي المسؤول عن القضية. وليس هناك معلومات أخرى. من المحتمل أن يكون التحقيق القضائي قد تأجل، أو أن يكون القاضي قد توفي أو فقد منصبه وتعطلت

القضايا كلها، أو ربما يكون ملف التحقيق قد ضاع بكل بساطة. كم سنة بقي مaita في سجن لوريغانتشو بسبب هذه الحادثة؟ لم أتوصل إلى معرفة ذلك أيضاً. فتاريخ دخوله السجن مسجل ولكن لا شيء عن تاريخ خروجه. هذا أحد الأشياء التي أحب أن أسأله عنها. وقد أضفت أثره على كل حال إلى ما قبل عشر سنوات، حين رجع مرة أخرى إلى السجن. وفي هذه المرة حكم وفق الأصول وصدر بحقه حكم بالحبس خمس عشرة سنة بتهمة «الابتزاز، والخطف، والاعتداء الإجرامي الذي أدى إلى خسارة حياة». فإذا كانت التواريخ الواردة في الملف دقيقة، فإنه موجود منذ أقل من إحدى عشرة سنة بقليل في سجن لوريغانتشو. لقد وصلتُ أخيراً، أنصاعاً للإجراءات: تفتيش من القدمين حتى الرأس يقوم به حراس جمهوريون، وتسلیم وثائق الشخصية التي ستبقى محجوزة في مركز الحراسة حتى انتهاءزيارة. وكان مدير السجن قد وجه تعليمات بتوصيلي إلى مكتبه. وقد قادني مساعد يرتدي الملابس المدنية إلى هناك، بعد اجتياز فناء، خارج المنطقة المسورة، يمكن السيطرة منه على السجن. هذا القطاع هو الأكثر نظافة والأقل اختلاطاً في السجن.

يقوم مكتب المدير في طابق ثان من بناء إسمنتي، بارد ومقشر الطلاء. إنه غرفة صغيرة لا يكاد يوجد فيها سوى طاولة حديدية وكرسين. الجدران عارية تماماً؛ وعلى المكتب لا يُرى أي قلم أو ورقة. المدير ليس هو نفسه الذي كان قبل خمس سنوات، بل رجل أكثر شباباً. وهو مطلع على سبب زيارتي وقد أمر بإحضار السجين الذي أرحب في التحدث معه إلى المكتب. سيعينني مكتبه من

أجل المقابلة، لأنه المكان الوحيد الذي يمكنني أن أتمتع فيه بالهدوء. «لابد أنك رأيت بأنه لا يوجد هنا في لوريغانتشو مجال للتحرك بسبب الازدحام.» ويضيف بينما نحن ننتظر، بأن الأمور لن تسير على ما يرام مطلقاً، بالرغم من الجهود التي تبذل. فالسجناء المهاجرون يهددون الآن بإضراب عن الطعام لأنه، حسب قولهم، سيجري تحديد الزيارات. لا يوجد أي شيء من هذا القبيل. فبكل بساطة، ومن أجل ضبط أفضل لهذه الزيارات التي هي السبب في إدخال المخدرات والكحول والأسلحة، جرى تحديد يوم لزيارات النساء ويوم آخر لزيارات الرجال. وهكذا سيكون هناك أناس أقل في كل مرة مما يتاح تفتيش كل زائر بدقة أكبر. لو أتنا نتمكن على الأقل من كبح تهريب الكوكايين، فإننا سنتحول دون موت الكثرين. فمن المعروف أنهم يهاجمون بعضهم بعضاً بأدوات حادة بسبب المخدرات، أكثر مما يفعلون ذلك بسبب الكحول أو النقود أو المخنثين. ولكنه ما زال من المستحيل حتى الآن الحيلولة دون إدخالها. ألا يتاجر رجال الشرطة وحراس السجن كذلك بالمخدرات؟ فينظر إلى وكأنه يقول: «لماذا تسأل إذا كنت تعرف ذلك؟».

– وهذا أمر من المستحيل أيضاً تفاديه. فمهما ابتدعنا من أساليب المراقبة، فإنهم يتمكنون دوماً من تجاوزها. إذ إن إدخال ميلغرام من الكوكايين مرة واحدة، يتاح لأي حارس أن يضاعف راتبه. أتعرف ما الذي يتقادسه هؤلاء الحراس؟ لذلك يجب عدم الاستغراب. هناك كلام كثير عن مشكلة سجن لوريغانتشو. ولكن هذه المشكلة لا وجود لها. فالمشكلة هي البلاد.

يقول ذلك دون مرارة، وكأمر جلي لا بد من أخذه بعين الاعتبار. يبدو أنه متحمس وطيب النوايا. والحقيقة أنني لا أحسده على منصبه. تقطع حديثاً طرقات على الباب.

- سأتركك مع الشخص المطلوب إذن - يقول لي ذلك وهو يمضي ليفتح الباب، ويضيف: - خذ الوقت الذي تحتاجه. الشخص الذي يدخل الغرفة هو رجل نحيل ذو شعر مفتل وأبيض البشرة، له لحية متقرفة الشعر، ويرتجف من رأسه حتى قد미ه، وهو يرتدي ستة تترافق عليه. وينتعل حذاء رياضياً ممزقاً وعيناه المذعورتان تدوران في محجريهما. لماذا يرتجف هكذا؟ أهو مريض أم خائف؟ لا أجد ما أقوله. كيف يمكن له أن يكون هو؟ إنه لا يشبه بأي حال مايتا الذي في الصور. ويمكن القول إنه أصغر منه بعشرين سنة.

- أنا أريد التحدث مع أليخاندو مايتا - أتلعثم.

فيرد بصوت خرع:

- أنا أدعى أليخاندرو مايتا - . ويبدو أن يديه وبشرته وحتى شعره مصابة بالاضطراب.

فأقول بتردد:

- أنت صاحب قضية خاوحا مع الملازم بايغوس؟
ويهتف وقد أدرك الوضع:

- آه، لا، لستُ هو. إنه لم يعد موجوداً هنا.
يبدو وكأنه قد اطمأن، كما لو أن إحضاره إلى الإدارة يشكل خطراً قد تبدد للتو. يدور على عقبيه ويقرع الباب إلى أن يفتحوه ويظهر المدير يرافقه رجال. ويوضح ذو الشعر المفتل دون أن

يتوقف عن الارتجاف بأنه ليس من أبحث عنه وإنما هو مايتأ الآخر.
يغادر مسرعاً بحذائه الأبكم، وهو يرتعش.

ويسأل المدير أحد مرافقيه:

- هل تعرفه يا كاريؤ؟

- بالطبع، بالطبع - يقول السمين الشائب ذو الشعر الحليق
والكرش البارز فوق الحزام، ثم يضيف: - مايتأ الآخر. ألم يكن
سياسيّاً بعض الشيء؟

- أجل - أقول له .. هذا هو الذي أبحث عنه.

ويوضح لي على الفور:

- لقد فقدته حضرتك بفارق بسيط. فقد خرج الشهر الماضي.
وأفكّر في أنني قد فقدته، وبأنني لن أجده أبداً، وبأنه ربما
كان ذلك أفضل. إذ يمكن للقاء مع مايتأ الذي من لحم وعظم أن
يُفسد ما أفعله بدل أن يساعدني. لا تعرفون إلى أين ذهب؟ لا
يوجد عنوان يمكن الوصول إليه؟ لا يوجد له عنوان وليس لديهم
أية فكرة عن مكان وجوده. أقول للمدير ألا يزعج نفسه
بمرافقي. ولكن كاريؤ يأتي معي، وبينما نحن ننزل السلم،
أسأله إن كان يتذكر مايتأ جيداً. إنه يتذكره بالطبع؛ فهو نفسه
قد أمضى وقتاً طويلاً هنا باعتباره أقدم السجناء. لقد دخل السجن
كأي مجرم عادي وهو الآن مساعد مدير السجن. يا للأمور التي
رأتها عيناه!

ويقول لي:

- لقد كان سجيننا جدياً وهادئاً جداً، لم يتدخل في المشاكل
قط. وكانت لديه رخصة بكشك مأكولات في العنبر الرابع. إنه

شخص شغيل. لقد رتب أمره لتأمين حياة أسرته بينما هو يقضى محكوميته. وقد بقي هنا عشر سنوات على الأقل في المرة الأخيرة.

- أتقول أسرته؟

فيضيف:

- له زوجة وثلاثة أو أربعة أبناء. وكانت زوجته تأتي لزيارته كل أسبوع. إنني أتذكر التسللو مايتا جيداً. إنه يمشي كأنه يمشي على بيض، أليس كذلك؟
كنا نجتاز الفناء بين الأسلاك، باتجاه مركز الحراسة عند المدخل، عندما توقف معاون المدير فجأة:

- انتظر. يمكن أن يكون عنوانه لدى آريسبي. فقد ورث منه كشك المأكولات في العنبر الرابع. بل أظن أنهما مازالا شريكين. سأستدعيه وربما تكون محظوظاً.

بقيت أنا وكاريو في الفناء، قبالة حاجز الأسلاك. ومن أجل شغل الوقت رحت أسأله حول لوريغانتشو. ومثلكما قال المدير، يقول هو إن المشاكل تبرز هنا دوماً. لأنه يوجد أناس سيئون، أجل يا سيدى.. أناس يبدون كما لو أنهم ولدوا مجرد أن يلحققوا بالآخرين أشكالاً لا تخطر على بال من التكبيل. وفي البعيد، يظهر لنا جناح المختفين مشوهاً تنسق العناصر الهندسي. هل مازلتם تحبسونهم هناك؟ أجل. مع أن ذلك لا ينفع كثيراً، فعلى الرغم من الحاجز والموابع مازال السجناء يدخلون إلى هناك والمخنثون يخرجون والحال هو مثلكما كان على الدوام تقريباً. ولكن المشاكل صارت أقل منذ أن عزلوا في عنبر خاص بهم. في السابق، عندما كانوا مختلطين بالآخرين، كانت المشاجرات وعمليات القتل من أجدهم أسوأ

بكثير. أتذكر محادثة قصيرة أجريتها في زيارتي الأولى مع أحد أطباء السجن، حول اغتصاب القادمين الجدد. «الحالة الشائعة هي تقيح المستقيم، أو إصابته بالغرغرينا، أو تسرطنه». وأسئل كاريوا عما إذا كانت عمليات الاغتصاب موجودة دائمًا. فيضحك. «إنه أمر لا مفر منه حين يتعلق ذلك بأناس مكتوبتين إلى هذا الحد، إلا تعتقد ذلك؟ عليهم أن يُخمدوا طاقاتهم بطريقة ما». يأتيأخيراً السجين الذي بعث بطلبه. أشرح له سبب بحثي عن مaita، هل تعرف أين يمكن العثور عليه؟

إنه رجل حسن المظهر، يلبس بصورة لائقة نسبياً. يستمع إلى دون أن يسألني شيئاً. ولكنني أراه مرتاباً وأنا واثق من أنه لن يقدم لي أي مساعدة. فأطلب منه عندئذ أن يعطي رقم هاتفى لمايتا عندما يراه في المرة القادمة. فيجسم أمره بجفاء ويقول لي:

- إنه يشتغل في محل مثلاجات. في حي Mirafloris.

إنه محل مثلاجات موجود منذ سنوات طويلة، في شارع بولوغنسى المشجر، وأنا أعرفه جيداً منذ أيام فتوتى، فقد كانت تسكن في تلك المنطقة فتاة جميلة جداً ذات اسم حدائقى: Flora Floris. إنني واثق من أن دكان المثلاجات كان موجوداً منذ ذلك الوقت وأنتا دخلنا إليه في إحدى المرات أنا وFlora الجميلة لتناول قمماً من مثلاجات الخوخ. إنه محل صغير، مجرد كراج أو شيء من هذا القبيل، وهو شيء فريد في ذلك الشارع الذي لا وجود فيه لدكاكين، حيث لا يوجد سوى بيوت Mirafloris التقليدية التي ترجع إلى عقد الخمسينيات، والمؤلفة من طابقين، مع حديقة عند المدخل ونباتات الجيرانيوم التي لا بد منها، ونباتات الجهنمية

وشجيرات البونسانا ذات الأزهار الحمراء، تسيطر على عصبية لا يمكن التحكم بها عندما ألتقط أخيراً من الكورنيش وأتقدم في شارع بولوغنسي. أجل المحل موجود حيث أتذكّره بالضبط، على بعد أمتار قليلة من هذا المنزل الرمادي ذي الشرفات، حيث كنت أرى ظهور وجه فلورا العذب وعينيها المشعتين. أوقف السيارة قبل أمتار من دكان المثلجات وأتمكن بصعوبة من إغلاق السيارة بالفتح بسبب البلادة التي حلّت بيديّ.

لا يوجد أحد في المحل الذي هو ضيق بالفعل، ولكنه حديث، فيه مجموعة طاولات ذات مشمع مزين بأزهار ملتصقة بالجدار. والشخص الذي يقوم بالخدمة هو مايتا. إنه يلبس قميصاً قصير الأكمام، وهو أسمى قليلاً، وأكبر قليلاً مما يبدو في الصور، ولكنني قادر على التعرف إليه فوراً بين عشرات الأشخاص.

أقول له وأنا أمد يدي:

- أنت أليخاندرو مايتا. أليس كذلك؟

يتفحصني بضع ثوان ويترسم فاتحاً فماً تقصه بعض الأسنان. يرمش، محاولاً أن يتذكّرني. ثم يتخلى عن المحاولة أخيراً ويقول:
- آسف، ولكني لا أتذكّر. تصورت أنك قد تكون سانتوس،
ولكنك.. حضرتك، لست سانتوس، أليس كذلك.

وأقول له وأنا أستند بمرفقتي إلى الكونتور:

- لقد بحثت عنك منذ زمن طويل. وأنا أنبهك إلى أنك سوف تُفاجأ كثيراً. إنني قادم للتو من لوريغانتشو. ومن أخبرني بكيفية الوصول إليك هو آريسيبي، شريكك في العنبر الرابع.
أراقبه بدقة، لأرى كيف ستكون ردة فعله. لا تبدو عليه

المفاجأة ولا القلق. ينظر إليّ بفضول، وهناك بقية من ابتسامة ضائعة على الوجه الأسمر. إنه يرتدي قميصاً قطنياً، وألاحظ أن يديه غليظتان كأنهما يدا عامل خراطة أو فلاح. وأكثر ما يشد انتباهي فيه هو قصة شعره السخيفه: لقد قصوا له الشعر بضريرات مقص دون تشذيب، فبدأ رأسه كنوع من المكنسة، إنه شيء مضحك. وقد ذكرني بستي الأولى في باريس، حين كنت أمر بضائقه اقتصادية كبيرة، فاعتذرنا أنا وصديق من مدرسة بيرلتز، حيث كنت أقوم وإياه بتعليم اللغة الإسبانية، الذهاب لقص شعرينا في معهد لتعليم قص الشعر بالقرب من الباستيل. فكان المتدربون، وهم أطفال، يقصون لنا شعرنا مجاناً، ولكنهم يتذمرون رأسينا مثلما هو الآن رأس زميل دراستي المختلف. ينظر إليّ مضيفاً عينيه القاتمتين والمعتيدين - كل ما حولهما ممتلى بالتجاعيد - وقد تولدت ومضة عدم ثقة في حدقتيه.

فأقول له:

- لقد أمضيتُ سنة في الاستقصاء حولك، والتحدث مع الناس الذين عرفوك. والتخيل، بل والحلم بك. لأنني كتبت رواية لها علاقة، مع أنها علاقة نائية جداً، بقصة خاوحا تلك. ينظر إلي دون أن يقول شيئاً، ولكنه فوجئ الآن بالفعل، دون أن يفهم، دون أن يكون متأكداً من أنه سمع جيداً، وهو هو الآن يقلق. يتلعلعث:

- ولكن... لماذا خطر لك... كيف جرى ذلك...
- لست أدرى لماذا ولا كيف، ولكن هذا هو ما كنت أفعله طوال هذه السنة - أقول له مستيقناً، وقد ارتعبت من رعبه، ومن أن

يرفض مواصلة هذا الحديث، ومن أن يتحوال إلى حديث آخر.
فأوضح له:- في الرواية هناك على الدوام أكاذيب أكثر من
الحقائق، فالرواية ليست دائمًا قصة وفية. وتلك التحريات،
والمقابلات لم تكن من أجل رواية ما جرى حقاً في خاوحا، وإنما
لكي أكذب وأنا أعرف ما أكذب حوله.

الاحظ أنني بدل أن أطمئنه، أزيد من بلبلته واضطرابه. يرمش
عينيه، ويبيقى فمه مفتوحاً وقد أصابه البكم. ثم يخرج من المأزق:
ـ آه، أنت الكاتب. أجل، لقد عرفتك الآن. بل إنني قرأت
إحدى روایاتك على ما أظن.. منذ سنوات.

في هذه الأثناء يدخل ثلاثة فتيان متعرقين، يمكن الحكم
من خلال ملابسهم بأنهم قادمون من ممارسة الرياضة. يطلبون
زجاجات مياه غازية ومثلجات. وبينما مايتا يلبي طلباتهم أتمكن من
مراقبته وهو يتحرك بين موجودات المحل. إنه يفتح الثلاجة، ويملا
الأقماع، ينزع أغطية الزجاجات، يقدم الكؤوس بطلاقه وتالفة
يكتشفان عن خبرة عملية جيدة. أحاوّل أن أتصوره في العنبر الرابع
من سجن لوريغانتشو، وهو يقدم عصير الفواكه، وعلب
البسكويت، وفناجين القهوة، وبيبع السجائر للسجناء الآخرين،
كل صباح، وكل مساء، على امتداد عشر سنوات. من الناحية
الجسدية لا يبدو مهزوماً: إنه رجل قوي البنية، يحمل بوقار سنوات
عمره التي تزيد على الستين. بعد أن قبض الثمن من الرياضيين
الثلاثة، يعود إلى جانبي، مبتسمًا ابتسامة اضطرارية.

ـ يا للعجب - يدمدم - هذا آخر ما كان يمكن أن يخطر لي.

أنتقول رواية؟

ويهز رأسه غير المصدق من اليمين إلى اليسار ومن اليسار إلى اليمين.

فأؤكد له :

- اسمك الحقيقي لن يظهر في الرواية بالطبع - أؤكد له -. وقد غيرت كذلك بالطبع التواريف والأماكن والشخصيات، وخلطت الأمور، وأضفت وحذفت ألف شيء. كما أني اختلت بيروقراطية، تعبر بها الحرب والإرهاب والتدخلات الأجنبية خراباً. ولن يتعرف أحد بالطبع على أي شيء وسيعتقد الجميع أنها محض خيال. وقد اختلت كذلك أننا كنا زميين في المدرسة، وأننا في السن نفسها وصديكان مدى الحياة.

- بالطبع - ينطق ذلك وهو يمعن النظر إلى بارياب، محاولاً حل الغازى شيئاً فشيئاً.

فأضيف :

- أرغب في تبادل الحديث معك. في توجيهه بعض الأسئلة، وتوضيح بعض الأمور. ما ترحب أنت في أن تخبرني به فقط بكل تأكيد. هناك أحجيات كثيرة مازالت تدور في رأسي. ثم إن هذه المحادثة ستكون الفصل الأخير. لا يمكنك أن تذكر على ذلك، لأن روايتي ستبقى عرجاء.

أضحكُ ويضحك هو أيضاً ونسمع الرياضيين الثلاثة يضحكون. ولكنهم يضحكون لطيفة رواها أحدهم. وفي هذه الأثناء تدخل سيدة لتطلب نصف ليبرة من الفستق الحلبي والشوكولاتة، مناصفة، لتأخذها. وعندما ينتهي من خدمتها، يعود مايتا إلى جانبي. ويقول :

- قبل سنتين أو ثلاثة سنوات، ذهبت جماعة شبان من حزب الطليعة الثورية لمقابلتي في لوريغانتشو. كانوا يريدون التعرف على قضية خواخا.. يريدون شهادة مكتوبة. ولكنني رفضت ذلك.

- الأمر مختلف - أقول له -. فاهتماماتي ليست سياسية، وإنما أدبية، أعني... .

فيقاطعني رافعاً إحدى يديه:

- أعرف، أعرف. لا بأس، سأهدي إليك ليلة واحدة. لا أكثر، لأنه ليس لدى وقت، والحقيقة أنني لا أحب التكلم في هذه الشؤون. أيناسبك يوم الثلاثاء القادم؟ إنه الموعد الذي يناسبني، لأنني لا أبدأ العمل هنا في أيام الأربعاء حتى الساعة الحادية عشرة ويمكنني أن أنام متأخراً في الليلة السابقة. أما في الأيام الأخرى فأخرج من بيتي في الساعة السادسة، لأنه علىَّ أن أركب ثلاث حافلات من أجل الوصول إلى هنا.

اتفقنا على أن أحضر لأخذه عند خروجه من عمله، بعد الساعة الثامنة. وعندما كنت أغادر ناداني:

- تناول شيئاً من المثلجات، على حساب المحل. وسترى كم هي جيدة. لعلك تصبح زبوناً عندنا.

قبل أن أعود إلى بارانكو، أقوم بجولة على الأقدام في الحي، محاولاً أن أعيد تنظيم الأمور في رأسي. أتوقف قليلاً تحت شرفات البيت الذي عاشت فيه الجميلة فلورا فلوريس. لقد كان لها شعر كستائي، وساقان طويلة، وعينان بزرقة ماء البحر. وعندما كانت تصعد إلى شاطئ ميرافلوريس الحصوي، بشوب استحمامها الأسود وخفها الأبيض، كان الصباح يمتلئ بالضوء،

والشمس تصبح أكثر دفئاً، والأمواج تتدفع بسعادة أكبر. أتذكر أنها تزوجت من طيار ما لبث أن قُتل بعد شهور قليلة حين اصطدم بإحدى قمم سلسلة الجبال، بين ليما وتينغو ماريا، وهناك من أخبرني بعد سنوات بأن فلورا قد تزوجت ثانية وأنها تعيش في ميامي. أصعد حتى جادة غراو. عند هذه الناصية كان يوجد حي فيه فتيان يتنافسون معنا - نحن فتيان شارع ديففو فيرو وكولون، في الجهة الأخرى من ميرافلوريس - في مباريات كرة قدم حامية الوطيس في نادي تراثاس، وأتذكر اللهفة التي كنت أنتظر بها في طفولتي هذه المباريات وإحساسي الرهيب بالإحباط حين يضعوني في الاحتياط. عندما رجعت إلى السيارة، بعد نصف ساعة، كنت قد استعدت تمسكى بعد اللقاء بمايتا.

الواقعة التي أعادته إلى لوريغانتشو، والتي أمضى بسببها هناك هذه السنوات العشر الأخيرة، موثقة جيداً في الصحف وفي المحفوظات القضائية. لقد وقعت الحادثة في مجدىينا القديمة، غير بعيد عن المتحف الانثربولوجي، في فجر أحد أيام كانون الثاني عام 1973. كان مدير فرع مصرف بويبلو ليبرى للاعتمادات يسقي حديقته الداخلية - وهو ما يفعله كل صباح قبل أن يبدل ملابسه - عندما قرع الجرس. وفكرا في أن بائع الحليب قد حضر أكبر من عادته في الأيام الأخرى. ولكنه وجد عند الباب أربعة أشخاص يغطون وجوههم بطاقيات الأقنعة ويصوبون إليه مسدساتهم. دخلوا معه إلى غرفة زوجته، فقيدوها في سريرها بالذات. وبعد ذلك - ويبدو أنهم كانوا يعرفون المكان - دخلوا إلى غرفة نوم ابنته الوحيدة، وهي صبية في التاسعة عشرة، تدرس السياحة. وانتظروا

إلى أن ارتدت الفتاة ثيابها ثم حذروا السيد من أنه إذا أراد أن يراها ثانية، فعليه أن يأخذ خمسين مليون سول في حقيبة إلى حديقة لوس غاريفوس، بالقرب من الستاد الوطني. ثم اختفوا مع الفتاة في سيارة تكسي كانوا قد سرقوها في اليوم السابق.

قدم السيد فوينتس بلاغاً إلى الشرطة، وانصاع لتعليماتها، فحمل حقيبة مملوءة بالورق إلى حديقة لوس غاريفوس. وكان قد انتشر فيما حول المكان تحريون بملابس مدينة. لم يقترب منه أحد ولم يتلق السيد فوينتس أي خبر طوال ثلاثة أيام. وعندما كان اليأس قد سيطر عليه وعلى زوجته، تلقى مكالمة أخرى: إن الخاطفين يعرفون أنه قد أبلغ الشرطة. إنهم يمنحونه فرصةأخيرة. يجب عليه أن يأخذ النقود إلى ناصية معينة في شارع أبياثيون. أوضح لهم السيد فوينتس أنه لا يستطيع الحصول على الخمسين مليوناً، لأن المصرف لن يعطيه مثل هذا المبلغ، ولكنه مستعد لأن يقدم إليهم كل مدخراته التي تبلغ حوالي خمسة ملايين. فأصر الخاطفون: إما خمسون وإما أن يقتلوها. استدان السيد فوينتس أموالاً، ووقع كمبيالات وتمكن من جمع حوالي تسعة ملايين حملها في تلك الليلة إلى حيث أمروه، ودون أن يخبر الشرطة في هذه المرة. مرت سيارة بجواره، وتناول الشخص الذي كان إلى جانب السائق الحقيبة دون أن يتفوه بكلمة. وبعد ساعات عادت الفتاة إلى بيت أبيها. كانت قد استأجرت سيارة تكسي من جادة كولونيال، حيث تركها خاطفوها بعد أن أمضت ثلاثة أيام وهي معصوبة العينين وشبه مخدرة بالكلوروفورم. وكانت في حالة من الإضطراب استدعت إدخالها إلى مستشفى إيمبليادو. بعد أيام قليلة، نهضت في

الغرفة التي كانت تتقاسماها مع مريضه أجريت لها عملية الزائدة الدودية، ودون أن تتطق بأي كلمة ألقت بنفسها في الفضاء.

انتهار الفتاة الذي استغلته الصحافة أثار هياج الرأي العام.

وبعد أيام قليلة أعلنت الشرطة أنها قد اعتقلت زعيم العصابة - مايتا - وأن شركاءه على وشك الوقوع في يدها. وحسب ما قالته الشرطة، فإن مايتا قد اعترف بفعلته وكشف كل التفاصيل.

ولكن لم يظهر أي أثر للشركاء ولا للنقود فقط. وفي المحاكمة أنكر مايتا تدخله في عملية الاختطاف، بل قال إنه لم يكن يعلم بأمرها، وأصر على أن الاعتراف المزيف قد انتزع منه تحت التعذيب. استمرت المحاكمة عدة شهور، وكان يحيط بها في أول الأمر غضب الصحف الذي ما لبث أن فتّر. وصدر الحكم بالحبس مدة خمس عشرة سنة بحق مايتا الذي رأت المحكمة أنه مذنب في عملية اختطاف، وابتزاز، وقتل غير مباشر، على الرغم من صرحته بأنه بريء. ولم يكن ممكناً تأكيد ما كان يكرره من أنه في يوم الاختطاف كان موجوداً في باكاسمايو للاستقصاء عن إمكانية حصوله على عمل. وقد أضرت به جداً شهادة الزوجين فوينتس، إذ أكدوا كلامهما بأن صوته ومظهره يتطابقان مع صوت وهيئة أحد المقنعين. أما محامي مايتا، وهو صياد قضايا غامض، فكان سلوكه طوال المحاكمة ينم عن الخراقة والإجر، وقد استأنف الحكم. ولكن المحكمة العليا أكدته بعد حوالي سنتين. وإطلاق سراح مايتا بعد قضاء ثلثي مدة الحكم يؤكّد دون شك ما قاله لي السيد كاريُو في سجن لوريغانتشو: بأن سلوكه خلال تلك السنوات العشر كان مثالياً.

عندما مررت للبحث عنه في محل المثلجات يوم الثلاثاء في الساعة الثامنة ليلاً، كان مايتا ينتظري وهو يحمل حقيبة لا بد أنها تضم ملابسه التي يستخدمها في العمل. كان قد غسل وجهه وسرح ذلك الشعر غير المناسب؛ وكانت قطرات من الماء تسيل على رقبته. إنه يرتدي قميصاً أزرق مخططاً، وسترة رمادية ذات مريعات، باهتة اللون وفيها بعض الرقع، وبنطالاً خاكي اللون مجعداً، وحذاء ثقيلاً، من تلك الأحذية التي تستخدم لمسافات الطويلة. أهو جائع؟ أذهب إلى أحد المطاعم؟ فيقول لي إنه لا يأكل أبداً في الليل، وإنه من الأفضل أن يبحث عن مكان هادئ. بعد بضع دقائق كنا في مكتبي، وجهاً لوجه، نشرب كأسين من المياه الفازية. لم يشأ أن يشرب بيرة أو أي مشروب كحولي آخر. ويقول لي إنه توقف عن التدخين والشراب منذ سنوات عديدة.

كانت بداية الحديث كثيبة بعض الشيء. سأله عن مدرسة ساليسيانو. فقد درس هناك، أليس كذلك؟ بل. لم يعد لرؤيه زملائه منذ قرون وهو لا يكاد يعرف إلا القليل عن هذا أو ذاك، عندما يظهر في الصحف فجأة أن أحدهم مهني، أو رجل أعمال، أو سياسي. وهو لا يعرف شيئاً كذلك عن الرهبان الذين علموه في المدرسة، بالرغم من أنه، كما يخبرني، قد التقى منذ أيام بالتحديد بالأب لويس في الشارع. وهو من كان يعلم الصغار. إنه عجوز عجوز، وشبهه أعمى، ظهره منحن، يجرجر قدميه مستنداً إلى عصا مكنسة. وقد قال له إنه قد خرج ليتمشى قليلاً في شارع البرازيل، وإنه قد عرفه، ولكنه - ويبيسم مايتا - لم يكن يدرك بالطبع مع من يتكلم. لا بد أن قد بلغ المئة سنة أو تجاوزها.

عندما عرضت عليه المواد التي جمعتها حوله وحول مغامرة خاوحا - قصاصات صحف، نسخ مصورة من ملفات التحقيق، صور، خرائط دروب، بطاقات حول أبطال المغامرة والشهدود، دفاتر ملاحظات ومقابلات - رأيته يت sham، يت shuf، يلمس كل تلك المواد بغير من الذهول والارتباك. لقد نهض عدة مرات ليذهب إلى المرحاض. ويوضح لي بأن لديه مشكلة في الكليتين، فهو يشعر دائماً بالرغبة في التبول، ولكنه يكون إنذاراً زائفاً في أغلب المرات ولا يتبول إلا بضع قطرات فقط.

- الانتقال في الحالات من بيتي إلى دكان المثلجات هو مشكلة. فالطريق كما قلت لك تستغرق ساعتين. ومن المستحيل التحمل بالرغم من أنني أتبول قبل الصعود. وفي بعض الأحيان لا أجد مفرأً من أن أبلل سروالي، مثل الأطفال.

أسأله ببلاهة:

- هل كانت قاسية تلك السنوات في لوريغانتشو؟
فينظر إلى ذاهلاً. هناك صمت شامل في الخارج، في كورنيش بارانكو. لا يسمع حتى صوت رجوع الأمواج.
ويجيب بعد بعض الوقت بنوع من الخجل:

- لم تكن حياة باشا. إنها صعبة في البداية. ولكن المرء يعتاد على كل شيء، أليس كذلك؟
ها هو أخيراً شيء يتفق فيه مع مايتأنا الشهادات التي جمعتها: هذا الحباء، والتكتم في الحديث عن مشاكله الشخصية، وفي الكشف عن أشيائه الحميمية. ويعترف لي على الفور بأن الشيء الوحيد الذي لم يستطع أن يعتاد عليه هو حراس السجن الجمهوريون.

لم يكن يعرف ما معنى الحقد إلى أن اكتشف المشاعر التي يبعثونها في السجناء. إنه حقد مختلط برعب هستيري بالطبع. لأنهم حين يجتازون حاجز الأسلاك ليضعوا حداً لشاجرة أو لإضراب، يفعلون ذلك على الدوام وهم يطلقون الرصاص أو يوجهون الضربات دون الاهتمام بما إذا كان من سيسقطون ظالمين أو مظلومين.

- لقد حدث ذلك في نهاية العام الماضي، أليس كذلك؟ -

أقول له - عندما وقعت المذبحة.

فيوافق قائلاً :

- في 31 كانون الثاني. لقد دخل نحو عشرة منهم للاحتفال بالأعياد. كانوا يريدون أن يتسللوا كما قالوا، وأن يأخذوا عيدية رأس السنة. وكانوا مخمورين جداً.

جرى ذلك في حوالي الساعة العاشرة ليلاً. راحوا يفرغون أسلحتهم من وراء أبواب ونوافذ العنابر. انتزعوا من السجناء كل ما في السجن من نقود، ومشروبات، وماريجوانا، وكوكايين وظلوا يتسللون حتى الفجر، يطلقون عليهم النار، ويهشمونهم بأعصاب البنادق وهم يجبرونهم على القفز كالضفادع أو اجتياز ممر قائم، أو يكسرون رؤوسهم وأسنانهم بالركلات.

ويقول:

- العدد الرسمي للقتلى هو خمسة وثلاثون. والحقيقة أنهم قتلوا ضعف هذا العدد أو أكثر. وقد قالت الصحف فيما بعد إنهم كانوا يمنعون محاولة فرار.

يقوم بحركة تنم عن التعب ويعود صوته هامساً. لقد كان السجناء يرتمون فوق بعضهم بعضاً مثماً في لعبة الركبي،

مشكلين جبالاً من الأجساد البشرية ليحتموا. ولكن هذه الحادثة ليست أسوأ ذكرياته عن السجن. فربما كانت أسوأها في الشهور الأولى، عندما اقتيد من لويغانتشو إلى القصر العدلي من أجل التحقيق القضائي، في واحدة من تلك العribات المزدحمة ذات الجدران المعدنية. فقد كان على السجناء أن يبقوا مقرفصين ورؤوسهم تلامس الأرض، ولدى أدنى محاولة لرفع الرأس والنظر إلى الخارج، يتعرضون للضرب الوحشي. والشيء نفسه يحدث في طريق العودة. ومن أجل الصعود إلى العربية كان لا بد من المرور جرياً بين صفين من الحراس الجمهوريين، وأن يختار السجين إما تغطية رأسه أو خصيته، إذ إنهم يتلقون طوال الطريق ضربات بالهراوات، وركلات، وبصقات. يبقى ساهماً لبعض الوقت -

وكان قد عاد لتوه من الحمام - ثم يضيف دون أن ينظر إلى:

- عندما أقرأ أنهم قد قتلوا واحداً منهم،أشعر بسعادة كبيرة.
- إنه يقول ذلك بحد مفاجئ، عميق، لا يلبث أن يت弟兄 بعد لحظة من ذلك، عندما أسأله عن مaita الآخر، ذلك النحيل الأجدد الذي يرتجف بطريقة غريبة.
- إنه لص حقير ذاب رأسه من كثرة الكوكايين - يقول لي -.
لنعيش طويلاً.

ويكتسب صوته ووجهه عذوبة عندما يتكلم عن كشك المأكولات الذي كان يديره مع آريسيبي في العنبر الرابع.

- لقد قمنا بشورة حقيقة - يؤكّد لي بفخر -. وكسبنا احترام الجميع. كنا نفلي الماء من أجل عصير الفواكه، ومن أجل القهوة، ومن أجل كل شيء. وكنا نقوم بغسل الملاعق والكؤوس والأطباق

قبل وبعد كل استخدام. فالنظافة أولاً. أجل، لقد كانت ثورة. ورتبا نظام كوبونات للديون. وقد لا تصدقني إذا قلت لك إنهم لم يحاولوا سرقتنا سوى مرة واحدة. لقد تلقيت ضربة سكين هنا، في ساقي، ولكنهم لم يستطيعوا أخذ أي شيء. بل إننا أقمنا ما يشبه المصرف، لأن كثيرين كانوا يعطوننا نقودهم لنجبيها لهم. من الواضح أنه لا يرغب في التحدث عما يهمني: أعني أحداث خواخا. فكلما حاولت حمله على الحديث عنها، يبدأ بتذكرها، وسرعان ما يحرف الحديث بطريقة مزعجة إلى مواضيع معاصرة. عن أسرته مثلاً. فيقول لي إنه قد تزوج في فترة الحرية بين مرحلتي سجنه الأخيرتين في لوريفانتشو، ولكنه في الحقيقة تعرف على زوجته الحالية في السجن، في المرة السابقة. فقد كانت تأتي لزيارة أخيها السجين الذي عرفه عليها. وتبادل الرسائل وعندما خرج طليقاً تزوجا. وقد شكل دخوله إلى السجن مرة أخرى ضربة قاسية لزوجته. فاضطررت في السنوات الأولى إلى تحطيم روحها لكي توفر الطعام للصغار، إلى أن تمكّن هو من مساعدتها بفضل إدارته للكشك. وفي تلك السنوات الأولى كانت زوجته تعمل في الحياكة وتعرض بضاعتها من بيت لبيت. وكان هو أيضاً يحاول أن يبيع شيئاً منها في لوريفانتشو، فالكنزات الصوفية كانت مطلوبة إلى حد ما.

وبينما أنا أستمع إليه، أقوم بمراقبته. فانطباعي الأول بأنه رجل في حالة جيدة، معافٍ وقوى، هو انطباع زائف. فحالته الصحية ليست على ما يرام. وليس ذلك بسبب كليتيه اللتين تضطرانه الذهاب إلى الحمام في كل لحظة فقط. بل لأنه يتعرق

كثيراً ويشنق في بعض اللحظات كما لو أن وعكة تلم به. إنه يمسح جبهته بمنديل، وبين حين وآخر ينقطع كلامه بسبب نوبة تشنج. أهو مريض؟ أ يريد أن نوقف المقابلة؟ لا، إنه في أحسن حال، فلنواصل.

وأقول له بفترة:

- يبدو لي أنك غير راغب فيتناول موضوع باي خوس وخواخا. هل يزعجك الموضوع بسبب ما يعنيه من إخفاق؟ أم بسبب النتائج التي أوصل حياتك إليها؟
ينكر ذلك بهز رأسه عدة مرات.

- يزعجي الحديث في الأمر لأننيلاحظ أنك تعرف عن الموضوع أكثر مني - يبتسّم.. - أجل، لستُ أمزح. فقد نسيتُ أشياء كثيرة، وهناك أشياء أخرى غائمة في ذاكرتي. أود أن أساعدك وأروي لك. ولكن المشكلة هي أنني لم أعد أعرف جيداً كل ما حدث، ولا كيف حدث. لا بد أنك تدرك بأن وقتاً طويلاً قد مضى على كل ذلك.

أهي مجرد تعللات وتصنع؟ لا. إن ذكرياته متربدة، وأحياناً خاطئة. ويتجه علىَّ أن أصحح له في كل خطوة. يذهلني ذلك، لأن سيطرة هذا الموضوع على عقلي طوال هذه السنة، جعلني أفترض بسذاجة أن بطل الحدث كان مشغولاً به أيضاً وأن ذاكرته مازالت تتقبّ وتتبشّ ما حدث في تلك الساعات، قبل ربع قرن. لماذا جرى ذلك؟ لقد كان الحدث بالنسبة إلى مايتا واقعة في حياة فيها ما قبل وما بعد، وكانت فيها أحداث أخرى مثل ذلك الحدث أو أخطر منه. ومن الطبيعي أن تحل هذه الأحداث محل ذاك أو أن تُضعفه.

أقول له:

- هناك مسألة تبدو لي غير مفهومة بصورة خاصة. هل كان ثمة خيانة؟ لماذا اخترى من كانوا ملتزمين معكم؟ هل أعطى الأستاذ أوببيوثر أمراً معاكساً؟ ولماذا فعل ذلك؟ هل بسبب الخوف؟ لأنه كان يرتاد بالمشروع؟ أم أن بايغوس، مثلاً يؤكّد أوببيوثر، هو من قدم موعد الانتفاضة؟

يفكر مايتا بضع ثوانٍ بصمت. ثم يهز كتفيه ويقدم:

- لم يتضح ذلك ولن يتضح أبداً. لقد بدا لي الأمر خيانة في ذلك اليوم. ثم صار أكثر تعقيداً فيما بعد. فأنا لم أكن أعرف مسبقاً موعد الانتفاضة. لقد حددته بايغوس وأوببيوثر بمفردهما، لأسباب أمنية. وقد أكّد الأخير منها دوماً بأن الموعد كان محدداً بعد أربعة أيام وأن بايغوس قد قدمه لأنّه علم بأنهم سينقلونه من موقعه بسبب حادث جرى له مع حزب الأبرистا قبل يومين من ذلك.

مسألة الحادث صحيحة، وهي موثقة في صحيفة صغيرة كانت تصدر في خاواخا في ذلك الحين. فقد كانت هناك مظاهرة للأبرистا في ساحة السلاح، من أجل استقبال هايا دي لاتوري الذي ألقى خطاباً من فوق أدراج مدخل الكاتدرائية. وقد وقف بايغوس، بملابس مدنية، ومعه الأفطس أوببيوثر وجماعة صغيرة من الأصدقاء عند أحد مداخل الساحة، وعندما مرّ الموكب قذفوه بيبيض فاسد. طاردهم جواميس حزب الأبرистا، وبعد محاولة للمناوشة، التجأ بايغوس وأوببيوثر وأصدقاؤهما إلى صالون حلقة السيد إشكيل. هذا هو الشيء الوحيد المثبت. وتقول أطروحة أوببيوثر، وأناس آخرين من خاوacha، إنه تم التعرف على

بأبيخوس من قبل عناصر الأبرистا، وأن هؤلاء تقدموا باحتجاج شديد اللهجة لأن قائد السجن، وهو ضابط في الخدمة الفعلية، قد شارك في عمل ضد اجتماع سياسي مرخص به. ونتيجة لذلك، جرى تحذير بأبيخوس بأنه سيتم نقله من موقعه. ويقال إنه قد استدعي بصورة مستعجلة من قبل قيادته المباشرة في هوانكابيو. فدفعه ذلك إلى تقديم موعد التمرد أربعة أيام، دون أن يُخطر المشاركين الآخرين. ويؤكد أوببيوthat بأنه لم يعلم بتبدل الموعد إلا عندما كان الملازم قد مات والمتمردون قد اعتقلوا.

ويقول لي مايتا:

- كان بيدو لي من قبل أن هذا غير صحيح، وأنهم قد تخاذلوا. ثم لم أعد أعرف شيئاً فيما بعد. لأن بعض الأشخاص الذين كانوا سيشاركون راحوا يصلون، بعد شهور أو سنوات، إلى سجون سيستو والفرونتون ولوريغانانتشو. كانوا يسجّنونهم في قضايا أخرى، قضايا نقابية أو سياسية. وجميعهم كانوا يقسمون إن التمرد قد فاجأهم، وإن أوببيوthat قد اتفق معهم على يوم آخر، وأنه لم يكن هناك أي تخاذل أو تراجع. وأقول لك بصراحة إنني لا أعرف ذلك. فأبيخوس وأبيبيوthat وحدهما من كانوا يعرفان الموعد المقرر. هل قدم بأبيخوس الموعد؟ إنه لم يخبرني. ولكن ذلك ليس مستحيلاً. فقد كان نزقاً ومندفعاً جداً، ويمكن له أن يقدم على مثل هذا الأمر، حتى ولو جازف بالبقاء وحيداً. وهو ما كنا نسميه في ذلك الحين المشيئة.

أهو يعتقد الملازم؟ لا، إنه تعليق متاخر، وحيادي. ويخبرني أنه في تلك الليلة الأولى، عندما جاءت أسرة بأبيخوس لاستلام الجثة،

رفض أبوه أن يسلم عليه. فقد دخل الأب عندما كانوا يحققون معه، فمد له مaita يده ولكن السيد لم يصافحه، بل ونظر إليه بغضب ودموع، وكأنه يحمله مسؤولية كل شيء.

- لست أدرى، ربما هناك شيء من هذا - يكرر - أو ربما هو سوء تفاهم، أعني أنه ربما كان بايغوس واثقاً من أنه سيتلقى دعماً لم يعده أحد به في الحقيقة. ففي المجتمعات التي أخذوني إليها، في ريكاران، حيث اجتمع أوببيوث مع عمال المناجم، جرى الحديث عن الثورة، وكان الجميع يبدون موافقين. ولكن، هل وعدوا بحمل السلاح والخروج إلى الجبال منذ اليوم الأول؟ أنا لم أسمعهم يقولون ذلك. ولكن الأمر بالنسبة إلى بايغوس كان مؤكداً تماماً، ولا يمكن الشك فيه. ربما يكون قد تلقى وعوداً غامضة فقط بدعم معنوي، أو التوايا بالمساعدة من بعيد، على أن يواصل كل منهم حياته المعتادة. أو ربما أنهم قد التزموا، ثم تراجعوا بعد ذلك بسبب الخوف أو لأن الخطة لم تكن مقنعة. لا يمكنني أن أحدد ذلك. الحقيقة أنت لا أعرف.

أسئلة:

- هل شعرت بالندم يوماً لأنك أدخلت نفسك في تلك المغامرة؟
أفترض أنك قد فكرت كثيراً بما جرى وأنت في السجن طوال هذه السنوات.

- الندم هو من شؤون الكاثوليكين. وأنا لم أعد كذلك منذ سنوات طويلة. فالثوريون لا يندمون. إنهم يمارسون النقد الذاتي، وهو أمر مختلف عن الندم. وأنا قمت بإجراء نقدي الذاتي. - يبدو غاضباً، ولكنه يتسم بعد ثوان قليلة: - أنت لا تدرك مدى الغرابة

التي أجدتها في التكلم في السياسة. أشعر كما لو أن شبحاً يعود من أعماق الزمن ليりبني الموتى والأشياء المنسية.

هل تخلى عن الاهتمام بالسياسة في هذه السنوات العشر الأخيرة فقط؟ أم في فترة سجنه السابقة؟ أم عندما اعتقل بسبب قضية خواخاً يبقى صامتاً، مفكراً، محاولاً أن يستجلي ذكرياته. هل نسي ذلك أيضاً؟
ويندم وهو يمسح جبهته:

- لم يخطر لي أن أفكر بذلك سوى الآن. لم يكن الأمر في الواقع قراراً اتخذه. إنه شيء حدث وحسب، شيء فرضته الظروف. تذكر أني عندما ذهبت إلى خواخا للمشاركة في الانتفاضة، كنت قد قطعت صلتي برفاقي، وبحزبي، وبماضي. لقد بقيت وحيداً، أعني من الناحية السياسية. ورفافي الجدد لم تستمر علاقتي بهم سوى بضع ساعات. فبأي خوس مات، وكوندورى مات، وثينون غونزاليس رجع إلى قريته، والفتيان عادوا إلى مدرستهم. هل تلاحظ؟ أنا لم أترك السياسة. من الأصح القول إنها هي التي تركتني.

يقول ذلك بطريقة لا أستطيع معها تصديقه: إنه يقوله بصوت خافت وعينين زائقتين بينما هو يتململ في مقعده. إنني واثق، للمرة الأولى في هذه الليلة، من أنه يكذب. ألم يعد مطلقاً إلى اللقاء مع رفقاء القدماء في حـٰث (ت)؟

- لقد كانوا جيدين في سلوكهم معي حين كنتُ في السجن، بعد قضية خواخا - يهتف -. فقد كانوا يزورونني، ويحملون إلى السجائر، وتحركوا كثيراً من أجل إدراج اسمي في العفو الذي

أصدرته الحكومة الجديدة. ولكن حمعث (ت) انحل بعد وقت قصير، بسبب حركة وادي كونفينشون التي قادها هوغو بلانكو. وعندما خرجت من السجن لم يكن لـ حمعث (ت) ولا حمعث وجود. وكانت قد ظهرت جماعات تروتسكية أخرى أسرّها أناس قادمون من الأرجنتين. ولم أكن أعرف أحداً منهم، كما أني لم أعد أهتم بالسياسة.

ومع نطقه الكلمات الأخيرة ينهض للتبول.

وحين يرجع، أرى أنه قد غسل وجهه كذلك. لا يريد حقاً أن يخرج لنأكل شيئاً؟ فيؤكّد لي أن لا، ويكرر أنه لا يأكل شيئاً على الإطلاق في الليل. بقينا لبعض الوقت غارقين في تأملات خاصة، دون كلام. الصمت ما يزال شاملاً هذه الليلة في كورنيش بارانكو لا وجود فيه إلا لآزواج عشاق صامتين، يحميهم الظلام، وليس هناك أحد من السكارى ومدمّنّي الماريجوانا الذين يتذرون الضجيج في أيام الجمعة والسبت. أقول له إن شخصية روائيّي هو ثوري سراديب، أمضى نصف حياته في التأمّل والتضال ضمن جماعات سياسية صغيرة وغير ذات وزن مثلما كانت جماعته، وأنه يلقي بنفسه إلى مفاجرة خاوية ليس لقناعته بمخططات بايخوس - بل ربما كان يرتتاب باحتمالات النجاح - وإنما لأن الملائم فتح له أبواب العمل المباشر. إمكانية العمل بطريقة محددة، ولأن إحداث تغييرات عملية و مباشرة في الواقع كان يبهره. وأتى تعرّفه إلى ذلك الضابط الشاب المتهور ليكتشف له بأثر رجعي قزمية نشاطاته الثورية السابقة. ولهذا السبب ينغمّس في الانفاضة بالرغم من حده بأنها أقل من الانتحار بقليل.

- هل تتعرف في شيء على مثل هذه الشخصية؟ - أسله - أم أنه ليست لها أي علاقة بك، من حيث الأسباب التي دفعتك للسير مع بايغوس؟

ينظر إلى، مفكراً، وهو يرمش، دون أن يدرى بماذا يجيب.
يرفع الكأس ويشرب بقية المياه الغازية. إن ترددك هو رده.

- هذه الأمور تبدو مستحيلة عندما تتحقق - ويفكر -. أما إذا نجحت فالجميع يرونها متقدة وجيدة التخطيط. خذ مثلاً الثورة الكوبية. كم عدد الذين أبحروا مع فيديل في الزورق غرانما؟ إنهم حفنة. وربما كانوا أقل عدداً منا في ذلك اليوم في خاوشا. ولكن النجاح حالفهم بينما لم يحالينا نحن.

يستفرق في التأمل لحظة، ثم يؤكد :

- أنا لم أر في يوم من الأيام أن العملية كانت جنوناً، ولم تكن انتحاراً كذلك. لقد جرى التفكير في خطتها جيداً. فلو أنها نسخنا جسر مولينوس وأخرنا وصول الشرطة لتمكننا من اجتياز سلسلة الجبال. وبنزولنا إلى الأدغال ما كانوا سيجدوننا. كنا س...

ينطفئ صوته. انعدام القناعة التي يتكلم بها كانت واضحة إلى حد بدا معه كما لو قال إنه لا معنى لمحاولة إقناعي بشيء لا يؤمن هو نفسه به. وبماذا يؤمن الآن زميل دراستي السابق المزعوم؟ فهناك في مدرسة ساليسيانو، قبل نصف قرن، كان يؤمن بالرب إيماناً متأججاً. وفيما بعد، عندما مات الرب في قلبه، آمن بالحمية نفسها بالثورة، وبماركس ولين وتروتسكي. ثم جاءت بعد ذلك أحداث خاوشا، أو ربما قبلها، تلك النضالات الحزبية التافهة، فأضعفت ذلك الإيمان وأماتته. وأي إيمان حل محلها بعد ذلك؟ لا

شيء. ولهذا فإنه يثير انطباعاً بأنه رجل خاوي، بلا افعالات تدعم ما يقوله. وعندما بدأ يسطو على مصارف ويختطف من أجل الحصول على فدية، ألم يعد قادراً على الإيمان بأي شيء سوى الحصول على المال بأي طريقة؟ هنالك شيء في يرفض تقبل ذلك. وخاصة الآن، بينما أنا أتفحصه، بحذائه الثقيل ذاك، وملابسه البائسة؛ وخاصة بعد أن رأيت الطريقة التي يكسب بها الآن لقمة عشه.

أنبهه:

- إذا أنت شئت فلن نتحدث في الموضوع. ولكنني سأقول لك شيئاً على الأقل يا مaita. فأنا أجد صعوبة في فهم أنك بعد خروجك من السجن، بعد قضية خواخا، انهمكتَ في السطو على المصارف واختطاف الناس. هل يمكننا التحدث في هذا الموضوع؟

- لا، في هذه الموضوع لا - يرد فوراً بشيء من القسوة. ولكنه يناقض نفسه حين يضيف: - لم تكن لي أي علاقة بذلك. لقد زيفوا الأدلة، وقدموا شهود زور، وأجبروهم على الشهادة ضدي. لقد أدانوني لأنه كان لابد لهم من إيجاد مذنب، وكانت أنا صاحب سوابق. إن إدانتي هي وصمة عار للقضاء.

وينقطع صوته من جديد، كما لو أن الخمود، والتعب قد سيطرا عليه في هذه اللحظة، وكما لو أنه موقن أنه من غير المجدِي محاولة صرفي عن شيء اكتسب بفعل مرور الزمن تمسكاً لا يمكن دحضه. أتراه يقول الحقيقة؟ أليكون صحيحاً أنه لم يكن ضمن من سطوا على مصرف لافكتوريا، ولم يكن أحد الخاطفين في بويبلو ليبيري؟ أعرفُ جيداً أن هناك أناساً أبرياء في سجون البلاد - ربما بعدد ما هناك من مجرمين خارج السجن،

ممن يتمتعون بالاحترام والتقدير - وليس من المستحيل أن يستخدم مايتا، بفعل سوابقه، كبس فداء للقضاء والشرطة. ولكنني ألحظ في الرجل الجالس قبالي حالة من اللامبالاة، من عدم الاهتمام الأخلاقي، وربما من الصفاقة، فلا يبدو لي مستحيلاً كذلك عدم تواطئه في أسوأ الجرائم.

أقول له بعد قليل:

- بطل روايتي شاذ جنسياً.

فيرفع رأسه وكأن دبوراً قد لسعه. ويأخذ الاستياء بتشويه ملامح وجهه. إنه جالس على مقعد منخفض ذي مسند عريض، وهو يبدو الآن فعلاً في الستين من عمره أو أكثر. أراه يشد ساقيه ويفرك كفيه متوتراً، ثم يسألني أخيراً:

- لماذا؟

لقد فاجاني: أتراني أعرف السبب؟ ولكنني أرتجل له تفسيراً: - من أجل التشديد على هامشيتها، ووضعه كرجل يغض بالتفاوضات. وكذلك من أجل إظهار الأحكام المسقبة حول هذه القضايا بين من يفترض فيهم أن يحرروا المجتمع من عيوبه. حسن، ولست أعرف بدقة لماذا هو كذلك.

تزداد حدة ملامح استيائه. أراه يمد يده، يمسك كأس الماء التي كان قد وضعها فوق بعض الكتب، يداعبها بيده، وحين يتتبه إلى أنها فارغة، يعيدها إلى مكانها. ثم يدمدم بعد لحظة من الصمت:

- لم تكن لدى أحكام مسبقة ضد أي شيء على الإطلاق. أما بشأن المخنثين، فأظن أن لدى شيئاً منها. بعد أن رأيتمهم في سجنـ

سيستو والفرونتون. ولكنهم أسوأ بكثير في سجن لوريفانتشو.
ظل ساهماً للحظة. وكانت تكشيرة الاستياء تخف، ولكن دون أن تختفي تماماً. ليس هناك ظل من الشفقة في ما ي قوله:
- كانوا ينزعون شعر حواجهم، ويلفون رموشهم ويحلونها بثقب محروق، ويطلون أفواههم، ويرتدون تنانير، ويبتدعون باروكةات شعر، ويسمحون للقوادين بأن يستغلوهم مثل المومسات. كيف لا يتقيأ المرء. لا أكاد أصدق أنه يمكن للكائن البشري أن ينحط إلى هذا الدرك. مخنثون مستعدون لمحض عضو أي شخص مقابل عقب سيجارة... - يزفر، وقد امتلأت رقبته بالعرق من جديد. ثم يضيف وهو يضغط على أسنانه: - يقال إن ما وتسى تونغ قد رمى بالرصاص كل المخنثين الذين كانوا في الصين. هل هذا صحيح؟ ينهض من جديد ليذهب إلى الحمام وبينما أنا أنتظر عودته، أطلع من النافذة. في سماء ليما الضبابية على الدوام تقريباً، تظهر النجوم هذه الليلة، بعضها ساكنة وبعضها تطلق شرراً فوق هذه اللطخة السوداء التي يشكلها البحر. ويخطر لي أن مايتا عندما كان هناك في لوريفانتشو، في ليال مثل هذه الليلة، كان يتأمل النجوم المتلائمة وهو منوم، فيرى مشهدًا نظيفاً، هادئاً، وقولاً: إنه التف ipsus الدرامي للانحطاط العنيف الذي يعيش فيه. عندما رجع قال لي إنه يتحسر لأنه لم يسافر قط إلى الخارج. لقد كان يراوده حلم كبير في كل مرة يخرج فيها من السجن: أن يسافر، وبيداً من الصفر في بلاد أخرى. حاول ذلك بكل السبل، ولكن الأمر كان صعباً جداً: لعدم وجود النقود، أو الوثائق النظامية، أو الأمرين كليهما. لقد وصل في إحدى المرات حتى

الحدود في حافلة كانت ستوصله إلى فنزويلا، ولكنهم أنزلوه في مركز جمارك الإكوادور، لأن جواز سفره لم يكن نظامياً.

- لم أفقد الأمل في السفر على أي حال - همهم -. لقد صار الأمر أصعب بوجود أسرة كبيرة. ولكن الذهاب إلى الخارج هو أكثر ما يعجبني. فهنا لا يوجد أمل بالعمل، ولا بأي شيء. لا يوجد. أينما تلتف أحدها، لا يجد شيئاً ببساطة. ولهذا لم أفقد الأمل بالسفر. وأفكّر: ولكنك فقدت الأمل بالبيرو. فقدته بالكامل ونهائياً، أليس كذلك يا مaita؟ أنت يا من كنت تؤمن كثيراً، كنت ترغب في الإيمان بمستقبل لبلادك التعيسة. لقد أقيمت السلاح، أليس كذلك؟ إنك تفكّر، أو تتصرف كما لو أنك تفكّر، بأن هذه البلاد لن تتبدل مطلقاً نحو الأفضل، وإنما نحو الأسوأ فقط. مزيد من الجوع.. مزيد من الحقد.. مزيد من القمع.. مزيد من الجهل.. مزيد من الوحشية.. مزيد من البربرية. وأنت أيضاً، مثل كثيرين غيرك، لم تعد تفكّر الآن إلا بالهرب قبل أن نفرق نهائياً.

- إلى فنزويلا، أو إلى المكسيك، حيث يقولون إن هناك عملاً كثيراً بسبب البترول. بل وإلى الولايات المتحدة، مع أنا لا أتكلّم الإنكليزية. هذا هو ما أرغب فيه.

وينحبس صوته من جديد، بسبب افتقاره إلى القناعة بما يقوله. وأنا أيضاً أفقد بعض الشيء في هذه اللحظة اهتمامي بالمحادثة. أعرف أنني لن أحصل من زميل دراستي المزيف على أكثر مما حصلت عليه حتى الآن: اليقين الكئيب بأنه رجل محطم بالعذاب والحدق، وأنه قد فقد حتى ذكرياته. وإنه، باختصار، شخص مختلف جوهرياً عن مايتا روائي، عن ذلك التفاؤل العنيد، عن رجل

الإيمان ذاك الذي يحب الحياة على الرغم مما فيها من رعب وبؤس.
أشعر بعدم الراحة، وبأنني أستغله، وأستبقيه هنا - الوقت يقترب
من منتصف الليل - من أجل محادثة لا أتوقع منها نتيجة. لا بد أنه
يشعر بالغم من هذا النبش في الذكريات، وهذا الذهاب والإياب
من مكتبي إلى الحمام، وهذا التبدل في روتينه اليومي الذي
أتصوره رتيبةً، حيوانياً.

- لقد جعلتك تطيل السهر كثيراً - أقول له.

- الحقيقة أنني أنام باكراً - يرد براحة وهو يشكرني بابتسامة
تضع نقطة الختام لمحادثتنا، ويتابع قائلاً: - مع أنني أنام قليلاً،
تكلفني أربع أو خمس ساعات. أما في صباي بالمقابل، فكنت
محباً للنوم.

نهض، نخرج، وعندما نصير في الشارع يسألني من أين يمر
الامبوس الذي يصل إلى مركز المدينة. وعندما أقول له إنني
سأوصله، يتمتم بأنه يكفي أن أقربه قليلاً. وأنه يمكنه أن
يركب ميكروباصاً من شارع ريماك.

ليس هناك حركة مرور تقريراً في جادة اكسبريسا. رذاذ
خفيف جداً يليل زجاج السيارة. وحتى الوصول إلى شارع خابير
برادو لا نتبادل إلا بضع عبارات متقطعة، حول الجفاف في جنوب
البلاد والفيضانات في شمالها. وحول المشاكل على الحدود.
وعندما نصل إلى الجسر، يهمس باززعاج واضح أنه مضطر إلى
النزول قليلاً. أوقف السيارة، فينزل ويتبول بجانب السيارة،
مستراً بالباب. وحين يعود، يتلعم بأن مشكلة كلتيه تزداد حدة
في الليل، بسبب الرطوبة. هل ذهب إلى الطبيب؟ وهل يتبع علاجاً

ما؟ إنه يحاول أولاً أن يرتب أمر ضمانه الصحي؛ وعندما يحصل عليه قريباً سينذهب إلى مستشفى إيمبليادو ليفحصوه، مع أن الأمر كما يبدو صار مزمناً، ولن يكون بالإمكان علاجه.
نبقى صامتين حتى ساحة غراو. وهناك أسمعه يقول فجأة،
كما لو أن شخصاً آخر هو الذي يتكلم:

- الحقيقة أنه وقعت عمليتا سطو. قبل عملية لافكتوريا تلك التي حبسوني من أجلها. ما قلته لك هو الحقيقة: ولم تكن لي أي علاقة كذلك بعملية الاختطاف في بوبيلو ليري. بل إنني لم أكن موجوداً في ليماسينذاك، وإنما كنت في باكاسمايو، في مسعى للعمل.

يضمرت. لا أستعجله.. لا أسأله شيئاً. أقود السيارة ببطء شديد، منتظرًا أن يحسّ أمره ويواصل الكلام، وخائفاً من ألا يفعل ذلك. لقد فوجئت بالانفعال الذي في صوته، والنفس الذي لا يمكنني أن أخطئه. شوارع مركز المدينة مظلمة ومقرفة. والضجة الوحيدة هي ضجة محرك السيارة.

- حدث ذلك لدى خروجي من السجن، بعد قضية خاوشا، بعد تلك السنوات الأربع التي أمضيتها داخلاً - يتكلم وهو ينظر إلى الأمام .. هل تتذكر ما كان يحدث في وادي كونفينشون، هناك في كوسكوا؟ لقد كان هوغو بلانكو قد نظم الفلاحين في نقابات، وقاد عدة تحركات للاستيلاء على الأراضي. لقد كان عملاً مهماً، و مختلفاً تماماً عن كل ما كان يقوم به اليسار. وكان لا بد لنا من تقديم الدعم، وألا نسمح بأن يحدث لهم مثماً حدث لنا في خاوشا.

أوقف السيارة عند إشارة مرور حمراء، في جادة آبانكايا، فيتوقف هو أيضاً عن الكلام. أشعر كما لو أن الشخص الذي إلى جانبي مختلف عن ذاك الذي كان قبل قليل في مكتبي ومختلف عن مايتا قصتي. إنه مايتا ثالث، متالم، تعيس، ولم يصب ذاكرته أي عطب.

- هكذا حاولنا أن ندعمهم بالمال - يقول مدمداً - فخططنا لعملية مصادرة. لقد كانت هذه هي أفضل وسيلة لتقديم الدعم في ذلك الحين.

لا أسأله مع من اتفق للسطو على المصرفين؛ وما إذا كان قد فعل ذلك مع رفاقه القدماء في حي عـ (ت) أم مع حـ عـ ثـ الآخر، أم مع ثوريـن تعرف عليهم في السجن أم مع أناـسـ آخـرـينـ.ـ فـفيـ تـلكـ الفـترةـ -ـ بـدـاـيـةـ السـتـيـنـاتـ -ـ كـانـتـ فـكـرـةـ العـمـلـ المـبـاـشـرـ تـبعـقـ فيـ الـهـوـاءـ وـكـانـتـ هـنـاكـ أـعـدـادـ مـنـ الشـبـابـ،ـ إـذـاـ لمـ يـعـمـلـواـ بـهـذـهـ الطـرـيـقـةـ،ـ فـإـنـهـمـ يـتـكـلـمـونـ عـلـىـ الأـقـلـ لـيـلـاـ وـنـهـارـاـ عـنـ تـوـجـهـهـمـ لـلـعـمـلـ.ـ وـلـاـ بـدـ أـنـ مـاـيـاـ لـمـ يـجـدـ صـعـوبـةـ فـيـ الـاتـصـالـ بـهـمـ،ـ وـمـلـئـهـمـ بـالـأـوـهـامـ،ـ وـقـيـادـهـمـ فـيـ عـمـلـ مـقـدـسـ يـسـمـونـهـ تـسـامـحـاـ بـالـمـصـادـرـ.ـ وـلـاـ بـدـ أـنـ مـاـ جـرـىـ فـيـ خـاـوـخـاـ قـدـ أـكـسـبـهـ شـيـئـاـ مـنـ السـمـعـةـ فـيـ أـوـسـاطـ الـجـمـاعـاتـ الرـادـيـكـالـيـةـ.ـ وـلـاـ أـسـأـلـهـ كـذـلـكـ عـماـ إـذـاـ كـانـ هـوـ نـفـسـهـ الـعـقـلـ المـدـبـرـ لـتـلـكـ الـهـجـمـاتـ.

ويضيف قائلاً:

- سارت الخطة في العمليتين بدقة الساعة. لم تجر اعتقالات ولم يسقط جرحى. وقد نفذناهما في يومين متتاليين، وفي مكانين مختلفين في ليما. صادرنا... هناك تردد قصير، قبل أن ينطق الصيغة المتهربة - ... عدة ملايين.

يصمت مرة أخرى. لا لاحظ أنه يركز بعمق، باحثاً عن الكلمات المناسبة لما يجب أن يكون أصعب ما سيرويه. إننا قبالة ساحة أتشو، هناك ظلال ضخمة متشحة بالضباب. من أين أوائل الطريق؟ أجل، سأوصلك حتى بيتك. فيشير لي باتجاه ثاراتي. إنه لتقاض مرير أن يعيش الآن وقد صار حراً في منطقة قريبة من سجن لوريغانتشو. الطريق هنا هو متوايلية من الحفر والبرك والقمامة. السيارة تهتز وتقوم بطرقات.

- وبما أنه كانت لي صحيفة سوابق فقد اتفقنا على ألا أحمل النقود بنفسي إلى كوسكو. حيث سنسلمها هناك إلى جماعة هوغو بلانكو. وكعمل احتياطي أولي، قررنا أن أذهب أنا فيما بعد، منفصلًا عن الآخرين. وقد سافر الرفاق في جماعتين. وأنا نفسي ساعدتهم في السفر. جماعة في سيارة شحن، وجماعة أخرى في سيارة مستأجرة.

يعود إلى الصمت ويستهل. ثم يضيف بسرعة، بنبرة جفاء ورصيد من السخرية:

- وبعد ذلك مباشرة اعتقلتني الشرطة. ليس بسبب عمليتي المصادرية. وإنما بسبب الهجوم في لافكتوريا الذي لم أكن مشاركاً فيه، ولم أكن أعرف عنه أي شيء. وفكرت: يا للصادفات. يا لهذا التوافق. وفكرت أيضاً: يا للروعة، فللأمر جانبه الإيجابي. سينشغلون بي، وستتعقد أمورهم. ولن يربطوا مطلقاً بيني وبين عمليتي المصادرية. ولكن لا، لم يكن الأمر توافقاً ومصادفة...
وفجأة عرفت ما الذي سيخبرني به، أدركت بدقة تامة أين ستنتهي قصته.

- لم أفهم الأمر بوضوح إلا بعد سنوات من ذلك. ربما لأنني لم أ שא أن أفهمه - يتذاءب بوجهه محققاً، ويُمضغ شيئاً - . بل إنني رأيت في أحد الأيام وأنا في لوريغانتشو منشوراً مكتوباً بخط اليد أصدرته لا أدرى أي فئة شبحية، وهاجمتني فيه. كانوا يتهمونني باللص، ويقولون إنني استوليت على مبلغ لا أدرى مقداره من النقود في عملية السطو على مصرف لافكتوريا. لم أول الأمر اهتماماً، وظننت أنها واحدة من تلك النذالات المعهودة في الحياة السياسية. وعندما خرجت من لوريغانتشو، بريئاً من عملية لافكتوريا، كان قد مضى ثمانية عشر شهراً. فرحت أبحث عن الرفاق الذين شاركوا في عمليتي المصادرية. لأنهم لم يوصلوا إلى طوال تلك المدة ولو رسالة واحدة، ولأنهم لم يتصلوا بي. وأخيراً وجدت واحداً منهم. وتحدثا.

يبتسم فاتحاً فمه ذا الأسنان غير المكتملة. لقد توقف الرذاذ الآن ومن خلال مخروط ضوء السيارة يظهر تراب، أحجار، فضلات، وحواف بيوت بائسة.

فأسأله:

- وهل أخبرك بأن النقود لم تصل مطلقاً إلى هوغو بلانك؟
فيقول مايتا:

- لقد أقسم لي إنه قد عارض، وإنه حاول إقناع الآخرين بـألا يقدموا على دناءة كتلك. وروى لي كومة من الأكاذيب وألقى بتبعه كل شيء على الآخرين. طلب منهم أن يستشிரوني فيما سيفعلونه. فلم يوافق الآخرون على حد قوله. وادعى بأنهم قالوا له: «مايتا متغصب. إنه لا يفهم، وهو شديد الاستقامة ولا يصلح لهذه

الأمور». ومن بين الأكاذيب التي أخبرني بها يمكن استخلاص بعض الحقائق.

يتهد ويرجوني أن أتوقف. وبينما أنا أراه بجانب باب السيارة، يفك ثم يزrer بنطاله، أتساءل عما إذا كان ممكناً تسمية مايتا الذي استخدمته كنموذج «متعصباً»، وإذا ما كان مايتا قصتي متعصباً. أجل، كلاهما متعصب. مع أنهما قد لا يكونان متعصبين بالطريقة نفسها.

ويقول بنعومة بعد أن رجع إلى جانبي:

- صحيح. أنا ما كنت سأفهم. صحيح. كنت سأقول لهم: أموال الثورة تحرق الأيدي. لا تلاحظون بأنكم إذا احتفظتم بالنقود فستخلون عن كونكم ثواراً وتتحولون إلى مجرد لصوص؟ يتهد من جديد، بعمق. إنني أمضى ببطء شديد، في شارع مظلم، تظهر على جانبيه أحياناً أسر كاملة تقام في العراء، مغطاة بجرائد. وترجع كلاب قذرة ضامرة وتتبع، عيونها تتلألق بانعكاس أضواء السيارة عليها.

ويكرر:

- لم أكن لأتركهم يفعلون ذلك بالطبع. ولهذا السبب وشوا بي، ولهذا السبب اتهموني بعملية السطو على مصرف لافكتوريا. كانوا يعرفون بأنني لن أتورع عن إطلاق النار عليهم قبل السماح لهم بفعل ذلك. وقد أصابوا عصفورين بحجر واحد حين وشوا بي. فقد تخلصوا مني ووجدت الشرطة مذنبأ. وكانوا يعرفون أنني لن أشي برفاق كنت أظن أنهم عرّضوا حياتهم للخطر من أجل أن يوصلوا حصيلة المصادرتين إلى هوغو بلانكيو. وعندما عرفت

التهمة التي يوجهونها إلى في التحقيق، قلت لنفسي: «تمام، إنهم لا يشمون الحقيقة». ورحت أضلالهم لبعض الوقت. وكنت أظن بأن الحظ قد حالفنا.

يضحك ببطء، وبوجه جديّ. ثم يصمت ويختبر لي بأنه لن يضيف أي شيء آخر. وأنا لم أعد بحاجة لأن يقول أي شيء كذلك. إذا كان ما قاله صحيحاً، فإننا أعرف الآن ما الذي حطمه، أعرف الآن لماذا صار إلى الشبح الجالس بجانبي. لم يكن السبب هو الإخفاق في خاوحا، ولا قضاء كل هذه السنوات في السجن، بل ولا التكفير عن جرائم ارتكبها آخرون. ما حطمه بكل تأكيد هو اكتشافه أن عمليتي المصادرية لم تكونوا إلا عمليتي سطو، واكتشافه أنه - حسب فلسفته الخاصة - قد تصرف ك مجرم عادي. أم لأنه كان ساذجاً وأحمق أمام رفاق أقل منه عمراً في سنوات النضال وفي السجون؟ أكان هذا هو ما خيب أمله بالثورة، وما جعل منه هذه النسخة المصنعة من شخصيته بالذات؟

ويقول:

- لقد فكرت لبعض الوقت في البحث عنهم، واحداً فواحداً، ومعاقبتهم.

فأقاطعه:

- مثلاً في رواية الكونت دي مونت كريستو. هل قرأت هذه الرواية يوماً؟

ولكن مايتا لا يسمعني، ويواصل:

- ولكن الغضب والحقد انزاحاً عنِّي فيما بعد. ويمكن أن نقول إذا شئت إنني قد غفرت لهم. لأن أحوالهم جميعاً حسب ما

بلغني كانت سيئة مثل حالي وربما أسوأ. باستثناء واحد منهم،
وصل إلى أن يكون نائباً برلمانياً.

يضحك ضحكة مريرة قبل أن يصمت.

وأفكر: ليس صحيحاً أنك قد غفرت لهم. بل إنك لم تغفر لنفسك أيضاً ما جرى. هل يتوجب عليَّ أن أطلب منه أسماء، وتفاصيل محددة، وأن أحاول الحصول منه على المزيد؟ ولكن التشويش الذي سببه لي كان استثنائياً، وربما سيندم على ضعفه إذا ما ألحقت عليه. وأفكر بما كان يدور همساً ما بين الأسلاك والإسمنت في لوريفانتشو، وبالسخرية التي كان هدفاً لها. ولكن، ماذا لو كان هذا الذي رواه لي مجرد مبالغة ومحض أكاذيب؟ ألا يمكن أن يكون كل ذلك مجرد تمثيلية مدبرة لتبرئة نفسه من أمر يسبب له الخجل؟ أنظر إليه بطرف عيني. إنه يتشاءب ويتمطى، كما لو أنه يشعر بالبرد. وعند تفرع الطريق بمفترق يؤدي إلى لوريفانتشو، يشير إلى بأن أوائل قدمًا. ينتهي إسفلت الطريق الذي يمتد في أثر ترابي يتلاشى في أرض مقفرة.

- إلى الأمام قليلاً توجد القرية الفتية التي أعيش فيها - يقول لي - إنني أمشي حتى هنا كل يوم لأركب الامنبوس. هل تتذكر

الطريق لتمكن من الرجوع حين توصلني الآن؟

أؤكد له أنني أتذكر الطريق. أرغب في أن أسأله كم يكب في محل المثلجات، وكم يذهب من أجراه في الامنبوسات، وكيف يوزع ما تبقى لديه. وإذا ما كان قد حاول الحصول على عمل آخر، وإذا ما كان يرغب في أن أساعده، في أن أقوم بمسعى من أجله. ولكن الأسئلة كلها تموت في حنجرتي.

وأسمعه يقول:

- لقد قيل في إحدى الفترات إن هناك إمكانات للعمل في الأدغال. وكنت أفكر في هذا الأمر أيضاً. فإذا كان السفر إلى الخارج صعباً، فربما أذهب إلى بوكايبا أو إلى إيكيتوس. وقد قيل إن هناك شركات أخشاب، ويترون، وإمكانات للعمل. ولكنه مجرد كلام. فالأمور في الأدغال مثلما هي الأمور هنا. في هذه القرية الفتية يوجد أناس رجعوا من بوكايبا. الحال هي نفسها. ومهربو الكوكايين وحدهم هم الذين يجدون عملاً هناك.

بدأنا نخرج الآن من الأرض الخلاء، وبدأت تظهر في الظلام كتل من الظلال المبتورة المشوهة: إنها بيوت. بيوت من الطين، والتوياء، والخشب، والحصار، وكلها تعطي انطباعاً بأنها لم تكتمل، وأن العمل في بناها قد توقف عندما بدأت تتعذش شكلًا. لا يوجد إسفلت ولا دروب، ولا يوجد نور كهربائي، وليس هناك بالطبع ماء ولا مجاري.

أقول له:

- لم أصل إلى هنا قط. كم كبير هو هذا الحي.
- هناك، إلى اليسار، تظهر أنوار لوريغانتشو - يقول لي مايتا بينما هو يقودني في وعورة الحي، ويضيف: - لقد كانت زوجتي من مؤسسي هذه القرية الفتية. قبل ثمانية أعوام. شاركت في إنشائها مئتا أسرة تقريباً. جاؤوا في الليل، في جماعات، دون أن يراهم أحد. وعملوا حتى الفجر في غرس الأعمدة وشد الحبال، وفي صباح اليوم التالي، عندما جاءت الشرطة، كان الحي قائماً. ولم تكن هناك طريقة لإخراجهم.

– أي أنك لم تكن تعرف بيتك عندما خرجم من سجن لوريغانتشو.

يقول لي «لا» بهز رأسه. ويروي لي أنه في يوم خروجه، بعد إحدى عشرة سنة تقريباً، وجد نفسه وحيداً يمشي عبر الأرض الخلاء التي اجتنناها للتو، وكان يبعد عنه الكلاب التي تريد أن تعشه برميها بالحجارة. وحين وصل إلى أول البيوت بدأ يسأل: «أين تسكن السيدة مايتا؟» وهكذا وصل إلى بيته وقدم مفاجأة إلى أسرته.

إننا قبلة بيته، وقد حضرتُ البيت في مخروط ضوء السيارة. الواجهة مبنية بالأجر، والحائط الجانبي كذلك، أما السقف فلم ينته بعد، إنه توبياء غير مثبت نهائياً، وما يمنعه من الحركة هي أكواخ صغيرة من الحجارة منضدة فوقه بفواصل متقاربة. أما الباب فهو لوح خشبي، مثبت إلى الجدار بمسامير وقطع حبال.

– إننا نناضل الآن من أجل إيصال الماء – يقول مايتا – فلماه هو المشكلة الكبرى هنا. ومن أجل حل للزيارة أيضاً. هل أنت متأكد من أنك تستطيع الوصول إلى الطريق الإسفلتي؟

أؤكد له أنني أستطيع ذلك، وأقول له إنني سأحضر للقاء به بعد بعض الوقت، إذا كان ذلك لا يضايقه، لكي نتحدث ويخبرني ببعض الأشياء الأخرى عن قصة خاوشا. فربما تستعيد ذاكرته بعض التفاصيل. فيوافق وأودعه بمصافحة يشد فيها كل منا على يد الآخر.

لا أجد صعوبة في الخروج ثانية إلى الطريق الثابتة التي تؤدي إلى ثاراتي. أفعل ذلك ببطء، متوقفاً لتأمل الفقر، والقبح،

والخدلان، واليأس الذي ينضح من هذه القرية الفتية التي أجهل اسمها. ليس هناك أحد في الشارع، ولا وجود حتى لأي حيوان. وبالفعل، فإن أكواخ الزبالة تراكم في كل مكان. يخيل إليّ أن الناس يكتفون بإلقاءها من بيوتهم بإذعان، وهم يعرفون أنه ليس بإمكانهم عمل شيء، وأنه لن تأتي أي شاحنة بلدية لجمع تلك القمامات، وليس لديهم حماسة للاتفاق مع الجيران الآخرين وحمل القمامات إلى مكان أبعد، إلى تلك الأرض الخلاء، أو دفنها أو حرقها. لقد استسلموا للواقع أيضاً وألقوا أسلحتهم. أتصور ما يكشف عنه ضوء النهار، فمن المؤكد أن أهرامات الفضلات المتراكمة قبلة الأكواخ، حيث يحوم أطفال الجوار دون شك، تمع بالذباب والصراصير والفتران، وبما لا حصر له من الهوام. وأفكر بالأوبئة، بالنثانية، وبالليبيات المبكرة.

وكنت ما أزال أفكّر بالقمامات التي في حي مaita الهاشي عندما لاحت، إلى يسارِي، هيكل سجن لوريغانانتشو، وتذكرت السجينين المجنون والعاري الذي كان ينام فوق المزيلة الهائلة، قبلة العناير ذات الأرقام الفردية. وبعد ذلك بقليل، عندما اجتازت شارع ثاراتي وساحة اتشو، وأصبحت في جادة آبانكايا، في الطريق المستقيم الذي سيوصلني إلى شارع اكسبريسا، وإلى سان إيسيدور وميرافلوريس وبارانكو، تخيلت مسبقاً كورنيش الحي الذي حالفني الحظ بالسكن فيه، والمزيلة التي يكتشفها المرء - سأراها غداً، عندما أخرج للجري - إذا ما مدد رقبته وأطل من حافة الكورنيش.. المزابل التي تحولت إليها تلك الشرفات الصخرية

المطلة على البحر. وأتذكر عندئذ أنني بدأت تخيل هذه القصة منذ سنة بذكر الزيارة، مثلاً أنهيَّا الآن بذكر الزيارة التي راحت تغزو أحيا عاصمة بيرو.



قصة مایتا

تمثل قصة مایتا توجهاً جديداً في أعمال بارغاس يوسا ، فنحن نرى الروائي الببروي نفسه شخصيةً شارك في كتابة الرواية التي نقرؤها وتطور مسارها ، فشخصية الروائي التي تجمع شهادات تشكل بنية الرواية ، يكشف لنا في النهاية أن الواقع الحقيقة مختلفة تماماً ، وأشد فقرًا بكثير من التخييل الروائي . مؤكداً بذلك مقوله أنه يمكن للرواية أن تكون أكثر غنى وإقناعاً من التاريخ.

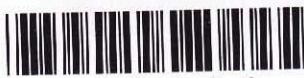
فهي بلاد منكوبة تتعرض لغزو خارجي ، وتتردى في أوضاع اجتماعية واقتصادية بائسة ، وتطغى عليها ظلمة المجهول ، يسعى الروائي - من خلال شهادات متعددة - إلى إعادة بناء قصة مناضل ثوري يدعى إلخاندرو مایتا ، بطل محاولة ثورية محبطه في العام ١٩٥٨ ، وسجين بعد ذلك عدة مرات في ظروف ملتبسة . وفي نهاية ذلك التقسي الطويل ، تأتي المواجهة مع الواقع لتضع هذه القصة الكيخوتية في مكانها الدقيق . إنها رؤية مريرة وترأجيكو ميدية الحالات التطرف الثوري والاخرين إلى الملائم .

قصة مایتا

رواية A4

S.P450

كتاب
الرّومان



1 4 9 4 3 1

علي مولا